الفلسطينيون الجدد

الجيل الناشئ من القادة

جون والاش و جانيت والاش

Bibliotheca Alexandrina
0116442

ترجمة: هيثم علي حجازي

الأهلية

956.0569

الفلسطينيون الجدد

الجيل الناشئ من القادة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

الأهلية
للنشر والتوزيع

المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٦٣٨٦٨٨
فاكس ٦٥٧٤٤٥

18316

الفلسطينيون الجدد

الجيل الناشئ من القادة

جون والاش و جانيت والاش

ترجمة: هيثم علي حجازي

الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية
رقم التصنيف ....
رقم التسجيل ٣٩٩٩٥

الأهلية للنشر والتوزيع

المؤلـف : جـون والاش
جانيت والاش
المترجم : هيثم علي حجازي
الطبعة : الاولى ١٩٩٤
الناشر : الاهلية للنشر والتوزيع/عمان
هاتف ٦٣٨٦٨٨
ص.ب ٧٧٧٢
فاكس ٦٥٧٤٤٥

كـافة الحقوق محفوظة ، ولا يجوز تصوير هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تحويله الى شكل الكتروني ، او اعادة انتاجه بأي شكل كان الا بإذن مسبق من الناشر .

ويجوز الاقتـبـاس من الكتـاب لغـايات الدراسة والبحث العلمي شريطة الاشارة الى المصدر .

الآراء الواردة في هذا الكتـاب لا تعبر عن رأي الناشر أو المترجم

المحتـــــويات

مقدمـــــة ٩
حنان ميخائيل عشراوي ١٧
فيصل الحسيني ٥٩
سري نسيبة ١٠٥
زهيرة كمال ١٢٩
زياد أبو زياد ١٥٣
سامي الكيلاني ١٧٧
ممدوح عكر ٢٠٣
سامح كنعان ٢٢٧
عبد العزيز الرنتيسي ٢٤٧
رياض المالكي ٢٧٧
غسان الخطيب ٣٠٣
رضوان أبو عياش ٣٣١

الفلسطينيون الجُدُد

مقدمــة

حينما كتبنا عام ١٩٨٨ كتابنا الأول الذي يحمل عنوان (أصوات ما تزال خفيضة) كانت أصوات الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة ما تزال فعلاً خفيضة وقد كانت كذلك بسبب من الاسرائيليين والعرب على حد سواء . وكل ما كان يُسمع آنذاك هو ذلك الضجيج الصاخب للتطرف ، وصرخات صفارات سيارات الاسعاف التي تندب ضحايا الانتفاضة : الثورة الفلسطينية ضد الاحتلال الاسرائيلي . ولم تكن منظمة التحرير الفلسطينية قد اعترفت بعد بحق اسرائيل في الوجود ، كما أنها (المنظمة) لم تكن قد اعلنت تخليها عن استخدام الارهاب كسلاح ضد الدولة اليهودية . وعلى الرغم من حقيقة أن فلسطينيي (الداخل) هم الذين كانوا يقاتلون ويموتون في الانتفاضة ضد الحكم الاسرائيلي ، فان بضعة من هؤلاء الفلسطينيين برزوا كقادة سياسيين . كذلك ، فان الحكومة اليمينية في اسرائيل كان تصم آذانها عن الاستماع الى أصوات معاناة الفلسطينيين وصرخاتهم الغاضبة . وبدا العالم الخارجي كله منهمكا ومستغرقا في التفكير في الانهيار الشيوعي ، وتحطم الاتحاد السوفييتي وامبراطوريته في اوروبا الشرقية .

لقد تغير الكثير منذ ربيع عام ١٩٨٨ ، ولكن الناس الذين كتبنا عنهم ـ أعني فلسطينيي «الداخل» الذين كانوا يعبرون عن مطالبهم للاعتراف بالفلسطينيين كشعب ـ بقوا الى حد بعيد على ما كانوا عليه : جيل قادة من ذوي الثقافة العالية ، بعيدون عن التعصب الديني بشكل عام ، وعلى استعداد تام لقبول بقاء الدولة اليهودية شريطة أن يعطى الفلسطينيون الفرصة لتحقيق استقلالهم وإقامة دولتهم . ولكن حتى تاريخ انعقاد مؤتمر مدريد للسلام في شهر تشرين الأول من عام ١٩٩١ لم يكن العالم يعطي الكثير من الاهتمام لهؤلاء الفلسطينيين . فالصورة الفظة لحرب العصابات ، والوجه المغطى بالكوفية والقبضة الممسكة بقنبلة يدوية ، حجبت حقيقة وجود جيل ناشىء اكثر اعتدالاً ، وبراغماتية ، بل وحتى جيل من الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة مؤيد للغرب . ان مُشاهِد التلفزيون رأى ويرى المواجهات اليومية المتكررة بين الشبان الفلسطينيين وامثالهم من الاسرائيليين المدججين بالسلاح .

كان مؤتمر مدريد نقطة التحول كما أشارت صحيفة الواشنطن بوست : فعوضاً عن ارتداء البزة المموهة وأحزمة المسدسات ، رأى العالم الفلسطينيين يرتدون البذلات الرسمية ومعهم الكمبيوترات المحمولة ؛ وعوضاً عن التحدث بنبرات صوتية متقطعة يستخدمها الارهابيون ، فانهم تكلموا بنبرة بريطانية مستخدمين النبرات التي تعلموها في جامعة اكسيتر وجامعة ايتون بالاضافة الى جامعاتهم في الضفة الغربية وقطاع غزة . وعلى الرغم من ان هذه الاصوات كانت هنا وهناك لفترة تزيد على الحقبة ، فانها سمعت لاول مرة في مدريد تتحدث عن نفسها بصوت عال ، وبعقلانية ، وببلاغة . ورسم فيصل الحسيني ، حيدر عبد الشافي وحنان عشراوي بشكل مؤثر صورة لشعبهم تبعث على الشفقة ، وبحيث اصبح من المستحيل على العالم أن يتجاهلها .

وفي كتاب (الفلسطينيون الجدد) نلقي نظرة أقرب على جيل القادة هذا ، وهو جيل لديه الكثير ، الامر الذي يجعله فريدا فعلاً . انه جيل وصل الى مرحلة النضج السياسي تحت الاحتلال الاسرائيلي . وعلى المرء ان يفكر فقط في النفي الاجباري لمئات الآلاف من الفلسطينيين من الكويت بعد حرب الخليج : لقد كانوا المهندسين المعماريين ، وعمال البناء الذين حولوا صحراء بدائية الى واحات يانعة لمجتمع معاصر .

في حزيران ١٩٩٢ سجل فلسطينيو الضفة الغربية وقطاع غزة نهاية عصر تمثل في ربع قرن من الحياة تحت الحكم الاسرائيلي . وهم لم يعرفوا أي محتل آخر تركياً كان أم بريطانياً ، ولا حتى غير ذلك ، بل شاهدوا عمليات الضرب الاسرائيلية المتكررة ، وقتل جيرانهم ، وهدم بيوتهم بالجرافات ، والفقدان المستمر لأراضيهم لصالح المستوطنين الاسرائيليين . ولكنهم أيضاً رأوا نظاما ديمقراطيا داخل اسرائيل يتوق الى المساواة وحقوق الانسان . فمع عبور اكثر من مائة الف فلسطيني «الخط الأخضر» كل يوم للعمل داخل اسرائيل ، كانوا يرون مشهدا فذاً لمجتمع يحاول احترام حقوق أقلياته بما فيهم تسعمائة الف عربي يعيشون في اسرائيل . ولقد أعطى ذلك الفلسطينيين منظورا جديدا لحياتهم وللأنظمة العربية المحيطة بهم ، والتي عملت على قمعهم لسنوات طوال . ان جيل الفلسطينيين الناشىء ـ الذي يتضمن هذا الكتاب لمحة عن حياة أفراده ـ عاش على الحدود بين بلدين ، في أرض مقدسة متنازع عليها ، حيث تتقرر وقائع وجودهم اليومي من

خلال عيشهم داخل اسرائيل وداخل المناطق التي تحتلها اسرائيل . وفيما يتعلق بكبريائهم وهويتهم وشعورهم فان اخلاصهم وولاءهم لكيان لم يولد بعد هو دولة فلسطين الجديدة ، هو الذي يقرر ذلك .

ان سيرة حياة اثني عشر فلسطينيا تهدف الى أخذ المراقب خطوة أقرب نحو تحسس واقع الحياة في المناطق المحتلة ، ونحو المشاركة في بعض خيبات الامل ، بالاضافة الى الانتصارات البسيطة ، ونحو فهم الاقتناع الراسخ الذي يأتي حينما يكون النضال شخصياً جداً . ان هؤلاء الفلسطينيين الاثني عشر قضوا فترة يفاعتهم كلها تحت الحكم العسكري الاسرائيلي ، وبالتالي فانهم يختلفون عن أهلهم الذين يتذكرون الحياة قبل اقامة دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ ، ويختلفون عن أبنائهم الذين لم يعرفوا أي واقع آخر غير الاحتلال الاسرائيلي ، فبعضهم (مثل فيصل الحسيني ، زهيرة كمال ، سري نسيبة ، رياض المالكي ، وحنان عشراوي) من منطقة مثلث القدس ـ رام الله ـ بيت لحم ، وبعضهم (مثل سامي الكيلاني ، ممدوح عكر ، سامح كنعان ، وغسان الخطيب) من نابلس وشمال الضفة الغربية، في حين ان (عبد العزيز الرنتيسي) من قطاع غزة .

وهؤلاء أيضاً يحتلون مواقع مختلفة على الخريطة السياسية ، فكل واحد منهم يميل الى اتجاه سياسي معين ، إما الى التيار الرئيسي (فتح) أو الى الاتجاه اليساري للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، التي يتزعمها ياسر عبد ربه ، واما الى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، أو حزب الشعب (الحزب الشيوعي الفلسطيني سابقا) . وهناك البعض ممن يؤيدون حركة المقاومة الاسلامية المعروفة باسم (حماس) . في الوقت ذاته ، هناك البعض ممن يؤيد عملية السلام ، وهم اعضاء في الوفد والمجموعات الفلسطينية المفاوضة ، في حين يحتج آخرون على الشروط التي دخل الفلسطينيون بموجبها المفاوضات في مدريد ، ويفضلون ايقاف العملية كلها .

ولكن هناك الكثير مما يشترك فيه الاثنا عشر هؤلاء . فمعظمهم في منتصف سنوات الاربعين من العمر ، وهناك ثلاثة منهم في مرحلة الثلاثينات ، وهناك واحد في بداية الخمسين من العمر . ومعظمهم ولد بعد الحرب العالمية الثانية ، وجميعهم يشتركون في خبرة أحداث ما بعد الحرب التي شكلت حياتهم : الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، خمسة حروب عربية ـ اسرائيلية ، اتفاقيات

كامب ديفيد وتوقيع معاهدة سلام بين مصر واسرائيل ، الغزو الاسرائيلي للبنان ، والغزو العراقي للكويت . ولقد عانوا الكثير لان مستقبلهم ومصير الشعب الفلسطيني ككل لم ينفصل عن الصراع العربي ـ الاسرائيلي الواسع ، وبالتالي ـ مكرهين ام راغبين ـ كانوا في غالبية الاحوال تحت رحمة الزعماء العرب الآخرين .

لقد عملت الانتفاضة على انهاء مرحلة الصمود ، أو المقاومة السلبية ، اذ انها سجلت نهضة ، واحتجاجاً ضد عجزهم المزعوم عن تقرير مصيرهم ومستقبلهم . فالانتفاضة الفلسطينية التي بدأت في شهر كانون الاول من عام ١٩٨٧ هي الحدث الاكثر اهمية في حياتهم ، اذ أثبت فلسطينيو «الداخل» للعالم أن باستطاعتهم المقاومة بمواردهم الذاتية وبشجاعتهم . وكانت الانتفاضة رسالة الى العالم الخارجي مفادها انهم لن يحتملوا بعد ذلك تجاهل طموحاتهم لتقرير المصير وانهم ـ فعلا ـ على استعداد للموت من أجل ذلك . وقد كانت الانتفاضة سلطة مفوضة ذاتية ، اذ كانت تمثل توكيد واصرار الفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاحتلال وداخل المناطق على انهم لن ينتظروا أحداً بعد ذلك (القوى العظمى ، الامم المتحدة، الزعماء العرب ، وحتى قيادة منظمة التحرير الفلسطينية) لانقاذهم من القمع الاسرائيلي .

لهذه الاسباب اخترنا الكتابة عن فلسطينيين من داخل المناطق . فهم الجيل ، الذي سيقرر كيف ومتى سيحقق الفلسطينيون في النهاية استقلالهم الحقيقي ويقيمون دولتهم . ان الفلسطينيين الاثنى عشر الذين نكتب عنهم هنا هم من بين أولئك الذين برزوا كقيادة جديدة . وهم جزء من الجيل الذي القيت عليه مسؤولية تحويل تضحيات الماضي الى انتصارات الغد على طاولة المفاوضات ، وما يزال يتوجب عليهم اجتياز طريق شائك بين اعدائهم الاسرائيليين ومعارضيهم سواء في داخل المناطق ام خارجها . لذلك ، فان من الضروري بالنسبة اليهم تمتين علاقاتهم وروابطهم مع القيادة الخارجية . فمن تلك القيادة ـ من م. ت. ف. ـ يستمدون شرعيتهم ، ويضمنون مصداقيتهم كونهم في الداخل . انهم ، وباختصار ، وسط اولئك الذين برزوا كزعامات محتملة لهوية او حالة فلسطينية جديدة .

لقد كتبنا هذه التتمة لكتاب (أصوات ما تزال خفيضة) و (عرفات : في عيون الآخرين) لاننا نعتقد أن الاثنى عشر شخصا هؤلاء بحاجة الى ان يُسمعوا ويُفْهَموا . فهم يمثلون اتجاهات الشعب الفلسطيني كافة في الضفة الغربية وقطاع

غزة . وعلى الرغم من أنهم غير أبرياء كلية من تورط سابق في عمليات الارهاب ، فان غالبيتهم الآن على استعداد لوقف النضال المسلح ضد اسرائيل اذا اعترفت الاخيرة ان حقوق المولد المكتسبة التي تتمتع بها تنطبق ايضا على الشعب الفلسطيني . ومن وجهة نظرنا ، فانه ليس هناك من خيار آخر اذا أرادت اسرائيل العيش كمجتمع مدني ، وكدولة يهودية . ان استمرار الاحتلال سوف يقوض قوة اسرائيل كدولة ديمقراطية ، والاكثر من هذا ـ ومع نهوض الاصولية الاسلامية ـ فان عواقب التأخير المستمر ستكون أسوأ بكثير من مخاطر تفويض سلطة حقيقية ومسؤولة الى الجيل الحالي من الزعامات الفلسطينية . ونعتقد ان الحكومة الاسرائيلية الحالية التي يرئسها اسحق رابين تدرك هذه الضرورة التاريخية .

ان اسرائيل محظوظة لان جيلا من الفلسطينيين نشأ خلال فترة ربع قرن من السيطرة والاحتلال ، هو الآن على استعداد لقبول الشروط التي ستعمل على حماية الامن الاسرائيلي . وكلما تم الاسراع باعطاء هذه المجموعة من الفلسطينيين تفويضا حقيقيا من أبناء شعبهم ـ من خلال اجراء انتخابات ديمقراطية عامة في الضفة الغربية وقطاع غزة ـ فانه سرعان ما ستجد اسرائيل حليفا لها ضد التعصب الذي أخذ يكتسح بشدة بقية منطقة الشرق الاوسط .

حينما كتبنا (أصوات ما تزال خفيضة) فان الانتفاضة لم يكن قد مر على بدئها سوى بضعة شهور ، وكانت صور تيار العنف المستمر التي تظهر على شاشات التلفزيون تجرد النزاع من صفاته الانسانية ، وتقلل من حجم ضحاياه من أجل تجريد وتشويه القضايا التي كانوا يحاربون من أجلها . وقد حل الحقد والكراهية مكان العقل ، وحجبت الانفعالات كل صورة مشرقة للقوى المعتدلة التي كانت موجودة لدى طرفي النزاع . من المحتمل أن لا تدوم الانتفاضة ، ولكنها حققت هدفها الرئيس : فقد بينت للعالم ان فلسطينيي «الداخل» يفضلون الموت على مواصلة العيش تحت الاحتلال الاسرائيلي ، وقد برز من خلالها جيل جديد نعتقد انه مستعد لقيادة الفلسطينيين الى سلام دائم مع اسرائيل . لقد حاولنا في (الفلسطينيون الجدد) رواية قصتهم من أجل تعزيز فهم القضايا الانسانية التي دعمت هذا النضال ، ومن أجل الاقتراب اكثر من هؤلاء الناس الذين سيكونون في المستقبل من قادة الفلسطينيين .

شكر وتقدير

خلال العمل على انجاز هذا المشروع كنا سعيدي الحظ بحصولنا على مساعدة منى غالي (عربية) وأوري نمير (اسرائيلي) . ومنى غالي خريجة جامعة جون هوبكينز ، وقد كانت معنا منذ البداية ، وخدمتنا كموجهة لافكارنا ، وشاركتنا في العديد من المقابلات التي أجريناها . كما قامت باجراء عدد منها بنفسها سواء أكان في واشنطن دي. سي. أم في الضفة الغربية وقطاع غزة . ولم تتردد منى - بطريقتها المهذبة الصريحة - في اعلامنا عن أماكن الخطأ التي كنا نقع فيها ، أو في ان توحي إلينا ان هناك معاني أعمق تختبىء خلف حادثة مألوفة . ان تفانيها من أجل الناس الذين نكتب عنهم قد تجلى بقرارها الشخصي بالعودة الى الضفة الغربية للعمل كصحفية ، وسوف تكون مفيدة لطاقم أي صحيفة أو مجلة تعمل فيها .

وعلى امتداد العِقد الماضي قضينا عدة شهور في الشرق الاوسط ونحن نعمل على انجاز كتابنا الأول (أصوات ما تزال خفيضة) الذي يتحدث عن فلسطينيي الضفة الغربية وقطاع غزة ، وكذلك كتابنا الثاني (عرفات : في عيون الآخرين) وهو محاولة للنظر الى تلك الشخصية المثيرة للجدل من خلال عيون اولئك المعجبين به واولئك الماقتين له . فاذا كان هناك صحفي اسرائيلي واحد كان يحثنا على ذلك فانه (داني روبنشتاين) الذي قضى ساعات لا حصر لها معنا يشرح لنا تعقيدات الحياة الفلسطينية ، فليس هناك اسرائيلي لديه فهم أعمق لمأزق الفلسطينيين أو تعاطف معهم اكثر مما لديه .

لكن اسرائيليا آخر هو أوري نمير - مراسل صحيفة هارتس في واشنطن - كانت حكمته وحساسيته تنافس تلك التي لدى زميله السابق . لقد قضى أوري أربع سنوات كمراسل في المناطق ، وبلغته العربية الطليقة أقام علاقات صداقة مع الفلسطينيين ، وكوّن معرفة فذة بالعوامل الداخلية للمجتمع الفلسطيني . ولم يكن بمقدورنا إكمال هذا الكتاب بدون توجيهه ؛ فبصبر وأناة أجاب على استفساراتنا طوال ساعات الليل والنهار ، وقام بمراجعة مسودات سيرة حياة كل شخصية ، مقدما لنا بصيرة قيمة وحكايات آسرة .

كذلك حصلنا على مساعدة هيل كتلر ، وهو صحفي موهوب ، اذ قام بتفريغ

كثير من المواد من بين مئات الساعات من المقابلات ، وساهم باعداد مسودات لسير أربع من الشخصيات . أما الصور الرائعة فهي من عمل رلى حلواني ، وهي فلسطينية ، كانت على أهبة الاستعداد دائما للسفر - لدى أدنى اشارة - الى غزة او الى مناطق بعيدة في الضفة الغربية من أجل اكمال هذه المهمة . وقدم لنا مبارك عواد مادة خلفية قيمة ، كما اننا نشكر العديد من الفلسطينيين الآخرين الذين أعطوا الكثير من وقتهم بسخاء : نبيل شعث ، حيدر عبد الشافي ، رجا شحادة ، صائب عريقات ، زكريا الاغا ، حسن أبو لبة ، فريح أبو مدين ، نظمي جبيه ، واكرم هنيه .

أما لورنس جردم - وهو طالب دراسات عليا في جامعة لويس فيل - فقد ساعدنا ايضا في مجال البحث من أجل تأليف هذا الكتاب . فاهتمامه الحقيقي بالشرق الاوسط ونصيحته الحكيمة ، قدما مساهمة قيمة لهذا الكتاب .

اخيراً ، نود ان نتقدم بالشكر الى معهد الشرق الاوسط ، ومعهد واشنطن لسياسات الشرق الادنى على فتح أبواب مكتبتيهما القيمتين أمامنا . أما ليلى الانصاري - كاتبة موهوبة جدا ، وطالبة في كلية سارة لورنس - فقد قرأت الكثير من سير حياة الشخصيات ، واقترحت تغييرات اسلوبية نأمل ان تكون قد جعلتها اكثر قابلية للقراءة . كذلك ، فان جنيفر باسيي ، محررتنا في دار بريما للنشر ، وإليوت سيمون محرر النسخة ، كانا سعيدين بالعمل . ودائما ، كان ولدانا : ميشال وديفيد يشجعاننا على المثابرة .

● حنان عشراوي في الخامسة من عمرها .

● عائلة ميخائيل عشراوي (من اليسار إلى اليمين) : ناديا ، داوود (الاب) منى (واقفة) هدى (جالسة) عبلة (واقفة) وديعة (الام) وحنان (في الثامنة من عمرها).

حنان عشراوي

● حنان عشراوي يوم زفافها إلى إميل عشراوي في الثامن من شهر آب عام ١٩٧٥ ، في كاتدرائية سانت جورج في القدس . وقد ولدت حنان يوم ٨/ ١٠/ ١٩٤٦ ، وتقول ان رقم الحظ لديها ٨ .

● حنان عشراوي وشـقـيـقاتها الاربع يقدمن لوحة ذهبية إلى امهن (وديعة) ووالدهن (داوود مـيـخـائيل) في الذكـرى الخـمسين لزواجهما . والوالد طبيب ، وقد توفي بعد مـرور بضـعة شهور على ذلك التاريخ . من اليسار إلى اليمين : منى ، حنان ، هدى ، داوود ، وديعة ، ناديا ، وعبلة.

● الاب سـمير قـفعيتي يصافح حنان عشراوي وزوجها اميل وابنتهما زينة بعد صلاة عيد الفصح في كاتدرائية سانت جورج في القدس الشرقية .

حنان ميخائيل عشراوي

من بين مجموعة تتكون من ثلاثة فلسطينيين جلسوا بجانب بعضهم في البرنامج التلفزيوني لمحطة ABC (نايت لاين) في شهر نيسان ١٩٨٨ ، بدت قسمات وجه حنان عشراوي الحادة منتعشة على شاشة التلفزيون . وفي حين كان ملايين الامريكيين يشاهدونها للمرة الاولى ، تحدثت امرأة عربية سوداء الشعر ، ترتدي الزي الحديث ، بوضوح وباختصار ، وبعبارات منظمة وسهلة ، معلنة «ان هذا ليس إجلالاً للديمقراطية الاسرائيلية» على الرغم من انه من الواضح ان هذه هي المرة الاولى التي تقوم فيها مجموعة مهمة من زعماء الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة بمناظرة مسؤولين اسرائيليين على مستوى عال على شاشة تلفزيون عالمي الانتشار . وقد ركزت هذه المناظرة التلفزيونية على إصرار حنان ، الذي يذكّر بانه - على الرغم من ان الطرفين كانا مقيدين على الخشبة الصغيرة لمسرح القدس - كان ما يزال هناك بينهم فجوة واسعة ، وانقسام سياسي نفسي عاطفي .

وأعلنت حنان عشراوي «اننا قررنا المجيء الى هنا لا من أجل إجراء حوار مع الاسرائيليين لأن العنوان الصحيح كما قلت هو م. ت. ف. ولكن أتينا من أجل التعبير عن آرائنا بوضوح . فعلى امتداد سنوات عديدة ، اعتمدنا على عدالة قضيتنا من أجل جعل أهدافنا واضحة . لكن من الواضح أن على الامريكيين وبقية الرأي العام ان يعرفوا ان العدالة لا تكفي لاعطائنا حقوقنا . لذلك ، نحن هنا من أجل أن نخاطبكم مباشرة ، ونعلمكم اننا نريد ان يتم الاعتراف بحقوقنا الاساسية . نريد الاعتراف بنا كشعب» .

بهذه الملاحظات الافتتاحية أمام جمهور يتكون من مئات الاسرائيليين في الجزء الاسرائيلي من مدينة القدس (الجزء الغربي) كانت حنان تقوم بما كان الزعماء الفلسطينيون في الداخل يقومون به لمدة طويلة من حيث اقناع رئيس م. ت. ف. ياسر عرفات بضرورة القيام به ، أي التوجه بقضيتهم مباشرة الى الشعب الاسرائيلي . فبالنسبة الى الامريكيين - على بعد ستة آلاف ميل - فان ذكاء وبلاغة وحجج حنان كانت بمثابة صدمة ومفاجأة سارة في آن واحد . فهنا امرأة تشبه

جيرانهم سكان الضواحي ، اكثر منها فدائية ترتدي اللباس الخاكي وتحمل المسدس وهنا كان صوت اعتدال ، وبلاغة لطيفة تتناقض تماماً مع لغة الارهاب الطنانة المتقطعة .

بالنسبة الى أحد الفلسطينيين ، والذي كان يجلس وحيداً في سجن اسرائيلي (فيصل الحسيني) بدا وجه حنان مألوفا على نحو غير واضح . لقد كان يعرف من هي بالطبع من خلال سمعتها ، لكن شيئا ما يتعلق بها جال في ذهنه . اصغى بعناية واهتمام في حين كانت المرأة ذات الصوت الاجش تتمسك بموقفها بحزم ، تقاوم سخرية اسرائيلي متشدد هو إلياهو بن اليسار «قوليها ، قوليها» للتخلي عن موقف م. ت. ف . المتشدد والاعتراف بوجود اسرائيل . «انها عظيمة ! انها عظيمة!» هكذا هتف فيصل الحسيني من زنزانة سجنه . وكلما شاهدها اكثر ، جالت في ذاكرته اكثر . في مخيلته ، تحولت من مدرّسة أنيقة في جامعة بير زيت الى تلميذة شابة ترتدي التنورة القصيرة في الجامعة الامريكية في بيروت ، والتي كان من المفروض ان تنضم الى مجموعة التدريب الفدائية التابعة له ، وذلك قبل اكثر من عشرين عاما .

فبعد حرب ١٩٦٧ ، كان فيصل مسؤولاً عن تجنيد جيش فلسطيني للمساعدة في خوض الحرب الجديدة ، فأقام مخيما للتدريب في لبنان ـ في مزرعة أحمد الشقيري الذي كان آنذاك رئيس م. ت. ف. ـ بالقرب من بلدة كيفون عند سفوح جبال الشوف . وكان ذلك المعسكر أول معسكر يقام لتجنيد الرجال والنساء على حد سواء ، اذ بلغ عدد الملتحقين به ١٢٠٠ متطوع فلسطيني . وكان من المفروض ان تكون حنان عشراوي بين هؤلاء . يقول فيصل : «كنا نفكر في تدريب الفلسطينيين لمدة شهر كل سنة من أجل ايجاد جيش دائم ... كنت بانتظارهما ... كانت حنان في الجامعة الامريكية في بيروت ، أما الفتاة الاخرى فكانت ليلى شهيد». في معسكر التدريب ذاك ، وعند فجر كل يوم ، وبينما كان يقوم بجمع المجندين «حسب أطوالهم لا حسب الجنس» كان يقرأ اسم هاتين الفتاتين اللتين اختيرتا لتكونا في مجموعته . وكل صباح ، وحينما كان ينظر في قائمة الاسماء ، كان يسأل نفسه : «أين حنان ميخائيل ؟ أين حنان ميخائيل؟» .

بعد مرور أسابيع عدة على اذاعة برنامج «نايت لاين» وحينما قابلها فيصل في

النهـاية ، اعترفت حنان أنها لم تحضر نهائيا الى مخيم تدريب الفدائيين التابع لفتح الذي كـان يشرف عليه . وتقول انها لم تتهرب من الواجب العسكري : «فقد ذهبت الى سـوريا عوضاً عن ذلك» . فعبر الحدود السورية ، أقام الفدائيون الفلسطينيون مـواقـع تجـمّـع لهم من أجل مـواصلة شن الهجمات على مـرتفـعـات الجـولان . وتسـتذكر حنان انه بعد أن تأخر كثيرا اجتماع شملهما من جديد ، فان فيصلا لم يسـتطع إلا ان يمازحـهـا ، حين يقـول : «كما تعلمين ، فـان لقاءنا قد تأخر لفترة طويلة . كـان من المفـروض ان تحضري الى معسكري ، وها أنت بعد عشرين سنة تحضرين !» .

ومنذ ذلك الحين وهي تظهـر على شـاشـات التلفـزيون في مختلف أنحـاء الكرة الأرضـيـة ، وفي المؤتمرات الصـحـفـيـة ، وفي مسيرات السلام باسم اعضاء الوفد الفلسطيني الاربعـة عشر المفـاوضين لاسرائيل ، واصـبـحت هي وفيصل الحسيني فـريقـا محبـوك النسج : الرجل المسلم المتـحفظ الذي تولى زمام القيادة في الضفة الغـربية ، والمرأة العربية المسيحية ذات الثقافة الغربية القادرة على نقل آلام شعبها الى التلفزيون الاجنبي . لقد أصبح عرّابها ، وحاميها من الانتقادات الحادة الموجهة اليـهـا من قـبل أبناء وطنهـا الذين يجادلون بان هذه المرأة المدنية ، أنيقة الثياب ، المغـرية ، وابنة واحدة من اقدم الطوائف المسيحية ، لا حق لها بتمثيل الفلسطينيين. لقد بدأت صداقتهما خلال لقاءاتهما مع ممثلي الحكومة الامريكية ، وتطورت حينما اعلنا احـتـجاجهما على المذبحة التي قتل فيها سبعة من العمال من أبناء قطاع غزة على يد الجندي الاسرائيلي آمي بوبر من ريشون لتسيون ـ بلدة جديدة الى الجنوب مـن تل أبيب ـ في حـزيران ١٩٨٩ . يقـول فـيـصل الحسيني : «بدأنا نتحدث في اجـتماعـاتنا في القنصليـة [القـدس] ... قضينا اثني عشر يوما أو ثلاثة عشر تحت خـيمة للصليب الاحمر خلال الاضراب عن الطعام . وهناك أيضا أثبتت وجودها ... كـانت صلبة العود ، قوية ، مستعدة للمضي في الاضراب عن الطعام لمدة عشرة أيام أخرى !» . وهو يعتمد على حنان في أشياء عديدة أخرى خارج نطاق دورها كناطق رسـمي . فحيثما التقى الاثنان مع وزير الخارجية الامريكية جيمس أ. بيكر الثالث كـانت حنان هي التي تجـد العـبارات لفيصل في الغالب باعتبار ان لغته الانكليزية ليـست جـيـدة بما فـيه الكفاية للتغلب على الفروق الدقيقة في المعاني الدبلوماسية والدقـائق والتـفـاصـيل القـانونية . ولقد شعر بيكر أنّ باستطاعته التواصل معها

بسهولة ، ويقول مسؤول امريكي معبراً عن اعجابه : «يناضل فيصل من أجل كلمة ، فتلتقطها ومن ثم يتابعان !» .

بينما كانت تنفث بعصبية بضع نفخات من سيجارة (سالم لايت) التي لا تكاد تفارق يدها ، ثم تنقر باصبعها الرماد وهي تنحني على الاريكة في جناحها في فندق جراند ، تقاوم حنان عشراوي الحديث عن نفسها : «هذه هي أسوأ مقابلة ... انني اكره التحدث عن نفسي . ان كل شخص الآن يريد ان يكتب لمحة عن سيرة حياتي!» هكذا تقول محتجة . وبعد مرور بضع ثوان ، تبدو كأنها وطنت نفسها على ما هي فيه ، فتقول : «حسنا ، اوكي ، سأخبرك ... كان لدي الكثير ... آه ، انتظر» وتتوقف اذ شاهدت لقطة لها على شاشة تلفزيون CNN .

كانت نشرة الاخبار تسرد تقريراً مفاده ان الجولة الاولى من المحادثات الثنائية العربية ـ الاسرائيلية المقرر لها أن تبدأ في ذلك اليوم من شهر كانون الاول قد أخفقت بسبب خلاف اجرائي . فالفلسطينيون يصرون على أن يُعامَلوا على انهم مجموعة منفصلة وليست مجموعة ضمن الوفد الاردني . ويشجب بنيامين «بيبي» نتنياهو ـ نائب وزير الخارجية الاسرائيلي السابق ، والتي تُقارَن معه دائمًا ـ بحدة الرصاصة الفلسطينية الاخيرة . وبدت انها تستمتع بالمقارنة مع نتنياهو ، الذي كان في السابق قائداً لمجموعة القوات الخاصة ، ثم سفيرا . وللحظة تلاشت ، فَقَدَ نتنياهو قدرته الخرافية لتصوير اسرائيل على انها الضحية المحاطة بجيران عرب معادين لها .

وبينما كان يهاجم الفلسطينيين بعنف بسبب مطالبتهم بوضع مستقل ، تحول الضحية الى بُلْدُغ* . وقالت حنان ساخرة : «لا يمكنهم العودة الى الوراء ، ففي مدريد كانت لنا صورة كبيرة ، والآن يريدون بروفيلاً منخفضا . لقد اكتشفوا ان هناك فلسطينيين !» .

شيئا فشيئاً ، وبشكل نظامي ، وبدقة محسوبة ، بدأت تسترخي ، لكن من الواضح انها كانت تتحدث بعدم ارتياح عن طفولتها : «أقول صراحة انها سارت على عكس ما أريد . لقد كنت دائما انسانة خاصة جدا . أصور ذلك كأنه جزء من مسؤولياتي للعمل بهذه الطاقة ، لأفسر ، لأقدم ، ولأبين الموقف الفلسطيني . كنت

* البلدغ : كلب قوي ضخم الرأس قصير الشعر .

أفضل البقاء والقيام بدور وراء الكواليس ، ولكن ـ للأسف ـ كانت هناك ضرورة وكان عليّ القيام بذلك» .

وبينما كانت تتحدث ، بدت كأن لا شيء مشتركا بينها وبين الفدائيين الذين يشنون المعارك ضد الاحتلال الاسرائيلي . ومع ذلك ، واذ بدأت ترسم بالتفصيل نشأتها ، كان يبدو من الواضح اكثر فأكثر ان حنان ميخائيل عشراوي ليست الوجه الفلسطيني الاكثر جاذبية ووضوحا فقط ، بل انها صلبة العود قاسية ، مقاتلة . وفي حين انه من المحتمل انها لا تعبر عن الدور الذي تقوم به ، فان استاذة الادب المقارن تتمتع بحماية م. ت. ف. : «اولئك المطلعون يعرفون ان لي روابط عميقة الجذور بالنضال الوطني الفلسطيني» . وكمؤمنة حقيقية ، امتهنت العمل في المخيمات ، فهي ترى نفسها ضحية للقمع الاسرائيلي .

وقد سئلت عما زعمه فيصل الحسيني حينما قال انه اكتشفها من خلال برنامج (نايت لاين) فقالت : «لا أريد الاستمرار في التركيز على (نايت لاين) فهذا البرنامج ليس مَعْلَما ونقطة تحول» ومن الواضح انها انزعجت مما يعنيه ذلك من ان مواهبها الصالحة للعرض على شاشات التلفزيون ـ وليس نشاطاتها المبكرة كنشيطة ـ قادته الى الطلب منها ان تكون عضواً في الوفد الفلسطيني . تقول حنان مصرة على انها كانت مشاركة بشكل بارز في عملية صنع القرار منذ فترة طويلة وقبل ان يكتشفها فيصل : «إنها ليست قضية تجنيد ... لقد شكلنا لجنة التنسيق حينما كان فيصل في السجن ، وبالتالي حينما خرج من السجن كانت اللجنة قد بدأت العمل» .

لقد قاد اللجنة ـ التي كانت عضويتها غير مسموح قانونيا بها من قبل الاسرائيليين ، وقد تصل عقوبة الانتساب اليها الى عشر سنوات من السجن ـ الدكتور سري نسيبة من بير زيت ، وممدوح عكر وهو طبيب جراح من نابلس ، وغسان الخطيب ، وزهيرة كمال ، ورياض المالكي . وهم مجموعة صغيرة من : فتح ، الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، ومؤيدي الحزب الشيوعي . وتقول حنان أن هذه المجموعة هي التي اتخذت الخطوة الجريئة لمناظرة الاسرائيليين في (نايت لاين) . وتضيف : «لقد قررت اللجنة اننا سنقوم بهذا الامر على انه بمثابة اختراق . وفي المقام الاول ، فان

المحادثات كانت داخل [المناطق]» . وهكذا ، فان نقطة التحول الحقيقية لم تكن برنامج تلفزيون ABC أمام جمهور من ملايين الامريكيين ؛ والحقيقة ان قرار الظهور في البرنامج ـ حينما كان عمر الانتفاضة أقل من أربعة شهور ـ قد اتخذ من قبل القيادة الفلسطينية الجديدة التي كانت قد تشكلت داخل الضفة الغربية وقطاع غزة ، وبعدئذ تم اقناع قيادة م. ت. ف. في تونس .

ولدت حنان في مدينة نابلس في ٨/ ١٠/ ١٩٤٦ وهي أصغر أخواتها الخمس وجميعهن من البنات . كانت عائلتها تنتقل من مكان لآخر كل سنتين ، وبالتالي فان اولئك البنات ولدن في أنحاء مختلفة من فلسطين . فناديا ـ مثل حنان ـ ولدت في مدينة نابلس ، وعبلة ومنى في مدينة القدس ، وهدى ـ وهي الآن نحاتة ـ في مدينة الخليل .

في مطلع سنوات الاربعينات ، وقبل أن تولد حنان ، كان والدها داوود ميخائيل ـ وهو طبيب ـ غالبا ما يعمل مع زملاء له من اليهود . وعلى الرغم من ذلك ، فانه كان يشعر بالقلق والانزعاج بسبب الغارات التي كانت تشنها منظمة الارغون وعصابة شتيرن ، والمليشيات الصهيونية الاخرى السرية . تقول هدى : «ولكنه حاول البقاء على الحياد لأنه كان له أصدقاء يهود كثيرون أطباء أيضاً» وكان داوود قد تخرج من كلية الطب في الجامعة الامريكية في بيروت ، وكان يعود الى بيروت كثيرا لقضاء عطلة نهاية الاسبوع من أجل التسوق والانسجام ، اذ كانت المسافة تستغرق بالسيارة أقل من ساعتين . في تلك الأيام ، عاشت عائلة ميخائيل في بيت فسيح على تلة في بلدة طبريا له منظر رائع يطل على البحيرة . كانت الفتيات يعملن على عصر الجوز ذي الجذور الجافة من شجرة الخروب الضخمة أمام منزلهن ، واستخلاص دبس السكر منها . ومن بين رفاقهن كان هناك يهود من أبناء المهاجرين الذين أتوا الى طبريا خلال سنوات العشرينات والثلاثينات الهاربين من المذابح المنظمة في روسيا ، واوكرانيا ، وبولندا . تقول هدى : «كانت لدينا مجموعة أصدقاء من اليهود . لقد فتحنا بيوتنا وقلوبنا لهم ، كانوا جيراننا» .

لكن بعد مولد حنان بفترة قصيرة ، ازدادت الاضطرابات السياسية شدة ، وأصبح داوود ميخائيل ـ الذي كان قد تطوع كطبيب في الجيش البريطاني ـ منخرطا في النشاطات السرية ، يحضر الطعام الى الثوار في الجبال . وحينما

انسحب البريطانيون بسرعة سنة 1948 وأعلن قيام دولة يهودية ، اضطرت العائلة الى مغادرة طبريا . تقول هدى : «بطريقة ما ، أخرجنا والدي جميعا» . فقد أرسل زوجته وبناته الخمس الى عمان «وبقي هو هناك لانه كان ما يزال في الجيش» . وفيما بعد ، انضم داوود الى عائلته في عمان ، حيث عمل مفتشا صحيا لدى حكومة إمارة شرق الاردن .

باعتبارها أصغر بنات ميخائيل الخمس ، فإن الطفلة حنان كانت مدللة ومبكرة النضج العقلي . وحينما أصبح عمرها ثلاث سنوات كان باستطاعتها القراءة والكتابة . ومع ذلك ، وكما تقول هدى ، فانها لم تحظ بنفس القدر من الاهتمام الذي نلنه أخواتها الاكبر منها ومن والديهن . فقد كان ذلك مستحيلا لاننا كنا دائمي التنقل جيئة وذهابا من بيت عم الى بيت عم آخر» .

قضت الفتيات غالبية وقتهن في منزل خالهن وديع أسعد ، وهو ضابط في قوات الفدائيين الفلسطينية التي قاتلت في حرب سنة ١٩٤٨ . كان لأسعد ابنتان وكان المنزل المزدحم يقع عند حافة محطة السكة الحديدية ، وهو مكان مفعم بالضجيج الذي يزداد حدة بسبب صراخ وزعيق سبعة أطفال مفعمين بالنشاط ، ونادرا ما يسمح لهم بالخروج من المنزل . وكي تزداد الأمور سوءاً ، فان تعليمات صارمة أصدرت الى الفتيات بأن لا يسئن التصرف ، فكلمات الام ما تزال ترن في آذان الفتيات . تقول هدى : «انه ليس بيتكن ! انه منزل عمكن ، ولذلك أحسنّ التصرف!» . ومع الكثير من هذا الجيشان في حياتهن ، ولانه لا مكان فعلاً يمكن ان يسمى منزلهن ، فان حنان «أصبحت تشعر بشيء من العزلة» .

في عام ١٩٥٠ ، وبعد أن تشكلت لديه قناعة بان الوضع لن يتحسن ، قرر داوود بدء حياة جديدة ، فعاد مع عائلته الى رام الله ، حيث مارس الطب لفترة قصيرة قبل ان يهاجر الى الأردن ، وخلال شهور استقال من منصبه الحكومي . كان منزل ميخائيل في قلب المدينة ، على بعد ستة أميال شمالي القدس ، على الطريق العام وفي الجانب المقابل لبقالة عائلة زبانة . كان هناك مدخل مستقل للعيادة خلف المنزل حيث زاول ميخائيل عمله . في تلك السنوات المبكرة ، وحينما كانت حنان تبلغ من العمر أربع سنوات ، كان لجدتها أم أمها ـ التي عاشت معهن ـ أثر عميق في العائلة . فقد كانت مبشّرة ، وكان زوجها قسيساً انجليكانيا .

بعد أن تجمع الفتيات الخمس حول سريرها ، كانت تلك المرأة المسنة تضع وسادة خلف ظهرها ، وتجلس على السرير ، ثم تقوم بسرد قصص من الكتاب المقدس على الفتيات . وبعد رواية القصص ، كانت الجدة تقوم بشرح المعاني والاهداف الدينية لتلك القصص . ولما كانت جلسات ما حول السرير هذه تسبق الصلاة ، فانها لم تكن شيقة دائما . وتستذكر هدى قائلة : «في حين كانت جدتي تقوم بالقاء مواعظها والصلاة ، كنت أتسلل خارج الغرفة ، وبعد مرور ساعة أتسلل مرة ثانية الى الغرفة ، زاحفة ، متظاهرة انني لم أغادر الغرفة ... لكن حنان وعبلة تبقيان . ومن المحتمل ان كل واحدة منهما كانت تفكر بشيء مختلف تماما ، ولكنهما كانتا تبقيان» .

في أيام الطفولة تلك ، لم تكن حنان مهتمة بالسياسة . فكما تقول هدى : «كانت حنان مجرد طفلة صغيرة جذابة ، كل ما تريده هو أن تلبس الملابس الجميلة وأن تبدو جميلة» . كانت الفتيات يذهبن مع بعضهن الى فريندس جليرز أكاديمي ، وهي مدرسة ابتدائية خاصة في رام الله ، وكانت شقيقتها الكبرى تتحدث عن القضايا التي كان والدهن قد «بحثها خلال العشاء في الليلة الماضية» .

خلال مرحلة المدرسة ، كانت هدى تخرج وحدها في المظاهرات المعادية للبريطانيين ولغلوب باشا ، اذ تقول : «لم تكن لدى حنان أي فكرة عما كان يجري على الصعيد السياسي . فقط أعطها كتابا وكيسا من الجوز ، وستغلق غرفتها على نفسها وتقرأ الى الأبد ... كانت الطفلة تقرأ كتابا كل يوم : قصص قصيرة باللغة الانكليزية ، كتب ورقية الغلاف ، وكلام هراء واضح ، وأدب خالص . أي شيء مطبوع كانت تقرأه !» وقد أخذت حب القراءة عن والديها ، اللذين كانا قد حصلا على تعليم جامعي . كانت الفنون محور زواجهما ، فوالد حنان كان طبيبا ، ووالدتها (وديعة) كانت ممرضة في دائرة العيون في احدى المستشفيات علاوة على ذلك ، فان وديعة كانت قارئة نهمة .

ولكن كانت هناك أيضا نقاط اختلاف لدى والديها : فقد كانت وديعة ممارسة للطقوس الدينية المسيحية ، وحثت الفتيات على الذهاب الى مدرسة الأحد (وحضور دروس البيانو) في حين كان داوود ملحداً . وكانت وديعة نظامية انضباطية ، بعكس زوجها . وأخيراً ، فان وديعة كانت - كما تقول حنان - سياسية بكل ما في الكلمة من معنى باستثناء «ما ينطبق على المستوى الانساني ، فقد كانت دائمة

القلق والخوف من آثار السياسة في الناس ، فالسياسة كانت ميدانا خطيراً جداً» .

واليوم ، فان والدة حنان البالغة من العمر خمسة وثمانين عاما ما تزال تشعر بالخوف على حنان . تقول هدى : «كل مرة أتحدث فيها معها ، فانها تقول [ليحمي الله تلك الفتاة ، آمل أنها على ما يرام] ... فأقول لها : [أمي ، اذا كان هناك من سيحمي تلك الفتاة فانه الله لانها فتاة حكيمة ، وهي ليست كبقيتنا]» . تقول حنان : «كان هاجس أمي الأساسي دائما انها تأمل [أن لا تسجن الفتاة لانها ستشعر ببرد شديد] . وفيما بعد أصبحت تقول دائما : [من المحتمل انها فكرة جيدة ان تسجن . آمل أن يسجنوها لانها ستكون بأمان أكثر في السجن] . ان ذلك يعني انها كانت قلقلة وخائفة فعلاً ، فبالنسبة اليها كان السجن هو افضل شيء» .

تتذكر حنان أن والدها كان غير مؤمن ، ولم يكن أبداً صارما جداً مع بناته ؛ كان عقلانيا ومثاليا حاول ان يزرع في بناته احترام كل الديانات والعقائد وكان نشطا . تقول حنان : «كان دائما بالنسبة الي شخصا خاصاً جداً ، تقدميا ، سابقا لأوانه . وعلى الصعيد السياسي كان نشطا جداً ، ولكنه ايضا متواضع جدا ، لطيف مكبوت» . واكثر من أي شيء آخر ، فانه كان يحترم دور المرأة في المجتمع . لقد توفيت والدته حينما كان يافعا ، فتعهدته ورعته أخواته . ولذلك ، حينما نضج وكبر كان يكنّ الاحترام والاعجاب للمرأة . وقد أخذت حنان عن والدها العديد من الميزات ، وبخاصة قوة الاقناع على حد اعتقاد هدى : «كان قويا ولكنه رقيق القلب جداً جداً . لم يصدر الينا أوامره على الاطلاق . كان يقول شيئا ومثل حنان : فانك لا تجادله وتسأله في ذلك لانه كان مقنعا جداً» .

كطبيب ، كان داوود يصل الى الضحايا حيثما كانوا . تقول : ذات مرة ، وحينما كان يعمل مع مجموعة مقاومة فلسطينية في منطقة نابلس ، شاهد والدها كمينا عربيا لعدة جنود اسرائيليين . كان داوود مع سائقه «فترجل من السيارة ، وأخذ في سيارته اليهود الجرحى كلهم وعالجهم في المنزل ، ثم أرسلهم الى المستشفى ، وطلب من السائق ان يذهب لايصالهم الى منازلهم . كان سيفعل الشيء نفسه مع أي جريح أو شخص متضرر آخر بعض النظر عن خلفيته العرقية أو طائفته الدينية» .

لكن داوود ميخائيل كان يؤمن ايضاً ان على كل فلسطيني الالتزام بالقضية ، فانخرط في العمل الوطني حال عودته عام ١٩٥٠ من عمان الى رام الله .

في رام الله ، بدأ داوود ميخائيل تأليف كتيبات تناصر وتدعم الحزب الاشتراكي الوطني ، ومع منتصف سنوات الخمسينات أصبح أحد قياديي الحزب في الضفة الغربية والذي تشكل على يد سليمان النابلسي ـ وهو محام فلسطيني ـ وذلك للاحتجاج بقوة على السياسة الاردنية .

وكجزء من جهوده الرامية الى توحيد البلاد بعد وفاة جده الملك عبد الله بن الحسين ، فان الملك الشاب الحسين بن طلال تعرض لانتقادات العديد من زعماء الضفة الغربية . وفي حين كان الملك يعاني من هذه الانتقادات الصاخبة فان المزيد من الغارات الفلسطينية المسلحة كان يتم شنها ضد المزارعين الاسرائيليين في محاولة لمقاومة المزارعين اليهود الذين تجاور حقولهم منطقة الحدود .

وأصبح الاردن ضحية لعمليات انتقامية اسرائيلية جماعية . وعلى الرغم من ان الفدائيين الفلسطينيين كانوا يهاجمون المزارع الاسرائيلية ، الا ان الجيش الاسرائيلي سعى وراء قرى اردنية بأكملها ، مدمرا قبية وغيرها من القرى الاخرى . وسعى الملك حسين ـ الذي كان بحاجة ماسة الى السلاح لحماية بلاده ـ للحصول على المساعدة من تركيا وبريطانيا ، فاقترحوا عليه الانضمام الى مجموعة دفاع مناهضة للسوفييت ـ شكلت في شهر شباط عام ١٩٥٥ حينما قام كل من العراق ، وتركيا ، وبريطانيا بتوقيع معاهدة حلف بغداد ـ وذلك مقابل حصول الاردن على المساعدة البريطانية .

كان الاردن مستعدا للموافقة على ذلك ، لكن الفلسطينيين ، وبخاصة اولئك الميالين لجمال عبد الناصر ، عارضوا هذا الامر بشدة . فبالنسبة اليهم ، مثلت بريطانيا ضعف العرب تحت القمع الاستعماري ، في حين ان الاشتراكي عبد الناصر الذي كان يدعو الى عدم الانحياز نحو الغرب كان رمز القوة العربية . واعتقدوا ان الرئيس المصري سيقود الطريق بهم نحو فلسطين من خلال توحيد العالم العربي وبقوته العسكرية من السوفييت . وحينما قدم اربعة وزراء من الضفة الغربية استقالاتهم في شهر كانون الاول ١٩٥٥ معلنين احتجاجهم ، أدرك الملك الحسين انه سيكون هناك تمرد اذا انضم الى حلف بغداد . وفي حين ان الاتجاه العام للبلد كان معاديا للبريطانيين ، عمل الملك حسين على ابقاء الفلسطينيين هادئين .

في شهر آذار ١٩٥٦ طلب الملك حسين إقالة القائد البريطاني للجيش العربي الليفتنانت جنرال غلوب (غلوب باشا) والذي كانت غالبية الفلسطينيين تعتبره رمز السيطرة البريطانية الاستعمارية . وبدا ان الفلسطينيين يريدون شيئا بطريقتين : فقد أصروا على ان لهم الحق في حكم أنفسهم ضمن ما يعتبرونه جزءا من فلسطين رغم انهم يعيشون في الاردن كمواطنين يتمتعون بالحقوق كلها . وأرادوا من الملك أن يدافع عنهم ، وهم في الوقت نفسه يتحدّون سلطات الحسين ويطالبون بحمايته لهم .

في شهر تشرين الاول ١٩٥٦ ـ وقد كانت هناك اضطرابات بسبب عملية انتقام اسرائيلية أخرى ضد بلدة قلقيلية في الضفة الغربية ـ جرب الملك حسين سبيلا آخر. ففي هذه المرة ، عقد اول انتخابات نيابية حقيقية خلال فترة حكمه الدستوري . وقد فاز في هذه الانتخابات يساريو الضفة الغربية ـ بما فيهم داوود ميخائيل ـ الذين كان يقودهم سليمان النابلسي والحزب الاشتراكي الوطني . وقد كانت مواقف النابلسي الموالية للسوفييت تشكل تناقضا مباشرا مع آراء ومعتقدات الاسلاميين والملك الحسين . وكان رئيس الوزراء الفلسطيني يميل لقبول تعليمات عبد الناصر او الحاج امين الحسيني في القاهرة اكثر من قبولها من الملك الحسين .

وأوصلت الغارات الاسرائيلية حالة الغضب في الأردن الى أقصى مدى ، وقد سُمعت أصوات مطالبة بالحرب ضد الدولة اليهودية من سوريا ومصر ، فعقد الملك اتفاقا مع سوريا ومصر ، مشيرا الى ان ذلك خطوة نحو الوحدة العربية . غير انه لم يكتب لهذه الاتفاقية ان تعمر طويلا .

حينما شن الاسرائيليون والبريطانيون والفرنسيون هجومهم على قناة السويس في ٢٩ تشرين الاول ١٩٥٦ ، عرض الملك حسين ارسال قوات الى مصر لمساعدة عبد الناصر ، غير ان الزعيم المصري اعرب عن تفضيله للحل السياسي على معركة عسكرية يدرك انه لن يتمكن من كسبها . ومع هذا ، وبعد طرد البريطانيين من الاردن ، دعا الملك حسين الجنود السوريين والعراقيين والسعوديين الى بلاده . غير ان النابلسي عارض ذلك ، معتبرا هذا الامر بمثابة اختبار لقوته . وتصاعد النزاع اكثر ، واصبح اشد حدة حينما اقام رئيس الوزراء ـ بعد ايام من ذلك ـ علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي ومع الصين الشعبية . وفي الوقت نفسه فان

حكومـة الولايات المتحـدة الامـريكيـة ابان عهد الرئيس ايزنهاور اصدرت اعلان مـبـادىء يعلن انها سترسل قواتها الى أي مكان في الشرق الاوسط لايقاف العدوان الشيوعي .

وأصـيـب الملك بالذهول لأن هؤلاء الفلسطينيين اليسـاريين ـ أمـثـال النابلسي وداوود مـيـخـائيل ـ يشـكلون تهديدا للأردن كله . فـقـد تآمـروا مع المصريين والسـوريين ، وعـقـدوا اجـتماعـات مع مـسؤولين عسكريين سوفييت ، واخترقوا أجـهـزة المخـابرات الاردنيـة ، ورشـوا ضباط الجيش ، واستمالوا الى جانبهم قائد الجـيش اللواء علي أبو نوار صـديق الملك . ونـاشـد الملك النابلسي ، لكن مناشـداته ذهبت أدراج الرياح . وفي شـهـر نيسان ١٩٥٧ قـامت اعمال عنف وشغب تأييدا للنابلسي في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين ، ترافـقت مع تمرد الجـيش الذي كـان تحت قـيـادة علي أبو نوار ، مما ادى الى مكاشـفـة وحـسم قـاسيين . واعلن الملك حسين انه اكتشف وجود مؤامرة سورية ـ مصرية ضده فأقال حكومة النابلسي .

وقـاد هـذا الامـر الى مـزيـد مـن اعمال العنف في مخيمات اللاجئين ، وتم حل الاحزاب السياسية كلها ، كما تمت اقالة اللواء علي أبو نوار الذي فر من البلاد .

غير ان واحـداً من هؤلاء الذين وقعوا في شرك الشغب ـ بهدف وصـول النابلسي بسرعـة الى السلطة ، وسرعت على نحـو مماثل في اقـالتـه ـ كـان ميخائيل داوود . فـالحـزب الاشتراكي الوطني أصـبح محظورا الآن . وبـاعـتـبـاره أحـد مؤسسيه البـارزين ، فـان والد حنان القي القـبض عليـه ، وحكم عليـه بالسـجن لمدة عشر سنوات . وبعـد ان بدأ تنفـيـذ الحكم بفترة قـصيرة ، أخـذت صـحـتـه بالتدهور ، وحـاولت عـائلة داوود اقناع الجـهـات الاردنية بتخفيف مدة سجنه . وبعد جهود قـام بها وديع أسـعـد (خال حنان) تم نقله الى المستشفى ، حيث بقي هناك تحت الحراسة ، الى ان أطلق سراحه بعد مرور شهر على ذلك .

في عام ١٩٦١ قـام داوود ببناء منزل جديد لعائلته في رام الله ، اذ كان حلمه ان يبني منزلا حـديثا من الحجر والرخام ، له شبابيك زجاجية على الواجهة الامامية ، مكونا من أربعـة أدوار ، وسلم دائري عـريض مـزين بالنبـاتات ، يقود الى غرف النوم والمعـيـشـة في الطوابق العليـا ، وفي أعلى المنزل ، حـديقـة يشـاهد منها منظر فـسيح لرام الله . تقول هدى : «أقنعت وناديا والدنا اننا نريد الطابق العلوي . وقد

بنى لي استديو هناك» وأقيمت عيادة طبية للطوارىء في الطابق الأرضي ، أطلق عليها اسم مستعار هو «طابق الحديقة» . وقد تعرض البيت للقصف خلال حرب ١٩٦٧ ، الامر الذي اضطر العائلة الى أن تستبدل بالنوافذ الزجاجية الموجودة في الطابق الارضي الالواح الاسمنتية . وفيما بعد ، وحينما أصبح من العسير بالنسبة الى أمهن المسنة صعود الدرج للوصول الى غرف النوم ، تم تحويل الطابق الاول الى جناحين منفصلين ، كما تم توسيع المطبخ الصغير . وتعيش حنان اليوم في الطابق الثاني من المنزل الذي ما يزال واحدا من أكثر المنازل مهابة في رام الله .

وعلى الرغم من ان داوود قد حقق أحد طموحاته ، وهو منزل جديد رائع لعائلته ، فانه واصل العمل لتحقيق حلمه الحقيقي ، وهو دولة فلسطينية . وفعلا ، فان ظهور حنان في سن الثامنة عشرة كنشطة في النضال الفلسطيني ترافق مع انخراط والدها في مجال آخر . ففي عام ١٩٦٤ ، وهو السنة نفسها التي بدأت فيها حنان دراستها الجامعية في الجامعة الامريكية في بيروت - وهي مركز بروتستانتي شهير للتعليم ، أنتج نخبة القيادة في العالم العربي - كان داوود ميخائيل يساعد في تشكيل مجموعة جديدة في القاهرة .

تقول حنان : «كان أحد الذين عملوا من أجل انشاء م. ت. ف.» وتضيف هدى : «كان مع أحمد الشقيري ، أول مؤسس لمنظمة التحرير الفلسطينية في مصر . وكان ذلك حينما أدرك ان لا شيء يمكن انجازه ما لم تكن لدينا منظمة تعبر عن آراء الفلسطينيين ، وتحاول اقناع البلاد العربية ان علينا القيام بدور سياسي ، واعتقد اننا يمكن ان نحرر البلاد بالعقل والمنطق» .

لقد كان الهدف الاساسي الذي انشئت م. ت. ف. من أجله هو احتواء مواصلة غارات الفدائيين ضد اسرائيل وشن حرب عصابات واسعة لتدمير الدولة اليهودية. فالعالم العربي لم يكن يريد ان ينجر الى حرب جديدة مع اسرائيل من قبل الفلسطينيين الثائرين . فان لم يكن بالإمكان تجنب الحرب ، فان مصر هي التي ستختار المكان والزمان . وفي شهر كانون الاول ١٩٦٤ دعا الرئيس جمال عبد الناصر ثلاثة عشر زعيما عربيا لحضور أول قمة عربية في القاهرة . وقد استغل الرئيس عبد الناصر قيام اسرائيل بتحويل المياه من بحيرة الجليل الى صحراء النقب - الامر الذي قد يؤدي الى زيادة ملموسة في عدد سكانها - فاعلن ضرورة وجود

مجموعة فلسطينية رسمية لمحاربة الاسرائيليين ، يكون ذراعها السياسي م. ت. ف. في حين ان الجانب العسكري - الذي لن يكون جيشا مستقلا وانما كتائب تحت قيادة الحكومات العربية - سيسمى جيش التحرير الفلسطيني . اما كلمات ميثاقها الجديد الذي أقر بالاجماع حينما عقدت م. ت. ف. مؤتمرها التأسيسي في القدس في شهر ايار ١٩٦٤ فقد كانت لاذعة قاسية مثل نبرة الشقيري الطنانة ، وكانت جزءا من محاولة عبد الناصر لتأسيس منظمة تتحدث باسم الفلسطينيين ولكن تحت السيطرة العربية .

وفي حين كان داوود ميخائيل يساعد الشقيري على اقامة المجموعة الجديدة ، كانت حنان تمرّ في تجربة تحولها السياسي . فقد بدأت دراستها الجامعية في الجامعة الامريكية في بيروت ، وتستذكر «كانت هناك يقظة طبيعية عام ١٩٦٤ حينما ذهبت الى لبنان . لقد عشنا حياة آمنة ولم أر مثل هذه القذارة والالم والمعاناة والرثاء الكبير» . ومثل المئات من رفاق الدراسة ، التحقت حنان بالاتحاد العام لطلبة فلسطين .

مع ذلك ، فان نماذج حنان ورفاقها لم تكن الشقيري ورفاقه ، بل قادة مجموعة جديدة تشكلت كرد على م. ت. ف. التي أنشأها الشقيري ، أي منظمة فتح . لقد اشتق هذا الاسم من عكس الكلمة العربية حتف التي ترمز الى (حركة التحرير الوطني الفلسطيني) .

كانت قوة فتح تتمثل في قدرتها العسكرية ، فاذا رمزت فتح الى شيء ما ، فانما الى استقلالها عن الدول العربية . وقد ازدرى قادة فتح م. ت. ف. المعتمدة على مصر ، الامر الذي قادهم الى تخطيط أول عمل عسكري لهم ضد اسرائيل ، والمتمثل في تخريب تمديدات مائية اسرائيلية عام ١٩٦٥ ، وهو ما جعلهم وبسرعة ابطال جيل جديد من الطلبة الفلسطينيين .

في أواخر سنوات الستينات ، بدأ الفلسطينيون في مخيمات اللاجئين في بيروت بالثورة ضد الحكومة اللبنانية التي كانت سنة ١٩٤٨ تفرض عليهم حظر تجول ليلي وتخضِع المخيمات تحت سيطرة بوليسية سرية صارمة . يقول نبيل شعث مستذكرا : «لقد طرحوا كل قيود البوليس اللبناني ، وتوقفوا عن اطاعة الاوامر ، وبين عشية وضحاها ، قاموا ببناء بيوت حجرية واسمنتية بدلاً من خيامهم

والبراكسات المصنوعة من الصفيح» . ونبيل كان استاذا لادارة الاعمال في الجامعة الامريكية في بيروت ، وهو اليوم مستشار سياسي لرئيس م. ت. ف. ياسر عرفات . ويضيف نبيل شعث ان البناء المفاجىء للمباني الدائمة «ليس اشارة الى أننا نريد العيش هناك الى الأبد ، ولكنه توكيد بطريقة ما لهويتنا» . وقد أجبرت الثورة القيادة الوطنية الجديدة لمنظمة التحرير الفلسطينية على تحمل مسؤولياتها لادارة المخيمات ، ويضيف : «كما انها عملت ايضا على ترويج الثقافة الفلسطينية» وذلك حينما اكتشف الكتاب المسرحيون ، والشعراء ، والفنانون تراثهم الفلسطيني فجأة. ومع تحرير المخيمات بدأت مسؤوليات جديدة ، وكان متوقعا من كل الطلبة الاعضاء في الاتحاد العام لطلبة فلسطين ان يسجلوا في مكتب فتح في بيروت للقيام بالاعمال التطوعية في المخيمات . وقد اشتملت المهام الموكولة اليهم التدريب على الصناعات اليدوية ، التدريس في المدارس ورياض الاطفال ، وتعريف النساء بحقوقهن ومسؤولياتهن الجديدة ، ومرافقة الطواقم التلفزيونية الاجنبية لزيارة المخيمات المحررة حديثا .

عملت حنان كمتطوعة في مخيمي برج البراجنة ، وتل الزعتر ، اكبر مخيمات اللاجئين في بيروت ، فقامت بتدريس «ما نسميه تنمية الشعور والوعي السياسي» كما اسندت اليها مهمة مرافقة الصحفيين في المخيمات . يقول شعث : «كانت فتاة الطبقة الارستقراطية المتوسطة النموذجية ، لديها أموال تصرفها ، وتعيش في مباني الطلبة ، وتستمتع بالحياة الجامعية» ومثل العديد من طلبة الجامعة الامريكية «بدأت تدريجيا تدرك الشعور بهويتها الفلسطينية» كما يقول شعث . ويستذكر باري دنزمور مراسل تلفزيون ABC الامريكي ان حنان عينت لمساعدة طاقم فيلم «فلسطين : دولة جديدة في الذاكرة» وهو برنامج انتجه مع بيتر جيننغز المشرف الحالي لـ "The ABC Nightly News" . وكان هذا الفيلم الوثائقي - ومدته ساعة - أول فيلم امريكي يعرض على شاشات التلفزيون الامريكي ويظهر نظرة تعاطف مع الفلسطينيين ، ويذهب الى ما هو أبعد من الصورة الشائعة عن الفلسطينيين كارهابيين ولاجئين . وقد قُدم نبيل شعث في الفيلم - وهو ابن مصرفي مصري - كواحد من ثلاثة فلسطينيين . ويستذكر دنزمور حنان : «كان دورها في المشروع مساعدتنا في مقابلة الشخصيات الفلسطينية الهامة ، وأخْذنا الى بعض مخيمات اللاجئين ، وبشكل أساسي العمل معنا كضابط ارتباط» .

ويضـيـف : «كـانت بيروت في تلك الأيام باريس الشرق وكانوا جميعهم يرتدون اكـثـر الازياء فـتنة وسـحـراً» . ويقـول جيننغز ان بيروت : «كان يعيش فيها كل الفلسطينيين الانيـقين ، في حين ان عمان كانت تعتبر مكانا عاديا جدا للعيش فيه» . وتوافق حنان على انه ، وعلى الرغم من القـذارة والمجـاعة ، فان بيروت برومانسية مـينائها على البحر المتوسط ، وأبهة متاجرها ، أصبحت مغناطيسا لن تتحرر منه . وحـتى بعد حصولها على شهادة البكالوريوس عام ١٩٦٨ ، تقـول : «لم أستطع العودة الى الوطن . أحسست انه يجب اكمال العمل ، وببساطة ، لم أدرك كم كانت تعني فلسطين حـتى رأيت الناس الذين جـردوا من كل شيء . لقـد أحـسـست ان القضية الفلسطينية لم تعد فكرة تجريدية او جزءا من ماضي والديّ ، فقد أصبحت قضيتي . لقد أدركتها شخصيا» .

في خريف ١٩٦٩ حضرت حنان المؤتمر الأول للاتحاد العام لطلبة فلسطين الذي انعـقـد في عمان : «اذكـر انه كـان هناك مـا بين مـائتي الى ثلاثمائة شاب ، وكنت الانثى الوحـيـدة بينهم» . وكـانت ردة فـعل الرجـال مـتوقعة ، اذ كانوا يهمسون خلفـهـا : «آه ، اتكلوا على فلسطينيي لبنان فـقد احضروا امرأة معهم !» . ان كونها امـرأة ـ والناطقـة باسم فرع لبنان للاتحاد العام لطلبة فلسطين ـ ألقى عليها عبئاً جـديدا . وتسـتـذكر قائلة : «كان علـيّ أن أثبت انني جادة . لقد انتخبت لعضوية مختلف اللجـان ، وذلك كي اثبت لهم انه ليس من التـفاهة ان تكون هناك امرأة» . وفي ذلك المؤتمر الذي انعقد في عمان التقت حنان للمرة الأولى بياسر عرفات ، القائد الجـديد لمنظمة فتح . وظهرت صورتها معه في صحيفة النهار اللبنانية «ثم جلسنا وتحدثنا . وفي المقام الأول ، كانت هناك قضية الكفاح المسلح» .

كانت تلك الايام أياما جامحة بالنسبة الى م. ت. ف. ففي ٢١/٣/١٩٦٨ حققت انتـصـارها الهام . مـسـتخدمين كامل قوتهم المدرعة ، والمدفعية ، والمشاة ، قامت القـوات الاسرائيليـة وكـذلك سلاح الجو الاسرائيلي بمهاجمة بلدة الكرامة الاردنية ، التي كـانت تسـتـخـدم كنقطة تجـمع لشن غارات الفدائيين ضد الدولة اليهودية . وعـلى الرغم من ان الاسرائيليين دمـروا البلدة ، إلا أنهم واجـهـوا قـوة فلسطينيـة كـبيرة جداً في وادي الاردن ، كـانت غـالبـيتها تعمل تحت حماية الجيش الاردني النظامي ، وبشكل لم يكونوا يتـوقـعونه . وحينما انسحبوا في النهاية ، فان ميدان

المعركة كان مفروشا بهياكل الدبابات الاسرائيلية وجثث الشبان الاسرائيليين ؛ فوفق حساباتهم كانت خسائرهم ٢٨ قتيلا و ١٠٠ جريح ، في حين اعلن الجيش الاردني انه قتل ٢٠٧ جنود و٩٧ فدائيا فلسطينيا . وعلى الرغم من ضريبة الموت غير المتوازنة ، فانه نُظِرَ الى المعركة على انها انتصار كبير للفلسطينيين ، ثم حولت الى انتصار اعلامي اكبر حينما أقام ياسر عرفات مأتما شعبيا في عمان للفدائيين المتوفين . فقد اصطفت عشرات الآلاف من الفلسطينيين في الشوارع ، صابين جام غضبهم على الاسرائيليين .

وخلال بضعة شهور ، أصبح من الواضح ان الفلسطينيين داخل الاردن أصبحوا يشكلون قوة لا يمكن ضبطها ولا السيطرة عليها . وحينما قام الجنود الاردنيون يوم ١٩٦٨/١١/٤ بمهاجمة جبل الاشرفية وجبل الحسين ـ وهما مخيما تدريب يعودان للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ كان ذلك بمثابة البرهان الدامغ على أن عدوهم الحقيقي كان الاردن وليس اسرائيل . وحتى على الرغم من ان المعركة تلك كانت بين الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وبين الجيش ، فان عرفات هو الذي نظر اليه على انه صاحب الدور الرئيسي في المعركة . وموقفه كان قد أصبح أكثر قوة من حيث ان فتح لديها عدد كاف من الاصوات للسيطرة على الحركة . وفي شهر شباط ١٩٦٩ ، سمي ياسر عرفات رئيسا لمنظمة التحرير الفلسطينية ، تلك المنظمة التي تحولت من كونها أداة بليدة بيد الدول العربية الى سلاح مميت بيد الفدائيين .

تقول حنان مستذكرة راديكاليتها المبكرة : «كان التركيز على هذا . الى حد ما كنت محبة للغير جدا ومثالية» . ومثل آلاف الفلسطينيين الشبان الآخرين ، آمنت حنان أن واجبها يتمثل في استعادة كل فلسطين . ففي سن الثانية والعشرين كانت حساسة وسريعة الانفعال مثل رفاقها الفلسطينيين الذكور المقاتلين .

وتذكر انه في المؤتمر الاول للاتحاد العام لطلبة فلسطين كان هناك قائدان ما يزال لهما اثر كبير عليها بل واكثر من عرفات ، لانهما أقسما على تدمير اسرائيل : «الشخصان اللذان كان لهما اكبر الاثر في نفسي هما أبو اياد (صلاح خلف) وأبو جهاد (خليل الوزير) . ابو عمار (عرفات) كان له هذا النوع من الهالة كرمز» . وتعترف حنان انها كانت عضوا في منظمة فتح ، لكنها اليوم لا ترتاح حينما تطرح

قـضـية العضوية تلك ، وتشير اليها بصعوبة ، وتقول بوضوح : «كنت عضواً ثم تركت ... لقد قررت العمل بشكل مستقل ، ولكنني كنت معهم لفترة طويلة» .

حـينما عـادت حنان الى بيروت في ذلك الخـريف ، حـدث شيء مـا بحـيث لفت انتـباهها الى الكفاح المسلح بطريقة اكثر شخصانية وموجعة للنفس ، وربما قادها فـيما بعد الى التحرر من سحر فتح ، وتغيير موقفها تجاه استخدام السلاح . ومع ذلك ، فـانها ليـست ضد الحرب والعنف . تقول : «حتى لو انك شعرت بطريقة ما انه يجب عليك اجـتـيـاز مرحلة من المراحل ، فانني لا أحب ان تستخدم السلاح ، فلدي اشـمئزاز شخصي منها ، وأكره رؤيتها ، بل وأكره التعامل معها» .

أظهـرت حنان إحـساسها ومشاركتها في المعاناة في مخيمات اللاجئين ، ولكن لا أحد يستطيع أن يتنبأ بالاثر الذي سيتركه لديها اختفاء ابن عمتها اذ كان نموذجها وقـدوتها بعـد والدها . كـان اسمه حنا ميخائيل ، وكان مستنفذ القوى هائما بين توأمين هما الثـقـافة والسياسة ، ويعيش الصراع المؤلم المتواصل للاختيار بينهما . وهو الابن الوحـيـد لشـقـيقة والدها ، ويكبر حنان بستة أعوام . كان قصير القامة ونـحـيف البنيـة ، أصلع الرأس قليـلا ويضع نظارات. غـادر رام الله سنة ١٩٥٥ حـينما كـان يبلغ السادسة عشرة من العمر للدراسة في الولايات المتحدة الامريكية حـيث عُرف هناك باسم جـون حنا ، وسرعـان مـا أصـبح في طليـعة ابناء صفه . وسيرة حـيـاته المهنيـة كـانت نمـوذجـا لقصة النجاح الفلسطيني : فقد تزوج من أمـريكيـة ، وحـصل على شـهـادة الدكتوراة من جامعة هارفارد ، وتخرج بامتياز فائق ، فعرض عليه منصب تدريسي في جامعة برينتسون .

كـان هيـوم هوران - وهو دبلومـاسي امريكي - صديقا لحنا حينما كانا كلاهما طالبين في مـرحلة الدراسـات العليـا ، وكـان الفلسطيني يعـمل مـساعد تدريس في مـركـز الشرق الأوسط في جـامـعـة هارفارد . ويستذكر هوران : «كان من نوعية الانسـان الساحر جداً ، كان مرحاً وصادقا يتمتع بالصراحة والاستقامة والحيوية» وعلى النقـيض من المثـقفين العرب الآخرين - الذين اصبحوا متطرفين بفعل أحداث الفترة ما بين ١٩٥٨ و ١٩٦٠ ، بما في ذلـك الثـورة التي أطاحت بالنظام الملكي في العـراق - فـان حنا ، وكما يذكـر هوران «لم يكن الرجل السياسي ، ولم يكن هناك تكشير عن الاسنان ، ولم تكن لديه مـشكلة شـخصية كتلك التي كانت لدى بعض العرب الموجودين في الجامعة» .

في برينستون ، قام حنا بتدريس مساقات في العلوم السياسية والعلاقات الدولية ، والتي كانت من بين المساقات الاكثر شهرة في الجامعة ، وسرعان ما طلب اليه الظهور كضيف مشارك في البرنامج التلفزيوني (The Advocates) وهو برنامج تلفزيوني يعرض مناظرات ومناقشات حول قضايا عالمية ، بما في ذلك الصراع في الشرق الاوسط . وسرعان ما أثبت وجوده ومصداقيته كمتحدث فعال باسم الفلسطينيين . تقول هدى : «كان يشبه حنان ، أو أن حنانا تشبهه ... كان لا يمتلك الا الحقائق فقط ، وكان جيداً جداً في عرض القضايا على التلفزيون في وقت لم يكن يسمح فيه أحد لفلسطيني ان يقول شيئاً» .

في أواخر سنوات الستينات ، بدأ حنا ميخائيل بالسفر بشكل منتظم الى بيروت ، حيث أصبح من الصعوبة اكثر فأكثر بالنسبة اليه الحفاظ على الانفصال الفكري عن التدريس في جامعة برينستون .

ويستذكر نبيل شعث ـ الذي كان استاذاً في الجامعة الامريكية في بيروت في ذلك الوقت ـ ان الحالة النفسية في بيروت في أواخر سنوات الستينات كانت في حالة من النشاط: «كانت هاتان السنتان [١٩٦٨ و ١٩٦٩] سنتين من الرومانس بالنسبة الى الفلسطينيين الآتين مباشرة بعد هزيمة العرب سنة ١٩٦٧ . لقد أحس الفلسطينيون بحالة انبعاث ، وظهور جديد ، وولادة جديدة ، وشعروا كأنهم مسؤولون عن تحرير العالم العربي كله وليس فلسطين فقط . كما أحسوا أن فلسطين كانت مركز الاشياء ، وفي قلبها ، وكانوا فخورين من جديد بكونهم فلسطينيين» .

وقرر حنا أن مكانه هناك ، مع شعبه في مخيمات اللاجئين الخربة ، وليس في رابطة زملائه الجامعيين الاكثر تهذيبا وثقافة . تقول هدى : «كان معروفا تماما لدى الاوساط الاكاديمية لكنه ترك ذلك كله وذهب الى لبنان . أراد ان يخدم القضية وان يعيشها» . في بيروت كان حنا ميخائيل انموذجا للتضحية بالذات . كان يمتلك فقط بذلتين كلتاهما من البذلات الكاكية ، وعاش في غرفة صغيرة بالقرب من المخيم . وطلق زوجته الامريكية الشقراء وتزوج [فتاة من الحركة] . ويستذكر شعث : «لقد ساعدنا جميعا بتقديم قطع بسيطة من الأثاث» لبيته المصنوع من الصفيح . توجه حنا للعمل في مركز التخطيط التابع للدائرة السياسية

في م. ت. ف. الذي يرئسه شعث ، لكنه قضى معظم وقته في مخيمات اللاجئين حيث كان يساعد في تنظيم وتعليم الفدائيين .

وخلال أسابيع من توليه مهامه الجديدة ، أصبح حنا واحداً من المستشارين الاساسيين لرئيس م. ت. ف. ياسر ، آخذاً على عاتقه مهمة الناطق الصحفي ورئيس التخطيط السياسي . ومثل الكثيرين ، عمد الى تمويه هويته الحقيقية ، فدعا نفسه باسم (ابو عمر) . يقول نبيل شعث : «كان انموذجاً واضحا للنقاء والتفاني ... لم يكن فريدا في ذلك ، ولكنه انموذج رئيس للطبقة الارستقراطية المتوسطة : فلسطيني ذو ثقافة امريكية تخلى عن كل شيء ليعود الى وطنه للعمل من أجل شعبه . ولم يعرف أحد ـ من خلال الطريقة التي كانت يتحدث بها ومن خلال هيئته ـ انه هو جون حنا ميخائيل من جامعة برينستون» ويؤكد شعث ان إخلاصه للقضية كان كاملا : «لم يساوم أبدا ، ولم يشتر سيارة قط ، وحتى حينما تزوج فانه لم يأخذ مرتبا قط ، بل كان يأخذ مكافأة فقط كلما احتاج» . وتقول هدى موضحة : «كان يشعر أنك اذا أردت النضال والعمل من أجل القضية، فان من الواجب عليك أن تعيش مثلهم من أجل أن تفهم ما يحدث لهم . كان مصروفه اليومي عشرة قروش (عشرة سنتات) . هذا كل ما في الأمر» . وتستذكر حنان ان ابن عمتها كان «جائعا معظم الوقت لانه رفض ان يأخذ اي أموال من الثورة . وكطالبة ، كان لدي طعام أفضل وشقة أفضل ، ولذلك اعتدت البحث عن أي ذريعة من أجل إحضاره الى بيتي في شارع بليس واطعامه» .

لم ير هيوم هوران صديقه القديم خريج جامعة هارفارد منذ ما يزيد على عقد من الزمن الا حينما عاد هذا الدبلوماسي الامريكي الى الاردن : «لقد سمعت انه التحق بالثورة الفلسطينية» هكذا يستذكر ، ولكنه لم يعرف اين كان . ففي ذلك الوقت ، عين هوران كموظف سياسي في سفارة الولايات المتحدة الاميركية في عمان وكانت مهمته تعقب ومتابعة الفلسطينيين : «كانت تلك الأيام أياماً متهورة بالنسبة اليهم قبل صدام ايلول ١٩٧٠ بين الجيش والفدائيين» هكذا يقول هوران متحدثا عن سلسلة من المعارك التي أصبحت تعرف في التراث الفلسطيني باسم «ايلول الاسود» . وعلى الرغم من ان مهمته كانت الاحتفاظ باتصالات هادئة مع «الجهات المتطرفة في م. ت. ف.» الا ان هذا الدبلوماسي الامريكي تعمد أن لا يقوم بأي محاولة للعثور على حنا ميخائيل ، اذ يقول : «لقد كان آخر شيء أردت القيام به

هو زيارة شخص مثله ، لأنني أخذت في اعتباري ان ذلك الأمر سيؤدي الى احراجه مع رؤسائه . لقد تحمل ما فيه الكفاية من عبء مع زوجة امريكية سابقة وكونه مسيحيا ، وذهابه الى جامعتين امريكيتين رئيستين» .

لكن بعد الانفجار الكبير الاول للقتال في عمان ، تمكن الرئيس المصري جمال عبد الناصر من ترتيب وقف لاطلاق النار ، وأراد وصفي التل ، رئيس وزراء الاردن الجديد انذاك ان يتأكد من تعاون م. ت. ف. لذلك ، وفي مطلع شهر تشرين الاول طلب من منيب المصري - وهو نابلسي موال للأردن وصديق مقرب لياسر عرفات - ان يعمل على ترتيب لقاء بينهما . ولما شاع خبر ذلك الاجتماع ، توجه هوران بسيارته مع أحد مساعديه ، من أجل إعداد تقرير عن لقاء التل - عرفات . وعقد ذلك اللقاء في فيلا في ضواحي عمان ، ويستذكر هوران : «لم يكن المكان فاخراً على الاطلاق ، وانما يشبه أرضا لا صاحب لها ، مع وجود مجموعات من رجال الامن على كلا الجانبين» . واذ أشار بجواز سفره الدبلوماسي الامريكي ، فانه تمكّن من الدخول إلى الفيلا لحضور المؤتمر الصحفي الذي ترافق مع توقيع «واحدة من اتفاقاتهم الكثيرة الخاصة بوقف اطلاق النار» .

ويستذكر هوران : «وحالما جلس المسؤول الاردني وعرفات ، جلت بعيني ، وهناك كان حنا ميخائيل» وتسمرت أعينهما ، وعرف كل منهما الآخر ، غير أن أحداً منهما لم ينبس ببنت شفة : «وفكرت في أن أتصرف بهدوء . وقلت في نفسي : انها قضية انسان» . ومع ذلك ، وحينما غادرت مجموعة م. ت. ف. الغرفة متجهة نحو موكب السيارات ، توقف حنا ميخائيل قبالة هوران مباشرة ، و«باندفاع تقريبا ، صافحني ، وقال : دعني أتمنى لك حظا جيداً يا هيوم بقدراتك الشخصية» . ولقد تأثرت فعلا . فمصافحة امريكي ، وبوجه خاص ضابط سياسي في السفارة ، تحتاج الى الكثير من الشجاعة . وقلت : «حنا ، دعني اتمنى لك كصديق ، لقدراتك الشخصية ، وسعة صدرك ، افضل حظ وسعادة» .

ولم ير الصديقان بعضهما مرة أخرى . وبعد مرور أسابيع عديدة ، طُلب الى هوران أن يعد تقريرا الى وزارة الخارجية الامريكية عن صديق الدراسة الحميم : «لقد قيل لي : [لماذا لا نلقي نظرة على أحوال حنا ميخائيل؟] كنت أعتقد أن هناك اتصالات أخرى ، فرجال م. ت. ف. هؤلاء يخرجون من الجدران ، ولم أكن أرغب فعلا في مضايقته ، فقلت لهم : دعوه وشأنه» .

لا أحد في عائلة ميخائيل يعرف على وجه الدقة ما حدث لحنا ميخائيل . تقول هدى : «لقد اختفى تماما . يقولون من المحتمل ان يكون قد قتل على يد اللبنانيين ، وربما الاسرائيليين» ويقول نبيل شعث أن آخر مرة رآه فيها كانت سنة ١٩٧٦ وخلال الشهور الاولى من بدء الحرب الاهلية اللبنانية . كان في مهمة الى طرابلس ـ عاصمة مسلمي شمال لبنان ـ لمساعدة الفلسطينيين على تنظيم أنفسهم من أجل مقاومة حصار متوقع سيفرض عليهم . ويضيف شعث : «كان دائما يذهب الى مخيمات اللاجئين التي تكون في مأزق» . كان من المفروض ان يسافر من بيروت بالقارب ، لأن قوات حزب الكتائب كانت تحاصر الطريق الذي يوصل الى طرابلس، ولم يعد أحد من الفلسطينيين الاثني عشر الذين كانوا معه على متن القارب . ورغم ذلك فان زوجته الفلسطينية جيهان الحلو لم تفقد الأمل ، اذ يقول شعث : «فهي ترعى الحلم بانه وقع في أيدي قوات حزب الكتائب ، الذي سلّمه الى جهة ما ، لدرجة انها ما تزال غير متزوجة منذ عشر سنوات» . اما الدبلوماسي هوران الذي أصبح فيما بعد سفيرا للولايات المتحدة الامريكية لدى المملكة العربية السعودية والسودان فقال : «لم نتسلم جثته أبداً ... هناك شخص واحد يعرفه ـ صديق من الكويكر ـ أخبرني انه بعد القاء القبض عليه عذب حتى الموت» . لقد نشأ جون حنا ميخائيل ، وحنان ميخائيل معاً وكبرا مع بعضهما عن قرب خلال تلك السنوات في بيروت . ولن تنسى المثل والقدوة التي رسمهما للفلسطينيين أو العمل الذي قام به كناطق شخصي باسم عرفات .

ومنعت حنان من العودة الى الضفة الغربية ، فتركت بيروت سنة ١٩٧٠ لتبدأ دراساتها العليا في أمريكا ، اذ انها لم تعد تستطيع العودة الى وطنها لأن اسرائيل منعت الفلسطينيين الذين كانوا خارج وطنهم خلال حرب حزيران ١٩٦٧ من العودة الى وطنهم . تقول حنان : «لقد أُجبروا على المغادرة لانه لم يكن لديهم ما تسميه اسرائيل تصاريح الدخول للعيش في المناطق المحتلة . هذا هو ما نسميه التهجير الخفي ... الترانسفير الصامت» .

حصلت حنان على درجة الماجستير في نقد نصوص أدب عصر النهضة ، وتم قبولها في برنامج الدكتوراة لدراسات العصور الوسطى في جامعة فيرجينيا . ومع مرور الوقت ، عادت الى رام الله سنة ١٩٧٣ بعد إجراء إحصاء اسرائيلي جديد لعدد السكان ، واقرار قانون جمع شمل العائلات ، وكانت حنان قد تغيرت كلية .

تقـول هدى : «لقد توقفت عن الاهتمام بالشكل الذي سيبدو عليه مظهرها . كانت ترتدي اكـثـر الملابس تواضـعـا : بنطالاً من القطن المخـملي ، وحذاء منبسطا . ان الفتاة الساحرة أصبحت طالبة وقورة ونشطة متفانية» .

في السنوات الثـلاث التي قضتها في امريكا درست حنان الاعمال الادبية الرائعة لأدب العـصـور الوسطى الانكليـزية . فقد درست (حكايات كانتربري) لتشوسر ، والملحـمـة الانكليـزية القـديمة (بيوولف) . وبجانب سريرها كانت تحتفظ بأشعار (ييـتس) و(أودن) وكتابات العلماء الماركسيين . وكانت بداية سنوات السبعينات في امـريكا سنوات ثورة الطلبـة ضد حرب فيتنام ، فأضحت حنان جزءاً منها . كانت نشطة في اتحـاد الطلبـة السـود ، وغـالبـا مـا كانت تنضم الى مسيرات الاحتجاج وتتكلم جهاراً ضد القمع الاستعماري لشعبها وكذلك للفيتناميين . كذلك ، أصبحت مدافعة صريحة عن نظرية المساواة بين الرجل والمرأة ، وبدأت تكتب الشعر . يقول هويت ن. دوغان المشرف على أطروحتها متحدثا الى مجلة People : «في البداية كنت أشـعـر بالخوف من ان لا تعمل بشكل جيد بسبب اهتماماتها الخارجية كلها ، ثم اكتشفت انها تدرّس بعض طلبة الصف في اوقات فراغها» .

ويتـحـدث زمـيلهـا مارتين كنغ الى صحيفة الواشنطن بوست ، فيقول : «كانت تأخذ أصدقاءها الى واشنطن دي. سي. بسيارتها القديمة ، وتجلس معهم لتناقشهم سـاعـات في مـقـهى كـريسـتال سيتي في شارع كونيكتيكت» . ويضيف : «كانت اسـتـفـزازية على الصـعيد الفكري ، وتتحدى أي شخص لمناظرة سياسية جيدة ، تسـتطيع دائما أن تربحـهـا بقوة الاقناع ، أو باللباقة ، أو بسحر لا يصدق . ومع هذا ، فـانه كان ما يزال لديها متسع من الوقت لتمتع نفسها ، وتأخذ الاصدقاء في رحلات لتسوق الملابس والمجوهرات التقليدية» .

في عام ١٩٧٣ حـينما اقـرت الحكومـة الاسرائيليـة قانونا جديدا يسمح بجمع شـمل العـائلات ، أصـبح باسـتطاعـة حنان العـودة لأول مرة بعد ست سنوات . وهناك في رام الله ، تسلمت الفـتـاة البـالغـة من العـمـر خمسـة وعشرين عـاما ، والمرشـحـة للحـصول على شهادة الدكتوراة ، منصب رئيس دائرة اللغة الانكليزية في جـامعة بير زيت ، حتى أصبحت في آخر الامر عميدة كلية الآداب . وعلى الفور ، وكما يقـول بيتر جـيننغـز : «أحـست بضغط الاحتلال لانها حينما كانت تعود الى

البـيت في الليل ، كـان الاسرائيليـون الموجـودون في السـجن الكائن قبـالة منزلها يتـبـعـونها الى داخل البـيت بالاضواء الكشافة وتسليطها على غرفتها» . وفي شهر تشرين الاول اندلعت حرب جديدة حينما شنت القوات المصرية هجوما على اسرائيل عـشـيـة أقـدس أيام أعـيـاد اليهود ، وهو يوم الغفران . وكانت الحالة النفسية في اسرائيل حـالة انتـقـام وغضب ضد الفلسطينيين الذين ابتهجوا للانتصارات الاولى التي أحرزتها الجيوش المصرية . ومع ذلك ، وبالنسبة الى حنان ، فان ذلك الصراع الجـديد عـزز المعتقدات الحمائمية التي طرحتها في الخارج ، اذ تقول : «اتذكر بدء التـحـدث الى الاسرائيليين في سنوات السـبـعينات ، واتذكر بدء التفكير آنذاك في حل يتـمثل في دولة مزدوجة الجنسية : إذا اردت مستقبلا لفلسطين فعليك قبول وجود اسرائيل» .

تمحـور عملها المبكر حول ايقاظ وعي المرأة نحو التحدي الثنائي الذي يواجهها والمتـمـثل في نبـذ نير الاضطهاد الاسرائيلي ، بالاضافة الى الكبت الذي تعانيه المرأة العـربية على يد العالم العربي : «ان التحرر وتقرير المصير ليسا فقط مظهرين من مظاهر الوطنيـة الفلسطينيـة ، وانما ايضـا لهما مـعنى شـخصي بالنسبة الى آلاف النسـوة اللواتي يكاد دورهن يتـحـدد كلية على يد القوى الذكورية المسيطرة باكثر مما ينبغي» .

ان العديد من الفتيات اللواتي نشأت حنان معهن لهن حياة اسلامية انموذجية ، فـهن لم يتلقين على الغـالب الكثير من التـعليم ، تزوجن في سن تبلغ الثامنة عشرة تقـريبـا ، وأنجـبن الكثير من الأطفال ، ويتمحور عالمهن حول البيت . وفي حين أن أزواجـهن يذهبون لتحصيل قوت حياتهم أو القتال ، تجلس اولئك النسوة في البيت يصلين ، ويذرفن الدمـوع . وقد أخذت حنان تبشر برسالة جديدة عن التعايش مع اسرائيل والتـحـرر الشـخصي ، ولم يكن ذلك الامر من النوع الذي أراد الأصوليون الاسـلامـيـون سماعه : «لقد اعتدنا وجود هذه الندوات ، حيث كنت ومجموعة من الاصـدقـاء نـذهـب الى غـزة ، جـنـين ، نـابلس ، والى أمـاكن أخـرى لنعطي هذه المحـاضرات . في غـزة ، وحينما تحدثنا عن حقوق المرأة ، هوجمنا بشراسة من قبل شيخ من المسجد قال ان هؤلاء الناس يدافعون عن الفسق» .

ان التـزام حنان بتـحـرر المرأة كـان نتـيجة الحب الشديد لقضايا التحرر التي

اعـتنقـها والدها . تقول هدى موضحة ذلك : «لقد أصبح اكثر تحررا بعد أن أنجب الفـتاة تلو الأخرى ... ولما لم يكن له ولد ، فقد عاملنا وكأننا كنّا ذكورا» . ويتذكر بيتر جـيننغـز أيضـا انه قـضـى الكثير من الوقت مع داوود مـيـخائيل حينما قام بزيارة حنان ، فـيـقـول : «لقـد اعتدت الذهاب وزيارة والدها كثيرا لانه كان طبيبا مـهما جداً في رام الله ... كـان سـاحـراً بكل مـا في الكلمة من معنى ... لقد أصبت بالمرض حـينما كنت ذات مـرة هناك ، فـاعـتنى بي عناية مـدهشـة في عـيادته» . وحـينما توفي داوود سنة ١٩٨٨ عـثـرت حنان وشقيقاتها على دفتر مذكراته التي كـان يدونها خـلال دراسـتـه في الجامعة ، فاقترحن ان يقوم المطران بقراءة مقاطع منهـا في حـفل تأبينه في شـهـر كـانون الأول . ومن بين تلك المواد المدونة ، تقول واحدة :

«يجب ان لا تكون هناك جـوازات سـفـر ولا حـدود ولا جـنسـيـات مختلفـة لاننا جميـعـا لدينا جـواز سـفـر الانسانية» .

وتقول واحدة أخرى :

«للمـرأة الحق في المسـاواة . انها ليـست هبة ان الرجال يمنحـون المرأة حـقـوقـهـا ، وإن لم يدرك الرجال هذه الحقيقة ، فان المرأة في كل مكان سوف تنهض وتناضل لتكسب المسـاواة ... وحـالما ينجـزن ذلك فـان الرجـال سـوف يحـذرون من الظلم الذي عـانينه طويلا جـدا ، وبخاصة حينما تتسلم مقاليد السلطة !»

تقول حنان : «كان اول نصير لحقوق المرأة عرفته» .

خـلال أسـابيع من عـودتها الى رام الله تعـرفت حنان بواسطة شقيقتها ناديا ـ وهي ممثلة مسرحـيـة ـ على إمـيل عشراوي ، وكان طبّالا في فرقة لموسيقى الروك تدعى (بلومز) . يقول اميل الذي يعزف الغيثار أيضاً : «لقد عزفنا موسيقى الروك مع الانغام العربية . لم نكن فعلا نعلم كيفية عزف الموسيقى العربية» . وفيما بعد أصـبح إمـيل مـصور أفلام سينمائية ، وممثلا مسرحيا ، وهو اليوم يكتسب رزق عـيـشـه من عمله كمصور فوتوغرافي لدى وكالة الامم المتحدة لانعاش اللاجئين في

القدس . كان إميل أصغر من حنان بأربع سنوات ، غير انهما إنجذبا الى بعضهما البعض بالحال . تقول حنان لمجلة People انها تأثرت بطلعته ، وعلى نحو خاص بوجهه الوسيم الأخاذ ، وبلحيته القصيرة الناعمة ، وبشعره الطويل . وتتابع : «كان من الواضح أنه يعيش مع فنه ... وبقينا مع بعضنا منذ ذلك الحين» وبعد مرور سنتين ، أي في عام ١٩٧٥ ، تزوجا .

في ذلك الوقت ، أصبحت حنان معتادة على التوقيف والاستجواب من قبل السلطات الاسرائيلية في السجن الواقع قبالة منزلهم . وتتحدث حنان عن ذلك ، فتقول : «في بعض الأحيان كانوا يأتون ويأخذونني في سيارة عسكرية . وفي أحيان أخرى كانوا يرسلون استدعاء للمثول أمامهم . وذات مرة جمعونا في سيارة شاحنة . وقد اعتادوا تسمية ذلك بـ (إجراءات احترازية) . ففي ذكرى المناسبات الوطنية الخاصة بالفلسطينيين ، مثل : ذكرى يوم الخامس من حزيران أو الثاني من شهر تشرين الثاني ، كانوا يقومون بأخذ الفلسطينيين وتوقيفهم للحيلولة دون القيام بأي نشاطات . وقد اعتدت الذهاب الى هناك ومعي كتاب وسجائر وشوكولاته في حقيبتي لاننا كنّا نصر على أن لا نأكل شيئا يقدمونه الينا وان يكون لدينا شيء لنقرأه» .

مع بدء الانتفاضة ضد الاحتلال الاسرائيلي في شهر كانون الاول ١٩٨٧ ، قامت حنان بتشكيل صفوف سرية للطلبة في جامعة بير زيت ، وهي تلك الجلسات التي اتهمت بسببها من قبل الاسرائيليين بانها تستخدم لتعليم أساليب المقاومة . يقول مسؤول اسرائيلي رفيع المستوى في الضفة الغربية : «حنان عشراوي ليس لها أي اتصال بالميدان ، وليست لديها مجموعات ضاربة مثل فيصل ، ولم يكن لها أي اتصال مباشر مع منظمي أعمال العنف والشغب . ان أهميتها كانت تبدو اكثر في استراتيجية حرب الصور : كيفية تنظيم وسائل التحايل الجديدة لبيعها الى وسائل الاعلام» . ومع ذلك ، فان مدى تورطها المباشر في الانتفاضة يبقى قضية خلافية الى حد ما .

في ظل القانون العسكري الاسرائيلي الذي يحكم الاراضي المحتلة ، فان أي فلسطيني يمكن ان يعتقل وان يوضع قيد التوقيف الاداري لمدة سنة دون أن توجه اليه تهمة ودون أي محاكمة . ومع ذلك ، فان التهم كانت توجه عادة ضد

حنان بسبب مزاعم مختلقة مثل الاخلال بسلامة الأمن ، وخرقها لبنود جمع الشمل ، والتحريض على التظاهر ، بل وحتى تهديد أمن الدولة . تقول حنان هازئة: «أحسست انني انسان خطير جداً» . ومع ذلك ، فانها إن لم يتم ترحيلها مع حلول منتصف الليل من سجن تاغارت الكائن قبالة بيتها الى سجن آخر ، كان يطلق سراحها ، لأن سجن تاغارت كان للرجال ولا يمكن ان تحتجز النساء فيه طوال الليل . لكن التجربة الاكثر إذلالاً وخزيا لها حصلت صبيحة اليوم التالي لعرسها ، اذ تقول : «أرسلوا الاستدعاء الى بيت والدي الذي حضر اليّ عند الساعة السابعة صباحاً وقال : [خلال نصف ساعة ، فهناك استدعاء لك]» . وفي مناسبة ثانية ، تم تحديد موعد محاكمتها يوم الخامس والعشرين من كانون الأول: «كنا نتناول طعام غذاء عيد الميلاد وكان عليّ أن أغادر كي أقسم اليمين أمام القاضي» . وسأل القاضي الاسرائيلي حنان من أين أنت ، وحينما قالت له من رام الله ـ مدينة مسيحية كبيرة ـ أعطاها الانجيل ـ العهد الجديد ـ لتقسم يمينها عليه وقال : «[ما الذي يفعلونه : يعينون موعد سماع إفادتك يوم عيد الميلاد؟] ثم أصدر حكمه بالسجن لمدة ستة شهور أو دفع غرامة . وقام الاساتذة في بير زيت ـ نحو ثلاثة عشر منهم ـ بتقديم المال المطلوب لدفع الغرامة» .

ورغم انها كانت قد قضت في السجن فترة أقل بكثير مما قضاه آخرون عديدون فان التجربة لم تكن سهلة : «اليوم الذي كان هو الأسوأ بالنسبة إليّ كان حينما لم يتحدث أحد إليّ . وضعت في غرفة بلا شيء ، وجلست هناك طوال اليوم من الساعة السابعة والنصف صباحاً ، وحتى الثانية عشرة ليلاً من غير اتصال بالآخرين نهائيا . كان المحقق يقف عند الباب ، وينظر إليّ وهو يهز رأسه فقط دون أن يتفوه بكلمة . كان البرد قارساً ، ولم يكن معي كتاب ، ولهذا السبب نقول الآن دائما حينما يكون هناك شيء خطير ، جهز قائمة الكتب التي تريد ان تكون معك» . ولدى حنان الآن حقيبة صغيرة جاهزة لأخذها معها . وفي داخل الحقيبة يوجد عدد من الروايات التي تتحدث عن المساواة بين الجنسين وتصور المرأة على انها قوية وحازمة ، كما يوجد في الحقيبة ايضا كتاب للفيلسوف الامريكي هيربرت ماركوز الذي تجمع نظرياته بين الماركسية وعلم النفس الفرويدي ، بالاضافة الى كتاب للكاتب الكولومبي المفضل لديها والحائز على جائزة نوبل : الروائي غابرييل غارسيا ماركيز .

لا تدعي حنان انها عاشت الالم والمعاناة اللذين عاشهما العديد من الفلسطينيين الذين قضوا سنوات في مخيمات الاعتقال الصحراوية ، ولكنها تؤكد انها أدت واجبها . لقد نجت من الرصاص الذي أطلق في حرم جامعة بير زيت ، وشاهدت أربعة من تلامذتها يسقطون أرضا برصاص جنود الجيش الاسرائيلي . تقول : «سأخبرك عما هو الأسوأ في هذا ... انها القسوة ، فعلى الدوام لم يكن الامر ليتوقف عند المعاناة والألم ولكن كان هناك الاستفزاز ، والإثارة ، وانعدام الحرية وانعدام أي شعور بالأمن ، وانتقاص الحقوق . في أي يوم ، لا تستطيع أن تخطط لأي شيء ، لا يمكنك ضمان أي شيء ، تستيقظ وأنت لا تعرف اذا كنت تحت حظر التجول أم لا ، اذا كان ابناؤك سيذهبون الى المدرسة أم لا ، اذا كنت ستعتقل أو توقف أم لا ، أو من الذي سيقتل اليوم» .

وعلى الرغم من التهور والطيش في عمليات القتل بين الفلسطينيين انفسهم على ايدي بعضهم ، والهجمات الكلامية المتزايدة ضدها من قبل الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وحماس كيفما اتفق ، فان حنانا ، كما تقول : «تشعر أنها مرتاحة جداً ، وآمنة جداً بين أبناء شعبها» . وتعترف أن التجربة الاكثر رهبة تمت في شهر تشرين الثاني ١٩٩١ حينما تم استجوابها وفيصل الحسيني عن لقاءات «غير مشروعة» زعم انها قد تمت مع ياسر عرفات في الجزائر قبل شهر من ذلك . وقد جرى التحقيق في مقر الشرطة المركزي في بتاح تكفا ، وهو مركز يتمتع بأقصى درجات الأمن والحماية ، ويقع بالقرب من محطة الباصات الرئيسية في ضواحي تل أبيب . حينما وصلا ، كان بانتظارهما متظاهرون تابعون لثلاث مجموعات اسرائيلية مسلحة : (رحافام زيفي مولدت) التي تؤيد ترحيل الفلسطينيين كلهم من الضفة الغربية وغزة ، و(تسومت) التي تؤيد ضم اسرائيل للمناطق ، و(كاخ) التي يترأسها مئير كاهانا وهي مجموعة عرقية تعادي العرب بشكل واضح ، وتؤمن بانه يجب عدم السماح لهم بالعيش في أي منطقة داخل الدولة اليهودية .

وبينما كانت حنان وفيصل يجيبان عن الاسئلة شاهدا بشكل مفاجيء عدداً كبيراً من المدنيين الاسرائيليين المسلحين بالاسلحة الرشاشة المعلقة فوق اكتافهم وهم يدخلون الى الغرفة مهددين متوعدين . وقفت حنان ، وطالبت بمعرفة من الذي سمح لهم بالدخول ، فقيل لها ان هؤلاء ايضا تم استدعاؤهم للتحقيق ،

فتساءلت متشككة : «بأسلحتهم ؟!» . وتقول عن تلك الليلة : «ثم اتضح الأمر لي ، فقد عرفتهم . لقد شاهدتهم من قبل على شاشة التلفزيون ، انهم أعضاء حركة كاخ ، انهم سفاحو كاخ» . وتقول انها وثبت عن كرسيها «بعيداً عن اتجاه اطلاق النيران» مطالبة ثانية بمعرفة كيفية دخول هؤلاء هذه الغرفة بالذات حيث كان يتم استجوابها وفيصل : «لا أحد يستطيع الدخول الى دائرة الجرائم الخطرة عبر نطاقات من الشرطة والجيش وحرس الحدود ، وعبر طابقين ذوي أبواب كهربائية مراقبة الكترونيا ، وممرات سفلية تؤدي الى الطابق الثاني» . وأخيراً ، قامت الشرطة بمرافقة اولئك المقتحمين الى الخارج .

يقول مسؤول اسرائيلي عن تلك الحادثة ومرتكبها : «لم يُطلق النار ، وقد أتى فقط ليلتقط صوراً ليتباهى بانه هدد وأخاف فيصل الحسيني !» لكن حنان تقول : «لقد فهمت معنى الرسالة ، وقد كانت رسالة متعمدة . لقد كان الخطر الحقيقي انهم كانوا قادرين على الدخول ، وانهم مسلحون ببنادقهم واسلحتهم الاوتوماتيكية . ومما يدعو الى السخرية أن زوجي ومحاميّ لم يتمكنا من الدخول معي في حين ان عناصر حركة (كاخ) تمكنوا من ذلك وهم يحملون أسلحتهم» . وحينما غادرت هي وفيصل مركز البوليس ، كانا عرضة لعرض آخر لاستياء (كاخ) اذ تستذكر حنان : «بدأوا يضربون بعنف على السيارة ويبصقون على النوافذ» . وقد عملت هذه الحادثة على حث الرئيس جورج بوش ان يقدم متطوعا الى مجموعة من الامريكيين العرب التعليق القصير التالي : «حنان في ذاكرتي» . ولما كانت هذه الحادثة قد حصلت عشية سفر رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق شامير الى الولايات المتحدة ، فان ذلك ساعد على ابعاد حنان عن المضايقات الرسمية اللاحقة بسبب اجتماع مزعوم مع عرفات .

وعلى الرغم من ذلك الصدام المزعج ، فان حنان اجتمعت مع عرفات مرة ثانية ، ولكن هذه المرة كعضو في الوفد الفلسطيني في الاردن . وقد كان ذلك الوقت وقتا في غاية الحساسية ، اذ كان عشية انتخابات شهر حزيران ١٩٩٢ في اسرائيل ، وقبل أسابيع قليلة من قيام حكومة رابين الجديدة بتغيير قانون يسمح بالاجتماع مع مسؤولي م. ت. ف. وقد سمحت حنان بأن تُلتقط لها صورة ورأسها ملقى على كتف عرفات . أما بالنسبة الى غالبية أعضاء الوفد ، فان الاعلان عن الاجتماع في عمان كان أمراً في غاية الاهمية وذلك من أجل إرباك حكومة شامير . وعلى الأقل ،

فقد تم تفسير ذلك بهذه الطريقة في اسرائيل . ولكن بالنسبة الى حنان وعرفات ، فقد كانت هناك أهمية ودلالة شخصية أخرى لهذا اللقاء على ضوء شعبيتهما الآخذة في الانحسار في ميدان التنافس الفلسطيني . فقد كان كلاهما يكافح ضد اتهامات السلوك الوقح واللاأخلاقي الموجهة اليهما . فالحركة الاسلامية المتطرفة (حماس) أصدرت منشورا في الضفة الغربية وقطاع غزة تتهم فيه حنان بانها امرأة «منحلة» في حين اتهم عرفات من قبل حماس ، وعلى نحو خاص من قبل بعض مؤيديه ، بانه كان انسانا غير مسؤول وطائشا لزواجه من أمرأة مسيحية ، تبلغ من العمر الثامنة والعشرين ، وهي ابنة ريموندا الطويل التي كانت هدفاً متكرراً للاصوليين الاسلاميين . وبالنسبة الى الكثيرين في المناطق المحتلة ، فقد اعتبر الزواج على انه خيانة للقسم الذي كان عرفات قد أقسمه بانه لن يتزوج أبدا لانه كان متزوجا من الثورة الفلسطينية .

في جناحها في فندق غراند ، وإحدى عينيها تراقب شاشة التلفزيون ، تؤدي حنان دورها على أحسن وجه ، معبرة عن ألم المعاناة ، وتخلق النص المكتوب المنحوت جيدا . تقول حنان : «نفسيا لا تستطيع أن تحلم ... لا تستطيع أن تخطط بحرية . ان اكثر ما يزعجني انك لا تستطيع حتى ضمان أشعة الشمس والهواء النقي . انه لأمر مذهل» وتضيف : «اننا نسمح للحريات ان تدخل الى حياتنا ، الى اكثر تفصيلات حياتنا صميمية . هذا ما يجعلني مجنونة ، بمعنى انك لا تملك عقلا ، ولا عواطف ، ولا سرية شخصية ، ولا مكانا : هناك يتدخل الاحتلال ، يدخل نفسه في كل مستوى ، وبكل طريقة . لهذا السبب قلت اننا نريد انهاء هذا الوضع . اننا بحاجة الى التحرر من هذا الوضع غير المتوازن من أجل ان نعود للمشاركة بحرية وعلى قدم المساواة . لكن هذا الوضع من التطفل ، والقسر ، والتلاعب ، هو وضع غير صحي لكلا الطرفين» .

وقد سعت حنان نحو التعاطي مع المرأة الاسرائيلية التي يمكن ان تؤيد حركة السلام في الدولة اليهودية . تقول حنان : «لقد رأيت كيف يؤيد أصحاب المبادىء مبادئهم ويناضلون الى جانبك حتى ولو انه لا يوجد شيء يكسبونه ، بل يخسرون كل شيء . انهم يقومون بمجازفات ضخمة ، وعومل العديد منهم معاملة الفلسطينيين» .

ومن بين أصدقائها الاسرائيليين المقربين هناك ليح تسيميل ، وهي محامية دافعت عن حنان مراراً في قاعة المحكمة على الجانب الآخر من الشارع قبالة بيتها في رام الله . ان ليح - فعلا - واحدة من عائلة عشراوي ، كما تقول حنان ، التي تركت «تعليمات سارية المفعول» للمرأة اليهودية لتأكل أو لتنام معهم كلما أتت الى رام الله . وفي عام ١٩٨٢ ، وحينما أنجبت ليح مولودها الاول ، أعطتها وديعة واحداً من خواتم عائلة ميخائيل . وحينما دعيت ليح للدفاع عن بعض طلبة حنان فان الثدي الفلسطيني أطعم طفل صديقتها الاسرائيلية . تقول حنان عن ذلك : «وهكذا فان ابنتها ابنتي بالرضاعة ... هناك حب كبير جداً في تلك المرأة ، انها حميمة وانسانة وأصيلة جداً» . وفي شهر تشرين الاول ١٩٨٩ كتبت حنان قصيدة بعنوان (نساء وأشياء) أهدتها الى صديقتها ليح لأن تلك الصديقة الاسرائيلية «تشعر ان الطريق الوحيد الذي يمكن لاسرائيل ان تتحرر بواسطته هو تحرير الشعب الفلسطيني» .

حين أطلق سراح فيصل الحسيني ، في حزيران ١٩٨٨ بعد ان قضى في السجن عشرة شهور ، طلب الى حنان ان تنضم الى مجموعة من الفلسطينيين كانوا يقومون باعداد أوراق عمل لعقد مؤتمرات في الخارج ، وعقد محادثات مع مبعوثين غربيين . وفي شهر نيسان عام ١٩٩١ أصبحوا المجموعة الرئيسة التي مثلت الضفة الغربية وقطاع غزة في محادثات استمرت ثمانية أشهر متلاحقة مع وزير الخارجية الاميركية بيكر ، وكانوا القناة الرئيسة للحوار غير الرسمي الذي أجراه بيكر مع م. ت. ف. .

لقد كانت حنان ، هي التي أدخلت عادة جديدة الى هذه المحادثات ، اذ قالت ان ملاحظات دقيقة يجب ان تدون عن تلك الاجتماعات وبذلك يكون هناك سجل حرفي لما قاله بيكر ومسؤولو وزارة الخارجية الآخرون . ويعتقد بعض الفلسطينيين ان هذا الامر كان وسيلتها للتأكد من انها ستكون موجودة في كل الاجتماعات التي ستعقد مع بيكر ومع كبار المسؤولين الامريكيين الآخرين . يقول أحد الناقدين : «كانت هي الوحيدة التي يمكنها تدوين الملاحظات بشكل جيد» . ويسلّم هذا الناقد بان فكرة الاحتفاظ بوقائع اجتماعاتهم كانت بمثابة ابتكار في السياسة الفلسطينية .

وعلى الرغم من ان حنانا لم تكن عضوا في الوفد الفلسطيني الى مؤتمر السلام العربي ـ الاسرائيلي الذي انعقد في خريف عام ١٩٩١ ، فهي غير مؤهلة لذلك باعتبارها تحمل بطاقة زرقاء تحددها على انها من سكان القدس ـ الاّ ان وجودها في الفريق (الاستشاري) المكون من سبعة أعضاء في مدريد ألقى ظلا على رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق شامير والرئيس بوش . فقد أسرت الهيئات الصحفية العالمية بمناقشاتها وحججها المقنعة ، عاملة وبشكل متكرر على تحويل الدعاية المبتذلة الى استغاثات براغماتية للتعاطف . وبين عشية وضحاها ، اكتسب الفلسطينيون ـ الذين عانوا الذل والخزي لعقود عديدة ، وصوروا على انهم ارهابيون ـ وجهاً انسانيا دافئا ، وحيثما مشت حنان داخل الغرفة ، كانت تحاط بمجموعات من المصورين والمراسلين المنتظرين لكل كلمة تقولها . واعطت مقابلات لا انقطاع لها لشبكات تلفزيون : ABC و CBS و NBC و CNN و BBC و PBS ، وظهرت في برامج «غود مورننغ اميركا» و «نايت لاين» و «ذ توداي شو» و «ذ ماك نيل ـ ليهرر نيوز أور» ومجموعة تقارير خاصة لا نهاية لها . فقط بيتر جيننغز ـ صديقها القديم ـ صمم ان لا يستغلها وبحيث لا يظهر هناك صراع مصالح : «لم أحجزها مقدما أبدا لبرنامج (نايت لاين) ولم أستفد منها في هذا البرنامج [ABC نايتلي نيوز] . كنا نصورها اذا كانت جزءا من القصة الاخبارية ، ولكنني لم أستفد منها أبدا كمتخصصة» .

تقول حنان انها لم تنم اكثر من أربع ساعات خلال الايام الثلاثة لمؤتمر شهر تشرين الثاني . ووفقا لما يقوله رشيد الخالدي مدير مركز دراسات الشرق الاوسط في جامعة شيكاغو ، فان حنانا لعبت «دورا رئيسيا» في وضع مسودة الخطوط الاساسية للخطاب الذي ألقاه حيدر عبد الشافي رئيس الوفد الفلسطيني . ويضيف : لقد كان الخطاب جهداً مشتركا ، فاللغة السياسية فيه وضعت من قبل آخرين بمن فيهم ممدوح عكر ، ونبيل شعث «أما الصيغ التي يذكرها الناس فقد كتبتها هي» .

مغرقا في الواقعية والشفقة ، انهمر ذلك الخطاب الذي كان بمثابة اقتحام بالنسبة الى الفلسطينيين . فقد ساوى معاناتهم بالآلام المبرحة للامهات والآباء الاسرائيليين الذين «طالما تبادلنا معه الالم ... ان أمنكم وأمننا يعتمد كل منهما على الآخر ويتداخلان كتداخل مخاوف وكوابيس اطفالنا» . كانت الرسالة بسيطة وبليغة ، فالتجربة الفلسطينية عكست تلك اليهودية : «لقد رأيناكم تنظرون باعمق

الأسف الى الخلف الى مأساة ماضيكم وتنظرون في ذعر الى تشويه الضحية الذي يتحول الى ظالم . لم يكن هذا هو ما رعيتم من أجله آمالكم وأحلامكم وذريتكم» . ان انسانية ندائه قزمت السياسة ، فبالنسبة الى ملايين مشاهدي التلفزيون ظهر الفلسطينييون على الفور على انهم ضحايا . هكذا كان الامر حينما قال عبد الشافي: «وقد حان الوقت لكي نحكي قصتنا بانفسنا وان ندلي بشهادتنا دفاعا عن حقيقة طالما ظلت مدفونة في وعي وضمير العالم» . وهكذا ، فان الكلمات التي دبجتها حنان كان لها رنين خاص . لم يعد باستطاعة الاسرائيليين بعد هذا ان يقولوا : «ليس هناك فلسطينيون» لنتحدث معهم . هنا كانوا باشكالهم الحية ، وتضخمت واقعيتهم بواسطة قوة التلفزيون ، بلقاء الملوك ورؤساء الوزارات ، والرؤساء ، ولم يعد بالامكان انكار وجودهم بعد هذا . وفي عيون العالم ، فان تحولهم من الارهاب الى التكتيك كان تحولا تاما . يقول الصحافي الفلسطيني رضوان أبو عياش : «لقد أثبتنا ان لدينا ممثلين باستطاعتهم الظهور بمظهر مبجل أمام العالم كله» .

وحتى شامير ساهم بشكل غير مقصود في نجاح الفلسطينيين في مدريد ، اذ قال : «القضية ليس قضية مناطق ولكنها قضية وجودنا» . هكذا قال مدافعا ، مشددا على الحاجة الى اعتراف الشعبين ببعضهما : الفلسطيني والاسرائيلي . وبجلوسه تجاه عبد الشافي في مؤتمر السلام وإذعانه للضغط الامريكي للسماح لعبد الشافي بالقاء خطاب مستقل ، فان شامير قدم اعترافاً بندّه الفلسطيني . وحينما صادق الياكيم روبنشتاين ـ أحد مساعدي شامير المقربين ـ على بلاغ رسمي يدعو الى محادثات مستقبلية على مسارين منفصلين ـ مسار اسرائيلي فلسطيني ، وآخر اسرائيلي اردني ـ فان الدولة اليهودية كانت في نهاية المطاف وبشكل رسمي ترفع الفلسطينيين الى درجة مساوية لاطراف الصراع الآخرين كافة . ويعترف فيصل الحسيني قائلا : «لقد فاجأنا انفسنا في مدريد ... وبعد ذلك لن تكون هناك مفاجآت» .

وعاد الوفد الفلسطيني عودة الابطال الى الضفة الغربية وقطاع غزة . وعلى الرغم من اجراءات الامن الاسرائيلية الاضافية ، ونقاط التفتيش التي اقيمت حيث سيتوقف الباص المقل للوفد وهو في طريقه عبر جسر اللنبي وعبر أريحا ، فان آلاف الفلسطينيين تحدوا أوامر الجيش ، وأحدقوا بمبعوثيهم الى العالم . وقام

اطفـال صغار بوضع أغصان الزيتون على نوافذ سيارات الجيب وسيارات الشرطة الاسرائيليـة ، في حين حمل رجل مسن حمامـة بيضاء على رأسه . وحينما توقف البـاص لفترة قصيرة عند نقطة تفتيش ، دفعت زينة ابنة حنان ، البالغة من العمر تسـعـة أعـوام ، المصـورين مـتـجاوزة اياهم ، وقفزت الى ذراعي امها التي كانت بانتظارها . وقـالت حنان للصحافيين : «انني مغمورة ، من غير ريب انني مغمورة انها عـودة رائعـة الى الوطن» . وسـالت الدمـوع على وجهها . فبالنسبة الى أجيال عـديدة ، كـان الاحتفال اكثر من مجرد عودة فلسطينية الى الوطن . فبعد مرور ما يزيد على حقبتين من الاحتلال ، آمنوا انهم سيعودون الى وطنهم .

وبالطبع ، كـان ذلك هو التـهـديد والخطر الذي تخشاه اسرائيل كثيرا : فأحلام الفلسطينيين بدولة مـستقلة ، والتي تولدت من خلال نجاحهم في مدريد لن تنتهي بما هو أقل من ذلك . وناح أحـد مـسـاعدي شامير قائلا : «اين كان ياسر عرفات حينما كنّا بحاجة ماسة اليه؟» .

ولم يمض طويل وقت حـتى بدأ الهجـوم الاسرائيلي المعاكس ، وكان أحد أهدافه الرئيـسـة تلك المرأة التي أثبـتت أنها سـلاح فلسطيني اكثر قوة وفعالية من ياسر عـرفات : حنان عشراوي . فمن أجل التشهير بها والانتقاص من سمعتها ، تناولها ناطق اسرائيلي من حـيث ثروة عـائلتـها ، وديانتها ، ومعارضتها المزعومة للحرب والعنف ، بل وحـتى انهماك زوجـهـا في اعداد الطعام . ويتساءل يوسي أولمرت : «هل لاحظت التـغير الكبير فـيها ؟ ... انها تكاد تكتسب سلوكيات ملوكية ، فتذهب ومـعـهـا هذه الفـتـاة الشابة التي هي سكرتيرها ؛ انها تشبه الوزراء الاسرائيليين الذين يحيط بهم الصـبـيان ... مثل [بيبي] نيتنياهو . ويعمل فيصل مع حنان عن قـرب لانه يدرك مـيزاتها ويمكن له ان يستفيد منها بشكل جيد . لكن كل شخص آخـر ينهـمك في القـيل والقـال عنهـا : [يقـولون] انها بشـعـة ، انها معقدة ، انها مـسـيـحـية ، انها امرأة ، انها تَـمْـثُـلُ أمام القضاء كثيرا ... انها ليست مؤثرة على الاطلاق . انها مجرد ناطق فقط ، انها لا شيء» .

من غير ريب ، فـان لحنان أعداء بين العـرب والاسرائيليين المعـارضين لعـملية السـلام . وحـينما توفي مصطفى عكاوي ـ من الجبهة الشعبية ـ مؤخراً نتيجة ما زعـمـتـه تلك المنظمـة الفلسطينيـة من انه توفي بسبب التعذيب الاسرائيلي ، أعلمت الجـبـهة الشعبية لتحرير فلسطين حنانا انه غير مرغوب في وجودها في المأتم الذي

حضره فيصل الحسيني فقط . كذلك ، فان الفصيل النسائي في الجبهة الديمقراطية التي يتزعمها نايف حواتمه هاجم حنانا متهما اياها بانها ولدت وفي فمها ملعقة من ذهب وانها لم تدفع ما يتوجب عليها دفعه من الدم والعرق . وتقول حنان : خلال مؤتمر صحفي عقد في شهر كانون الثاني عام ١٩٩١ للاحتجاج ضد تهجير أحد عشر فلسطينيا صرخت خالدة جرار ـ زوجة أحد المبعدين ـ بغضب قائلة : «انت لا تمثلين عائلات المبعدين ...» وتضيف حنان : «لقد دعوت الى مؤتمر صحفي ، وقلت فيه ان غسان جرار كان أحد طلبتي . لم يمتدح الهجوم ، وأرسل لي اعتذاراً من السجن» . ومن الصعوبة بمكان معرفة الى أي حد جعلتها صورتها هذه هدفا طبيعيا للجماعات السرية الفلسطينية ، وكم صبت عليه من الوقود اجهزة الاعلام الاسرائيلي المضاد .

ان حنانا لا تتلفظ بأي كلمة عن الاسرائيليين ، على الرغم من انها تصف اسرائيل نفسها على انها دولة عنصرية . وحتى بعد أن تم الغاؤه ، فانها لم تحاول جاهدة ان تخفي تأييدها لقرار الامم المتحدة الذي يدين الصهيونية كحركة عنصرية . تقول في حديث الى مجلة ميرابيللا : «لقد حولوا الديانة اليهودية الى هوية وطنية في اسرائيل ... ان أي يهودي يمكنه بصورة تلقائية ان يصبح مواطنا ولذلك فانني اتساءل فيما اذا كانت هذه عنصرية ام لا . ما رأيك ؟ أرى أن اسرائيل دولة عنصرية وان الطريقة التي عومل بها الفلسطينيون تحت الاحتلال عنصرية على نحو واضح» .

بعد مرور عدة أشهر ، وحينما اقترح الوفد الاسرائيلي في البداية اجراء انتخابات بلدية كاختبار لتقرير فيما اذا كان الفلسطينيون قادرين على تنظيم انتخابات سلمية ، اتهمت حنان الدولة اليهودية بانها كانت تستخدم كلمة «[رعاية].أريد أن اقول حتى لو كانت مدخلا عنصريا فاننا لن نوضع موضع الاختبار أو تحت التدقيق لاكتشاف فيما اذا كنا جديرين بذلك ام لا !» . وحينما تحداها أحد الصحفيين فيما بعد لاستخدامها عبارة «[رعاية] على انه مصطلح العنصرية» ارتدت الى الوراء متهمة الاسرائيليين باطلاق وصف المتطرفين والعنيفين على شعبها وبالتالي فانه من غير اللائق ان يقوموا بادارة انتخاباتهم الوطنية الشاملة : «ليس هناك من شعب يمكن وصفه بانه عنفي ومتطرف.هذا مثال جيد لقضية لماذا نحن بحاجة الى فترة بعيداً عن القسر والرعب» .

وبين الفينة والأخرى تفقد حنان صبرها مع مراسل ما ، كما حدث حينما أنبّت في مدريد مراسلا يمثل شبكة تلفزيون أميركان كريستشان برودكاستنغ . فقد سألها كيف تطلب من اسرائيل أن «تبادل بالارض السلام» لاقامة وطن للفلسطينيين لانه «حينما كانت يهودا والسامرة بأيدي العرب هوجمت اسرائيل ثلاث مرات؟» . وأجابته حنان : «قبل كل شيء أجد أن اشارتك الى [يهودا والسامرة] تعبيرا عن تحيز متطرف واكثر عدوانية» مشيرة بذلك الى الاسماء التوراتية القديمة للضفة الغربية التي تستخدمها اسرائيل لتبرير مطالبتها بالمناطق. وتابعت : «انني فلسطينية مسيحية وأعرف ما هي المسيحية . انني سليلة اول المسيحيين في العالم ، وقد ولد عيسى المسيح في بلادي ، في أرضي . ان مدينة بيت لحم مدينة فلسطينية ، ولذلك ، فانني لن أقبل هذه الفوقية على المسيحية . لا أحد يحق له احتكار ذلك» .

وتسلّم هدى ان حنانا «خطيرة بشكل واضح أو واضحة بشكل خَطر» . فاستاذة جامعة بير زيت تستطيع أن تفهم حقيقة كون الناس متشابهين ولكنها لا تستطيع احتمال التجاهل المقصود : «انها تشعر وكأنها قالت هذا الامر مرة ومرة أخرى فكيف يأتي صحفي ويسألها نفس السؤال الغبي؟» .

ان اندفاع حنان عمل ايضا على كشفها لحقيقتها دونما ضرورة . فحينما اختفت طائرة ياسر عرفات في شهر نيسان ١٩٩٢ ، وتم الافتراض بان أبي الثورة الفلسطينية مات ، قالت حنان لبرنامج «نايت لاين» ان وفاته لن تسجل نهاية م. ت. ف. لأن لهذه المنظمة مؤسساتها الدستورية التي ستختار خليفة له . ومرة بعد أخرى تجنبت محاولات تيد كوبل لحثها على افتراض أن ياسر عرفات قد مات . ومع ذلك فان اقوالها فجرت عاصفة نارية من الانتقاد ،وصبت عليها الوقود نشرة أخبار باللغة العربية من راديو اسرائيل ذكرت ما قالته حنان عن الحاجة الى اجراء انتخابات جديدة في م. ت. ف. وبسرعة رد مركز الاعلام العربي - وهو وكالة أنباء فلسطينية مركزها القدس ، ويديرها رضوان ابو عياش - قائلا : «ان سكان المناطق المحتلة امتعضوا من تصريحها» .

وقد طلب اليها فلسطينيون آخرون ان تتنحى بعد أن أصبح من الواضح ان عرفات قد نجا فعلا باعجوبة من حادث الطائرة في الصحراء الليبية . ويسلّم نبيل

شعث بانها : «هوجمت في الضفة الغربية وكأنها فعلا دفنت الرجل قبل أوانه لانها قالت ما قالته قبل ان تعرف أنه حي . لكن ما قالته فهم بعيداً عن سياق الكلام ... لقد قالت شيئين : ان منظمة التحرير الفلسطينية لن تموت اذا مات عرفات لان هناك سبلا واجراءات لخلافته . وفي الوقت نفسه قالت انه الأب والقائد وان فقده سيكون خسارة كبيرة . لقد أخذوا الجملة الاولى التي كانت تعني في الواقع [لا ، لن نطوي خيمتنا ، وسنواصل] . لم تقصد أبداً ان تقول ذلك بالمعنى الذي فهم عليه . ولكن بسبب أخذ الكلام من سياقه قبل ان يعرف الناس انه حي ، بدا الامر وكأنها كانت تدفن الرجل قبل أوانه» .

وتبدو حنان نفسها غير قلقة ، فتصف الامر كله بانه : «تحريف تحريضي متعمد» قام به راديو اسرائيل العربي الذي تديره الحكومة بهدف زرع الخلاف ، وتقويض فعاليتها بين ابناء شعبها . وتقول ان مجموعة من الفلسطينيين الذين تصرفوا بطريقة تعود بالفائدة على الاسرائيليين من خلال توجيه النقد اليها علانية قد تم تأنيبهم . وتضيف ان الشيء المهم هو أن فيصلا الحسيني قد وقف مباشرة الى جانبها ، وان منظمة التحرير الفلسطينية أصدرت في اليوم التالي بيانا يبرئها من أي نية خبيثة ، اذ تقول : «لم يكن هناك أي انتقاد لما قلته من قبل م. ت. ف. نفسها» .

لكن عدداً من الاسرائيليين يعتقدون ان تلك الحادثة ، حتى وان كانت لم تسبب أذى دائما لسمعتها ، الا انها تشير الى كم هو مزعزع يبقى وضع حنان داخل اوساط قيادتها المحلية . وكتبت يائيل دايان ـ ابنة موشى دايان وعضو حزب العمل في الكنيست ، والتي تؤيد الحقوق الفلسطينية ـ ان تأييد حنان ودفاعها عن الاسلوب الديمقراطي الغربي ذكّر اناساً كثيرين بالصفات التي جعلتها تبدو شاذة بين أوساط القيادة الفلسطينية المحلية . فذكاؤها الحاد لم يأخذ بالاعتبار قوة الوجدان الشرقي . وكتبت دايان في صحيفة عل همشمار : «لو كان لديها مستشار مهتم بسعادتها ، فانه كان سيعطيها كيلو من البصل لتظهر وهي تبكي وتنوح قائلة بالعربية ـ وليس بلهجة اوكسفورد ـ ان العاطفة والامل قد جعلاها مضطربة لدرجة انها لم تكن قادرة على التعبير عن نفسها ، وكانت ستدعو الى الصلاة في المساجد من أجل الرئيس ... لكنها مسيحية ، مدنية ، اوروبية الاتجاهات والمفاهيم ، وامريكية في احساسها بالوقت . ان الدعوة التى انطلقت من

المناطق من أجل عزلها ، حينما تحدثت بصراحة في قضية انتخاب خليفة لعرفات ، كانت ايضا متوقعة» .

ويتحدث مسؤول اسرائيلي رفيع المستوى عن السبب الذي جعل أقوال حنان تبدو تحريضية جدا ، فيقول ان دعوتها الى اجراء انتخابات ديمقراطية لم تكن مجرد رد فعل متنبأ به ، ولكنها ايضا هجمة مضادة على القرارات التي تتخذ سراً في صالونات القيادة الفلسطينية في تونس والقدس . ويفسر ذلك المسؤول هذه الحقيقة فيقول انه قبل حادث تحطم الطائرة «لم يكن من المسموح به خلف الابواب المغلقة طرح أي سؤال عمن سيخلف عرفات ، فطرح هذا السؤال بهذه البساطة كان يعتبر خيانة وطنية ! ان اختفاءه للمرة الأولى قد حلّل النقاش علنا فيما اذا كان يجب أم لا ان يكون هناك رجل ثان في القيادة» .

ومع بدء الجولة السادسة من المحادثات العربية ـ الاسرائيلية في واشنطن في أواخر شهر آب من عام ١٩٩٢ كانت الحالة النفسية قد تغيرت . فالحكومة الاسرائيلية الجديدة بقيادة اسحق رابين أعلنت سلسلة من اجراءات «حسن النية» : عرض اجراء انتخابات للفلسطينيين ، انهاء عمليات الابعاد وهدم المنازل الفلسطينية ، واطلاق سراح ٨٠٠ سجين سياسي فلسطيني . تقول حنان : «ان حقيقة ان رابين اختار افتتاح هذه الجولة بتنفيذ بعض الايماءات الرمزية تشير الى انه يستجيب ، وانه يستمع» . وعلى الرغم من ذلك ، فان حنانا متشائمة : «ان المحك الاكثر أهمية هو النشاط الاستيطاني المستمر . هناك شيزوفرانيا حقيقية ، وهناك اختلاف حقيقي بين ما يقولون وبين ما يحدث . ان الفلسطينيين لا يمكن ان يشعروا بالرضى لصدور اعلانات نوايا في حين يرون أراضيهم تصادر . يجب ان يكون هناك تعهد واضح بوقف المستوطنات» .

ومع ذلك ، فهناك مناخ مختلف فيما يتعلق بالمحادثات . فللمرة الاولى ، يبدو أن كل شخص يريد لهم النجاح . لقد تأكدت المصلحة الفلسطينية في المحادثات من خلال مكالمة هاتفية تلقتها حنان ونحن في منتصف مقابلتنا الاخيرة معها في جناحها في فندق غراند . فأحد مساعديها اراد الحصول على خطوط عريضة للاجابة عن سؤال للصحافة يتعلق ببدء الولايات المتحدة الاميركية باسقاط طائرات عراقية في جنوب العراق : لقد أصدرت م. ت. ف. بيانا تؤيد فيه العراق ، فما الذي يقوله الوفد الفلسطيني ؟ وقالت حنان للمتحدث على الهاتف : «ان الوفد

الفلسطيني لا يصدر بيانات كهذه ، ويجب أن لا يُقْحَمَ هذا الوفد بقضايا تتعلق بالسياسة العليا الآن» . وبعد أن أغلقت السماعة ، سألناها فيما اذا كانت تبذل جهدا عظيما لتجنب الخطأ نفسه الذي ارتكبه الفلسطينيون خلال حرب الخليج حينما أيدوا عناق عرفات لصدام حسين ، فألمحت الى ان المحادثات أصبحت اكثر أهمية من التبجح المنمق : «ان المحادثات يجب ان لا تكون أسيرة أي تطورات خارجية الا اذا كانت مرتبطة مباشرة بالمفاوضات» . ان فلسطينيي الضفة الغربية وقطاع غزة كانوا يتحدثون بانفسهم .

وعلى الرغم من اعجابها بياسر عرفات ، فان حنانا لا تتردد في الحديث عن معلّمها الخاص ، فيصل الحسيني ، كرجل دولة فلسطيني مستقبلا ، وربما كرئيس للوزراء أو كرئيس لدولة فلسطين . تقول : «اعتقد انه الآن زعيم ... استطيع أن أرى ان لفيصل دوراً هاما . انه رجل مبادىء واستقامة وهو صادق . ولهذا السبب ، فانني احترمه ، وعلاقتنا ترتكز على الاحترام المتبادل . ان دورينا متممان لبعضهما» . وتضيف ان اكثر ما تحبه فيه هو : «ان فيصلا ليست لديه أجندة شخصية ، وهو لا يمارس السياسة الجهورية ، فهو ملتزم التزاما عميقا بالقضية الفلسطينية ، وهو ما لديّ أنا أيضا ، اذ ليست لدي أجندة شخصية ، أريد أن أعمل من أجل الشعب الفلسطيني» .

فاذا كان يفترض أن فيصلا الحسيني سيكون له دور قيادي جديد ، فان حنانا ستكون الى جانبه على الارجح . ومثل فيصل : من القدس ، مجسدة العلاقات بين الفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاحتلال وبين فلسطينيي المهجر ، تبدو حنان جسرا طبيعيا يصل الى الغرب : فلسطينية تفكر وتتكلم بمفاهيم تفهم بسهولة على الموجات الهوائية التي لا حدود لها ، والتي هي الناقل والوسيط الجديد للدبلوماسية. وسيبقى لحنان دائما نقّادها . يقول زميل لها واضح الغيرة والحسد: «لقد بدأت كمترجمة لفيصل ، ثم أصبحت الناطق بلسان الوفد ، والآن هي الناطق باسم الشعب الفلسطيني كله!» .

ولكن بالنسبة الى ملايين الفلسطينيين فانها تمثل ما كان مطلوبا وجوده لنقل آمالهم وطموحاتهم الى العالم الخارجي . ومع سياسة النضال الفلسطيني المتحول عن الحرب والعنف الى معركة مماثلة من حيث القسوة مع الرأي العام ، فان حنانا عشراوي سلاح جديد فعال في الترسانة الفلسطينية .

● فيصل الحسيني في العشرين من عمره ، وإلى جانبه زوجته نجاة .

فيصل الحسيني

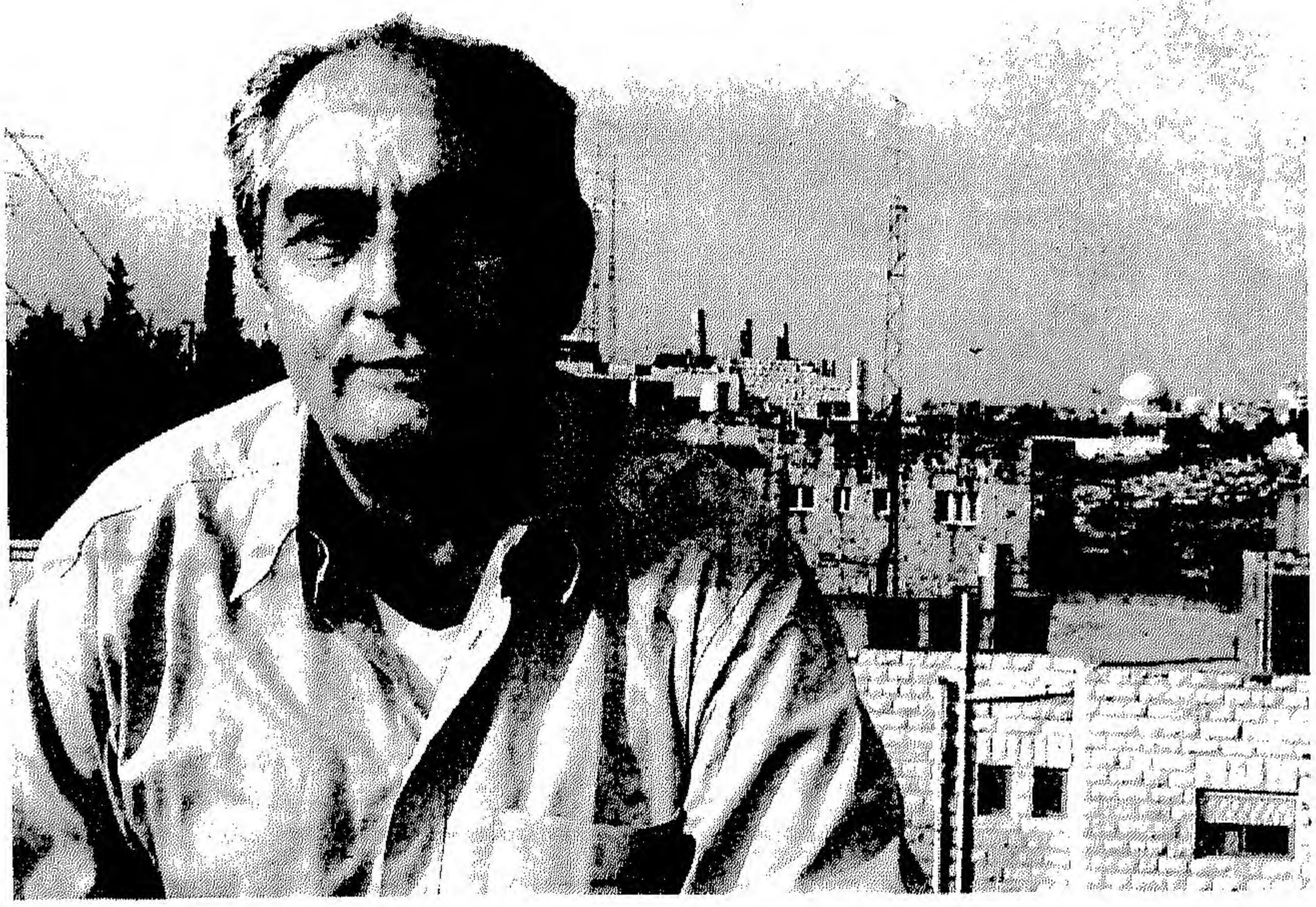

● فيصل الحسيني جالسا في شرفة منزله في منطقة وادي الجوز ، المطل على القدس الشرقية .

● فيصل الحسيني يشد على يد دافيد شلومو من نشطاء السلام بعد ان حكم عليه الاسرائيليون بالسجن بسبب اجتماعه مع رئيس م. ت. ف. ياسر عرفات.

فيصل الحسيني

حـينما تحطمت الطائرة روسية الصنع التي كانت تقل ياسر عرفات بالقرب من بلدة الكفـرة في الصحراء الليبية ، بدأ معظم العالم يكتب نعيه . وحينما مر ما يزيد على تسع سـاعـات على الحـادث ولم تسـمع كلمة من الطائرة أو من ركابها ، فان اولئك الناعين بدوا واجمين . غير أن شـخـصـا فلسطينيا لم يصـدق خبر الموت ، وقـال فـيـصل الحسـيني ـ المؤيد المشهور لحركة فتح الموالية لعرفات في المناطق المحتلة ـ لراديو اسرائيل ان عرفات قد نجا باعجوبة .

كـانت نبرة صوته تدل على الثقة ، غير ان قلبه كان يضرب بعنف . وقد أراد ان يصـدق مـا قـاله له القنصل الامـريكي في القـدس من ان قائد الفدائيين البالغ من العـمـر اثنتين وستين سنة ما يزال حيا ، وانه قد نجا من حادث الطائرة ، وتحدى الموت مـرة أخـرى . لقـد بدا ياسر عر فات دائما اكبر من الحياة ؛ وغالبا ما يقارن نفسـه بطائر العنقـاء الذي ينهض من رمـاده . وبالنسـبـة الى فلسطينيين امثال فـيـصل الحـسـيني ، فان عرفات التجسيد المعاصر لحلمهم المستمر ، وعنقاؤهم ، وأملهم ، وحقهم الذي لن يضيع .

وحـيـنما تأكـد لهم ان قـائدهم مـا يزال فـعـلاً على قـيـد الحـيـاة ، ابتـهـج الفلسطينيون لذلك . ففي (ناشيونال بالاس اوتيل) ارتدى الموسيقيون بنطلوناتهم السـوداء ، وقـمصانا بيضاء ، واربطة قبات (ببيونات) حمراء ، وأحزمة خضراء ـ الوان العلم الفلسطيني ـ وعـزفـوا ألحـانا عـربيـة مـثيرة ، في حين قام شاب آخر باخـراج علم فلسطيني من تحت قميصه ، ولوح به لفترة قصيرة ، مضفيا على تلك اللحظات البـهـجـة والانتـعـاش . وفي الشـوارع ، قام آخرون بتوزيع الحلويات ، ورقصت النسوة «احتفاء بعودة عرفات سالماً» .

مع ذلك ، فـفي سـاعات التوتر تلك من صباح ذلك اليوم من أيام شهر نيسان حينما بدا أن عرفات مات ، بدأت واقعية جديدة : إحساس بمناقبه ، وإحساس بان هذا الثـائر قصير القامة ، الاصلع ، الملتحي ، الذي بدا لحقب يشبه التمثال الضخم على مسرح العـالم ، قـد تقلص فـجأة الى حـجـمه العادي . فقد قدم مساهماته الى التـاريخ ويبدو الآن انسانا عاديا ، فحتى لو نجا من الحادث فان الاسطورة انتهت

اذ امــتــزج مع الابتــهــاج احساس سريع الانتشار بانتهاء التاريخ . بل ان مسؤولا اسرائيليــا اوحى انه تم اخــتــيــار ثلاثة من اعضاء الحكومة سرا لخلافة أبي عمار الاسطورة ، وهم : فــاروق القــدومي (ابو اللطف) ومحمــود عــبــاس (ابو مــازن) وفيصل الحسيني .

رغم ذلك ، وحـيـنما وصلت الى فـيصل الحسيني الانباء التي تقول ان ياسراً قد نجــا ، أبدى ارتيــاحــه ، وقــال للفلسطينيين المبتهجين المحتشدين في غرفة المعيشة الواســعــة في بيــتـه في وادي الجوز : «ان شعبنا شعب عظيم ، قادر على التغلب على مشكلاته كلها . ان الشعب القادر على انجاب ابي عمار يمكن أن ينجب واحداً آخر. ومع ذلك ، نشكر الله انه وفّــر علينا ذلك الامتحان» . ولم يكن على فيصل ان يعقد مـقــارنة بين نفـســه وبين قــائد م. ت. ف. فالفروقات كانت واضحة . فأبو عمار مسرحي ومــتبجح ، عالي الصوت ، في حين ان فيصلا رقيق الصوت ، بل وأضعف مما يقتضيه الواقع ، وصاحب اسلوب معتدل . وعرفات هو المتشرد ، يرتدي دائما وعلى نحـو تام ثيــاب المقــاتلين زيتــوني اللون ، المجــســد للحلم الفلسطيني الدائم بالعودة ذات يوم الى فلسطين . اما فيصل الحسيني فهو المجسد للتخلي عن الحلم، المذكّــر بالواقع اليــومي الذي يواجه الشعب الفلسطيني من حيث انهم قد لا يكونوا قــادرين أبداً على العــودة الى بيــوتهم في يافــا ، وتل أبيب ، وحيفا ، ومن حيث انه يجب عليهم بناء بيوت جديدة لهم جنبا الى جنب مع الدولة اليهودية .

فــاذا كــان عــرفــات يمثل صورة البطل القومي ، فان فيصلا بعكس ذلك . فهو يتـمــتـع بجــاذبيــة هادئة وهيئة رسمية ، يرتدي في الغالب بذلة أو قميصا مفتوحا للقــاء الضــيــوف في منزله أو في مكتبه . وطوال سنوات عديدة ، وفي حين كان ياسر عــرفــات يطير بطائرات مــسـتعارة من الزعيم الليبي معمر القذافي أو الملك فهد ملك العــربيــة السعودية ، فان فيصلا كان يستخدم سيارة فيات مستعملة صغيرة جداً من طراز اوتوبيــانكا . ويبــدو ذلك الامر مناسبا لعرفات ـ الذي يقضي معظم وقته في الجــو لانه ليس لديه بيت ـ الذي نجــا من الموت من حــادث تحطم الطائرة . ان مــاضي ياسر عــرفــات يتناقض على نحــو مــفــاجىء مع الحاضر المتواضع لفيصل الحــســيني : فــفــيــصـل فلسطيني تعــود جذوره الى القدس الشرقية ، وكدح تحت الاحــتــلال الاسرائيلي مدة ربع قرن ، في حين ان عرفات رجل يستطيع السفر بحرية

وهو سليل عائلة غنية ، وقد غرست قدماه في ارض جيل فلسطيني لن ينسى التاريخ ابدا .

بالنسبة الى العديد من الفلسطينيين ، وعلى وجه الخصوص اولئك الذين ترعرعوا تحت الاحتلال وهم الآن في أواخر العشرينات والثلاثينات ، فان فيصلا الحسيني يمثل ألم ماضيهم ، وحاضرهم ومستقبلهم . وعلى الرغم من الاختلاف بينهما ، فان فيصلا حليق الذقن ، والذي يتكلم بصوت رقيق يصل في الغالب الى حد الهمس ، يشترك كثيرا في التاريخ نفسه لأبي عمار المتكلم المندفع . وبالفعل ، مثل عرفات ، فان عائلة الحسيني كانت محور النضال المعاصر من أجل الهوية الفلسطينية . وفيصل الحسيني ـ سليل النبي محمد ، وابن اكبر بطل عربي في حرب عام ١٩٤٨ العربية الاسرائيلية ، وابن أخ المفتي الاكبر للقدس الذي جعله حماسه المتواصل من أجل القضية العربية اسطورة حتى بين اوساط كارهيه ـ هو الجيل الوريث . ولك ان تسأل أي فلسطيني في الضفة الغربية ، وسيخبرك ان فيصلا وطني براغماتي ، وارستقراطي . طويل القامة ، عريض المنكبين ، مشيته الهادئة تتناقض مع منزلته الرفيعة ، لكن جذوره تضرب عميقا في اسطورة وثقافة وديانة فلسطين ، وتعود الى الوراء الى بداية القرن السابع عشر ، حينما تسلم عبد القادر بن كريم الدين الحسيني منصب مفتي القدس . ومع ان عبد القادر توفي دون أن يكون له ولد ، فان عائلة الحسيني تسلمت مناصب دينية رفيعة أخرى ، بما فيها منصب نقيب الاشراف ، ومنصب شيخ الحرمين ، واستمر ذلك حتى نهاية القرن الثامن عشر . ثم استعادت العائلة منصب المفتي ، والذي بقي في حوزتها بشكل يكاد يكون مستمراً حتى القرن العشرين .

منذ نهاية القرن التاسع عشر كانت اسرة الحسيني تمتلك الثروة . فقد كانت تمتلك اراض لها في منطقة وادي الجوز احدى ضواحي القدس الشرقية . كذلك ، فان (اميركان كولوني أوتيل) والذي كان فيما مضى المنزل الخرافي للباشا التركي وزوجاته الثلاث ، مقام على ارض يمتلكها جد فيصل . اما (نيو اورينت هاوس) المجاور للفندق المذكور ، فقد قامت عائلة الحسيني ببنائه قبل عدة عقود ، وهو الآن مركز مؤسسته المسماة مركز الدراسات العربية . وبالقرب منه ، تقع المقبرة الصغيرة التي تضم قبور أفراد من عائلة الحسيني . كذلك فان نسب فيصل يعود الى مؤسس دينه . فعلى عكس معظم الفلسطينيين الذين يرجعون أصلهم الى زمن

الكنعانيين الذين تعربوا بعد الغزو العربي لفلسطين سنة ٦٣٨م ، فان عائلة الحسيني تدعي ان نسبها ينحدر مباشرة من النبي محمد . وفي الواقع ، فان الفلسطينيين اللذين اشتهرا كثيرا بسبب مقاومتهما للتهديد الصهيوني في منتصف القرن العشرين ، هما من عائلة الحسيني : الحاج أمين الحسيني ، وعبد القادر الحسيني ، في حين ان شخصا ثالثا ستصبح كنيته مرادفة لكفاح الفدائيين في العصر الحديث ضد اسرائيل ، هو ايضا ابن عم لهما : انه محمد عبد الرؤوف عرفات القدوة الحسيني ، ولقبه (ياسر) .

ويتذكر فيصل ان ابن عمه كان واحداً من الشباب المجندين في جيش الفدائيين الذي يقوده والده ، وكان في بعض الأحيان يقوم بزيارتهم في بيتهم في ضاحية شبرا في القاهرة . هناك ـ في مطبخ بيت والده ـ كان الشباب الفلسطينيون يتعلمون صنع القنابل ، وكذلك نزع فتيلها ، وفي مناسبات مختلفة ، كان ياسر وطلبة آخرون يتدربون سراً على أعمال الكوماندوس على يد ضابط ألماني كان قد سافر مع عمه الاكبر الحاج أمين الى مصر . ويستذكر فيصل قائلا : «بدأنا نفهم ماذا يجري في فلسطين ، وبدأنا نرى آباءنا وهم يغادرون ، ويرتحلون ، ويعودون» . كان فيصل يبلغ من العمر السابعة ، وكان يقلب النظر في ابن عمه (ياسر) الذي كان يبلغ السابعة عشرة من عمره في ذلك الحين .

في بعض الأحيان ، كان الوالد يسمح لفيصل بمشاركة الأولاد الاكبر منه سنا في عملية مسح صدأ البنادق والاسلحة الأخرى . ومثل والدهم وأصدقائه ، كان الاولاد يزيلون الاوساخ عن مدافع التومي ، وبنادق الستين ، ورشاشات البرن حتى تصبح تلك الاسلحة تلمع مثل جزمة والدهم . يقول فيصل : «كان امراً مثيراً رؤية اننا كنا نقوم بعمل شيء كان يفترض ان يقوم به الاولاد الاكبر سنا منا» . كانت لعبتهم المفضلة ان ينظفوا بعناية وحذر الاسلحة القديمة ، ثم التظاهر باطلاق النار منها «بالطبع ، دون أن يكون فيها أي رصاص ، وبذلك لا يكون هناك أي خطر» . كانت السنة هي سنة ١٩٤٧ ، وكان والده عبد القادر ما يزال يقضي الكثير من وقته في البيت . كان يغادر الى فلسطين ، حيث يقود قوات الفدائيين في هجمات ضد اليهود ، ثم يعود الى القاهرة ليدرب المتطوعين الشباب . وكان وجوده في القاهرة ضروريا لأن الفدائيين كانوا بحاجة الى الاسلحة قدر حاجتهم الى الفدائيين ، لا سيما وان الفيلق العربي المشكل من الدول العربية

المجاورة لم يكن يتشارك في السلاح مع قوات الفدائيين غير النظامية .

وعلى الرغم من أن قوات الحلفاء وقوات دول المحور تركت وراءها كميات كبيرة من اسلحة الحرب العالمية الثانية ، الا أن الحصول على السلاح كان اصعب بكثير من تدريب الرجال . فشراء السلاح كان ممنوعا ، وكانت اسعاره باهظة . كانت هناك بعثات سرية ، تلتقي عملاء يصلون من فلسطين ، وجيوبهم مليئة بالاموال ، ليلتقوا مع موردي السلاح السريين في القاهرة والاسكندرية . ومن القاهرة ، كان يتم تهريب الاسلحة في طائرات كان يمتلكها إمام اليمن الى قاعدة جوية بريطانية قديمة في منطقة أريحا هناك ، وبعد منتصف الليل ، كانت الاسلحة تعبأ من قبل رجال عبد القادر في الشاحنات .

وفي مرات كثيرة ، أخبر والد فيصل أبناءه عن مآثر رجاله وانتصاراتهم ... عن المغامرة وعن الاسرار . ومع ذلك ، فان القصص التي تتحدث عن المصادمات ضد اليهود سرعان ما توقفت عن ان تكون قصصا ملسية لفيصل . بدأ والده يقضي وقتا اكثر في فلسطين ، ولم يمض طويل وقت ، حتى بدأ أقرباؤه يحتشدون في منزل الحسيني ، وقد بدوا قلقين . ويستذكر فيصل : «لقد قتل أحد أبناء عمومة والدتي خلال الحرب ، وبذلك بدأنا ندرك معنى الحرب ، وثمن الحرب . ليس من بعيد ولكن عن قرب : انه أحد أقربائنا ... ابن عم والدتي وهو شخص نعرفه جيداً» .

وبالفعل ، ومع حلول خريف سنة ١٩٤٧ اشتدت حدة القتال بين العرب واليهود ، واتسع نطاقها ، بحيث أصبح من الواضح بالنسبة الى البريطانيين ان عليهم ان يتخلوا عن السلطة في فلسطين . وفي شهر تشرين الثاني اعلن البريطانيون انهم يسحبون ادارتهم من الانتداب ، وطلبوا من هيئة الامم المتحدة الاضطلاع بالمسؤولية . وفي يوم ١٩٤٧/١١/٢٩ وبمساعدة الخبير القضائي السويدي إميل ساندستروم ، صوتت الجمعية العامة للامم المتحدة ، التي اجتمعت في منطقة لايك سكسس في مدينة نيويورك ، الى جانب انهاء الانتداب البريطاني وتقسيم فلسطين الى دولة عربية وأخرى يهودية . وبعد مناقشة ساخنة ، قبل اليهود الخطة ، في حين رفضها العرب المحنقون الذين كان عليهم التخلي عن جزء من أرضهم ، كجزء من الخطة . وأخذ الطرفان يستعدان لتصعيد النزاع ، والاستعداد لحرب مفتوحة .

بناء على توجيهات عبد القادر - الذي ترأس القيادة المركزية والتي اتخذت مقرها في مدينة بير زيت شمال القدس ، ونائبه حسن سلامه في الرملة - حصّن الفدائيون العرب مواقعهم . وبالاضافة الى تهريب الاسلحة من مصر ، قاموا بشراء اسلحة من شرقي الاردن ، والعراق ، وسوريا ، ولبنان . ومع اشتداد القتال ، تمكنوا من السيطرة على مناطق استراتيجية هامة . وبحلول منتصف شهر آذار عام ١٩٤٨ عانى اليهود من نكستين خطيرتين لا تقلان عن خطر أي هزيمة في ميدان أي معركة . فقد أعلن البريطانيون موافقتهم على توريد سلاح الى امارة شرق الاردن وذلك للعشرين سنة القادمة . ثم ، وفي ١٩/ ٣/ ١٩٤٨ اقترحت الولايات المتحدة الامريكية على هيئة الامم ، وعلى ضوء القتال الضاري المتزايد في فلسطين بان يتم التخلي عن خطة التقسيم ، وان تفرض الوصاية على البلاد كلها . وقد طرحت هذه الفكرة بسبب الاعتقاد المتنامي بان اليهود غير قادرين على هزيمة العرب ، وانهم لن يكونوا قادرين على حماية انفسهم كدولة حينما يغادر البريطانيون .

وكانت هناك القدس حيث كان اليهود يقاتلون بيأس . فقد كان لدى العرب الكثير من السلاح والمؤونة ، وكان لديهم الوفير من المياه ، بالاضافة الى السيطرة على محطات الكهرباء . وقد سيطروا على المدينة في الواقع . مع بداية شهر نيسان ١٩٤٨ كان عبد القادر ورجاله يسيطرون على الطريق العام الرئيسي الواصل بين تل أبيب والقدس . وقام البريطانيون بتفتيش الطريق ، واعتقدوا ان اليهود لن يكونوا قادرين على ايصال قوافل امداداتهم عبر الحصار الذي يفرضه العرب على الطريق ، وكان ذلك يعني بوضوح ان القدس أصبحت معزولة .

واذ أدركوا انهم سيخسرون الحرب اذا حوصرت القدس ، واصل اليهود الهجوم ، بعد ان تسلموا شحنتين كبيرتين من السلاح - عدة مئات من الاسلحة الرشاشة وآلاف البنادق - ارسلتا سراً لهم من تشيكوسلوفاكيا . ولم يعد هناك مجال لاضاعة المزيد من الوقت . ففي بداية شهر نيسان شنوا عملية Nachshon التي هدفت الى احتلال القرى العربية التي تستخدم كنقاط انطلاق لشن هجمات ضد قوافل الإمداد . وعلى الجانب الشرقي قام مقاتلو الهاغاناه بتفجير مقر القيادة في الرملة - مقر قيادة المفتي في المنطقة - فقتلوا عددا من رجاله المهمين . وبعد

مـرور يومين ، وفي الثـالث من نيسـان ، نقل عـربي من قرية أبو غوش أخباراً مـفـادها انه تم إجلاء النسـاء والاطفـال من منطقـة القسطل ، وانه بقـيت هناك مجمـوعـة صـغيرة من المقاتلين فقط . وقد كانت القسطل ـ وهي قرية عربية تقع عند حـصن رومـاني قديم فوق التلال وتبعد خمسة أميال الى الغرب من القدس ـ ذات أهميـة وحـيـوية لانها تتحكم في مدخل المدينة . وقد حاول اليهود الاستيلاء عليـهـا ذات مـرة ، غير أنهم أخفقوا في ذلك حينما زلت قدم قائد الهاغاناه المهاجمة بحجر ، فانطلقت النيران من سلاحه ، وشعر العرب بانه هناك هجوما ما ضدهم .

وسعيا منهم لاستغلال ضعفهم المؤقت ، صدرت التعليمات الى مقاتلي البالماخ ـ وهي قـوة يهودية كانت جزءاً من الجيش البريطاني ـ الذين كانوا في كريات انافيم بشن هجـوم على قـرية القسطل في الليلة ذاتها . وقد فاجأت قوات البالماخ مجموعة من المقـاتلين الفلسطينيين ، وأجبرتهم على الانسـحـاب من القـرية . لكن في صباح اليـوم التـالي بدأ العـرب بشن هـجـوم مـعـاكس شديد ، استمر طوال اليوم وحتى الليل. كـان العرب واثقين من النصر وراقبوا ، مستمتعين ، اليهود وهم ينسحبون . في الصباح التالي ٥/ ٤ ومع الخيوط الاولى لفجر ذلك اليوم ، قام مئير ـ أحد القادة اليهود ـ وبصحبة اثنين من رجاله ـ مستغلا توقف القتال ـ بتفتيش موقع القيادة في المنطقـة . كـان يرتدي مـعطفـا بريطانيا . وفجأة ، بدأ ثلاثة رجال بالمرور من خلف خطوط العـدو . كـانوا يرتدون خوذا ، ويلبسون الزي الكاكي ، ومسلحين . واذ اعـتـقـد انهم جـزء من تعـزيزات قـوات الهاغاناه ، نادى عليهم مئير بالعبرية والعربية قائلا : «تعالوا يا جماعة» فرد عليه أحد العرب بالانكليزية : «هالو تومي» مـعـتقدا ان مئير جندي بريطاني . واذ شعر أن هناك لبسا ما ، رفع مئير رشاشه من طراز سـتين ، وصـاح : «ارفـعوا أيديكم!» غير ان الرجال لم يستجيبوا لذلك ، وواصلوا تقـدمـهم ، فـبدأ مئير باطلاق النار عليهم ، وليسقط أحدهم على الفور في حين فـر الآخـران . وتوجه بعض من رجال مئير لسحب جثة الرجل العربي الذي قـتل . كـان مـصـابا بوجـهـه جراء واحدة من الرصاصات التي أطلقها مئير . اما قـسمات الوجه فقد كان بالكاد يمكن تمييزها . لكن الملفت للنظر ان هذا الرجل لم يكن مـقـاتلا عـاديا ، اذ كـان مـسلحـا بمـسـدس امريكي ، وببندقية بريطانية ، وبرشاش امريكي . وفي إحدى جيوبه ، عثر مئير على محفظة جلدية بداخلها بطاقة هويتـه . كـان الرجل هو عـبـد القـادر الحـسـيني ، ابن أخ المفـتي الأكبر والقائد

العسكري للفلسطينيين . لقد تباهى بأنه أوقف القوافل المتجهة الى القدس ، وانه سيطر على القسطل التي كانت بمثابة «السكين على عنق اليهود» .

أدرك مئير ان العرب سيأتون لأخذ جثة قائدهم ، ولذلك استدعى تعزيزات لاقامة خط دفاعي للسيطرة على القرية . غير أن أحداً لم يأت ، ولكن في اليوم والليلة التاليين جاء العرب جماعة تلو الاخرى لاستعادة القسطل . وقتل مئير خلال القتال . وأخيراً ، وفي التاسع من شهر نيسان استعيدت جثة عبد القادر . وبناء على أوامر قيادة الهاغاناه قامت قوات البالماخ بشن هجوم جديد على القسطل وفي هذه المرة ، لم تكن المقاومة شديدة ، فاعتقد اليهود ان هناك قتالا بين العرب حول خلافة عبد القادر ، وان جيوشهم تفرقت بغضب . وفي الحقيقة ، فانهم تركوا القسطل لحضور مراسم دفن بطلهم الكبير في المدينة القديمة من القدس . في اليوم نفسه ، دخل سبعون عضوا من اعضاء الجماعة اليهودية المتطرفة (عصابة شتيرن) قرية دير ياسين العربية التي تبعد بضعة أميال الى الجنوب الغربي من القدس ، وكان اليهود يعتقدون ان العرب يخفون هناك أسلحة ، وفدائيين ، ورجال المفتي . في هذا اليوم ، كانت غالبيتهم يحضرون دفن عبد القادر ، فقامت عصابة شتيرن باطلاق النار على أي شخص يجدونه في القرية ، وكانت نتيجة ذلك ٢٥٤ قتيلا معظمهم من النساء والاطفال . وأصبحت المجزرة هذه رمزاً للوحشية ، وقد دفعت المخاوف من امكانية تكرارها ٢٥٠,٠٠٠ عربي للهروب من منازلهم ، فكانوا بذلك أول اللاجئين الفلسطينيين .

وقد خُلد عبد القادر الحسيني في كتب التراث الفلسطيني لوقفته الشجاعة ضد اليهود ، ومنح لقب «شهيد فلسطين الأول» . لكن فيصلا يذكر حينما أدرك للمرة الأولى معنى موت والده ، اذ يقول : «كنت في البيت حينما أتى أخي الأكبر (موسى) اليّ ومعه الجريدة المصرية» وطلب اليه أخوه البالغ من العمر انذاك عشر سنوات أن «إقرأ العنوان» . وحينما فعل فيصل ما طلب أخوه منه سأله موسى : «هل تدرك ماذا يقول العنوان؟» وأجابه فيصل : «نعم أفهم ذلك ، انه عن معركة القسطل» فقال موسى : اذن ، اذهب وأخبر أخاك الأصغر ، فذهب فيصل البالغ من العمر ثماني سنوات لاخبار شقيقه الأصغر (رضا) بانه والدهم مات . ويتذكر فيصل ان والدتهم (وجيهة) لم تنتحب : «على الأقل ليس أمامنا ، ولذلك

فانـنا لم ننتحب» . ولكن بعد مرور ثلاثة ايام تقريبا ، حينما عرض أحد الاشخاص على فيصل قصة مكتوبة في الصحيفة مفادها ان الحكومة المصرية قررت رعاية عائلته ، وتدريسهم مجانا ، بدأ الصبي الصغير بالبكاء : «في تلك اللحظة ، أحسست بأول شيء واقعي ، بأنني فقدت شيئا ، ليس لان والدي قتل في الحرب ، فهو شخص وطني ، أو بطل ، ولكن لانني فقدت أبي» .

في اليوم ذاته الذي وصلتهم فيه أخبار موت والدهم ، تحرك موسى البالغ من العمر عشر سنوات ليحل مكانه على رأس الطاولة . ويستذكر فيصل : «بدأ التصرف وكأنه أصبح هو المسؤول . فعلى سبيل المثال . لم يسمح لأي شخص فيما عداه بالذهاب ودفع أجرة البيت . واذ فرض عليه دوره الجديد ، فان موسى توقف عن اللعب مع أشقائه «غير انه بهذه الطريقة حافظ على طفولتنا ، اذ أتاح لنا فرصة أن نعيش هذه المرحلة» .

في يوم ١٥/٥/١٩٤٨ حينما انسحب البريطانيون من فلسطين وأعلن اليهود قيام دولتهم ، شنت القوات العربية من مصر والعراق وسوريا ولبنان وشرقي الاردن هجومها ، ولم يطل أمد الحرب . وخلال فترة الحرب غادر ٧٠٠,٠٠٠ فلسطيني بيوتهم ، اذ هرب بعضهم شمالاً باتجاه سوريا ولبنان ، وآخرون جنوبا باتجاه غزة ، وقسم آخر عبر نهر الاردن باتجاه شرقي الاردن . وبعد مرور عشرة شهور ـ في شباط ١٩٤٩ ـ توصلت هيئة الامم الى اتفاقية هدنة بين اسرائيل والدول العربية المجاورة لها : مصر ، ولبنان ، والاردن ، وسوريا . وهكذا انتشر الفلسطينيون وتشتتوا في مختلف أنحاء المنطقة ، وأصبحوا شعبا بلا مأوى ولا وطن ، وكل ما يريدونه هو العودة الى فلسطين ، وبالتالي فانهم لن يسمحوا لاخوانهم العرب ان ينسوا مأزقهم ، ولن يسمحوا لعدوهم بالعيش في سلام .

انتقلت عائلة الحسيني من ضاحية شبرا الى ضاحية الزيتون ، غير ان منزل القاهرة بقي يجتذب الوطنيين المغضبين . كان الحاج أمين يأتي بشكل منتظم للعناية بعائلة الحسيني ، وكان يأتي معه الشاب عرفات ، الذي كان قد انتخب رئيسا للاتحاد العام لطلبة فلسطين في جامعة القاهرة . كان ياسر قد عمل بتفان مع والد فيصل ، اذ شارك في تنظيم الشباب بعد ان ترك الجامعة ، وتدرب تحت قيادته في القاهرة . كان فيصل آنذاك يبلغ التاسعة من عمره ، لكنه يتذكر ان عرفات كان يأتي الى بيتهم ليدربه على كيفية التحدث الى الجماهير الفلسطينية التي

ستأتي من مسافات بعيدة لاحياء ذكرى والده المتوفي . لقد قرأ عليه فيصل حكاية شعرية كان والده قد كتبها ، ونظمت على شكل محادثة بين طفل وامه ، اذ يقول الطفل لامه حدثيني عن الارض ، هل حقا اغتصب الصهاينة ارضنا ؟ أعطني سيفي يا أماه ، وسأذهب واقاتل من أجل أرضنا .

وعلى مدار السنوات الست التالية ، والى أن بلغ الخامسة عشرة من عمره ، تنقل فيصل في أنحاء مصر ، ليقف أمام حشود الوجهاء المصريين ومئات اللاجئين الفلسطينيين ، ويقودهم مغنين كلمات والده . يقول هذه الايام ضاحكا : «حينما كنت أبلغ التاسعة من عمري ، كنت اكثر شجاعة مما كنت عليه في الثلاثين او الاربعين من العمر!» ومع مرور الزمن ، وحينما بلغ الخامسة عشرة من عمره كان فيصل يكتب الشعر ، مبتدئا باكتشاف هوية له بعيداً عن كونه ابن عبد القادر . يستذكر : «قررت أنني أصبحت كبيرا بما فيه الكفاية الآن ، ولا أريد الاكتفاء فقط بما كتبه والدي ... وبشكل معتاد ، وبعد هذه الحادثة في اليوم التالي في القاهرة ، كان أناس كثيرون يحضرون الى بيتنا ليقضوا الامسيات معنا بما فيهم ياسر عرفات والحاج أمين الحسيني» ويتابع : ان ياسر عرفات كان يعمل بشكل وثيق مع جماعة الاخوان المسلمين في القاهرة «على الرغم من انني لا أعتقد انه كان عضواً فيها» .

ويقول : كان عرفات متعاطفا على نحو خاص مع الحاج أمين الحسيني الذي حاول سنة ١٩٤٨ ـ وحينما أعلن اليهود استقلالهم ـ اقامة حكومة فلسطينية مستقلة في غزة ، والتي سميت (حكومة عموم فلسطين) وطالبت بفرض سيطرتها على فلسطين كلها . وقد ترأس الحاج أمين ستة وثمانين عضو برلمان ، غير ان هذا الوليد الجديد لم تعط له سلطة فعلية من قبل المصريين الذين كانوا يحكمون غزة .

ان فيصلا الحسيني معتاد على شجار العائلات والمنازعات بين العائلات المتناحرة في هذا الجزء من العالم . وهو ابن عائلة من مجموعة العائلات ـ الحسيني ، النشاشيبي ، الدجاني ، الخالدي ـ التي اطلق عليها اسم عائلات «الوجهاء» والتي كانت على مدار عدة قرون في مواقع الحكم والسيطرة في السلطتين : السياسية والدينية في القدس ، ثالث الحرمين الشريفين في الاسلام . وعلى امتداد فترة الحكم التركي العثماني ومن بعده البريطاني ، فان هذه العائلات

كانت ممزقة بين الحاجة الى التعاون مع مستعمريهم وبين معركتهم لتحقيق الاستقلال عن حكامهم العرب والاوروبيين على حد سواء .

لقد أنهى البريطانيون والعرب اربعمائة سنة من الحكم التركي لفلسطين لكن الخضوع البريطاني فيما بعد للضغط الصهيوني ـ الذي سمح بزيادة عدد اليهود المهاجرين الى فلسطين من ٤٠٧٥ مهاجرا سنة ١٩٣١ الى نحو ٦٢٠٠٠ مهاجر عام ١٩٣٥ ـ ادى الى قيام نزاع جديد اكثر عنفا ، واضعا العرب الفلسطينيين ضد البريطانيين واليهود . ففي عام ١٨٨٢ كان هناك ٢٥٠٠٠ يهودي يعيشون بين المسلمين والمسيحيين سكان فلسطين ، فكانوا يمثلون ٥٪ فقط من عدد السكان البالغ آنذاك ٥٠٠,٠٠٠ نسمة . وحينما وصل البريطانيون سنة ١٩١٧ كان اليهود ما يزالون يشكلون أقل من ٢٠٪ من عدد سكان فلسطين . ولكن مع حلول عام ١٩٣٦ ، كان الوجود الاسرائيلي قد أخذ بالازدياد بشكل ملحوظ ، اذ اصبح اليهود يشكلون نحو ثلث عدد السكان جميعهم الموجودين في فلسطين ، وكانوا يشكلون الاكثرية في القدس ، مع ٤٠٠,٠٠٠ يهودي يعيشون وسط مليون عربي.

خلال الفترة الواقعة بين ١٩٢١ ـ ١٩٣٧ كان الحاج أمين الحسيني مفتي القدس ، ومؤسس الهيئة العربية العليا ، ورئيس المجلس الاسلامي الأعلى . وباعتباره الوطني الفلسطيني المعترف به الى حد كبير خلال حقبته (توفي في شهر تموز ١٩٧٤) فانه كان له أثره العميق على فيصل ليس فقط بسبب الموت المبكر لوالد الشاب ، ولكن أيضا بسبب الانخراط الطويل للحاج امين في النشاطات العسكرية ضد اليهود . وقد وصلت تلك الاعمال العسكرية الى مداها خلال ثورة الثلاث سنوات العربية ، والتي كانت عبارة عن سلسلة من اعمال العصيان والتمرد التي بدأت حينما تم اعلان الاضراب العام من قبل الهيئة العربية العليا في ١٩٣٦/٤/١٩ والذي تلته سلسلة من الحوادث مثل شن الهجمات والهجمات المضادة الى أن أشعلت الانتفاضة الفلسطينية في شهر كانون الاول ١٩٨٧ .

وباعتباره رئيسا للهيئة العربية العليا ، واستجابة للضغط الذي تعرض له من قبل اللجنة الوطنية العربية التي دعت الى اعلان الاضراب في نابلس ، اصدر الحاج امين تعليماته باعلان الاضراب العام . وكانت أهداف الاضراب الموجهة بشكل واضح ضد البريطانيين من أجل وقف الهجرة اليهودية ، ووقف نقل الأراضي الى

اليهود ، ومن أجل أقامة حكومة وطنية مع وجود تمثيل برلماني . ويستذكر محي الدين الحسيني ابن المفتي : «كان كل فلسطيني يعرف انها ثورة ، كذلك فان كل طفل صغير كان يؤمن اننا كنا نحارب الصهاينة والبريطانيين ، وان علينا الحاق الضرر بهم بأي وسيلة نستطيعها» . وعلى غرار مجموعات الشباب الآخرين في حي المغاربة في القدس ، كان ياسر عرفات ـ البالغ من العمر آنذاك سبع سنوات فقط ـ يضع المسامير في الشوارع لتمزق اطارات سيارات البريطانيين كما كان يقذف الحجارة .

استمر الاضراب مدة ستة شهور لكن أثره استمر طويلا . ففي شهر تشرين الاول ١٩٣٦ طلب زعماء العربية السعودية ، والعراق ، وشرقي الاردن ، واليمن ـ بناء على طلب بريطانيا ـ من الحاج امين ورفاقه انهاء ثورتهم . وفي الصيف التالي استجاب البريطانيون لتوصية لجنة لتقصي الحقائق ترأسها اللورد بيل . فقد أيدت لجنة بيل تقسيم فلسطين الى ثلاث مناطق : دولة يهودية ، وأخرى عربية يمكن ان تتحد مع شرقي الاردن ، ومنطقة منفصلة تحت السيطرة البريطانية ، وتضم القدس وبيت لحم . وعلى الرغم من وجود انقسام بين الصهاينة وغير الصهاينة في الوكالة اليهودية ، فان القادة اليهود وافقوا في النهاية على الخطة شريطة ان يحصلوا على منطقة كبيرة على نحو كاف . ومع ذلك ، رفض العرب فكرة أرض مقسمة ، وردوا على ذلك بتصعيد أعمال العنف .

هاجم العرب المستوطنات اليهودية ، وقطعوا أسلاك الهواتف ، وفجروا الجسور ، وأخرجوا القطارات عن خطوطها ، وهاجموا مراكز الشرطة . كذلك عملت المقاطعة العربية للمنتوجات الاسرائيلية على تردي دخول التجار اليهود بشكل ملحوظ . وسرقت الاسلحة من مراكز الشرطة ، في حين تم شن المزيد من الهجمات من قبل الفدائيين الوطنيين ضد المباني المدنية والحكومية . وعمت الثورة، وحظيت باعتراف واسع ، حتى انها حصلت على التأييد المادي والمعنوي من سوريا ، ولبنان ، وشرقي الاردن ، والعربية السعودية ، ومصر ، والعراق ، واليمن . ومن أجل الاعلان عن اخلاصهم وولائهم لقادة الثورة ، الذين كانوا يرتدون الكوفية على رؤوسهم ، بدأ الفلسطينيون كلهم بارتداء الكوفية والتي أصبحت فيما بعد السمة المميزة لياسر عرفات . وفي محاولة منهم لاحتواء أعمال العنف ، عمل البريطانيون على مساعدة قوات الدفاع اليهودية من خلال التدريب

والتسليح ، وحل المجلس الاسلامي الأعلى ، وحظر الهيئة العربية العليا ، واعتقال وسجن عدد من قادة الاضراب ، بل وطرد بعضهم . وخوفا على حياته ، غادر الحاج أمين ورفاقه المقربون فلسطين - خلال الأيام الأولى من شهر ايلول ١٩٣٧ - الى لبنان أولاً ، ثم الى سوريا ، حيث واصل من هناك توجيه وادارة الثورة الفلسطينية ، وبعد ذلك - في عام ١٩٣٩ - توجه الى العراق . وهناك - بعد مرور سنة - ولد فيصل الحسيني .

ولكن حتى في العراق ، فان الحاج أمين وعبد القادر لم يستطيعا مقاومة النشاط السياسي ضد البريطانيين ، وسرعان ما اضطر كلاهما الى الهروب مرة ثانية ، فذهب الحاج أمين الى ايران حيث منحه رضا شاه حق اللجوء السياسي ، في حين ان عبد القادر لم يكن محظوظا ، اذ ان الايرانيين سمحوا له فقط بالدخول ، فرفض قبول اللجوء السياسي دون ان يكون له حق إحضار رجاله معه . وحينما رفض الايرانيون طلبه ، عاد مع رجاله الى بغداد حيث اعتقل وسجن . وفي عام ١٩٤٤ - حينما كان فيصل الحسيني يبلغ من العمر الرابعة من عمره - اطلق سراح والده ، وفرت العائلة - الزوجة والابناء الثلاثة ، وابنة - عبر الحدود الى المملكة العربية السعودية ، ويستذكر ذلك فيصل ، فيقول : «كانت تلك الفترة هي الفترة الوحيدة التي أذكر انني رأيت فيها والدنا كثيرا . انها الفترة التي كنا خلالها في العربية السعودية . وقد رفض النظام السعودي - الذي كان على رأسه آنذاك الملك ابن سعود ، والذي كان تواقا للبقاء على الحياد خلال الحرب العالمية الثانية - تأييد الثورة المناوئة للبريطانيين في العراق . ويستذكر فيصل - الذي كان قد بلغ آنذاك الخامسة من العمر - أن أياً من أخويه الكبيرين - هيفاء وموسى - ولا حتى شقيقه الاصغر رضا لم يُسمح لهم بالذهاب الى المدارس السعودية ، ولذلك فان والدهم عبد القادر «كان يعلمنا القراءة والكتابة والحساب في البيت» . وأخيرا ، وفي الاول من شهر كانون الثاني ١٩٤٦ ، منح الملك فاروق العائلة حرية الدخول الى مصر .

وهناك في القاهرة اجتمع شملهم مع المفتي . فبعد فترة قصيرة من الأقامة في ايران ، انتقل المفتي الى ايطاليا ، وليقيم صداقة مع بينيتو موسوليني . وقد وعد المفتي قوات المحور بامدادهم بالمقاتلين وغالبيتهم من المسلمين الذين يعيشون في يوغسلافيا ، للقيام بعمليات تخريبية عسكرية ذات طابع حيوي ، مثل قطع خطوط

اتصالات البريطانيين ، وقطع امدادات النفط عنهم . وافق موسوليني على ذلك ، وفي عام ١٩٤١ ، استجاب لطلب المفتي حين أعلن أنه «اذا كان اليهود يريدون [دولة] فان عليهم إقامة تل أبيب في امريكا» . ومع حلول شهر نيسان ١٩٤٢ كان المفتي قد تمكن من اقناع كل من هتلر وموسوليني بدعمه ، والموافقة على وثيقة سرية . ففي رسالة موجهة الى الحاج أمين ، وموقعة من وزير الخارجية الألماني يواشيم فون ريبنتروب ، ومن وزير الخارجية الايطالي الكونت غاليزو سيانو ، وعدت دول المحور الدول العربية «بكل مساعدة ممكنة في نضالهم من أجل الحرية ... بالاضافة الى إلغاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين» .

وفي شهر أيار ١٩٤٢ ، بعد مرور أسابيع قليلة فقط على تسلمه المذكرة السرية أقام المفتي ومساعدوه في ألمانيا ، وأخذوا يعملون على مساعدة النازيين . وفي برنامج اذاعي تبثه اذاعة برلين وموجه الى العالم العربي ، دعا الحاج أمين اخوانه المسلمين الى تقديم المساعدة : «أيها العرب ، اثأروا لشهدائكم . اثأروا لشرفكم . قاتلوا من أجل استقلالكم . أعلن انا مفتي فلسطين هذه الحرب حربا مقدسة ضد نير الظلم والبذاءة والطغيان البريطاني» .

كان الحاج أمين مصمما أيضاً على إيقاف نقل اليهود الالمان الى فلسطين . فقد عقد النازيون ـ الذين كانوا معنيين بحياة المواطنين الالمان المقيمين في فلسطين ـ صفقة لمبادلة مواطنيهم باليهود الالمان والاوروبيين الشرقيين . ولكن في رسالة موجهة الى وزير الخارجية الالماني ، طلب المفتي من الالمانيين عدم ارسال ٤٠٠٠ طفل يهودي و٥٠٠ شاب يهودي الى فلسطين . كما أرسلت رسائل مماثلة الى رومانيا حيث كان هناك نحو ١٨٠٠ طفل يهودي و٢٠٠ شاب يهودي على وشك التوجه الى فلسطين ، وكذلك الى هنغاريا حيث كان هناك ٩٠٠ طفل يهودي و١٠٠ شاب يهودي على وشك تسفيرهم الى فلسطين .

مع حلول عام ١٩٤٥ ـ وحينما انتهت الحرب بهزيمة النازيين ـ كانت محاولات ومساعي الحاج أمين قد آلت الى اخفاق تام . غير انه تمكن من الفرار من تهم رسمية وجهت اليه من السوفييت واليوغوسلاف ، بالاضافة الى محاولات مجموعات من اليهود لتقديمه الى المحاكمة في نورمبرغ ، وتمكن من الهرب الى مصر متخفيا . وباقامته بالقرب من فلسطين ، وبعد اجتماعه مرة ثانية مع عبد

القـادر وعـائلته ، بدأ الحاج امين العمل من جديد لاقامة دولة فلسطينية مستقلة . وقد رأى الفلسطينيون ـ مثل الكثير من المصريين الذين كانوا يعيشون تحت الحكم البريطاني ـ الانكليـز على انهم قـوة اسـتـعمارية قمعية ، كما رأوا في النظام الملكي المصري الفـاسـد الموالي للبريطانيين ، الذي كـان على رأسـه الملك فاروق ، انه يمثل صورة زائفة عن العالم العربي . غير ان طاقاتهم الآن اصبحت موجهة نحو الخطر الكبير المباشر ، وهو خطة تقسيم فلسطين الى دولة عربية وأخرى يهودية .

ومن قـاعـدتهم في مصر ، بدأ اعـضـاء الهيئة العربية العليا حملة جديدة لتجريد البريطانيين من الانتـداب الذي عـهـد به اليـهم من قبل عصبة الامم . كان هدفهم المبـاشر والفوري بناء قوة عسكرية لمواجهة المجموعات اليهودية السرية التي كانت قـادرة على الحـصـول على الاسلحة لتحقيق هدفها لطرد البريطانيين من فلسطين . وقـام صـهـاينة امـثال دافيد بن غوريون بتأسيس منظمة الهاغاناه ، في حين قام اخـرون مثل مناحيم بيغن بالمساعدة على تشكيل منظمة اكثر تطرفا هي الارغون ، كما قـام البـعض الآخر امثال اسحق شامير بالبدء بتشكيل منظمة أخرى متطرفة هي ليـحي . وخـلال السنوات التي تلت الحـرب العـالمية الثانية ـ حينما وصل الى فلسطين وبصـورة غير مشروعـة عشرات الآلاف من المهاجرين اليهود ـ لجأ المفتي ورفـاقـه الى الضرب على الوتر الاسـلامي لطرد الصـهـاينة ، فلم يكتـفـوا بتجنيد الفلسطينيين المقـيـمين في القـاهرة فـقط ، ولكنهم أيضـا استثاروا تأييد الاصولية الدينية في مصر التي تنتمي الى جماعة الاخوان المسلمين السرية .

وأيد فـيـصل الحسيني حركة القومية العربية التي اعتنقها جمال عبد الناصر ، معتقدا انها افضل وسيلة لدفع القضية الفلسطينية الى الامام . فقد عارض الفلسفة الاسـلامـيـة المتطرفـة جداً التي ينادي بها الاخـوان المسلمـون ، والذين كانوا قد أرسلوا فـرقـا عديدة من المتطوعين للقتال الى جانب العرب في فلسطين عام ١٩٤٨ واسـتـخدموا العنف والاغتيال السياسي ضد نظام الملك فاروق الموالي للبريطانيين . ولكن في عام ١٩٦١ وبعد أن انسحبت سوريا من الجمهورية العربية المتحدة ، فان فـيـصـلا ـ ويعترف بذلك ـ لم يعد مـتمسكا بنفس الاوهام عن استعداد الدول العربية لدعم القضية الفلسطينية : «بدأت أفكر بنفس طريقة عرفات لأنني اكتشفت فجأة ان عملنا كله نحو الوحدة العربية ـ التي اعتقدنا انها ستقودنا نحو فلسطين ـ قـد انهار . لقـد كنت أعـمل من أجل المصريين من خـلال بنية مصرية ، ومن أجل

السوريين من خلال بنية سورية ، ولكن أين كنا نحن الفلسطينيين؟» . ويقول الحسيني اليوم ان عرفات كان محقا خلال سنوات الخمسين بتأييده للاخوان المسلمين : «لقد فهم عرفات الحاج أمين . كان عرفات الجيل الجديد والحاج أمين الجيل القديم» .

وواصل فيصل التردد على القدس اذ كان يقضي أوقات الصيف فيها : «في بعض الاحيان برفقة أمي وأحيانا وحيداً» وكان يتلهف للعودة ليتمكن من ادارة املاك العائلة هناك . وأنهى المدرسة العليا سنة ١٩٥٨ ، وهي السنة نفسها التي قامت بها الوحدة بين مصر وسوريا ، وكذلك السنة نفسها التي بدأت تتشكل خلالها منظمة جديدة هي حركة التحرير الفلسطيني (فتح) ويتذكر فيصل : «ذهبت الى العراق ، الى جامعة بغداد ، لدراسة الجيولوجيا» . ومع هذا ، فان نيّته الفعلية كانت للانخراط في الاكاديمية العسكرية العراقية ، وهي الكلية التي تخرج والده منها . لكن بعد مرور تسعة أشهر ، وحينما اندلعت الثورة هناك للاطاحة بالنظام الملكي في العراق ، اضطر فيصل للعودة الى القاهرة لاستئناف محاولاته لاثارة الوعي بين الطلبة الفلسطينيين «فيما يتعلق بوطننا ، وبآمالنا ، وبتاريخنا» .

ولم يكن من الممكن بعد ذلك تجاهل مطالب اللاجئين . ونتيجة القلق من حقيقة ان الاساليب [الارهابية] لمنظمة فتح والجماعات الفدائية الاخرى سوف تقودهم الى حرب غير مرغوب فيها مع اسرائيل ، فان الجامعة العربية قامت آنذاك بخلق جهاز جديد كانوا يأملون منه ان يعمل على توجيه طموحات الفلسطينيين نحو العمل السياسي لا العسكري . وقد دعي هذا الجهاز الجديد باسم منظمة التحرير الفلسطينية .

عقد المؤتمر التأسيسي لمنظمة التحرير الفلسطينية في مدينة القدس في شهر ايار ١٩٦٤ ، وقد دعا ميثاقه الى تدمير الدولة اليهودية واقامة وجود فلسطيني . وأصرت كل من مصر ودول عربية اخرى على استخدام كلمة (وجود) لانها كانت تتخوف من ان اقامة دولة فلسطينية مستقلة يمكن ان تهدد وجودها . وعلى الرغم من انه لم يحضر المؤتمر الاول ، الا ان فيصلا الحسيني قام مباشرة بفتح مكاتب للمنظمة في فندق الأمبسادور ، ثم في مبنى الاونروا فيما بعد .

مع هذا ، وبعد مرور سنتين ، أصيب فيصل بالاحباط بسبب اللهجة النارية

التي كان يتحدث بها احمد الشقيري رئيس م. ت. ف. آنذاك . فقد ألقى الشقيري خطبا مثيرة للعواطف ، دعا فيها الى ابادة الدولة اليهودية ، في حين لم يكن يبدو عليه ان باستطاعته فعل الكثير . وقرر فيصل استكمال تدريبه العسكري ، فتوجه الى سوريا حيث التحق بكلية الضباط العسكرية ، وسرعان ما أصبح قائد سرية صغيرة مؤلفة من ثلاثين جنديا . يقول فيصل : «لقد كان ذلك رغبة والدي ، وطريقه» .

وحينما اندلعت الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٦٧ ، أرسل السوريون فيصلا الى لبنان من أجل تجنيد جنود لجيش التحرير الفلسطيني ، الذراع العسكري الرسمي لمنظمة التحرير الفلسطينية و ـ كما يعترف ـ «لمحاولة البدء بشيء ما هناك» من المحتمل ان يكون فتح جبهة أخرى ضد اسرائيل . وخول الشقيري فيصلا استخدام مزرعته الموجودة قرب بيروت في جبال الدروز بالقرب من كيفون ، وذلك من أجل اقامة معسكر للتدريب هناك ، حيث قام فيصل بتجنيد وتدريب اكثر من الف ومائتي رجل . غير ان الانتصار الذي حققته اسرائيل على الجيوش العربية خلال ستة أيام ، كان بمثابة ضربة لآمال العرب . ومرة ثانية ، اضطر فيصل الى ان يختار بين حياة رئيس مجموعة من الفدائيين ، وبين المهمة العاجلة للمساعدة على إيجاد قيادة فلسطينية محلية داخل المنطقة التي احتلتها اسرائيل من الاردن ، أي الضفة الغربية : «اذا بقيت في الخارج ، فمن المحتمل أن أصل الى مرتبة عالية في الجيش السوري ، لكنني شعرت أنني افتقد القدس ، ولذلك قررت العودة» . وبعد مرور شهر على وصوله الى لبنان ، كان في طريق عودته الى وطنه .

وبواسطة جواز سفره الاردني ، فانه لم تكن لدى فيصل أي مشكلة في السفر الى الاردن ، ولكن لما كانت القدس كلها ـ بل وحتى الجزء العربي من المدينة القديمة ـ قد أصبحت الآن بأيدي الاسرائيليين ، فانه لم تكن هناك الا وسيلة وحيدة للعودة ، وهي التسلل الى الضفة الغربية بشكل غير قانوني . بدأ رحلته بالسيارة ، وحينما وصل الى الضفة الشرقية لنهر الاردن ، نزل من السيارة ، ورفع بنطاله ، وحاول الخوض عبر الجزء الضحل من الممر المائي الضيق ، الذي كان عبارة عن جدول اكثر من كونه نهراً . سار مسافة مائة قدم ، ثم رفع رأسه ، وقد روعه جندي اسرائيلي وقف في طريقه : «قف» صاح به الجندي باللغة العبرية.

كـان ذلك الجندي اول اسرائيلي التقاه فيصل منذ أن بدأ تدريب الفدائيين : «حاولت أن أتحدث معه» لكن ذلك الجندي كانت لديه تعليمات ، ولذلك حينما واصل فيصل تقـدمـه ، بدأ الجندي باطلاق النار بين سـاقيه ، وقال له : «الطلقة التالية ستكون بين عـينيك» . تراجع فـيـصل منسـحبا ، وانتظر عدة ساعات ، وجرب حظه للمرة الثـانيـة في مـوقع آخـر على امتداد النهر ، غير انه فشل . وأخيراً ، وبعد محاولتين أخـريين ، تمكن من العبـور الى الضـفـة الغـربيـة ، وبعد مرور خمسة أيام على مغادرته ، وصل الى القدس .

مع أواخـر أيام شـهـر تموز من عام ١٩٦٧ ، تمكن ياسر عـرفـات ايضـا من التـسلل الى الضفة الغربية . ويستذكر عمر الخطيب ـ ممثل منظمة فتح في عمان ـ ان عـرفـات في تلك الايام لم يكن مـعـروفـا جداً ، ولم يكن ايضا قد ارتدى بذلته زيتـونية اللون ، وكوفيته سوداء اللون ، وكذلك الامر بالنسبة الى مسدسه : «كان يرتدي كـوفية بيضاء وبنطالا عاديا وقميصا ، بل ولم يكن ملتحيا» . وعلى امتداد بضـعـة شـهـور ، طاف عـرفات خلسة أنحاء الضفة الغربية ، متنكراً أحيانا بزي راعي ، وأحـيانا أخرى بهيئة طبيب ، مستخدما اسماء مستعارة مثل (أبو محمود) و(الدكتور فوزي عرفات) وأحيانا بكل بساطة (الدكتور) . ويقول الخطيب ان عمل عـرفـات كان يتمثل في «اقامة وتنظيم البنية التحتية لمنظمة فتح . فقد نظم المهمات العـسكرية ، وكان ينتقل من بيت الى آخر ، يلتقي مع الناس ، ويخبرهم بما عليهم ان يفعلوا» .

وقـد كـان في إحـدى تلك المهمات ـ في شهر آب ١٩٦٧ ـ حـينما التقى عرفات بالطالب الذي دربه في القـاهرة . يقـول فـيـصـل : «رآني ، كان في السيارة ورآني ، فـتـوقف وطلب الـيّ ان أركب مـعـه في سيارته . وسـألني عما أفعله هناك ، وقال [من أرسلك ؟] فـقلت [لم يرسلني أحـد . انني هنا لأنني أريد أن أكون هنا . هذه أرضي وأمـلاكي هنا ، وعـائلتي هنا]» . وأخذ عرفات الحسيني معه الى البيت الذي كـان الاول يختـبىء فـيـه في رام الله . وأخـذا يتـحـدثان عن الاحتلال الاسرائيلي . وتحـدث عـرفـات ـ الذي كان مقر قيادته في بناء مهجور في حي القصبة في مدينة نابلس ـ عن مـهمته المتمثلة في استئناف النضال الفدائي لانه وللمرة الأولى «يواجه الفلسطينيـون بانفسـهم ومـباشرة الشعب اليهودي» . وتابع يقول لفيصل : «لقد أنهيت تدريبك العـسكري ، ولذلك يمكنك البدء بتدريب أبناء شعبنا هنا فوراً» . لم

تكن الفكرة هذه ما كان الحسيني البالغ من العمر سبعة وعشرين عاماً آنذاك يفكر فيها على وجه الدقة ، وأشار الى ان مواهبه يمكن ان توظف بطريقة افضل من حيث العمل على تطوير استراتيجية سياسية ضد الاحتلال . كان فيصل على ثقة بان ياسر عرفات كان يفكر في قرارة نفسه «هل كنت أتكلم بهذه الطريقة لانني كنت أؤمن بالنشاط السياسي ام لانني خائف من النشاط العسكري؟» . وبعد استجواب دقيق جدا ، توصل الرجلان الى حل وسط ، كانت خطوطه العريضة كما يقول فيصل ، تتمثل في : «انه اذا وجدنا ان هناك مشاكل في استخدام النشاط السياسي ، فاننا سنقرر حينذاك البدء بالنشاط العسكري ... وحاولت اخباره انني لا أخاف من السلاح» .

حينما سمع ذلك ، اقترح عرفات ان يقوم فيصل بتنفيذ مهمة يكلفه بها ، وهي مهمة لاختبار شجاعته دون تعريضه لخطر حقيقي . فقد طلب عرفات من فيصل ان يخبىء بعض الاسلحة في بيته في وادي الجوز بالقرب من محطة اذاعة القدس . ووافق فيصل على ذلك : «أعطاني رشاشين : الاول روسي الصنع من طراز كلاشنيكوف ، والثاني تشيكي من طراز ساموسار» . احضر الرشاشين الى المنزل، وببطء وحذر قام بتفكيكهما ، وخبأهما في مكان اعتقد انه لن يعثر أحد عليهما فيه، مؤملاً ان لا يضطر الى استخدامهما أبداً» .

مع منتصف شهر تشرين الاول عام ١٩٦٧ تصاعدت وبشكل حاد ومتسارع نشاطات الفدائيين في الضفة الغربية . فقد نفذت منظمة فتح وحدها اكثر من ستين عملية ضد أهداف اسرائيلية . وحاول فيصل الاتصال مع عرفات ، بهدف معرفة فيما اذا كان عرفات قد تخلى عن اتفاقهما السري أو انه بحاجة الى الاسلحة التي كان يخبئها . وحينما وصل الى الفيلا التي قابل بها عرفات في مدينة رام الله ، اكتشف فيصل ان الجيش الاسرائيلي موجود هناك ، وان زعيم منظمة فتح قد غادر البلاد الى الاردن . ويستذكر فيصل : «بدأت أشعر انني تحت أنظار شخص ما ... ان شخصا ما يراقبني» . وبعد مرور يومين ، وبينما كان يتمشى بالقرب من منزله في مدينة القدس ، قام رجال الشرطة بالقاء القبض عليه . وحينما فتشوا المنزل ، عثروا على الرشاشين المفككين . وتم احتجاز فيصل في سجن المسكوبية ، المجمع الروسي القديم بالقرب من الخط الاخضر الذي يفصل بين القدس الشرقية والغربية . وبعد ذلك طلب الاسرائيليون من فيصل ان يأخذهم الى منزل رام الله

الذي كـان عـرفـات مختـبئا فـيـه . ولن ينسى أبداً تلك الرحلة في سـيارة الجيب الاسرائيلية .

واذ كانت يداه مقيدتين الى ظهره ـ يقول سليل عائلة الحسيني المعروفة ـ أحس بمـذاق العدالة . لقد ضرب على معدته ، ثم على صدره ، فعلى معدته مرة ثانية ، ثم صـفـعـوه المرة تلو الأخرى . ويستذكر : «حاولت الفرار ... كنت مصفد اليدين الى جنديين ، وقـفـزت من سيارة الجيب ، آخذاً الجنديين معي ، بل وحاولت أن أضع سـاقي على العـجـلات . لقـد كـانت عملية انتحار اكثر من كونها عملية هروب» . وخـلال اليومين الاولين في سجنه ، حاول الاسرائيليون إجبار فيصل على الاعتراف باسماء الفـدائيين الآخـرين من منظمـة فـتح ، وبانه كـان قـائد المجـموعة : «لقد ضربوني حتى أنني أصبحت أعرج» . وفجأة توقف ذلك كله «فقد أتى الـيّ ضابط وأخبرني ان الحكومـة قـررت انه يمنع على أي شـخـص التـعـرض لي بالضرب أو التـهـجم علـيّ ، وان من الواجب علـيّ التشكي اذا ما اجترأ أحد على القيام بذلك» . فـفي الصـبـاح المبكر من ثالث أيام السـجن ، اكـتشفت الحكومة الاسرائيلية هوية السجين الجديد .

كـان ذلك حـدثاً كـبيراً ، فـالرأي العام لم تكن لديه أي فكرة ان ابن ذلك البطل الفدائي المشهور كان يعيش بينهم . وظهرت عناوين الصحف الاسرائيلية صارخة: «السـجن لابن عـبـد القـادر الحـسـيني» و «الشرطة الاسرائيليـة تلقي القبض على كـولونيل» . وأشـارت قـصـص تلك الصـحـف الى انه القي القـبض عليـه مـتلبسا بالجـريمـة في مقر قيادته ، وانه كان يحتل إحدى الرتب في الجيش السوري ، وان العـديد من جنرالاته الفـدائيين ألقي القـبض عليـهم أيضـا ، وان كمية ضخمة من الاسلحة تمت مصادرتها . ويستذكر فيصل الحسيني بدهشة : «أصبحت كولونيلا ... الكولونيل فـيصل الحـسـيني ، الذراع اليـمنى لاحمد الشقيري ، القائد الجديد لمنظمـة فتح في المنطقة ... في الواقع كنت ضابطا ، ولكنني كنت أنهي لتوي دراستي وكـانت رتبـتي بنجـمة واحدة فقط ، وهي أدنى رتبة عسكرية في الجيش السوري ولم أكن الذراع اليـمنى للشـقيري . كذلك ، فانني لم أكن قائد فتح في المنطقة ، ولم تـكن هناك خليـة . كنت اعـمل لوحـدي ، وكل مـا وجـدوه لدي هو الرشـاشـان القديمان ، وكانا مفككين» .

وحكم عليه بالسجن لمدة ستة شهور في ١٧/ ٣/ ١٩٦٨ وفيما بعد الى سنة سجن ووضع مدة سنتين تحت المراقبة بسبب «حيازة أسلحة وذخائر بصورة غير مشروعة» . وقد استغل محاميه شموئيل تامير - الذي أصبح فيما بعد وزيراً للعدل الاسرائيلي - عناوين الصحف من أجل اقناع المحكمة العسكرية الاسرائيلية ان فيصلا اعتقل ليس من أجل ما قام به ، وانما كانتقام من والده . وأخبر فيصل المحكمة انه احتفظ بالاسلحة في منزله في وادي الجوز حتى لا يفقد الاتصال مع أعضاء منظمة فتح الآخرين . وأدلى ببيان قال فيه ان السبل الوحيدة لتحقيق السلام هي اللاعنف . وقال المدعي العام انه على ضوء نسب فيصل ، والتزامه الظاهري بالمساعي السياسية ذات الطابع السلمي ، فانه يسقط التهمة الأخرى المتعلقة «بالعضوية في منظمة غير مشروعة» . وأشار الى ان مثل ذلك البيان الذي «يأتي من عضو عائلة عربية محترمة يجب ان ينظر اليه بعين الاعتبار ويجب ان يتم تشجيعه» .

وفعلا ، ما كاد يمر اسبوع على بدء تنفيذه للمدة المحكوم بها ، حتى قال فيصل لأمنون روبنشتاين ، مراسل صحيفة هارتس ، عن نيته ورغبته في الاعتراف بوجود حق للشعب اليهودي في اقامة وطنه في فلسطين شريطة اعتراف اليهود بوجود حق مماثل للفلسطينيين . كان ذلك بيانا غير عادي ، مع الأخذ بعين الاعتبار انه بعد أقل من أربعة شهور ، في تموز ١٩٦٨ ، سيقر المجلس الوطني الفلسطيني ميثاقه الحالي المعروف . فقد أعلن الميثاق ان خطة تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧ واقامة دولة اسرائيل هي أمور «غير مشروعة كلية» ونادى بالقضاء على الصهيونية ، والتي وصفها بانها «عنصرية ومتعصبة بطبيعتها ، وعدوانية وتوسعية واستعمارية بأهدافها ، وفاشية بأساليبها» . ومن أجل تحقيق ذلك الهدف ، فان الميثاق دعا الفلسطينيين «لاستخدام كل الوسائل المتاحة» بما فيها «الكفاح المسلح»

في ٢٢/ ٣/ ١٩٦٨ ، وفي مقابلة أجريت معه ، طرح فيصل وجهة نظر تتناقض والمادة السادسة من الميثاق الوطني الفلسطيني التي تقول بان اليهود الذين كانوا مستوطنين بشكل طبيعي في فلسطين حتى بداية الغزو الصهيوني لهم الحق في البقاء ويعتبرون فلسطينيين ، اذ صرح فيصل الحسيني قائلا : «انه لمن السخف ان نفصل وان نميز بين اليهود الذين ولدوا هنا وبين اولئك الذين قدموا من الخارج .

اليهود مستقرون هنا بشكل طبيعي . لقد ولدوا هنا ، بل انهم يتصورون هذا البلد على انه وطنهم الطبيعي» .

وفيما يلي مقتطفات أخرى من هذه المقابلة التي أجريت قبل مرور أقل من سنة على الهزيمة العربية سنة ١٩٦٧ وتوحيد القدس .

س : ماذا كان رد فعلك حين شاهدت القدس ؟

ج : لقد شعرت بالغضب حين رأيت مدينتي القدس تحت حكم أجنبي ، الحكم الاسرائيلي . لقد أُخذ منها جزء كبير وهام في الماضي والآن أُخذ كل شيء ، بل وسميت اسما آخر (اورشليم) . ايضا فانهم يغيرون الاسماء العربية التي تسمى بها الشوارع . انهم يفرضون حكما أجنبيا علينا . انهم يفرضون نظام حياة أجنبي علينا .

س : من سيمثلكم ؟

ج : لا يمكننا السماح لمجموعة من الوجهاء ان يمثلونا حتى ولو انهم يريدون الأفضل لفلسطين . وحتى لو كانوا مجموعة جيدة ، فانهم سوف يخفقون في مهمتهم ، وستخلق سابقة خطيرة ، وعند ذاك ستظهر مجموعة من الانتهازيين والانهزاميين لتتكلم باسمنا . وهذا هو السبب الذي يوجب علينا منع تشكيل مثل هذه المجموعة .

س : لو التقينا منذ سنة ، هل كنت ستقول الاشياء نفسها التي تقولها اليوم ؟

ج : لا ، نحن نتغير في كل وقت ، والاوقات تتغير . في عام ١٩٤٨ كانت الحرب حرب شعب في بلدهم ضد مهاجرين أجانب ، ضد الصهاينة . لقد أتوا الى هنا وهم يعلمون اننا هنا . واليوم ، وبعد عشرين سنة ، تغير الوضع ، فاليهود مستقرون هنا بشكل طبيعي . لقد ولدوا هنا ، بل انهم يتصورون ان هذا البلد على انه وطنهم الطبيعي . انهم ليسوا صهاينة أتوا الى هنا ضد شعب آخر . اليوم لا نخوض حربا لتنتهي «بالقاء اليهود في البحر» . وانه لمن السخف ان نفصل وان نميز بين اليهود الذين ولدوا هنا وبين اولئك الذين قدموا من الخارج الى هنا . وكما ترى ، فانني اتخلى عن وطنيتي المسلحة ، واتوقع ايماءة مماثلة منك . فنحن كلانا لنا حقوق في هذه الارض . لقد فرض التاريخ حربا بيننا ، لكن الواقع يفرض علينا تعايشا سلميا .

في الواقع ، وحتى في سنة ١٩٦٨ ، وقد مر ربع قرن ، فان فيصلا الحسيني كان يعتزم ويعمل على تشكيل جهازه السياسي داخل المناطق لتمثيل الفلسطينيين هناك ، ليكون وجودا يمكن ان يكون مواليا لفتح ولكن يمكن له بحكم طبيعته الضمنية ان يعترض على مطالبة م. ت. ف. بالتحدث باسم الفلسطينيين . وقال فيصل لروبنشتاين «نحن ، عرب غزة والناصرة والمناطق جميعها الخاضعة للحكم الاسرائيلي ، ينقصنا التنظيم الذي يقودنا ويساعدنا على تجنب القبول بالهزيمة ، وقبول الامر الواقع الناجم عنها . ان هذا التنظيم يجب ان يقنع اليهود ان اعطاء الفلسطينيين حقوقهم لا يعني صداما مع اليهود . ان اقامة مثل هذا التنظيم سوف تخلق الفرصة لحل النزاع من خلال طرق سلمية . من المهم ان يكون لنا تنظيم خاص بنا» . وعلى الرغم من انه قضى عدة شهور في السجن بانتظار محاكمته ، الا ان سراحه لم يطلق الا بعد مرور سنة على اعتقاله ، فهو ما يزال يذكر التاريخ: ٢٤/ ١٠/ ١٩٦٨ .

وعلى امتداد السنوات الثماني التالية ، ابتكر الاسرائيليون طريقة أخرى للابقاء على فيصل الحسيني تحت المراقبة ، بحيث تكون أقل عقوبة من زنزانة السجن ، ولكن اكثر فاعلية . فقد رفضوا اصدار بطاقة هوية له . فمن ناحية ، هو إنسان مسجل في احصاءات السكان ، وبامكانه الحصول على لوحة سيارة اسرائيلية صفراء اللون يسمح له بموجبها بالتنقل عبر نقاط التفتيش العسكرية وبحد أدنى من المضايقة ، ومن ناحية ثانية ، باستطاعته التصويت في الانتخابات البلدية ، والحصول على الضمان الاجتماعي ، وتنظيم المؤتمرات ، والقيام بالنشاطات السياسية دون الحصول على تصريح من الحكم العسكري . وبموجب القانون الاسرائيلي الذي يطبق على مدينة القدس ، فانه سيكون بالنسبة للامور القضائية كلها تقريبا مواطنا اسرائيليا ، اذ لا يمكن إبعاده ، ولا يمكن هدم منزله ، ويمكنه ـ اذ أراد ـ أن يصبح مواطنا في الدولة اليهودية . وبدون بطاقة هوية ، أدرك فيصل ان ليس بامكانه مغادرة البلاد ، بل ولا يمكنه حتى السير بحرية في الشوارع متخوفا من حقيقة انه اذا اوقف في الشارع ، وطلب اليه ابراز هوية ، فانه سوف يعتقل ويرسل الى سجن المسكوبية مرة أخرى ، وهناك سيشرح لهم من هو ، ولماذا ليست لديه بطاقة هوية ، واخيراً «سيقول المسؤولون له : أجل ، نحن نعرف عنك ، لا بأس ، اذهب الى البيت» . ولم يكن ذلك بالأمر السهل :

«حيثما كنت أرى جنديا أو رجل شرطة أو نقطة تفتيش ، كنت أبدأ بحساب حساباتي والتفكير : [هل سيوقفوني أم لا ؟ هل سيفهمون قصتي أم لا ؟ هل سيعتقلوني أم لا ؟]» . لقد اعتقل ست مرات على الأقل ، وعلى الرغم من ذلك فقد عومل بطريقة أفضل من الطريقة التي عوملت بها غالبية السجناء الآخرين ، اذ كان يجبر في كثير من المرات على قضاء الليل تحت الاستجواب في مركز الشرطة .

كانت سنوات السبعينات سنوات قاسية بالنسبة الى فيصل ، فهو لم يكمل دراسته الجامعية ، ولا يحمل بطاقة هوية ، وبالتالي كان من المستحيل تقريبا ان يجد عملا . بالطبع ، فان عائلته تكسب دخلا مربحا من عوائد ما يمتلكونه من أراض وأطيان ، ومن الايجارات التي تحصل عليها ، لكن فيصلا لم يكن يريد الاعتماد على عائلته . عمل في البداية في تجارة بيع المربيات المصنوعة في البيت ، ثم حاول فتح وكالة لبيع الجرارات للمزارعين الفلسطينيين في غزة . ولكنه كان بحاجة الى زيادة رأس المال غير انه لم يستطع ذلك . ومع حلول عام ١٩٧٣ ، وكما يؤكد «فقد انكسرت» وكان عليه اللجوء الى عائلته . وعلى امتداد السنوات الخمس التالية عمل بوظيفة فني أشعة في عيادة في القدس يمتلكها أحد أقاربه . أما ابنه ـ الذي أسماه عبد القادر ـ فقد ولد عام ١٩٧٦ . ومنذ ذلك الحين ، وفيصل يحمل لقب (أبو العبد) . بعد مرور سنة ، أي في عام ١٩٧٧ ، حصل في النهاية على بطاقة الهوية مع الموافقة الرسمية للسلطات الاسرائيلية مدموغة على صورته . ان هذه الصورة ـ كما يعتقد ـ كانت المذكّر المناسب بالاحتلال . ولكن ـ في عيون الاسرائيليين الرسميين على الاقل ـ فانه في النهاية أصبح موجوداً ، وأصبح باستطاعته ان يبدأ حياة جديدة .

ورغم انه اصبح (مواطنا) مقدسيا بشكل كامل ، فان ذلك لم يخفف من ألم الاحتلال . فحينما توفيت والدته عام ١٩٨٤ ، طلب فيصل من رافي ليفي حاكم منطقة القدس التابع لوزارة الداخلية الاسرائيلية منحه تصريح لاحضار جثمان والدته من لندن من أجل دفنها ، ووعده ليفي بتحقيق ذلك . «لكن بعد مرور بضع ساعات ، اتصل ليفي معي وقال : [ان والدتك كانت زوجة عبد القادر الحسيني ، وان أمن الدولة يمنع دفنها هنا] . فقلت له : [اذا كان جثمان امرأة ميتة يهدد أمن اسرائيل فأخبرني ما الذي يتطلبه امنكم من العالم العربي ؟]» .

وعلى الرغم من مرارة فيصل ، بدأ بعض القادة الاسرائيليين ينظرون اليه على انه ند لياسر عرفات ، وخاصة بعد انهيار المحادثات الاسرائيلية المصرية عام ١٩٨٢ المتعلقة بالحكم الذاتي الفلسطيني . فقد بدا ان عملية السلام وصلت الى طريق مسدود ، وشكلت حكومة ائتلاف وطني جديدة في اسرائيل عام ١٩٨٤ حيث نصبت شمعون بيريز كرئيس للوزراء للسنتين الاولين ، ومنافسه في حزب الليكود اسحق شامير للاربعة والعشرين شهرا الاخيرة من عمر هذه الحكومة .

كان فيصل الحسيني قد أصبح مستاء من إخفاق منظمة التحرير الفلسطينية في القيام بشيء ما . ففي مقابلة أجراها معه المراسل الاسرائيلي ايهود ياعاري ، عبر زعيم الضفة الغربية فيصل الحسيني عن بعض من احباطاته تجاه م. ت. ف. قائلاً : «حتى وقت قريب ، كان الفلسطينيون يقولون لانفسهم هناك م. ت. ف. وهناك عرفات ... هناك أولئك الذين يقررون ما يجب عمله وكيفية القيام بذلك . لكن في السنة الأخيرة ، يشعر الناس ان كل شيء انتهى : م. ت. ف. ليست هناك ، والدولة الفلسطينية شطبت من جدول الاعمال . وفجأة ادرك الناس ان وضعنا سيصبح اكثر سوءا وان كل أحلامهم قد تلاشت . ان الناس يسمعون ويرون البغض ينهمر عليهم من شاشات التلفزيون ، الامر الذي يجعلهم يثبون» ثم ـ وفي اشارة غير مباشرة الى شمعون بيريز ، الذي تعهد حزبه (حزب العمل) على الاقل بتحقيق تسوية لقضية المناطق ـ يحذر فيصل : «ان هذا يمكن ان يحدث حينما تُعامَل بطريقة كريمة وباسلوب ليبرالي . ان لويس السادس عشر كان بالنسبة الى شعبه أفضل من سلفه ، لكنه كان الرجل الذي ذهب الى المقصلة» .

لقد كانت كلمات فيصل نبوئية ، ففي مؤتمر القمة العربية الذي انعقد في عمان في ربيع عام ١٩٨٧ ، لم يُشَرْ الى القضية الفلسطينية الا بالكاد . وحينما التقى الرئيس الامريكي آنذاك رونالد ريغان مع الزعيم السوفييتي ميخائيل غورباتشوف في حزيران ، فان قضية الشرق لم تحصل الا على اعتراف بسيط جدا وهكذا ، فان الاحداث تعاونت مع بعضها لتجعل فيصلا جذابا بالنسبة الى ائتلاف الليكود ، في الوقت نفسه الذي أصبح فيه الليكود جذابا كشريك محتمل بالنسبة الى فيصل . لقد أدرك فيصل ان لائتلاف الاحزاب اليمينية بزعامة الليكود ، ادعاء توراتيا بارض اسرائيل . لكن فيصلا رأى ان معلّم شامير ـ ميناحيم بيغن ـ قد تخلى عن كل من المطارات الاستراتيجية والمستوطنات المدنية خلال عملية اعادة

سيناء الى مصر ... لقد رأى كيف ان بيغن وبمهارة كسب تأييد حتى العناصر المتشددة من جماهيره الانتخابية من أجل التضحية بالمنطقة واجبار المستوطنين اليهود على التخلي عن مستوطناتهم ... لقد رأى بيغن وهو يوقع اتفاقيات كامب ديفيد عام ١٩٧٨ ويقيم السلام مع مصر .

لذلك ، حينما تلقى فيصل اتصالا هاتفا يدعوه الى الانضمام الى محاولة جديدة للتفاوض على السلام مع الليكود ، رحب بالدعوة بحذر . لقد كانت تلك المكالمة - التي تلقاها في شهر تموز من عام ١٩٨٧ - من سري نسيبة ، وهو محلل سياسي فلسطيني ، ومدرس في جامعة بير زيت ، وأتت قبل مرور أربع وعشرين ساعة على اطلاق سراح فيصل من مدة توقيف اداري آخر . وحينما أعلم نسيبة فيصلا أنه عقد محادثات تمهيدية مع موشي عميراف عضو اللجنة المركزية لليكود ، رحب فيصل بالدعوة فوراً ، اذ اعتقد ان من المحتمل ان يكون الليكود متملقا في فتح قنواته الخاصة مع م. ت. ف. ولم يتخيل ان يقوم عميراف باجراء هذا الاتصال دون علم شامير . وبغض النظر عن النتيجة ، فان منظور محادثات السلام مع الليكود بدا الاكثر تفضيلا .

حينما وصل عميراف بعد بضعة أيام الى منزل نسيبة في اول زيارة من سلسلة الاجتماعات التي ستعقد في فصل الصيف ذاك ، تصافحوا بالايدي ، كما يستذكر فيصل وأُخذوا الى شرفة خارجية كبيرة مظللة ، حيث قدم ثلاثتهم الى شخصين آخرين : عربي واسرائيلي ، واللذين كانا قد ساعدا على ترتيب اللقاء . كانا : دافيد ايش شالوم (نشيط من نشطاء السلام) وصلاح زهيقة رئيس تحرير صحيفة الشعب الموالية لمنظمة التحرير الفلسطينية . ويستذكر فيصل الحسيني ، فيقول : «صافحت الموجودين كلهم وقال (عميراف) : [فيصل الحسيني ؟] فقلت : [نعم] فقال [موشي عميراف] . وبدأنا التحدث بالعبرية ، لكن الآخرين لم يكونوا يعرفون العبرية ، فبدأنا نتحدث بالانكليزية» . كان الاجتماع الاول حواراً عن الاساسيات . وفي اجتماعهم التالي ، قدم لهم عميراف نسخة من وثيقة مقترحة حول توسيع الحكم الذاتي الفلسطيني في الضفة الغربية وغزة ، وهي صيغة تجنبت القضية المتفجرة المتعلقة باقامة الدولة ، ولكنها - كما قال الاسرائيلي - ستضع الفلسطينيين على طريق تقرير المصير . كانت الخطة تتضمن فترة ثلاث سنوات من الحكم الذاتي ، أهمها على نحو بارز : اقامة «وجود» فلسطيني مجرد من الصفة

العسكرية تكون له عاصمة «ادارية» في القدس الشرقية والعديد من زخارف الامة : علم ، نشيد ، عملة خاصة ، محطة اذاعة ، وبطاقة هوية خاصة . وفي نهاية المدة المؤقتة ، تبدأ محادثات اسرائيلية ـ فلسطينية حول «الوضع النهائي» للمناطق ، كما ورد في اتفاقيات كامب ديفيد .

وأوضح عميراف ان محادثاتهم تهدف الى خلق أساس لاجتماع نهائي بين شامير وعرفات ، وان المذكرة التي سيقومون بوضعها سترتكز على المبادىء التالية :

* لا يمكن ان يكون هناك سلام بدون الليكود و م. ت. ف.
* يتقاتل الفلسطينيون والاسرائيليون منذ عشرات السنين ، وهناك قضيتان غير قابلتين للنقاش : ان من حق اسرائيل العيش داخل حدود آمنة يمكن الدفاع عنها ضمن الدولة التي أقامتها سنة ١٩٤٨ ، وانه لا يمكن الطلب الى الفلسطينيين التنازل عن حقوقهم في بعض المناطق التي سكنوها سنة ١٩٤٨ .
* ان أي حل لا يعترف بحق اسرائيل في الوجود ، أو بحق الشعب الفلسطيني في ممارسة حق تقرير المصير في النهاية ، هو حل لا قيمة له .

وخلال الاسابيع التالية ، اتفق الجانبان على انه ـ خلال فترة السنوات الثلاث المؤقتة ـ يجب اتخاذ اجراءات عملية للحد من التوتر : انسحاب الجنود الاسرائيليين من المدن والقرى المأهولة الى مناطق أمنية معينة ، امتناع الفلسطينيين عن القيام بأعمال العنف شريطة موافقة اسرائيل على التوقف عن بناء مستوطنات جديدة وحث المستوطنين على الامتناع عن مهاجمة الفلسطينيين ، وأخيرا بدء محادثات سلام بين اسرائيل وم. ت. ف. بعد تبادل الطرفين ضمانات الاعتراف المتبادل مباشرة . وقد كانت الخطوة الاخيرة هي العصيبة . يقول فيصل : «لقد أخبرناهم انه [لا للأردن] وقلنا انكم اذا كنتم فعلا تريدون صنع السلام فليس هناك مجال لذلك مع الاردن» . وفي حين سارت المحادثات ببطء في شهرها الثاني بدأت تتجمع لديه الشكوك فيما اذا كانوا فعلاً قد حصلوا على دعم شامير . يقول فيصل : «لقد أخْبَرَنا عميراف ان هذه القصاصة من الورق قد شاهدها رئيس الوزراء شامير ، لان شامير كان زعيم تيار جديد موثوق داخل الليكود ، وانه كان يريد انهاء حياته السياسية بشيء درامي يقوم به . فمثلما صنع بيغن السلام مع المصريين ، اراد شامير ـ كما قال عميراف ـ ان يصنع السلام مع الفلسطينيين» .

الى أي مدى شجع شامير عميراف ، فان ذلك ما يزال سراً . كان عميراف يقدم وبشكل منتظم الى عضوي الكنيست ايهود اولمرت ودان ميريدور اللذين كانا تحت حماية شامير ورعايته ، تقارير عن اتصالاته مع الفلسطينيين . ومن المفترض انهما كانا يطلعان رئيس الوزراء على ذلك . ايضا ، فان أولمرت التقى مع نسيبة لساعات عديدة ، لكنه نفى مؤخراً ان يكونا قد بحثا خطة السلام السرية . وفي الوقت ذاته ، فان المحادثات نفسها كانت تسير متعثرة . فعميراف لم يوافق على إدخال «زخارف الدولة» خلال السنوات الثلاث الاولى التي ستحكم خلالها سلطات الحكم الذاتي الفلسطيني المناطق . يقول فيصل : «قال لي عميراف : بوجود العملة ، والعلم ومكاتب للاقتصاد والخارجية في الخارج ، فان الناس كلهم سوف يدركون ان هذه ان هي الا دولة» .

ومع حلول يوم ٨/٢٤ كان الجانبان قد اقتربا من استكمال المذكرة . واقترح فيصل اطلاع عرفات على القضايا المتبقية غير المتفق عليها ، والذي كان سيصل الى جنيف في مطلع شهر ايلول لحضور مؤتمر الامم المتحدة . ومع ذلك ، فان عميراف اقترح على فيصل الحصول على إذن من عرفات لقيام وفد من القادة الفلسطينيين المحليين بلقاء شامير أولا . يقول فيصل : «بدأوا يسألون فيما اذا كان بامكاني ان اعطيهم أسماء أعضاء الوفد ... وأخبرتهم انه قبل قيامي بمثل هذا الشيء ، فانه يجب علي الحصول على مباركة م. ت. ف. وليس فقط اخذ الضوء الأخضر . وأخبرتهم ، انني آمل منك يا موشي عميراف ـ مثلي ـ ان تكون واثقا من ان قيادتك قوية بما يكفي ، ولديها الشجاعة الكافية للالتقاء معي ومع عرفات للتصديق على هذا الاتفاق» . ولم يعقد اي اجتماع آخر أبدا .

في ١٩٨٧/٨/٢٦ سجن فيصل الحسيني . وفي حين كانت يداه مقيدتان خلفه ، خاطب رجل الشرطة الاسرائيلي الذي أتى لاعتقاله : «انك تخرب مبادرة سياسية لا تعلم شيئا عنها» . وفي الواقع ، فان رجل (الشين بيت/مكتب التحقيقات الاسرائيلي) قد تدارس مع شامير قبل إصدار الامر باعتقاله ولم يتسلم تعليمات للتوقف أو الكف عن ذلك . كانت التعليمات المبدئية هي احتجاز الحسيني لمدة عشرة ايام ، وهي مدة تكفي لتفويت فرصة لقاء جنيف المخطط له . كذلك ، فان عميراف ألغى رحلته الى هناك ، تاركا دافيد ايش شالوم كاسرائيلي وحيد للقاء عرفات . وما يزال فيصل الحسيني مقتنعاً حتى هذا اليوم ، انه حتى وإن كان شامير على غير

علم بالتفاصيل كلها ، الا انه كان يعرف عن المبادرة ، واستغلها بشكل ساخر بحيث يتمكن من اتقاء خطر ضغوطات حزب العمل الداخلية من أجل مؤتمر دولي ، والضغوطات الخارجية للتحاور مباشرة مع م. ت. ف.

في الواقع ، وحينما سافر الى بوخارست بعد بضعة أيام من اعتقال فيصل ، قدم شامير وثيقة عميراف المعنونة بـ «اطار للسلام في اسرائيل الكبرى» الى الرئيس الروماني نيكولاي تشاوشيسكو . وقال له شامير : «لا تدفعونا لاقامة علاقات مع م. ت. ف. ... كما ترون ، لنا علاقات مع فلسطينيي [الضفة الغربية]» . ورد عليه تشاوشيسكو بانه كان قد اطلع على المذكرة . ويقول فيصل : «لقد أخبره ان عرفات كان هنا قبل بضعة أيام وانه اطلعه على الورقة نفسها» . وكان عرفات قد حصل على نسخة من الوثيقة خلال زيارة رسمية كان يقوم بها الى الهند : «وكانت تلك هي النهاية ، فهو لم يكن يحلم ان عرفات كان متورطا في الموضوع . وبعد ذلك مباشرة تم اعتقالي» . وفيما بعد ، انكر شامير ان تكون له أي مشاركة أو معرفة بالقضية كلها . وقال البيان الصادر عنه : «ايها السادة ، ان الحسيني ونسيبة ، المعروفين بانهما رجلا م. ت. ف. استغلا بساطة عميراف ، ولكن هذا لن يؤثر في الليكود المتحد في موقفه السلبي تجاه م. ت. ف.» . وخلال أيام ، تم طرد عميراف من حزب حيروت ومن الليكود الذي يقود الائتلاف . وبسبب دوره في تنظيم المبادرة ، فقد كسرت ذراع نسيبة على يد مسلحي بير زيت ، في حين قضى فيصل الحسيني في السجن مدة اكثر مما كان يتوقع . فقد حكم عليه بفترتي اعتقال اداري متعاقبتين . وحينما اطلق سراحه أخيراً في شهر حزيران ١٩٨٨ ، بعد ان قضى مدة عشرة شهور في السجن ، استعاد حريته بعد مرور سبعة أشهر على بدء الانتفاضة .

وقد تعلم فيصل الحسيني من قضية عميراف عدة دروس ، من بينها ان عليه ان يعمل من جانب واحد اذا أراد أن يُعجّل في تحقيق هدف اقامة الدولة الفلسطينية لكن القضية ايضا خدمت كنوع من اول تجربة سياسية له مع الليكود. فقد عملت على تقوية قناعته بان تحالف الجناح اليميني سيرد باقتراحات تهدف الى تعزيز القيادة الفلسطينية المحلية للضفة الغربية وقطاع غزة على حساب ياسر عرفات وكوادر م. ت. ف. الموجودة بعيدا في تونس . وحينما اطلق سراحه في مطلع فصل الصيف ، بدأ فيصل على الفور العمل على وثيقة جديدة من شأنها أن تعمل

على تحـقـيق كـلا الهدفين : المسـاعـدة على عـزل القضية الفلسطينية عن الساسة الاسرائيليين ، وعلى تعـزيز القوة السياسية للفلسطينيين داخل الاراضي المحتلة .

وكانت النتيجة خطة لاعلان استقلال فلسطيني بحكومة مؤقتة ، تكون برئاسة ياسر عـرفـات ، تسـتمد معظم سلطتها من هيئة تشريعية تتكون من الفلسطينيين الموجـودين تحت الاحـتـلال ، وينتخبها فلسطينيو المناطق المحتلة فقط . ان «خطة اعـلان الاسـتـقـلال» هذه والتي عرفت فيما بعد بـ «وثيقة الحسيني» كانت ثمرة طبـيـعـيـة لثـورة الشـارع ضـد الحكم الاسرائيلي . وقـد كـانت في الواقع محـاولة مـدروسـة جـداً لتـحـويل تلك الثـورة الشعبية الى بناء سياسي يساعد على تنفيس غـضب الفلسطينيين في حين يتم دفع قـضـيـتهـم الى الامام من خلال وسـائل اقل عنفا .

مع هذا ، فـان خطوة وحـيـدة الجـانب كـهـذه كانت اكبر من ان يمكن للجهاز السـياسي الاسرائيلي ان يهضمها . ففي نظر الاسرائيليين ، فان أي خطوة نحو حكم ذاتي فلسطيني لا تكون منبـثقة عن اتفاق مع الدولة اليهودية سوف تهدد شرعية الوجـود الاسرائيلي ، والقـدرة العـسكرية الاسرائيلية والادارة المدنية على الحكم . ان اسرائيل لن تسـمح أبدا باقامة دولة فلسطينية لتصبح حقيقة في الامر الواقع ، لان حـدوث مثل ذلك سوف يعرض الاسرائيليين لاكبر مخاوفهم ، اي عدم تمكنهم من املاء شروطهم من أجل حماية أمنهم .

في ٣١/ ٧/ ١٩٨٨ ، بعـد مرور أقل من شهرين على اطلاق سراحه من السجن ، وبعـد مرور ساعة على اعلان الملك حسين عن تخلي الاردن عن السيادة على الضفة الغـربيـة ، تم اعتقال فيصل الحسيني . وقبل اثنتين وسبعين ساعة كان قد سافر الى تل أبيب للظهـور مع ثلاثة سـيـاسـيين اسرائيليين في آخـر مسعى من المساعي الشـخـصـيـة لاقناع الرأي العام الاسرائيلي بموقفه المعتدل . ومع ذلك ، فان عملية الاعـتقال لم تفاجىء هذا الزعيم الفلسطيني الذي قال لرجال الشرطة الذين داهموا منزله : «لقـد كنت أتوقع مجيئكم» . وكـانت هناك حقيبة صغيرة ، مليئة بالاشياء التي يحتاجها لأخذها معه الى السجن .

لقـد أدرك فـيـصل الحسيني أن هناك سببا آخر لاعتقاله ، فعملية فك الارتباط الـقـانـوني والاداري للاردن مع الضـفـة الـغـربيـة سـتـجبر م. ت. ف. على تولي

المسؤوليات السياسية والادارية للمؤسسات الفلسطينية ، بدءاً بالجامعات ، وانتهاء بالأوقاف الاسلامية ، وانه ـ فيصل الحسيني ـ رجل م. ت. ف. الاكثر أهمية في المناطق المحتلة . لقد أدرك ان اعتقاله كان متعمدا لارسال رسالة الى م. ت. ف. مفادها ان اسرائيل لن تتسامح تجاه أي خطوات أخرى أحادية الجانب . لكنه ايضا أدرك ان كوادر مقاتلي الشارع قد كسبوا انتصارهم الاكثر أهمية منذ ان بدأت الانتفاضة . وبغض النظر عما قام به الاسرائيليون من أجل تقوية سلطتهم فان الضفة الغربية وقطاع غزة ـ ضمن دائرة تفكير الجماهير الاكثر أهمية ، الناس الذين يعيشون هناك ـ مستقلتان عن الحكم الاجنبي . وبقي الامر متعلقا بهم لوضع خطة لحكم أنفسهم ، والتخلص من المحتل الاسرائيلي .

ان مصادرة «وثيقة الحسيني» في تلك الليلة من ليالي شهر تموز من مكاتب مؤسسة الدراسات العربية ، والحكم على فيصل بستة شهور أخرى من التوقيف الاداري قد عجلت في عقد اجتماع في الحرم الشريف لاعلان الاستقلال الفلسطيني . لكن ليست هناك ولا خطوة يمكن ان تكون قادرة على خنق الوعي المتنامي بين الفلسطينيين من حيث ان تحقيق آمالهم وطموحاتهم في دولة قد أصبح الآن بين أيديهم ، وليس بأيدي القادة العرب الذين يعملون على خدمة مصالحهم الشخصية.

وفي شهر تشرين الثاني من عام ١٩٨٨ ، ومع وجود الحسيني في السجن مرة أخرى ، أعلن المجلس الوطني الفلسطيني المنعقد في الجزائر قيام دولة فلسطين المستقلة . وبعد مرور شهر ، أعلن ياسر عرفات في جنيف اعتراف م. ت. ف. باسرائيل وشجب الارهاب . وأكد نسيبة ان على فلسطينيي الضفة الغربية وغزة التحرك بدون تأخير نحو بناء البنية التحتية والمؤسسات التي ستترافق مع اقامة الدولة .

واتخذ فيصل الحسيني بضع خطوات مبتعدا عن الضيوف المجتمعين على المقاعد ذات اللون الابيض وعلى الكراسي ذات الأذرع المنجدة في الصالون الانيق في المنزل الكائن في وادي الجوز ، وهو يشير الى انه يريد المحافظة على سرية محادثاته، وتوجه نحو الصالة المجاورة ، وقد وضع سماعة الهاتف على أذنه ، مستمعا بتركيز الى شكوى المتحدث على الهاتف . كانت غرفة المعيشة مليئة بالناس بعضهم يحثه على التوسط في خلافات عائلية ، في حين يطلب منه آخرون زيارة

قريتهم للمساعدة في تهدئة والد يطلب الثأر لاغتيال ابنه الذي زُعم بانه كان عميلا اسرائيليا ، او لتسوية بعض الحزازات الأخرى . وفي الخارج ، في جناح الاستقبال ، هناك رسول من دبلوماسي ينتظر اشارة من فيصل بانه على استعداد لاستقبال المبعوث الذي صدرت اليه تعليمات لتسليم رسالة مباشرة الى زعيم الضفة الغربية. وعلى الرغم من ان المناطق المحتلة مسيسة الى حد بعيد ، الا ان الشيء الذي ما يزال يربط الناس مع بعضهم هو الروابط العائلية ، والولاء للعشيرة اكثر من الولاء الى أي حزب سياسي .

بينما كان يستمع الى المتحدث على الهاتف ، كان فيصل يدرك كم هو التغير القليل الذي حدث منذ زمن العثمانيين ، حينما كان القاضي يقضي في الخلافات العائلية . وقد أصبحت ردهة الاستقبال في منزله أشبه بقاعة محكمة عائلية لكنه هو أيضا أصبح أداة التغيير السياسي الذي عليه ان يقنع أبناء شعبه بان يجعلوا مصالحهم الوطنية فوق مصالحهم الطائفية والعصبية ، والذي عليه ان يحشد جمهوراً لعملية السلام في جو ما يزال الحقد والبغض والانتقام والقتل فيه ـ وليس حق التصويت ـ يسود الصورة السياسية . انه لا يتراجع عن المهمة ، فهي جزء من المهمة التي ورثها عن أبيه ، بطل الحرب ، وعن عمه الكبير المفتي الأكبر ، وعن أسلاف الحسينيين الذين كانوا رؤساء لبلدية القدس او تولوا مناصب بلدية عليا أخرى خلال فترة الانتداب .

وعلى الرغم من ان المهمة تبدو في الغالب مروعة ، فانها بالتأكيد تجعل له أعداء مثلما تجعل له مؤيدين . وقد تبين له ذلك في خريف عام ١٩٩١ حينما توجب عليه تشكيل وفد فلسطيني لمحادثات السلام في مدريد ، واضطر الى ان يسلك مسلكا ليلبي مطالب ثلاث فئات لا تتفق مع بعضها : الولايات المتحدة ، وم. ت. ف. واسرائيل . في ذلك الوقت ، كان ثمن مثل هذا التوفيق ثمنا باهظا : ففيما يتعلق ببطاقة دخول الفلسطينيين الى مدريد ، يجب ان لا يكون هناك مسؤولون من م. ت. ف. ولا فلسطينيون من خارج المناطق المحتلة ، ولا فلسطينيون من القدس . كان فيصل يدرك انه يعرض نفسه الى تهم قطع الحبل السري مع تونس ، والقبول بادعاءات الكتاب المقدس ان القدس ليست جزءا من الضفة الغربية ، والتآمر والتستر على ترتيبات من شأنها ان تفصل ٤ ملايين من فلسطينيي الشتات الموجودين خارج المناطق عن ١,٧ مليون فلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة.

ومع هذا ، فان المكافآت المحتملة بدت انها اكثر من الخطر . فالفلسطينيون كانوا بحاجة الى تحويل انتصاراتهم التي حققوها في ميدان الانتفاضة الى عملية من شأنها العمل على دفع أهدافهم القومية قدما الى الامام ، وكانوا بحاجة الى الاستشفاء من كارثة العلاقات العامة التي تسبب بها تأييدهم الواسع لصدام حسين . وعلاوة على ذلك كله ، كانوا بحاجة الى ايقاف النشاط الاستيطاني الاسرائيلي الذي يهدد بتغيير ديمغرافية بلدهم ، ويسلب منهم ما يمكن ان يكون فرصتهم الاخيرة للحيلولة دون دمج الضفة الغربية وقطاع غزة في دولة اسرائيل . لهذه الاسباب كلها ، ومن أجل كسب دعم الولايات المتحدة (باعتبارها القوة الاعظم الوحيدة الباقية) أدرك فيصل الحسيني ان ليس أمامه أي خيار آخر . لكن ادراك حقيقة مأزقهم ، وترويج ذلك بنجاح في عالم الجماهير المنقسمة واليائسة كانا شيئين مختلفين تماما . فقد تبين ان ترويج ذلك أمر أصعب مما كان يعتقده فيصل .

اعتزم فيصل بناء دعم شعبي واسع النطاق للوفد الفلسطيني الذاهب الى مدريد من خلال دمج المفكرين مع السجناء المحررين في الوفد . فهناك عدد من المحاربين القدماء الذين تمت مبادلتهم وتحريرهم في عملية المبادلة التي تمت عام ١٩٨٥ وخطط لها احمد جبريل زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين/القيادة العامة ، التي تتخذ من دمشق مقراً ، والتي قامت اسرائيل خلالها باطلاق سراح نحو ١٠٠٠ من السجناء الامنيين مقابل ستة جنود اسرائيليين تم أسرهم خلال حرب ١٩٨٢ في لبنان .

وكتب داني روبنشتاين في صحيفة هآرتس ان فيصلا أراد دمج حكمة ومعرفة خريجي جامعة بير زيت ـ هارفارد المناطق المحتلة ـ مع الخبرة والفطرة السليمة للفلسطينيين «خريجي جامعة الاحتلال» الذين عانوا على أيدي الاسرائيليين . وحينما يسأل شخص ما مَن كان المسؤول عن تنسيق النشاط السياسي خلال الانتفاضة ، فغالبا ما يسمع المرء النكتة التي تقول : «الرأس هو رأس جامعة بيرزيت ، والأيدي أيدي السجناء الذين حررهم جبريل» . لقد كان فيصل يأمل أن يعكس الوفد الانتفاضة نفسها .

حالما تم التوصل الى اتفاق في الرأي مع مساعدي فيصل داخل المناطق ، قام

فيصل بالحصول على موافقة م. ت. ف. على القائمة . ومن أجل الحصول على تأييد المنظمة ، استخدم فيصل رجلين من أكثر المهجرين شهرة كوسيطين مع عرفات ، وهما : أكرم هنية المساعد الشخصي للرئيس وجبريل رجوب . والرجلان يتمتعان بمصداقية عالية داخل المناطق ، كما أنهما أبعدا من قبل الاسرائيليين بسبب مساعدتهما في زرع بذور الانتفاضة . كان هنية رئيس تحرير جريدة الشعب في حين أن رجوب أطلق سراحه خلال عملية التبادل التي قام بها جبريل ، علاوة على أنهما كانا عضوين في منظمة فتح ، وهي الفصيل ذو الاتجاه السائد الذي يكن فيصل الولاء له . وكانت هناك نزاعات مع تونس : ففي البداية طالبت م. ت. ف. أن يكون الياس فريج عضوا في الوفد بسبب مكانته الدولية كرئيس لبلدية بيت لحم ، وبسبب علاقاته القوية مع الأردن . وكان فريج جزءاً من المجموعة الأصلية غير انه تم استبعاده فيما بعد ، وهي اشارة الى تنامي استقلالية الحسيني ونسبية ؛ ثم أعيد الى القائمة بناء على الحاح م. ت. ف.

كان فيصل الحسيني مدركاً للمعارضة التي ستواجهها المباحثات مع اسرائيل . ففي ٢٢/١٠/١٩٩١ أعلن جناح نايف حواتمة في الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين وكذلك الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين «معارضتهما الشديدة لأولئك الذين رضخوا للشروط الاسرائيلية والأمريكية» . وعملت هاتان المجموعتان مع حركة حماس على توزيع منشور يحض على اعلان الاضراب العام في اليوم التالي . كان هدفهم المشترك الاحتجاج على مؤتمر السلام . ولم يبال العديد من الناس بهذه الدعوة ، واستمرت المدارس ، والشركات ، والباصات ، وسيارات التاكسي في عملها . لكن فيصلا كان قلقا . فقد قال أمام حشد يتكون من ثلاثمائة مواطن في ذلك اليوم «المهم هو ان نقيد خلافاتنا الى جدران البيت الفلسطيني ، وان نعالجها بطريقة ديمقراطية . علينا أن نعد أنفسنا للدولة التي سيكون فيها أكثر من تفكير» .

فقط وقبل ساعات من اعلان أسماء الوفد الفلسطيني الذي سيسافر الى مدريد أعطى فيصل مقابلة الى صحيفة (الجيروزالم بوست) وهي الصحيفة اليومية التي تصدر باللغة الانكليزية ، وتعكس وجهات نظر حكومة الليكود الاسرائيلية الحاكمة آنذاك . لقد أدرك فيصل على امتداد عدة سنوات ضرورة تهدئة مخاوف اليهود ، والتكلم معهم مباشرة عن آماله ومخاوفه ، كما كان قد فعل عدة مرات حينما ظهر

أمام جمهور في اسرائيل وتحدث اليهم بالعبرية . وقد سأل مراسل الصحيفة جويل غرينبرغ فيصلا اذا كان يشعر ان المشاركة الفلسطينية ستغير «علاقتك مع الاسرائيليين الذين سيتعاملون الآن معك دبلوماسيا كمجموعة مقابلة» . وأدرك فيصل أهمية السؤال ، فقال : «من المؤكد انها حقبة جديدة ... سنتحدث مع الاسرائيليين لخلق علاقة تبادلية . سيجلس الفلسطينيون والاسرائيليون كطرفين متساويين للبحث في القضايا» .

ان الحصول على اعتراف اسرائيلي بهم كطرف مستقل وعلى قدم المساواة كان هدفا فلسطينيا في مدريد . كان اسحق شامير رئيس الوزراء الاسرائيلي ، ووزراء خارجية مصر ، وسوريا ، والأردن ، ولبنان ، والولايات المتحدة ، والاتحاد السوفييتي سيلقون كلماتهم في المؤتمر . وكذلك الأمر بالنسبة الى المندوب الفلسطيني . ففيصل كان قد حصل على تعهد من راعيي المؤتمر : الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، مفاده حتى وان كان الفلسطينيون سيحضرون المؤتمر على انهم جزء من الوفد الأردني ، فانه سيسمح لرئيسهم حيدر عبد الشافي بوقت مماثل لالقاء كلمته .

وتساءل غرينبرغ : «اليست م. ت. ف. مشاركة في العملية بالتحكم عن بعد ؟ ... أَلَسْتَ مرشحهم ؟» . وأجابه فيصل : «سَمِّ ذلك ما شئت ... هناك حقائق لا يمكن حجبها بوضع نظارة ذات لون مختلف . باستطاعتك أن تغير زجاج النظارة ولكنك لا تستطيع تغيير العالم الحقيقي» . اذن ، فما الذي تغير وأقنع الفلسطينيين بالتقاط عرض كانوا يرفضونه منذ كامب ديفيد ، وأعني ، التفاوض مع اسرائيل على فترة مؤقتة من الحكم الذاتي ؟ . وكانت اجابة فيصل كاشفة . فقد أظهرت قدرته على جعل الواقع نفسه مناسبا للهدف الجديد ، وهو دفع قضية أهل «الداخل» قدما الى الأمام حتى ولو كان ذلك يعني التحول عن تونس : «لقد كنت منقطعا في الصحراء . وأحضر لي أحدهم طوق نجاة وطلب اليّ استخدامه ، ولكنني رفضت العرض السخيف . ثم جاء طوفان كبير ، ووجدت ان باستطاعتي استخدام القارب الذي كان ذات يوم سخفا . ربما كنتُ لا أحب كل شيء في القارب ولكنني أستطيع استخدامه للانتقال الى مكان ما ، نحو هدفي . لقد كنت محقاً في رفضي للقارب آنذاك ، وانني على صواب بقبوله الآن . ان أشياء عديدة بدت غير عملية في تلك الأيام هي الآن مفيدة» .

في هذه المقـابلة القـصيرة ، لخص فيصل التغير الحاد في السياسة الفلسطينية . ففي عام ١٩٧٨ كـان «غير عـملي» بالنسبة الى أي قيادي في الضفة الغربية تحدي قـبـضة عرفات على م. ت. ف. غير ان الانتفاضة وحرب الخليج غيرتا ذلك . فمنذ بدء الانتـفاضة في شهر كانون الأول ١٩٧٨ قـتل مـا يزيد على ألف فلسطيني من الشـبـاب والشـابات ، وقـد أثبت الفلسطينيـون للعـالم الخـارجي ولأنفسـهم انهم مـسـتـعدون لدفع ثمن باهظ مقابل حريتهم . وفي بداية ربيع سنة ١٩٩١ ، ومع دخـول الانتـفـاضــة عـامـهـا الخامس ، كان قد أصبح من الواضح ان تونس لن تستطيع بعد ذلك الاعتراض على قرارات القيادة المحلية .

ولقـد أتت أول اشـارة الى أن مـيـزان القـوى قـد تغير بشكل قـاطع تجاه أهل «الداخل» في شهر آذار ١٩٩١ ، وبعد أسابيع قليلة من انتهاء حرب الخليج ، حينما قـامت مجمـوعـة يقودها الحسيني بتحدي سياسة م. ت. ف. طويلة الأمد والتقت مع وزير الخـارجية الأمريكي آنذاك جيمس بيكر في القدس الشرقية . وأصبح على م. ت. ف. الآن أن تقـرر إمـا تأييـد الاجـتماع الحيوي هذا ، أو أن تُـتْـرَكَ خارج الاجماع العـام الجـديد . لقـد عـملت الانتـفـاضة على خلق جمهور لها ، لكن حرب الخليج هي التي سـمـحت للقـيـادة المحليـة أن تحـشـد الفلسطينيين خلف عملية السلام.

ان م. ت. ف. ربطت صـاريها بصدام حسين ، وبالتالي فان هزيمته كانت تعني أن يـاسر عـرفـات لم يعد بامكانه بعـد هذا الاعـتماد على تأييـد ودعم العـربيـة السـعـودية والمتبرعين العـرب الأثرياء الآخرين من مشيخات الخليج العربي الغنية بالنفط . فـهـذه الدول مـدينة الآن بالفضل الى الولايات المتحدة لتحريرها الكويت والدفـاع عنهم ضـد العـدوان العـراقي . وبالتـالي ، فانهم كانوا على استعداد لدعم وتأييـد مـبـادرة أمـريكيـة جديدة من أجل حل النزاع العربي الاسرائيلي ، والمشكلة الفلسطينية .

وبينما كان يستعد للسفر الى مدريد ، قال فيصل الحسيني أمام مؤتمر صحفي كـبير : «انني لست بحاجة الى دبابات لتحقيق الانتصار ، وبالأحرى فانني بحاجة لأثبت لاسرائيل انه لا يمكنهـا أن تكون الحـاكم الوحـيـد على الأرض حينما تكون هناك مـفاوضـات . ان هدف الفلسطينيين كلهم هو التخلص من الاحتلال الاسرائيلي

كسبيل لاقامة الدولة الفلسطينية المستقلة» . ففي سن الحادية والخمسين من العمر اتيحت لفيصل فرصة تنفيذ الوصية التي ورثها عن عائلته . وعلى غرار لحظات الطفولة تلك حينما توقف يغني كلمات والده ، ويكتب أغنيته ، كان مستعدا للظهور من ظلال ماضيه ، وللمساعدة في كتابة قصة النجاح الفلسطيني على مسرح العالم .

في يوم الأحد الموافق ١٠/ ١١/ ١٩٩١ كان الناس في الشوارع يحسون بالأمل الذي انبعثت شرارته في مدريد حينما عبرت حافلتان فلسطينيتان تحملان المفاوضين الأربعة عشر ووفد المستشارين عبر نهر الأردن . كانت الحالة النفسية احتفالية ، اذ اندفعت الجماهير لاستقبالهم . ولكن بعد مرور أقل من شهرين على ذلك تغيرت الأجواء .

ففي ٣٠/ ١٢/ ١٩٩١ خطط فيصل الحسيني لالقاء كلمة في اجتماع في بلدة طولكرم ، وهي واحدة من سلسلة خطابات كان يلقيها ليحصل على تأييد لعملية السلام . وبلدة طولكرم هذه تقع على «الخط الأخضر» الذي يفصل اسرائيل عن الضفة الغربية . وحتى خلال فترة الحكم العثماني ، كانت هذه البلدة سوقاً تجارية تقليدية للقرى والمدن اليهودية الواقعة على الحدود . وفيما بعد ، كان الاسرائيليون يبتاعون فاكهتهم وخضارهم من الأسواق العربية . ولكن في السنوات الأخيرة ، فان فلسطينيي طولكرم البالغ عددهم ٤٠,٠٠٠ نسمة أخذوا ينقسمون وبشكل متزايد بين مؤيدين لفتح وآخرين مؤيدين لحركة المقاومة الاسلامية (حماس) . لقد تعايشت السياسة والدين هنا في الماضي على الدوام . وكان خط السكة الحديدية الذي يأخذ الحجاج الى مكة يمر عبر طولكرم . لكن قضبان السكة الحديدية المهجورة الآن تبدو مذكّراً صامتا بموقع المدينة التي ينتشر فيها السياسيون الفلسطينيون المتطرفون . ان أحد مخيمي اللاجئين الكبيرين في طولكرم ، وهو مخيم (نور شمس) يقع على جانبي الخط الحديدي وهو مرتع مؤيدي حماس . وفي هذا المخيم عاش تقي الدين نبهاني مؤسس حركة التحرير الاسلامي في الأردن . ولكن هنا أيضاً ، يعمل حلمي حنون ، رئيس بلدية طولكرم، وهو أقدم رئيس بلدية موال لحركة فتح ما يزال في الخدمة في الضفة الغربية .

بالنسبة الى فيصل ، فان محاولة توحيد كافة الأطراف خلف قيادته محاولة

تثبط الهمة . فالمعارضة التي يبديها اتباع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين/نايف حواتمة/غير دينية . غير ان المعارضة التي تبديها حركة حماس تعتمد على الدين والتعصب . وحسب التفسير الأصولي للقانون الاسلامي ، فان أرض فلسطين كلها تخص المسلمين ، وبالتالي فان أي محاولة للتفاوض على تسوية اقليمية محلية مع اسرائيل هي خيانة . فاسرائيل يجب ان تقوم مكانها جمهورية اسلامية . يقول فيصل : «ذهبت الى طولكرم في وقت مبكر لأنني كنت قلقا على القضية كلها» . وقد توجه فيصل الى هناك بواسطة سيارة عليها شارة الهلال الأحمر .

وحينما رشقت سيارته ببعض الحجارة بينما كان يقترب من ميدان جمال عبد الناصر ، تحول قلقه الى خوف : «عدت وقلت لجماعتي : [اذهبوا وسيطروا على المنطقة كلها] اذا كانت هناك ضرورة لمزيد من الاستعدادات والحراس الاضافيين ، فدعونا نلغي ذلك]» لكن عدنان ضميري - وهو موال لفتح ، والمشرف على الاجتماع في دار للسينما في طولكرم ، وهي بناية كبيرة ذات أبواب معدنية مطلية باللون الأزرق الفاتح - لم يكن قلقا ، اذ قال لفيصل : « لقد اتخذنا كافة الاحتياطات الضرورية» .

كان عدنان ضميري - وهو فلسطيني قصير القامة ، نحيل الجسم ، أصلع الرأس قليلاً ، ذو شارب أسود - متمرساً في السياسة ، فبين عام ١٩٧٥ و ١٩٨١ سجن في مختلف أنحاء الضفة الغربية : في نابلس ، وطولكرم ، وجنين ، والفريونة، كما أنه أيضاً قضى ثلاث فترات توقيف اداري في أنصار ٣ بالقرب من كتزيوت في صحراء النقب . وهناك انتخب من قبل السجناء الآخرين كشاويش/رئيس للسلطة الفلسطينية في مخيم الاعتقال . وكان يشعر ان باستطاعته معالجة أي شغب في دار السينما . ومن أجل ضمان عرض عادل للقضايا ، فانه وعد مدرسا من جامعة بير زيت ، مؤيدالحماس ، بإعطائه وقتا مساويا للرد على حديث فيصل . غير ان المشكلة بدأت حينما قامت دورية أمن تابعة لفتح بالسماح فقط للاشخاص الذين تعرفهم بالدخول ، والذين عرف عنهم أنهم من مؤيدي مجموعة م. ت. ف. ذات الاتجاه السائد . وانفجر الاحتجاج خارج دار السينما ، بالقرب من جدار كتب عليه «لا للمؤتمر» كإشارة الى مؤتمر السلام في مدريد وكان تحت هذه العبارة توقيع (حماس) . وأخيراً ، تم التوصل الى

تسوية تتمثل في جلوس مؤيدي حماس في المقصورة في الطابق العلوي ، في حين يجلس مؤيدو فتح في صالة الطابق الأرضي .

وبدا كل شيء تحت السيطرة ، وبدأ فيصل حديثه ، غير ان صيحات الاستهجان انطلقت ضده من الطابق العلوي ، اذ أخذ مؤيدو حماس يصرخون : «استسلامي ! استسلامي !» و «لقد بعت فلسطين الى اليهود» وطفح الكيل لدى فيصل الذي قال للضميري : «دعنا ننهي ذلك الآن» . غير انه لم يكن هناك متّسع من الوقت ، اذ يستذكر فيصل ان «شخصا ما في المقصورة بدأ فجأة بتحطيم مصابيح النيون والقائها على الجمهور الجالس في الطابق السفلي . ثم قاموا بانتزاع الكراسي ، وحطموا الطبقة الاسمنتية التي تحتها ، وبدأوا بقذف الحجارة ... في البداية لم أصدق ما كان يحدث ... كانوا يسيطرون على المكان كله» . وحاول حارسه الشخصي أن يحجبه عنهم والآخرين الموجودين على المنصة : «كان علينا أن نضع الكراسي فوق رؤوسنا ... لقد كانت هناك حجارة كثيرة جداً ، ولو لم تكن هناك كراسي لكنت قد قتلت» . وأخيراً ، خلّص فيصل نفسه ، ووصل الى سيارته . وفيما كان ينطلق مسرعا ، نظر الى الخلف برعب : «كان هناك قتال في كل مكان» .

في اليوم التالي ١٢/٣١ كانت الأمور قد هدأت . وقتل جابر الضميري ـ مؤيد لحماس ـ وهو ابن عم عدنان ضميري ـ على يد رجل قوي البنية من فتح حينما كان يغادر المسجد في مخيم اللاجئين في طولكرم . كان القاتل ، وكذلك ضحيته ، يبلغان من العمر تسع عشرة سنة . وقالت الصحف الاسرائيلية ان الهجوم تم بناء على تعليمات الفهود السود ، وهم القوة الضاربة لحركة فتح . غير ان كلا من فيصل الحسيني وعدنان ضميري نفيا ذلك . يقول فيصل : «ان هذا الرجل لم يتلق أوامر من فتح لقتل هذا الرجل من حماس ... لم تكن لديه أي أوامر بالقتل» ووفقا لما تقوله صحيفة القدس اليومية ، فان عملية القتل كانت نتيجة خلافات عائلية ، اذ يؤكد عدنان : «لم يكن حتى مرتبطا بأحداث السينما ... ان الشيء المذهل هو ان جابرا الضميري من عائلة تؤيد فتح ، في حين ان الرجل الآخر من عائلة تؤيد حماس» .

لكن عائلة جابر علي ضميري وعائلة الرجل الموالي لحماس لم تقبلا بهذا التفسير . ففي خطوة غير مألوفة ، قام والد جابر ضميري بنشر اعلان في صحيفة

القدس في اليوم التالي جاء فيه : «ان موت ابننا كان ذا دوافع سياسية ولا علاقة لخلافات عائلية بذلك كما زعم في القصة ، اذ ليست هناك خلافات عائلية بيننا وبين عائلة الشاب المشتبه فيه بقتل ابننا جابر ، كما أنه ليست هناك نزاعات شخصية بين القاتل والشهيد» .

وراودت فيصل الشكوك في أن تكون السلطات الاسرائيلية قد أجازت العنف للحد من شجاعته لإلقاء خطابات في اجتماعات مماثلة في أنحاء المناطق . ويقول ان الحاكم العسكري الاسرائيلي لمنطقة طولكرم رفض إصدار ترخيص للاجتماع الا عشية اليوم الذي وقعت فيه تلك الحوادث : «وأخيرا حينما اتصل ، قال : [حسنا ، اننا نسمح لك ، ولكن عليك ان تعلم ان حماس ستقوم بشيء ضدكم ولن نتدخل] » ويؤكد فيصل : «الاسرائيليون لم يكونوا مرتاحين للزيارات التي كنت أقوم بها وكذلك الآخرون من أعضاء الوفد . ومن خلال السماح بوقوع مثل تلك الحوادث ، فإنهم يقوون هدفهم بمنع مثل هذه الاجتماعات مستقبلا ، اذ سيقولون : انظروا ، حينما سمحنا لكم بعقد اجتماعات عامة فانها تحولت الى أعمال عنف» .

تلك هي الوطأة التي يجب على فيصل أن يحملها وهو يحاول قيادة شعبه من الصحراء التي يجولون فيها دون وطن لهم منذ قيام اسرائيل سنة ١٩٤٨ . فها هو يواجه تمردا داخليا وخارجيا ، وعليه مواجهة الانقسامات والاختلافات داخل فتح ، وفي الوقت نفسه يواجه القوة المتنامية للأصوليين الاسلاميين والجماعات الأخرى غير الخائفة من استخدام العنف ضد الفلسطينيين والاسرائيليين لتخريب عملية السلام . ان هناك خلافات بين أهالي قطاع غزة وبين أهالي الضفة الغربية فيما يتعلق بالوفد ، كما أن هناك أموراً موضع نقاش مع الأردنيين فيما يتعلق بالوفد المشترك ، وهناك أيضاً صراع مستمر مع قيادة م. ت. ف. في تونس . وفي حين كان يجري العمل على اطفاء نيران السخط هذه ، كان على الوفد الفلسطيني التباحث عبر دوامة أوسع مع اسرائيل .

وهكذا ، فانه من الصعوبة بمكان التعجب من أن فيصلا تلقى أنباء معجزة نجاة ياسر عرفات من حادث تحطم الطائرة بمرح غير خجول . فقد قال للصحفيين حالما تم العثور عليه : «لا يمكنكم تخيل السعادة . الناس ، الشيب والشباب ، جميعهم يبكون ويهنىء كل واحد منهم الآخر» . وبالنسبة الى فيصل ،

فان الاحتفالات كانت تعني ذلك : لان ياسر عرفات قد عاش يوما آخر ، فان عملية السلام ستعيش . وهكذا فيصل الحسني . فياسر عرفات هو الغراء الذي يمسك التنظيمات المتنافسة ببعضها . كلاهما توأم سيامي من نوع رديء ؛ ان عرفات بحاجة الى فيصل كحصن ضد حماس والمتطرفين داخل المناطق ، وفيصل بحاجة الى عرفات لأنه بدون تأييد أبي عمار ودعمه لا يمكن أن تكون هناك تسوية نهائية سياسية واقليمية مع اسرائيل . ان ياسر عرفات فقط هو الذي يستطيع أن يجعل مذاق الطبق الأكثر مرارة مستساغا لدى الفلسطينيين : التخلي عن حلم العودة الى منازلهم في فلسطين كلها . ولا أحد يدرك هذا الأمر أكثر من فيصل الحسيني الذي كان ملتزما منذ وقت طويل بحل لدولتين : «ليس هناك من بديل آخر أمام ياسر عرفات . ياسر عرفات هو تاريخ الشعب الفلسطيني . انه قصة الشعب الفلسطيني، وسيمضي قدماً في عمله» .

لكن وبشكل غريزي . يبدو فيصل وهو يعترف ان هناك حقبة في طور الانتهاء. فقد انتهت الأيام التي كان باستطاعته خلالها الاعتماد على قوته كنائب لعرفات ليفوض السلطة . والفلسطينيون أصابهم التعب من حكم الرجل الواحد ومن الفساد الذي لازم م. ت. ف. فهم يطالبون بنظام أكثر ديمقراطية حيث يكون فيه القادة عرضة للمساءلة ، وحيث تمتلك فيه المؤسسات لا الأفراد السلطة . انهم ينظرون الى فيصل ليقودهم ، غير انهم يريدون منه أن يشكل مؤسسات أكثر مسؤولية . يقول فيصل : «انني أشعر بالراحة في دوري ... لدي احساس بانني في المكان الصحيح في الوقت الصحيح» .

ويؤكد مسؤولون اسرائيليون انهم يقومون بدورهم بهدوء لتشجيع هذه العملية ، مستشهدين على ذلك بمئات الاجتماعات السياسية التي سمحوا باقامتها في المناطق . وعلى الرغم من أن حكومة شامير واصلت سجن نشطاء سلام اسرائيليين مثل آبي ناثان ، وديفيد إيش شالوم بسبب اتصالاتهم مع م. ت. ف. فانها تبدو بشكل ما أكثر تخوفا تجاه علاقات فيصل مع القيادة في تونس . وحينما طارت حنان عشراوي مع فيصل للقاء ياسر عرفات في الجزائر بعد مؤتمر مدريد ، أصرت الشرطة الاسرائيلية على اعتقالهما لخرقهما القانون . لكن الحكومة رفضت تأكيد التهم الموجهة اليهما ، وتم اسقاط القضية . يقول فيصل : «انهم يدركون جيدا انه لا يمكن ان يتم شيء بدون م. ت. ف. وحينما سئل ايهود أولمرت

[وزير الصحة الاسرائيلي السابق] : [هل ركب فيصل وحنان الطائرة الى الجزائر؟] قال : [نعرف انهما ذهبا الى هناك ، ولكن يبدو من الأفضل بالنسبة لنا أن لا نعرف]» . وقدكان أحد الأعمال المبكرة التي قام بها رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق رابين بعد انتخابه في شهر حزيران ١٩٩٢ هو تغيير القانون ، وبالتالي السماح باجراء اتصالات مع مسؤولي المنظمة شريطة أن لا يعرض ذلك أمن اسرائيل للخطر .

وبالطبع ، فان موقف اسرائيل تجاه فيصل متجذر في رغبة اسرائيل العميقة في إضعاف عرفات . ولكن بعض المسؤولين على الأقل بدأوا يمتدحون حقيقة أن فيصلا الحسيني يمكن أن يكون شريكا في السلام . يقول سياسي اسرائيلي رفيع المستوى : «... فحتى أناس من مؤسسة الدفاع سيقولون لك بحذر انه ينظر اليه على أنه معتدل حقيقة ... انهم ينظرون اليه كقائد له تأثير كبير» . ويقول فيصل نفسه ان ليس هناك من سبب يدعو اسرائيل للتخوف منه أو من سياساته ، فرؤيته للدولة هي من النوع الذي لن يهدد أمن اسرائيل ، ويتابع موضحا ذلك : «ربما نحتاج الى جيش كرمز لهويتنا الوطنية ، ولكن لا أعتقد ان جيشا كهذا سيكون قادراً على حماية أمننا ... ولا يمكننا أبدا بناء جيش يمكنه مواجهة الجيش الاسرائيلي أو الجيش الاردني ! أود رؤية المنطقة كلها وليس بها الا الحد الأدنى من الجيوش والاسلحة . ان ما نريده هو ضمانات دولية بان لا يهاجمنا أحد . ولذلك ، فمن المحتمل ان نكون أفضل دون جيش على الاطلاق» .

ويقول فيصل ايضا ان الدولة الجديدة يمكن ان ترتبط مع الاردن ، وحتى مع اسرائيل في يوم ما : «الدولة الفلسطينية يجب ان تكون قادرة على إصدار جوازات سفر ومواطنية . لكنني أفضل كونفدرالية ، دولة فلسطينية [موجودة] ككونفدرالية لا فيدرالية» . ويوضح سبب ذلك فيقول : «في حياتنا كفلسطينيين ، كنا جزءاً من ثلاث تجارب : التجربة الاسرائيلية ، والتجربة الاردنية ، والتجربة اللبنانية . ففي لبنان رأينا الحرية دون سلطة ، وفي الاردن جربنا السلطة بدون ديمقراطية ، وفي اسرائيل خَبِرْنا ديمقراطية بلا مساواة . نأمل أن تكون دولتنا دولة الحرية ، والديمقراطية ، والمساواة ؛ والسلطة فقط مطلوبة لحماية ذلك» .

وهو على استعداد لأن يأخذ على عاتقه عبء التفاوض على القيود والضوابط

التي تطلبهـا اسرائيل شريطة ان تبقى اقامة الدولة هي الهدف : «لقد أرسلت اكثر من رسـالة الى اسـحق رابين [رئيس الوزراء الاسرائيلي] مفادها انه يمكن ان يكون هو منقـذ اسرائيل اذا كـان يريد ان يكون كذلك ، فهو اكثر براغماتية من شامير» . وفي مقابلة اجريت معه في شهر آب عام ١٩٩٢ مع صحيفة هآرتس ، قال فيصل : «قـالوا لنا انها لعـبـة شطرنج ، لكن شـامير لم يلعب الشطرنج ، وانما كان يلعب الملاكمة ، وهو (رابين) يريد أن يلعب [لكن] هذه لن تكون لعبة سهلة» . ومنذ ربع قـرن مـضى خاض اسحق رابين وعبد القادر حربا ضد بعضـهما . كان رابين قائد لواء هاريل المسـؤول عن المنطقة الممتدة من اللد والرملة حتى القدس ، وقد سميت قـواته (رابين) بقـوات القسطل لأنها في ذلك الحصن قتلت والد فيصل . ولم يمض طويل وقت على ذلك ، حـتى أصـبح رابين عضـوا في الوفد الاسرائيلي الذي تفاوض على اتفـاقـيـة الهدنة في رودس ، والتي أنهت شكليـا حرب عام ١٩٤٨ . واليـوم ، وبعـد مـرور نصف قرن تقريبا ، يعتقد فيصل ان والده عبد القادر الحسيني بطل الحرب العربي الذي قاتل للحيلولة دون ميلاد دولة يهودية ، سيكون فخورا بابنه بسـبب تفـاوضـه على السلام مع اسحق رابين . ويقول فيصل : «اعتقد انه لو كان اليوم حيا لفعل الشيء نفسه» .

سـري نسيبـة

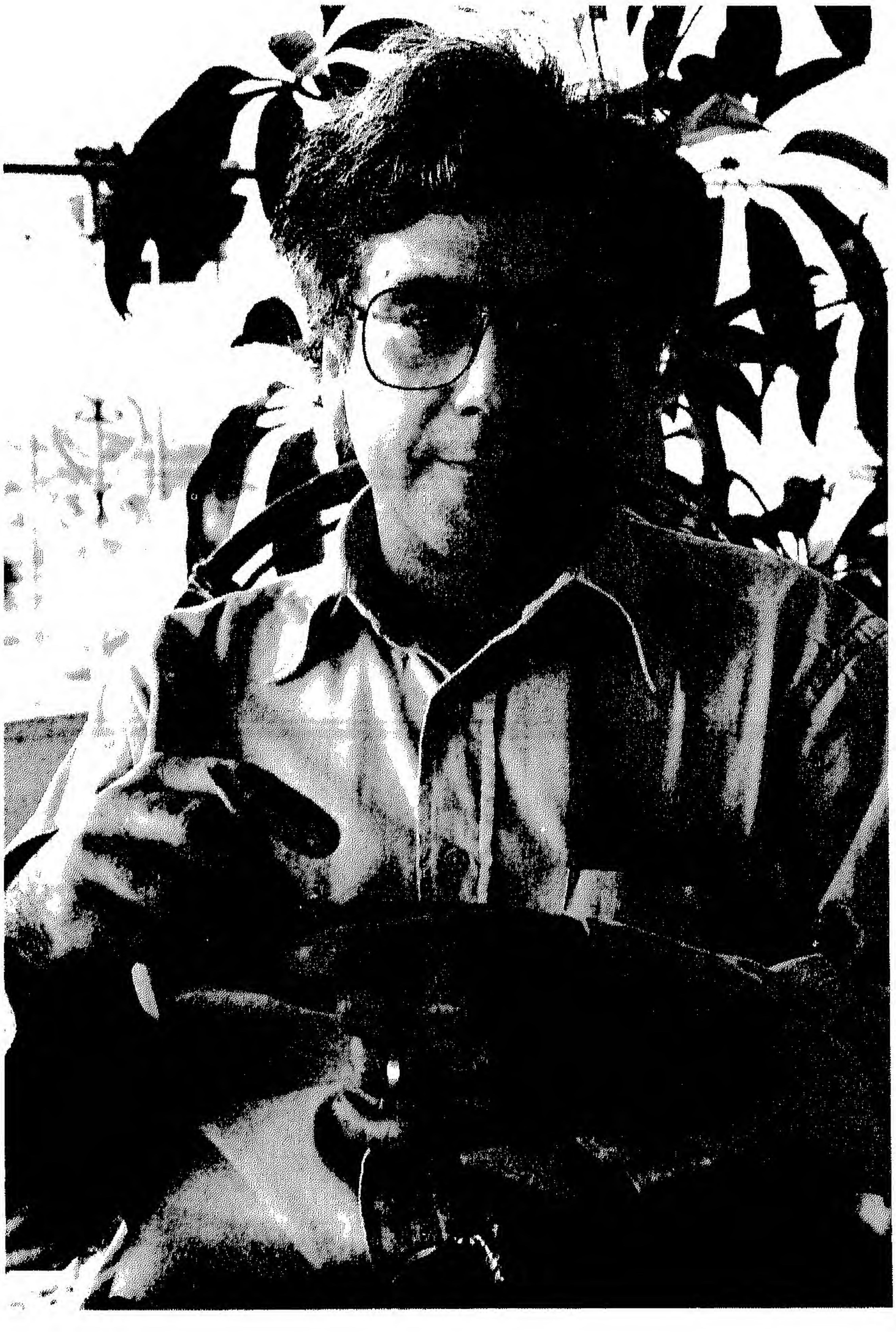

● سري نسيبة جالسا في حديقة منزله في منطقة أبو ديس ، وهي قرية تقع في ضواحي القدس الشرقية .

سري نسيبة

كمدرس ، فان سري نسيبة انسان براغماتي ، اذ انه يحاول اقناع طلبته بترك عالمهم ، والتخلي عن الخرافات التي قبلوها جملة ، وان يبنوا من جديد افكارهم بشكل يمكنهم من اكتشاف هويتهم الخاصة بهم ، وطريقتهم في التفكير ، وان يكتشفوا من يكونون فعلا . ويقول هذا الاستاذ الجامعي خريج جامعة اوكسفورد: «انهم لا يرون الا الجزء الخارجي ، ما يحدث لهم كل يوم وكل ساعة ان التجارب والصعوبات الراهنة تؤثر في انفعالاتهم ، وتنمي لديهم الحزازات والعداء والحقد . انهم ليسوا أحراراً ، وهم سجناء الاحتلال» .

وقد برز سري نسيبة ـ البالغ من العمر ثلاثة واربعين عاما ، والذي يدل شعره الرمادي الكث ، ونظارته ثنائية العدسة على دخوله مرحلة منتصف العمر ـ كنشيط مفكر ، وفيلسوف ثقته بنفسه عالية ، وله اسلوبه المعارض ، والمهارات المنظمة ، والدعم الذي يحظى به بين أوساط الشبيبة ؛ وقد أعطاه ذلك كله مكانة بالغة الاهمية في مقدمة مؤيدي منظمة فتح داخل الضفة الغربية وقطاع غزة : «انني مختلف عن الكثيرين من أبناء شعبي ، وأنا حر في تفكيري» . ويمكن بسهولة فهم شعبيته . فرسالته رسالة الاعتماد على الذات ، والتقدم في العمل لبناء البنية الاساسية للدولة ، وليس انتظار المفاوضات من أجل ان تسفر عن حكم ذاتي «موسع» . انه نافد الصبر ومندفع ، وحتى لو انه استبدادي نوعا ما ، غير انه يحظى باحترام حتى اولئك الذين لا يتفقون معه في الرأي . فعلى سبيل المثال ، ارتفعت الحواجب دهشة حينما قاطع سري مؤتمر السلام في مدريد . غير ان تغيبه لم يكن فقط رمزيا ، اذ انه كان في بلده يعمل على تكوين المجموعة المؤيدة لفتح بين الجماهير : «اللجان السياسية» وذلك من أجل المساعدة على مأسسة المكتسبات التي تحققت في مدريد ، و ـ من وجهة نظر أحد النقاد على الاقل ـ من أجل جَلد نفسه كزعيم لا خلاف عليه للجيل التالي من فلسطينيي الداخل .

بتشكيلهما اللجان من جانب واحد ، وبمجابهة الوفد الفلسطيني بالأمر الواقع عند عودته من مدريد ، فان نسيبة وزياداً ابي زياد «حاولا القيام بانقلاب ، انقلاب غير دموي» داخل فتح ، وفقا للاتهامات التي يوجهها اليهما رياض المالكي أحد مؤيدي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في المناطق المحتلة . ولكن حتى المالكي

نفسه ، وهو معارض صريح لعملية السلام ، يسلّم بأنه «بعد ما حدث فانه [نسيبة] أصبح اكثر تأثيرا من قبل» . ويعمل سري نسيبة اليوم على ادارة مركز البحوث الذي يمتلكه (المقدس) ومقره في بلدة رام الله ، اثر استقالته من وظيفته كمدرس في جامعة بير زيت بعد ان أغلقتها السلطات الاسرائيلية سنة ١٩٨٨ .

ان بعض الفلسطينيين يمتلكون مثل هذا الفهم المعقد لسيكولوجية الاحتلال : الميزان المتأرجح بين الاحلام والواقع ؛ رؤى وطن شخص ما مترافقة مع الوجود المبتذل في وطن شخص آخر ، البحث عن الاستقلال ، ونضالات الاذعان . ومثل حياة طلبته ، فان ماضي سري كان صراعا بين واقعين : الواقع الذي ناضل من أجله داخل غرف الصف ، وفي أحلامه ، والواقع الثاني الذي يواجهه في الشارع ، ويقرر الروتين اليومي لحياته . في أحلامه ، يفاوض سري على فهم بين العرب واليهود ، في حين انه يُضرب في الواقع بسبب تجرؤه على القيام بمثل ذلك . في أحلامه ، فان دولته ذات حدود مفتوحة ، والمنتوجات الفلسطينية تُشترى في أماكن تمتد من بتاح تكفاه حتى الخليج العربي ؛ وفي الواقع يسجن لأنه جاسوس عراقي. في أحلامه يدرّس الفلسفة الاسلامية لطلبة اسرائيليين في الجامعة العبرية ؛ وفي الواقع فان طلبته هم الجنود الاسرائيليون أنفسهم الذين يوقفونه عند نقاط التفتيش ويطلبون رؤية بطاقة هويته . في أحلامه يسافر بحرية بين الجزء العربي والجزء اليهودي من مدينة القدس ؛ وفي الواقع يقضي أوقاتا صعبة وهو يقنع سيارة تاكسي بالعبور من القدس الشرقية الى القدس الغربية .

يقول سري الذي ولد سنة ١٩٤٩ في مدينة القدس : «عشت طوال حياتي على الحدود» . كان ذلك بعد مرور سنة فقط على اضطرار والدته للهرب من مدينة الرملة بالقرب من تل أبيب ، كما يقول سري «كنتيجة لقيام دولة اسرائيل» . ومثل عائلة الحسيني ، فان جذور عائلة نسيبة تعود مئات السنين الى الوراء . فقد كانوا ملاكي أرض أثرياء ، ولكن في أواخر سنوات ١٨٠٠ «ذبح الاتراك [العثمانيون] كثيراً من ابناء عائلتي» كما يقول سري ، وفقدت عائلة نسيبة أراضيها . ويعترف قائلا : «أشعر باحساس قوي جداً بالانتماء الى مدينة القدس والى بلاد فلسطين . لقد عشت دائما وانا أشعر بالتعاسة بسبب حقيقة ان اسرائيل اصبحت في المقام الاول» .

ويتذكر سري نسيبة حال المدينة المقدسة في سنوات الخمسينات حينما أصبحت الضفة الغربية جزءاً من الاردن ، وحينما كان يعيش بالقرب من الحائط الحجري العالي الذي قسم القدس الى قسمين : عربي وآخر يهودي . كان ذلك قبل ان يعين الملك حسين والد سري (أنور) سفيرا للملكة الاردنية الهاشمية لدى بلاط سانت جيمس ، وقبل ان يلتحق سري بالمدرسة الاعدادية البريطانية ، حينما كان يترعرع في رفاهية في بيت والده الرائع بسجاده الشرقي وأواني الكريستال ، الواقع على طريق نابلس على الجانب الآخر من شارع فندق اميركان كولوني الفخم . وعلى الرغم من انه انقطع عن الاسرائيليين وتربى على الاستياء منهم ، الا انهم كان لهم سحر غريب عليه . فقد كان ينظر من نافذة غرفة نومه الكائنة في الطابق العلوي عبر المنطقة العازلة حيث كان هناك قتال ضار خلال حرب عام ١٩٤٨ ، ليرى اليهود في القسم الغربي من المدينة . في بعض الأحيان ، وبدون أن يخبر والديه ، كان يتجول في المنطقة المجردة الخاوية ، ويلعب في مبنى مهجور تابع للامم المتحدة والذي كان يستخدم كمنزل متوسط بين الجانبين للدبلوماسيين الذين كانوا يعبرون جيئة وذهابا الى الجزئين : العربي واليهودي من مدينة القدس . وبالقرب من المبنى المتفسخ بنوافذه المكسورة وجدرانه التي ثقبها الرصاص ، كانت توجد كروم العنب ، حيث كان سري يتوقف في الغالب ليقطف العنب ، ويعود به الى بيته كغنيمة من الحدود الاردنية ـ الاسرائيلية .

وحينما شعر انه مغامر وجسور ، بدأ يحاول إلقاء نظرة عن كثب على اليهود الذين كانوا يسيرون في شارع صلاح الدين وينسلّون الى المدينة القديمة عبر بوابة دمشق المقنطرة التي بناها سليمان العظيم فوق الأسس التي ألقيت أصلاً في العصر الهيرودي . كان سري يعرف طريقه هناك ، وخاصة في القسم المسيحي . فمنذ القرن الثاني عشر ـ حينما استولى صلاح الدين على القدس من الصليبيين وعادت الى الحكم الاسلامي ـ كانت عائلة نسيبة تحمل المفاتيح كحارس لكنيسة القيامة المقدسة ، وهي واحدة من أقدس المزارات المسيحية ، والتي بنيت فوق الموقع الذي يقال بان عيسى المسيح قد صلب فيه . يقول سري : «انه كسب رئيسي» مشيرا الى ان عائلة نسيبة تفتح الكنيسة لواحد من اكثر الطقوس المسيحية مهابة ، وهي الليلة التي تسبق يوم عيد الفصح ، حينما تتوهج كنيسة القيامة بآلاف شموع النذور .

لكن سريا كان يدرك ان ليس باستطاعته دخول الحي اليهودي القديم ، ولذلك كان في بعض الأحيان يسير في ظل الجدران الحجرية العالية ، على امتداد الطريق ، بدءاً من بوابة هيرود ـ المدخل الى القسم الاسلامي ـ مرورا ببوابة دمشق ، وانتهاء بشارع يافا المؤدي الى بوابة يافا . هناك ، وعند مدخل المدينة القديمة الواقع في اقصى الناحية الغربية ، حيث تنتصب قلعة داوود كبرج للمراقبة على امتداد الممر المؤدي الى حائط المبكى حيث يعبد اليهود بقايا معبد هيكل سليمان ، كان سري يتوقف ويحدق . ويستذكر قائلا : «عند نهاية المسير ، عند بوابة يافا ، يجب عليك ان تستدير عائداً لان نهاية العالم كانت خلف تلك البوابة ... لقد كان ذلك غريباً جداً . اذكرك تسير نحوها ، لكنك بعد ذلك رأيت هذا الشيء الذي كان هناك : بوابة دخول الى لا شيء . حينما تكون في سن العاشرة أو الثانية عشرة ، فان الأمر يشبه حكاية أليس في بلاد العجائب حيث توجد هناك بوابة مقفلة ولا يمكنك الدخول عبرها» .

وكوّنت عجلة طفولته التي تحاول اختراق الجدار شعورا بالارتياح لديه حينما احتلت اسرائيل الضفة الغربية سنة ١٩٦٧ : «لقد كنت مدركا تماما انه كان هناك جدار لانني عشت بالقرب منه . لذلك فان الشيء الذي سيطر فعلا عليّ انه لم يعد هناك جدار وان المدينة أصبحت موحدة . وبطريقة غريبة ـ على الرغم من اننا ضربنا وأصبحنا تحت الاحتلال ـ كان هناك شعور بالرضى من حيث ان المدينة أصبحت موحدة في النهاية ... والآن هناك جدار مرة أخرى ، وأنا الذي أقمته ، ونادراً ما أجرؤ الآن على العبور من خلاله» .

لم يكن الأمر دائمًا بهذه الطريقة . فحينما عاد سري الى الضفة الغربية بشكل دائم عام ١٩٧٨ بعد أن قضى ما يزيد على العقد من الزمن في الخارج ، وافق على العمل في منصب استاذ زائر في الجامعة العبرية ليدرس الفلسفة الاسلامية للطلبة اليهود ، وأرسل أبناءه جمال ، أبسل ، وبراق الى مدرسة فنون اسرائيلية حيث تعلموا الرسم الى جانب الاولاد والبنات اليهود . وفيما بعد ، سجلهم عند موسيقيين يهود ، علّموهم كيفية عزف الفيولين ، والتشيللو ، والبيانو . وفي مرحلة ما ، حينما كانت تجرى في القدس انتخابات البلدية ، اقترح سري ان يخوض الفلسطينيون هذه المعركة للوصول الى ذلك المنصب ، الامر الذي كان يعني المساعدة على حكم المدينة التي كانت اسرائيل قد ضمتها اليها كعاصمة لها . وفي

شهر تموز من عام ١٩٨٧ ، حينما اتصل معه سياسي من حزب الليكود ساعيا الى فتح حوار مع قياديي الضفة الغربية الموالين لمنظمة التحرير الفلسطينية ، كان سري هو الذي أقنع فيصلا الحسيني بالانضمام الى المحادثات مع الاسرائيليين اليمينيين .

مع هذا ، فان الواقع أطل بوجهه البشع مرة أخرى في خريف عام ١٩٨٧ ، حينما تعرض سري الى الضرب المبرح على يد مجموعة من الطلبة الفلسطينيين بينما كان يغادر جامعة بير زيت . كان قد ألقى محاضرة عن الاحتمال والتسامح ، عارضاً آراء الفيلسوف الانكليزي جون لوك . وكأستاذ مساعد للفلسفة ، كان يدرك أن دروسه كانت رائجة بين الناس وتحظى بقبول واسع . وكدبلوماسي الى حد ما ، كانت له أيضا بعض اللحظات العالية على امتداد الشهور الماضية القليلة . فحتى لو ان جهود صنع السلام اخفقت وتم اعتقال الحسيني في شهر آب ، فقد ثبت ان التقدم يمكن ان يحدث تجاه اتفاق على الاعتراف المتبادل . وقد افترض ان تكون الاجتماعات التي عقدت مع موشي عميراف ـ عضو اللجنة المركزية لحزب الليكود الحاكم ـ سرية ، غير ان كلمة عنها تسربت بشكل ما الى الصحافة .

بينما كان سري يمشي في الرواق في هذا اليوم الحار من أيام شهر أيلول ، انتقل من أحلام لوكيان عن التعايش الى كابوس هوبسيان عن البغض . وفجأة ، ومن وسط الظلام ، ظهر خمسة رجال مقنعين وحاصروه بصمت ، ليضربوا رأسه بالزجاجات وليلكموا معدته بالعصي . وبدون أن ينطقوا بأي كلمة ضربوه ، ثم فروا ، تاركين اياه وحيدا ، ممدا على الارض ، وفي رأسه جرح بليغ ، وجسده ينزف ، وذراعه مكسورة . وقيل له فيما بعد ، ان ما حدث له كان نتيجة لقاءاته واجتماعاته مع الصهاينة . كان هناك من يعتقد انه عوقب على أيدي بعض المجموعات من داخل فتح ، غير ان سريا يقول انه لا يعرف من كان المسؤول عما حدث . يقول بلهجته البريطانية : «لقد هوجمنا من الجانبين ... من الممكن انها كانت مجموعة صغيرة قامت بالعمل من تلقاء نفسها ، أو من المحتمل انهم كانوا يعملون بناء على تعليمات شخص ما من الخارج . لا أدري» .

لكنه كان يدرك ان بعض تعليقاته الأخيرة قد فهمت خطأ وبعيداً عن سياقها الذي قيلت فيه . فقد لفت الانتباه لدفاعه وتأييده لقيام الفلسطينيين بالاعتراف

بوجـود الدولة اليـهـودية ، والمطالبة بضـم أسرائيل للمناطق المحتلة شريطة ضمان منح المواطنة لـ ١,٧ مليـون عـربي . ان هذا الأمر سيجبر الاسرائيليين على اتخاذ قـرار فـيما اذا كـانوا يريدون دولة مزدوجة (ثنائية) الجنسية : عرب ويهود ، أو يفـضلون اعطاء الفلسطينيين دولتـهم المستقلة الخاصـة بهم . يقول سري : «حينما قلت [دعـوا اسرائيل تواصل الضم] لم أكن أتحـدث عـبـثـاً ... كنت أصف عـمـليـة سلوكـيـة تطورية مـوجـودة في الواقع» وقـد جـاءت أقواله هذه في اجتماع حاشد لحركة السلام الآن .

لكن الواقع الوحـيد الذي جابهه في ١٩٨٧/٩/٢١ كـان غرفة الطوارىء المعقمة في المسـتشفى الاسرائيلي ، وعشرات الغرز لتضميد جرح رأسه . ويصر قائلا : «لقد كنت شـديد الحذر آنذاك . لم يختلف الأمر» . ويقول ان ما جعل الأمر مختلفا «هو خـوفي من الاسرائيليين . فحيثما أذهب ، وحيثما أعود ، فانني أعيش في دولة خوف دائم . انني أعيش تحت رحمة مراقبة عدو أعتقد انه ذو ذكاء مفرط وعديم الرحمة جـدا . يجـب علـيّ ان أراقب كل حـركـاتي وكل خطواتي وكل كلماتي . أسير وأنا ألتفت الى الخلف» .

نشأ سري وهو ابن لعـائلة ارستقراطية في القدس ، وكان والده أنور رجل دولة مـتـمـيـزا ، اذ كـان وزيرا في أول حكومـة عموم فلسطين التي شكلها الحاج أمين الحـسـيني في غزة بعد حرب ١٩٤٨ ، وعـضـو اللجنة العـربية العليا في القاهرة ، وزعيما في البرلمان الاردني ، وسفيرا للاردن لدى بريطانيا العظمى ، ووزير الدفاع الاردني . وقـد ورث سري عن والده العـقل والألمعـيـة ، واكـتسب ـ بالاضافة الى ذلك ـ قـدرة والده على التفاعل مع اليهود . كذلك كانت لديه الميزة الثقافية المرتبطة بالثـروة : فقد أنهى دراسته الجامعية في (كريست تشيرش كوليج) في اوكسفورد ، ونال درجـة الدكـتـوراة في الفلسـفة الاسلامية من جامعة هارفارد ، ويتمتع ايضا بالفضول الفكري الذي يميز الباحث الحقيقي .

ولم يكن أنور نسـيـبـة ليمانع أبدا في دفع ابنه نحو الانخراط مع اليهود . ففي صـبـاح يوم من أيام صـيف سنة ١٩٦٨ قـام الاب بقـيـادة مجموعة من اعضاء المجلس الاسـلامي الاعلى للتـفـتيش على أعمال الحفريات الجارية تحت جبل معبد القـدس على أيدي فـريق من علماء الآثار الاسرائيليين . وحـينما وقـفت المجـموعة

العربية على قُنة الجبل بالقرب من الموقع ، أشار اليهم ميري بن ـ دوف رئيس الفريق الاسرائيلي كي يقتربوا ويروا عشرات من المصنوعات الاسلامية التي تم اكتشافها . نزلت المجموعة ، وتقدم رجل واحد فقط ، وسأل من هم اولئك الناس الذين كانوا يحفرون ، فقيل له انهم متطوعون من أنحاء العالم . فسألهم العربي فيما اذا كانوا يقبلون بينهم مسلما في حال تطوعه . وأجابه بن ـ دوف انهم يرحبون به . وبالطبع، فان الرجل الذي كان يطرح تلك الاسئلة، كان أنور نسيبة .

في اليوم التالي أرسل لابنه سري البالغ من العمر تسع عشرة سنة آنذاك ليعود الى الوطن في اجازة بعد اكمال فترة دراسته في بريطانيا ، كي ينضم الى عمليات البحث عن الآثار الاسرائيلية .

كان أنور قدوة لابنه سري من خلال اشكال وأساليب متعددة . وكوطني فلسطيني فخور بذلك ، كان يعتقد ان من قصر النظر رفض الاجماع العربي . يقول سري : «كان والدي يؤمن بالالتزام بالخط العربي» ويستذكر انه حينما بحثت القمة العربية التي انعقدت في الرباط سنة ١٩٧٣ الاعتراف الرسمي بمنظمة التحرير الفلسطينية على انها «الممثل الشرعي والوحيد» للشعب الفلسطيني ، فان «والدي قال الشيء نفسه ، وليس بالضرورة لانه يؤمن به ، ولكن لأن ذلك كان هو الخط العربي ... كان يؤمن ان من الاهمية بمكان ان يكون عربيا مواليا» . ويقول ان والده كان يؤمن بأنك «كعربي ، فان غايتك الاساسية هي فلسطين» .

كذلك ، علمه والده درساً آخراً ، وهو أهمية استغلال النظام ، وان يغمس المرء نفسه في السلطة كيفما كان شكل النظام ، من أجل دفع الطموحات الوطنية الفلسطينية الى الامام . ويستذكر سري انه حتى جورج حبش ـ مؤسس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وهي جبهة رفض ـ حاول ، ولكن بدون نجاح ، دخول البرلمان الاردني منتخبا «مثل والدي تماما» . لقد كان نصف سكان الضفة الغربية ـ بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٦٧ ـ يعملون في الجهاز المدني الاردني . ويقول سري : «اليوم يعيش في فلسطين مليونا نسمة ، فاذا كان ذلك [التشغيل] يتم من خلال حمل الهوية أو الجوازات الاسرائيلية فليكن الامر كذلك» .

ولكن بعد مرور ربع قرن على احتلال اسرائيل الضفة الغربية وقطاع غزة ، فان سريا لم يعد متأكداً بعد هذا من ان والده كان على حق . يقول : في بعض

الاوقات انه يرى الشعب الفلسطيني يتحرك بنشوة سريالية ، اذ تسير أجسادهم الى الأمام نحو واقع الحياة الاسرائيلية ، في حين ان رؤوسهم تلتفت نحو حلم الدولة الفلسطينية .

ويوضح سري ان المعضلة الفلسطينية هي تناقض بين الشعور والواقع ، وهوة تتسع اكثر فاكثر كل يوم . ويصور الشعور على انه نمو الهوية الوطنية الفلسطينية ، والواقع على انه انغماس متزايد في النظام الاسرائيلي .

ويتساءل هذا الاستاذ الجامعي : «ما النظام ؟» . ويجيب : «انه كل شيء . انه : الضرائب ، التجارة ، التلفزيون ، محطة الاذاعة التي تستمع اليها ، الثياب التي ترتديها ، الناس الذين تنتظم معهم ، نظام البلاط الذي تتعامل معه . انه كل شيء ، بدءاً من شراء البنطال ، وانتهاء ببيع سمك السلمون (الفسيخ) في المدينة القديمة ، مرورا بالعمل في بناء المستوطنات ، وانتهاء بكتابة المقالات . ان تسعين بالمائة مما نستهلكه اسرائيلي الصنع ، وكل شيء فعلناه لم يكن من أجل اسرائيل وانما من أجل البقاء ، ونحن فعلناه من خلال دخول النظام» . ويقول : لم يقبل الفلسطينيون واقع العيش في ظل اسرائيل فقط ، ولكنهم ايضا أصبحوا جزءا من حياة اسرائيل «فحينما أخذت باصات ايجد [الاسرائيلية] في البداية تأتي الى الضفة الغربية لم يستخدمها الناس ... لقد أردنا دعم باصاتنا العربية» واليوم فانهم لا يستخدمونها فقط ، ولكن ايضا «فان العديد من سائقي هذه الباصات هم عرب من الضفة الغربية» .

وعلى نحو مشابه ، فان الفلسطينيين استسلموا على مضض لنظام المراقبة . فحينما انتهت الحرب عام ١٩٦٧ وتبعت الضفة الغربية اسرائيل ، لم يعد هناك أي صحيفة عربية تخدم الناس . ويقول : في ذلك الوقت دار جدال ومناقشات حول امكانية اصدار صحيفة عربية : «قال البراغماتي [نريد صحيفة باللغة العربية] وقال الايديولوجي [اذا كنا نريد إصدار صحيفة ، فان ذلك يعني ان علينا الذهاب الى السلطات المسؤولة وطلب ترخيص منهم ، وان القيام بذلك يعني اضفاء الشرعية على تلك السلطات]» . ووافق البراغماتي على رفض فكرة اللجوء الى السلطة ، لكن الاكثر اهمية في الأمر انهم رأوا ان هناك حاجة الى صحيفة عربية تخصهم . واليوم - كما يقول سري - لا تصدر صحيفتهم فقط ، ولكن اكثر

الايديولوجيين تطرفا يذهبون الى مراقبي المطبوعات للحصول على موافقة لنشر مقالاتهم : «ان ذلك يعني ان هناك انغماسا بطيئا ، وان هناك قبولا بطيئا ، وان هناك تأقلما مع النظام» .

لكن سريا يعتقد ان هناك تناقضا آخذاً بالازدياد بين ما يمارسه الناس وبين ما يفكرون فيه . ويشير الى الصبي الفلسطيني الذي اشترى علبة دهان ، وكان الملصق عليها يشير بوضوح الى أنها : صنعت في شركة طمبور ، وهي شركة يهودية . ومع ذلك ، فان الصبي لم يفكر مرتين قبل استخدام الدهان من أجل ان يكتب به على الجدران عبارات معادية لاسرائيل : «حين يصبح الناس في الواقع جزءاً من النظام فانهم ينتمون ويطورون في شعورهم شيئا مختلفا كلية : نوع مستقل من الهوية الوطنية» . لكن التناقض لا يمكن له ان يستمر : «فعاجلا أم آجلا ، سيحدث أمر من بين اثنين : إما أن يتجه الشعور نحو الواقع ، او أن يتغير الواقع ليتناسب مع شعورك» . وعلى الصعيد العملي ، فان الشروط السياسية هناك يجب ان تكون «حقوقا متساوية في دولة واحدة» أو يجب ان تكون هناك دولة فلسطينية مستقلة . ان فشل تحقيق أي من هذين الأمرين كان الشرارة النفسية التي أشعلت الانتفاضة واعطتها منطقها الداخلي كما يقول سري .

ويوضح ان استراتيجية الانتفاضة كانت معبرة منذ البداية باعتبار انه كان لها جانبان متكاملان ، أولهما «ما يسمى التحرر» من السلطات من خلال التوقف عن التوجه نحو العمل ، ورفض دفع الضرائب للاسرائيليين ، ومقاطعة البضائع الاسرائيلية ، ورفض الدفع من أجل أشياء روتينية مثل رخص السوق الاسرائيلية. يقول سري : «كان ذلك بمثابة حمل مقص وقطع هذه العلاقات كلها التي تمت اقامتها على امتداد الاثنتين وعشرين أو الثلاث والعشرين سنة الماضية» . لكنك ـ كما يضيف قائلا ـ تصل بعد ذلك الى مرحلة حيث تصبح بحاجة الى ايجاد البديل، و«كان البديل في أذهان الناس إقامة دولة ، واقامة بنية . وهكذا ، فان أحد جوانب الفكرة (أسباب الانتفاضة) كان التحرر وكان الجانب الآخر البناء» .

وبالفعل ، فان سريا يعتقد ان دخول مفاوضات تؤدي الى فترة خمس سنوات من الحكم الذاتي ، يمكن ان تفضي الى حالة خيانة جديدة بالنسبة الى الفلسطينيين . ويقول : ان الحكم الذاتي «فكرة خطيرة وغير مقبولة ، اذ انها ستريح الاسرائيليين

من الاهتمام بامـور الحـياة اليومية في المناطق المحتلة دون ان تخسر السيطرة على تـلك المناطق ، ودون اعطاء أي سلطة أسـاسـيـة للفلسطينيين» . وهو يرى ان من الواجب على الفلسطينيين ان يكونوا قـد تحـركـوا بشكل أسرع من أجل أخـذ زمام السـيطرة على حياتهم : «يجب علينا ان نسبق المحادثات الحالية من خلال الامساك بالحكم الذاتي من طرف واحد ، ومن خلال ايجاد حكومة مؤقتة ، ويجب علينا أن لا نجـعل منهـا مـوضـع مـفاوضات . كان من المفروض ان نقيمها قبل سنتين أو ثلاث سنوات» .

وحـينما أعلن الفلسطينيون داخل المناطق المحتلة اعلان الاستقلال والذي ساهم هو في ايجاده ، يوضح سري ان ذلك كـان امـرا واقـعـا ؛ فـقد كان على القيادة في الخـارج ان تروض نفـسـهـا مع الواقع الجديد : «لقد حوصرت القيادة في الخارج فـجأة بحـقـيـقـة ان قـيادة الداخل ، قيادة الانتفاضة ، كانت بشكل ما الى جانب الاعـلان . لـقـد أمـسـكت بكل تخيـلاتهم في الوقت المناسب ... وتَقَـبَّـل الناس في الخارج الفكرة» .

وعلى نحو مماثل ، يدافع سري عن تشكيل اللجان السياسية ، التي وجدت دون مـوافـقـة مـسـبـقة من قيادة م. ت. ف. في تونس ، وبدون علم الوفد الفلسطيني المتـوجـه الى مـؤتمر السـلام في مـدريد ، اذ يقول : «لقد فوجيء فيصل بالاعلان [حـينما عـادوا من مدريد] و ـ كما اكتشفت فيما بعد ـ لانه لم يكن لديه أي فكرة عن الموضـوع كله ... من المحـتمل ان تجـد الامـر مـفاجئا اليوم ، ولكن ذلك كان مـشكلة الاتصـال» . ان الناس الذين أرسلهم الى جسر أللنبي لاخبـار الحـسـيني والآخـرين لم يصلوهم على الاطلاق : «لقـد اعتقدوا ان من باب الادب إخباره ومن الجـيـد القـيام بذلك ، ولكن ليس بالضرورة . ولم يفكر أحد في ان ذلك سوف يثير نوعا من ردة الفعل» .

وقـد اعلنت كـافـة الفـصـائل المسـتـثناة ـ بما في ذلك حـزب الشعب (الحزب الشـيوعي سابقا) وجناح ياسر عبد ربه (من الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين) ـ احـتـجـاجـها بصوت عال . ويعترف سري بان الهدف الرئيسي من وراء تشكيل اللجـان كان توحيد مؤيدي فتح في المناطق و«ايجاد ارتباط ـ نوع من الحوار ـ بين النشطاء السـيـاسيين على مستوى القاعدة وبين الفريق المفاوض» . لقد كان هناك

مئات من القيـاديين المحليين الذين شعروا ان من المفروض ان يكونوا مشاركين في مؤتمر مـدريد ، وعلى نحـو خـاص محنكي مخيمات اللاجئين ، الذين شعروا ان هناك الكثير من الاعـضـاء المنعمين والاكاديميين . ويقول زياد أبو زياد أحد الذين ساهموا مع سري نسيبة : «لقد شكلنا هذه اللجان لارضاء الناس الذين شعروا انه تم تجاهلهم أو استبعدوا أو أهينوا بسبب انه لم يكن لهم دور كانوا يعتقدون انهم مؤهلون له . لقد حاولنا جعلهم منخرطين ومنهمكين في العملية السياسية» .

لكن الفـصـائل الاخرى اعتقدت ان منظمة فتح كانت تحاول اغتصاب السيطرة على العـملية بعيدا عنهم . ويعترف سري «ان ذلك كان أمراً واقعاً الى حد ما ... فما لَنا لَنا ، وقلنا لهم أقـيـمـوا لجـانكم وعند ذلك يمكننا الاندماج ... والا فان ذلك لن يجدي ... اذا أسـست شـيئا ، واذا حاولت ان تؤسس شيئا بمشاركة آخرين ، فان ذلك لن يجدي أبدا» . لو اننا جلسنا لبـحث الأمـور اكـثـر مما فعلنا ، فانه ما كان ليـتم ذلك الأمـر أبداً مـشيراً الى المحـاولات المبكرة لاقامة حكومة مؤقتة . ويوضح سري ان تلك المحـاولات أخفقت لأن «المحادثات جرت مع أناس كثيرين ذوي صلة بالموضـوع» .

وقـد رأى الاسرائيليـون في حـركـة نسيبة ـ ابي زياد تحديا لسلطة الحسيني ، ومحاولة لاغـتصاب مكانة قائد فتح في المناطق المحتلة من خلال ايجاد قاعدة دعم شعـبي . يقول أبو زياد : «حاول الاسرائيليون تصوير ذلك على انه معركة شبيهة بالمعركة بين ليفي وشامير ؛ لقد وضعوا سريا ضد فيصل» ويضيف بان ذلك هراء «فنحن نعـمل بتناغم تام» . وتنتشر مـائتـا لجنة سياسية في مختلف انحاء الضفة الغـربية وقطاع غزة . وعلى الرغم من المحاولات الاسرائيلية لمنعها ، الا أنها «تجتمع طوال الوقت» حسب ادعاء ابي زياد .

ان أفكار سري عن التحرر والبناء هي واقع جديد يحل محل الواقع القديم الذي كـان مـسـيطراً . فـثمانيـة وعشرون لجنة من اللجـان الفنية تم تشكيلها من قبل مـؤيدي فـتـح من أجل الاعـداد للحلول مكان الادارة المدنيـة الاسرائيليـة للمناطق ، ويعـمل الخبراء الفلسطينيون في مجالات متعددة ، مثل : الصحة ، المال ، القانون ، والبـيئة ، وأصبح سري رئيس اللجان ، في حين ان أبا زياد واحد من أربعة أعضاء في الهيئة الحـاكـمـة ، ويعترف انهم «يمـثلون نوعـا من البنيـة التـحـتـيـة للادارة

الفلسطينية المستقبلية» جنين الحكومة المؤقتة . ويضيف : «نحن لا نطلب الاذن من الاسرائيليين» .

ويقول سري بلغته الانكليزية وهو يسترخي في شرفة منزله المكون من طابقين في بلدة أبي ديس ، وهي قرية في ضواحي القدس الشرقية : «كنت أقول لبعض الناس في الماضي القريب ، ومنهم زوجتي ، ان الناس يعتقدون انني حيوان سياسي، ولكنني في الواقع لست معنيا بالسياسة على الاطلاق . وإن تسألني فانني غير مهتم تماما . اذا أخذتني الى الخارج من هنا فباستطاعتك ان تضعني في الشانزلزيه أو في أي مكان آخر ...» . وعوضا عن برج ايفل ، ومتحف اللوفر والحانات الحديثة ، فانك ترى من شرفة منزله قبة الصخرة ، التي ـ مثل أي شيء آخر في منزله ـ تذكرك بالواقع الحالي الذي لا يستطيع الهرب منه . فالى جوار الكراسي المصنوعة من الرُّوطان الموجودة في الشرفة ، هناك أصص الورد ، والبيتونيا والقلب الدامي ، والرودودندرون . اما مدخل غرفة المعيشة فانه ذو منظر هلامي ، مثل حياته . وهناك كتب في كل مكان ، وحمالة أشرطة فيديو ، من بينها فيلم (ماكس المجنون) وهاتفان لاسلكيان ، وكاميرا فيديو ، ومنظار . وهناك أيضا ورود على طاولة القهوة المزخرفة بالموزاييك ، وعلى كل طاولة هدايا من الاصدقاء والأقارب . كان سري وعائلته يحتفلون بولادة طفلهم الرابع ـ أول أنثى ـ وقد أسماها سري وزوجته لوسي التي تتكلم العربية بطلاقة (نزهة) .

يقول سري الذي يحاول بصعوبة القيام بواجباته تجاه عائلته : «انه لأمر منهك وأشعر شخصيا بالانهاك» . انها معركة مستمرة بين ان يصبح منغمسا في سياسة الاحتلال وبين الحفاظ على الهوية التي لم تحدد تماما من خلال النزاع العربي ـ الاسرائيلي : «كنت أقول لشخص ما في الشارع هذا اليوم وهو مستنفد كلية : [وما أهمية ذلك . انه ليس مهما جداً على الاطلاق]» . لكنه يعترف ان الحياة قد التفت عليه بحيل غريبة ولذلك فانه غير قادر على الهروب من قبضة السياسة : «ليس لانني مهتم بالسياسة ، ولكن لانك تشعر ان هناك حاجات معينة يجب قولها ولا تستطيع ذلك» .

في مرحلة ما من حياته ، وبعد أن حصل على شهادته الجامعية من جامعة اوكسفورد عام ١٩٧١ ، كان سري مثبط الهمة حينما تركه استاذه الذي كان

يعمل معه ليعلّم في جامعة هارفارد ويستذكر : «كنت أريد أن أصبح مليونيراً» . ويعترف سري أنه بتخلي استاذه عنه ، وهو باحث مصري في تاريخ العلوم ، فانني «ضعت اكاديميا وشعرت انني فقير ماليا . أردت الزواج وشعرت انني لا أستطيع ذلك كطالب» . ولذلك ، فانه خضع لاستعطاف الاقارب في (أبو ظبي) الذين دعوه للحضور الى هناك ، ويستذكر قولهم له : «هناك عمل بانتظارك وشقة وسيارة» .

وحال وصوله الى هناك ، توجه سري للعمل في مجال العلاقات العامة في شركة نفط أبو ظبي ، وكان يكتب زاوية اسبوعية لصحيفة (ابو ظبي نيوز) . يقول : «كنت أحصل على الكثير من المال وبأكثر مما حصلته حتى بعد حصولي على درجة الدكتوراة وبعد التدريس لسنوات عديدة في جامعة بير زيت . لم أكن مكتفيا بالحصول على دخل فقط ، ولكنني كنت ابحث عن فرص للحصول على الاموال ، اموال كثيرة ، وقلت لنفسي : اذا بقيت هنا فيجب علي ان أجد طريقة لأجمع مليونا خلال خمس سنوات ، والا فانها لا تساوي شيئا ، بغض النظر عن مقدار ما سأحصله شهريا من المال . ولم أستطع ايجاد طريقة لجمع المليون فقررت المغادرة» .

في عام ١٩٧٤ ، تقدم سري بطلب الى جامعة هارفارد من أجل الحصول على منحة لمتابعة دراسته في مرحلة الدكتوراة في الفلسفة الاسلامية . وكانت هي الجهة الوحيدة التي تقدم اليها بطلبه : «قلت لنفسي [إن لم أحصل عليها ، فلن أذهب الى مكان آخر]» . وتم قبوله ، وحصل على المنحة ، لكنه واصل دعم نفسه من خلال تدريس بعض الطلبة - مدرس غير مقيم في كوينسي هاوس - وممارسة أعمال أخرى تراوحت بين القيام بمهارات المراقبة الليلية مع دورية شرطة هارفارد الى غسيل الصحون في مطعم محلي . ويتذكر دافيد بولاك - وقد كان رفيقه في الكلية وهو اليوم رئيس مديرية بحوث الشرق الادنى في وكالة المعلومات الامريكية - سريا على انه كان «قليل النشاط وميالا على نحو دقيق الى المنحة» ويقول : «ان سريا كان جديا ، محل ثقة ، عميق التفكير ، مع ميل الى الدعابة ولكن بغير حماقة على الاطلاق . ولا تستطيع القول فيما اذا كان محاصراً بالقضية الفلسطينية» .

في عام ١٩٧٨ حصل سري على درجة الدكتوراة ، وعاد الى الضفة الغربية حيث بدأ التدريس في كل من جامعة بير زيت ، والجامعة العبرية . وفي بداية سنوات

الثمانينات كان نشطاً في مجال تأسيس نقابة المعلمين في بير زيت ، وانتخب لثلاث دورات سنوية متتالية كرئيس لنقابة الكلية والمدرسين هناك . كما ساهم في تأسيس اتحاد العاملين في قطاع التعليم في الضفة الغربية كلها .

مع بداية الانتفاضة وجد سري نفسه منجذبا مرة أخرى وبشكل قاس نحو الانخراط في السياسة الفلسطينية . وبعد أن تعرض للضرب في بير زيت بسبب قيامه بالمساعدة لترتيب لقاء مع موشي عميراف ، أصبح هدفا لكل من الاسرائيليين وبعض الفلسطينيين . وفي شهر أيار ١٩٨٩ ظهر اسمه كمتآمر شريك غير متهم في محاكمة أربعة من النشطاء الفلسطينيين . وزعمت المحكمة العسكرية انه كان قائد القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة ، وهي المجموعة السرية التي قامت بتنسيق وتنظيم الانتفاضة . وزعم المدعون العامون انه كان يساعد في تمويل الانتفاضة قائلين انه حول اكثر من ١٥٠,٠٠٠ دولار من م. ت. ف. الى انصار فتح في المناطق . وقد نفى سري هذه الادعاءات . ومع ذلك ، فانه لم توجه ضده أي تهمة بسبب قيام الحكومة الامريكية بتقديم احتجاج رسمي ، وفقا لما زعمته الصحافة الاسرائيلية .

ان العلنية التي استقبلت بها القضية لم تساعد سريا فيما يتعلق بعلاقته مع مجتمعه ، ولا كذلك الحقيقة التي لم يقدمها الى المحكمة على الاطلاق . وبعد مرور فترة قصيرة على ذلك ، أصدرت مجموعة غير معروفة تطلق على نفسها اسم «الجيش الفلسطيني الشعبي» منشورا اتهمت فيه سريا بانه استخدم تمويلات م. ت. ف. لقضاء عطلة مترفة في اوروبا . ووسمه المنشور بـ «الدكتور الاكاديمي اللورد سري نسيبة» . وادعى المنشور ان عطلته كانت «هروبا تحت غطاء من الشين بيت الصهيوني بعد أن أصبح معروفا ان الاموال التي تلقاها ليقدمها الى القوات الضاربة قد اختفت» . وقال المنشور أن يدي سري نسيبة كانتا «بيضاء ولم تلطخا بقذف الحجارة» .

بعد بضعة أيام ، ظهر منشور آخر يدعي ان المنشور الاول كان مزورا ، وان الشين بيت هي التي كتبته من أجل تشويه سمعة البروفيسور الفلسطيني . وخلال اسبوع ، ظهرت مقالة في المجلة الرئيسة التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية وهي مجلة (فلسطين الثورة) تؤيد سريا ، وتتهم الاستخبارات الاسرائيلية بوضع

مسـودة وتوزيع المنشـور الاول . وكان عنوان المقالة : «أشرقت الشمس وظهرت الحقيقة الى النور» . ومع ذلك ، فان المشاكل التي كان يواجهها سريا لم تنته .

فـفي الخـامس عشر من شـهر حزيران ، وبعد مرور شهر على ورود اسمه في المحكمـة كـمـتـهم ، اتخذ الاسرائيليـون اجـراءات صـارمة ضده . فبناء على أوامر عـسكرية ، قـامت شرطة القـدس بمصادرة أوراق من مكتبه ، واغلقت أبواب مكتب بيت المقـدس للخدمات الصحفية ، وهو مكتب خدمات اعلامية كان سري يديره من أجل المراسلين والدبلومـاسـيين الأجـانب . وجـاء في أمر المحكمة ان سريا استخدم المكتب لايصـال تمويلات غير مشروعـة الى الانتـفـاضـة . وقد جاءت الخطوة بعد مـرور ثلاثة أسابيع على قيام السلطات الاسرائيلية بمنع نشر التقرير الذي يصدره بعنوان (تقرير الاثنين) وهو نشرة اسبوعية تصدر باللغة الانكليزية تقدم تحليلات عن أحداث الانتفاضة . وقد صدرت الاوامر باغلاق المكتب لمدة سنتين .

وفي مـقـابلة مع مـراسل هآرتس جـدعون ليفي ، سئل سري عن التهم الموجهة اليـه ومـفادها ان يديه بيضاء جدا ، فقال : «لا أعتقد ان يدي أي شخص يمكن ان تكون بيـضـاء جـداً ، بل يمكن دائما أن تكونا هما الأبيض» . وسأله المراسل فيما اذا كانت لديه خطط للهجرة الى بلد آخر ، فقال سري : «من وجهة نظر شخصية ، فـان من المحتمل ان يكون الأمر كذلك ، ولكن بالنسبة الـيّ فان القضية غير واردة ... انني منغـرز هنا سـواء أكان الأمر أفضل أم أسوأ . وليس لدي خيار» . غير ان الهـجمات الـشـخـصـيـة ضـده تركت آثارها على نحـو ظاهر ، اذ يقـول لمراسل الصحيفة الاسرائيلية : «يجب علـيّ أن أرى نفسي مثل كل شخص آخر ، ويجب ان لا أسمح لنفسي بالقيام بأشياء لا يستطيع الآخرون القيام بها» .

وطرح عليـه سـؤال فـيما اذا كـان قـد غير تفكيره فـيما يتعلق بمحاولة تغيير المجـتـمع الاسرائيلي من الداخل لا من خـلال اقـامة دولة مستقلة ، فقال : «حينما كنت أنظر الى العـمليـات التي كانت تحدث في الضفة الغربية وغزة خلال السنوات العشرين الاولى من الاحـتـلال ، رأيت ان هناك عملية اندماج في المجتمع الاسرائيلي ، وكـانت مـتناقـضة مع الأهداف الموضوعة للاستراتيجية الفلسطينية التي دعت الى عـدم الاندمـاج ... أعتقد ان هذا الوضـع الشيزوفراني لا يمكن ان يستمر الى وقت طويل . ومن أجل ردم الهوة ، كـانت هناك حـاجـة الى تغـيير أحد المكوّنين : إمـا

الانفصال عن النظام الاسرائيلي ـ شيء من قبيل ما حدث في الانتفاضة ـ أو تغيير الاستراتيجية المعلنة ، وبذل محاولة للاندماج في النظام الاسرائيلي ... أعتقد ان ذلك ما يزال قابلا للتطبيق ... وبكلمات أخرى : أعتقد انه اذا كانت استراتيجية عدم الاندماج ستخفق ، فعندذاك من المحتمل ان الفلسطينيين سيعملون على تغيير اتجاههم ويقولون : لم نستطع ذلك ، وبالتالي دعنا نستفيد من الاندماج في النظام الاسرائيلي» . وسئل فيما اذا كان مثل هذا الامر سيقود وبشكل حتمي الى دولة مزدوجة ، فأجاب سري : «بلا ريب اذا لم نتوصل الى اتفاق على دولة ثنائية التقسيم خلال خمس أو ست سنوات ، فان ما سيحدث في الواقع ـ وليس مهما ما تسميه ـ هو دولة مزدوجة الجنسية غير ديمقراطية» .

لقد أدلى سري بهذه الاقوال لصحيفة هآرتس في خريف عام ١٩٨٩ . ووفقا لبرنامجه الزمني ، فان من المفروض على الفلسطينيين ان يحصلوا على استقلالهم مع حلول ١٩٩٥ أو أنهم سيواجهون الضم الاسرائيلي . ويحذر من ان ساعة قياس الزمن النفسية تدق . ويوضح «ان الجماهير كلها أصبحت متطرفة نتيجة للاحتلال الاسرائيلي المستمر ... وعلامة هذا [التغيير] ان المزيد والمزيد من الناس يتجهون نحو الاصولية الاسلامية ... ان المرء لا يستطيع تقدير أهمية ذلك» ولكن عليه ـ كما يحذر ـ ان يرسم النتيجة الملائمة .

والرسالة التي أراد ايصالها مفادها انه بينما ما تزال فكرة دولة فلسطينية مستقلة تجتذب غالبية الفلسطينيين داخل المناطق المحتلة وخارجها ، فان من المحتمل ان لا تدوم الفكرة اكثر من هذا : «بامكانك اليوم ان تبيع هذه الفكرة الى الناس ، ولكن ليس لاولئك الذين أحبوها ... ان الاستعداد النفسي الوطني لحل يتمثل في دولة ثنائية الجنسية ليس عنصرا دائما في النفسية الفلسطينية ... انه الآن في قلب الفلسطينيين ، لكنه سرعان ما سيتلاشى ان لم تكن هناك استجابة لشعور المكاشفة هذا ... انه يشبه النجمة أو المذنب الذي يقترب ثم لا يلبث ان يذهب بعيدا وعلى المرء ان يلتقطه حينما يكون قريبا من محيطه» .

لم يهيء سري نسيبة شيئا لمناوشته الاكثر حداثة مع السلطات الاسرائيلية . كان يعد أولاده للنوم حينما طرق رجال حرس الحدود باب منزله الواقع في بلدة أبي ديس ، عند حوالي الساعة الحادية عشرة والربع من مساء يوم ١٩٩١/١/٢٩

أي بعد مرور نحو اسبوعين على بدء العراق اطلاق صواريخ سكود على حيفا وتل أبيب . كان قد أُطلق ستة وعشرون صاروخا خلال سبع هجمات على امتداد تلك الايام الاثني عشر ، وقتل جراء اطلاقها اربعة اسرائيليين ، كما جرح نحو مائتي اسرائيلي . كان حظر التجول ساري المفعول ، غير ان الاسرائيليين كانوا لا يريدون المخاطرة ، فعززوا القوات المرسلة الى هذه المهمة بجنود من جيش الدفاع الاسرائيلي ، الذين قاموا بهذه الخطوة غير الاعتيادية ، اذ حاصروا المنزل في ابي ديس ، وقطعوا حركة السير المدنية . حينما فتح سري الباب واجهه ضابط الاعتقال الذي أعطاه ورقة مطبوعة : أمر توقيف اداري موقع من وزير الدفاع موشي آرنس . وأدرك سري ما كان يعنيه ذلك : انه على وشك الذهاب الى السجن، وان من المحتمل ان يسجن دون أن توجه اليه أي تهم ، ودون ان يقدم الى المحاكمة ، ولمدة ستة شهور أو أكثر . قال سري لصحيفة الواشنطن بوست فيما بعد : «انتظروا ريثما اجمع حاجياتي . كانوا هادئين . لم يصرخوا أو يصيحوا أو أي شيء . كانوا مهذبين جداً . وتطوعت زوجته لوسي لمساعدته في توضيب أغراضه محاولة التأكد من وجود قمصانه المعرقة التي يفضلها ، وجاكيت سبور وسترة سميكة لليالي الشتاء الباردة . أما أولاده : جمال ، أبسل ، وبراق ـ وكما تعودوا التصرف ـ فقد وقفوا صامتين ، يراقبون ما يجري ، والدموع في عيونهم . ويستذكر سري : «لقد كانوا قلقين جدا ... قلت لهم ان يعتبروا ذلك مثل واحدة من رحلاتي التي كنت أقوم بها الى الخارج» .

في اليوم التالي أصدرت الحكومة بيانا تتهم فيه سريا بانه جاسوس للعراق . وزعم البيان ان سريا متورط في «نشاطات تخريبية» من بينها «جمع معلومات أمنية لصالح المخابرات العراقية» . كما اتهم بانه يقوم بايصال معلومات الى «عناصر في الخارج» تابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية يعملون لصالح العراقيين . ويقول اوري نير مراسل صحيفة هآرتس مستذكرا : «بالنسبة اليّ ، فقد كانت تلك صدمة عميقة ان يتهم هذا البروفيسور من بير زيت بالتجسس ... ان لم يكن ذلك الأمر مأساويا ، فانه كان مضحكا» .

وأصدر سري بيانا من سجن الرملة ، نفى فيه ان يكون قد تورط على الاطلاق في أي عملية جمع معلومات استخباراتية «لصالح أي حكومة أو منظمة» داحضا التهم الموجهة اليه بانه جمع أو قدم معلومات الى العراق . يقول مارك هيللر ، وهو

باحث اسرائيلي تعاون مع سري على تأليف كتاب بعنوان (لا أبواق ولا طبول) : «ان سريا فعل شيئا يتصف بالغباء اكثر من كونه يتصف بالاجرام فعلا» . وعلى ما يبدو ، فان الاسرائيليين قاموا بمراقبة مكالمة هاتفية من السفير العراقي في تونس الى نسيبة ، وزُعم انهم سمعوه يصف المواقع التي سقطت عليها صواريخ سكود في تل أبيب . وقد حدد نسيبة مواقع آثار الصواريخ «بدقة متناهية» على حد زعم رعنان غيسان المتحدث العسكري الاسرائيلي ، الذي أخبر الصحفيين ان الفلسطيني البالغ من العمر واحدا واربعين عاما قد تصرف في الواقع كمستطلع لصالح العراقيين ، ممكنا اياهم من تصحيح أهدافهم في عمليات القصف اللاحقة .

وكانت هناك موجة احتجاج عنيفة فورية ، امتدت عبر المحيطات ، فاعلنت منظمة العفو الدولية (أمنستي) ان نسيبة «سجين ضمير» . وظهرت في مئات الصحف مقالات وافتتاحيات تنتقد اسرائيل ، بما فيها صحف : نيويورك تايمز ، وواشنطن بوست ، ولوس انجلس تايمز . وفي اسرائيل ، انتقد زعماء الجناح اليميني رئيس الوزراء شامير قائلين انه كان من المفروض ان يطرد نسيبة لا ان يسجن فقط عدة شهور . وقال افرايم سنيه ـ الحاكم العسكري السابق للضفة الغربية ونائب وزير الخارجية الحالي ، ومستشار الوفد الاسرائيلي المفاوض ـ انه اذا كانت هناك دلائل دامغة ضد نسيبة ، فان الحكومة ملزمة بتقديمه الى المحاكمة بسرعة : «فان لم يكن الأمر كذلك ، فان هذا يعني ان الهدف سياسي» . كذلك فان مرغريت توتويلر المتحدثة باسم الخارجية الامريكية قالت الشيء نفسه : «يجب الاعلان عن التهم الموجهة ضد الدكتور نسيبة ، وان يعطى الفرصة للدفاع عن نفسه امام المحكمة» . وطالب متحدث باسم وزارة الخارجية البريطانية ان يعطى نسيبة حق المثول امام المحكمة ليتمكن من سماع التهم الموجهة ضده . في الوقت ذاته أعلن صائب عريقات ، وهو استاذ في جامعة النجاح في نابلس : «ان هذا الامر رسالة الينا نحن الفلسطينيين المعتدلين ، ومفادها : [يمكنكم ان تنسوا المفاوضات بعد الحرب لاننا سنعمل على تأكيد انه لا أحد هناك للتحدث معه]» .

ومثل الاربعة عشر الف فلسطيني الآخرين الذين سجنوا بدون اي تهم منذ بدء الانتفاضة ، فان سريا لم يعط أبدا أي تفاصيل عن التهم الموجهة اليه ، ولم يقدم الى المحاكمة . وعشية اعتقاله ، فان نشاطاته لم يبد انها كانت متناغمة مع أي محاولة لتقويض أمن اسرائيل . لقد قضى سري بعد ظهر ذلك اليوم (يوم اعتقاله)

مع غـاليـا غـولون واعضاء آخرين من حركة السلام الآن ، الذين حضروا الى بيته لاقناعـه بشـجب الهجمات الصـاروخـيـة العـراقية . ويقول مردخاي بار أون الى مـراسل نيـويورك تايمز أنطوني لويس : «قال سري انه على استعداد لشجب قتل المدنيين في أي مكان سـواء أكـان في تل أبيب أم في بغداد ... لقد كانت الفكرة تتمثل في تبادل رسائل عن كيفية رؤيتنا للمستقبل» .

من المحـتـمل ان لا يعـرف أحـد ابدا فـيما اذا كـان نسيبة قد تلقى اتصالا من السـفير العـراقي في تونس ، واذا كان الامر كذلك ، فلا يعرف فيما اذا كان قد قام مـتـعمدا بنقل معلومات عن المواقع التي قصفتها صواريخ سكود العراقية ، ام انه كـان فقط يصف المنظر الذي بثه التلفزيون الاسرائيلي . ومع ذلك ، فان مدة سجنه قطعت بسرعة . ففي شهر شباط ، وبعد انتهاء حرب الخليج بفترة قصيرة ، أمرت محكمـة منطقـة القـدس بتـخـفـيض مـدة توقـيف سري الى ثلاثة شـهور . وقد اسـتشهدت المحكمة بطبيعة الاثبات الموجود في ملف البوليس السري ضده ، ولكن لم تقل شـيئا عن مضمونه . وفي ٢٩/ ٤ اطلق سراحـه ، أي بعـد ثلاثة شهور من سجنه .

يقـول سري انه حـينما كان في السجن عمل على بروفات كتابه . ومن الصعوبة بمكان اصـدار أي حكم عن أثر فترة السجن عليه ، لكنه بدا أكثر تصميما من قبل بعـد اطلاق سراحـه على نقض هزيمـة العـلاقـات العامة التي عاناها الفلسطينيون خـلال حرب الخليج . ففي شهر تشرين الثاني ١٩٩١ ـ خلال تقييم نتائج مؤتمر مـدريد ـ قـال امـام ندوة اقـيـمت في واشنطن دي. سي. نظمـهـا مركز التحليلات السـياسية لفلسطين ان «استراتيجية غصن الزيتون ... هي استراتيجية قاسية جداً بالنسـبة الى الفلسطينيين كي يتبعوها ، واعتقد ان من الواجب عليهم اتباعها بشكل مـتـعـمـد اكـثـر» . وأضـاف ان اشكال الحـوار كلها يجب ان تُسـرَّع : «ان أحد اهتمامـاتنا الرئيسـة يجب ان تركِّـز على محـاولة التأثير في الرأي العام الاسرائيلي من خلال أعمال مشتركة : تظاهرات ، بيانات ، أو اجتماعات . ان على الفلسطينيين في المناطق المحتلة الاعلان عن انهم جادون وصادقون فيما يتعلق بتحقيق السلام» .

بعـد اسـبـوع من ذلك ، ظهـر سري مع محلل شـؤون الدفاع الاسرائيلي مارك هيللر في برنامج (مـاك نبيل ـ ليهرر نيوز) الذي تبثه شبكة تلفزيون PBS . وقال

سري في هذا البرنامج : «انظر الى مؤتمر مدريد على انه شيء من المحتمل ان يعمل على تغيير الخريطة السياسية كلها ... ان ذلك سيحدث ببطء» . وفي هذا البرنامج قدم سري رؤيته الخاصة عن كيفية التعايش . ففكرة الدولة الفلسطينية «قد تحولت الى شيطان في اذهان الناس ، ولا يمكن التعامل معها الا بواسطة علم النفس ... أعتقد انه كلما عرضت عليهم كيفية تعايش الدولة الفلسطينية المستقبلية جنبا الى جنب مع اسرائيل ، وكيف ان ذلك ممكن ، وما الذي ستكون عليه الدولة الفلسطينية ، فانها ستصبح معروفة لهم اكثر ، واعتقد سيقل خوفهم تجاهها» .

وأوضح انه في محاولة للتوصل الى تكيف مع المؤلف المشترك معه فيما يتعلق بمتطلبات الامن الاسرائيلي ، فانهما حاولا الذهاب الى ما وراء المفهوم التقليدي للحدود أي السياج المرسوم بوضوح بين دولتين . لقد تذكرت محادثتهما ما قاله روبرت فروست من انه قبل اقامة جدار ، يجب التأكد ومعرفة من داخل السياج ومن خارجه : «لقد حاولنا التفكير في طبيعة العلاقة التي ستبقى عبر الحدود ... والمدى الذي باستطاعتك رسم حدوده والذي كان مُنفذا أو نفيذا ، والذي سمح بتدفق حر للخدمات ، والبضائع ، والناس ، ورؤوس الأموال ، وعند ذاك المدى ستجد الأمر أسهل للاتفاق على موقع» .

واذ نشأ على الحدود بين اسرائيل والاردن ، وقضى معظم سنوات حياته وهو يعبر السياج الذي يقسم القدس ، فان سريا يفهم ويدرك أهمية الانفتاح . واستذكر انه حتى قبل بدء الانتفاضة ، فان الخوف خلق حاجزه بين الاسرائيليين والشعب الفلسطيني . لقد اتصل به شخص من القدس الغربية ليعلمه ان له (لسري) طردا في مكتب خدمات الطرود الموحد : «سنتركه لك في بن يهودا : [مكتب البريد المركزي] ويمكنك ان تحضر وتتسلمه» وأجابه سري : «ما الذي تعنيه بقولك نتركه في بن يهودا ؟ هل أنت مجنون ؟» . وتابع قائلا انه سيتسلمه في مكتب خدمات الطرود الموحد في القدس الشرقية ، فقال الاسرائيلي له : «آسف ... ليست لدينا أي خدمات للقدس الشرقية» . وأجابه سري ، بأنه في تلك الحالة اعد الطرد لمن أرسله ، أو ضعه في البريد . وأعلمه الموظف انه لا يستطيع ارساله بالبريد لان التعليمات التي لديه تقول بان يسلمه الطرد باليد ، فقال سري : «ولذلك قلت سلمه لي باليد ، ولكنني لن أحضر الى القدس الغربية لأتسلمه . لماذا قبلته من الأساس اذا كنت لا

تريد تسليمي إياه ؟» . وفي النهاية اقترح سري تسوية حينما قال للرجل : احضر الطرد الى فندق اميركان كولوني على طريق نابلس ، وهو يقع على مسافة دقيقتين بالسيارة من الحدود الوهمية . ضحك الموظف ، وقال له بانه سيعاود الاتصال به . كان ذلك منذ خمس سنوات ، وما يزال سري ينتظر . ان أيام أليس في بلاد العجائب ولّت منذ عهد بعيد . ومع ذلك ، في عيونه وكما في طفولته ، ما تزال هناك بوابة تقسم مدينة القدس .

زهيرة كمال

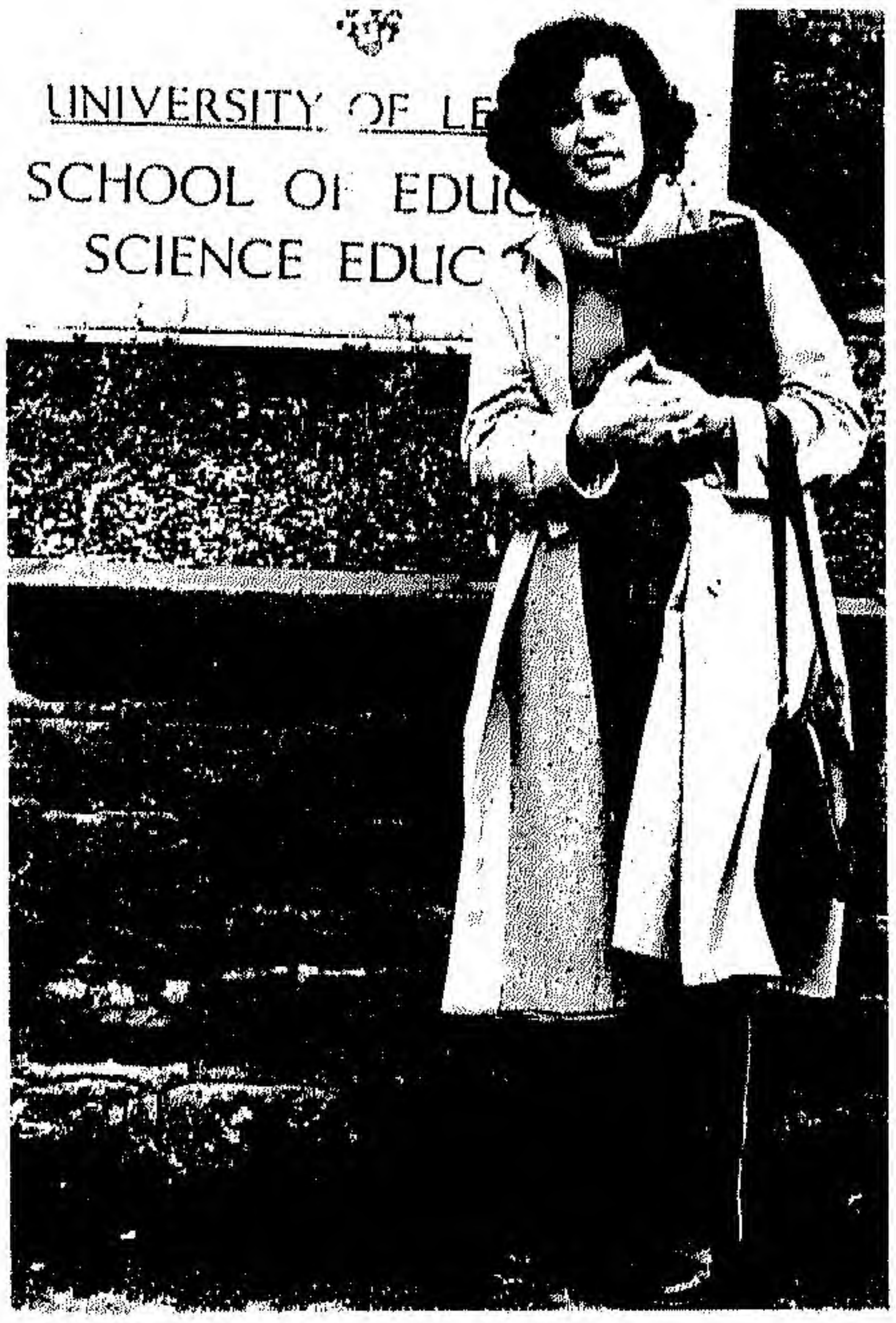

● زهيرة كمال الطالبة في جامعة ليدز .

● زهـيرة كمال مع والدتها (فـخـرية) في منزلها في بلدة بيت حنينا ، احـدى ضـواحي القدس الشرقية .

زهيرة كمال

في الاجتماعات التي تعقد في المدن والقرى حيث تناقش دائما زهيرة كمال ـ عضو الوفد الفلسطيني المفاوض ـ تقدم محادثات السلام الاسرائيلية ـ الفلسطينية يصل الرجال الى مكان الاجتماع أولاً ، ثم الشباب ، وأخيراً تدخل الفتيات تليهن النسوة إذ يدخلن على استحياء ، ليقفن على نحو غير ملائم في الزاوية . ان ذلك رمز لحالة التابع التي تعيشها المرأة في المجتمع العربي ، ويتكرر المشهد يوميا ، والمرة ، تلو الأخرى .

على امتداد شارع صلاح الدين المزدحم في القدس الشرقية ، داخل الحارات الضيقة للمدينة القديمة ، تقف النسوة البالغات من العمر الأربعين والخمسين سنة لمساومة أصحاب المحلات والباعة المتجولين على ثمن كيلو من لحم البقر وهن يرتدين الملابس التقليدية الفلسطينية . وبين التسوق والالتفات نحو ابنائهن وواجباتهن المنزلية ، يلتقين الواحدة مع الأخرى لبحث شؤون حياتهن . وبين أنفسهن يجدن صداقة حميمة مريحة ناجمة عن تجربة مشتركة . سيخبرنك ـ مع شيء من الاعتذار في بعض الأحيان ـ كيف تزوجن حينما كن شابات وأصبح لهن أولاد بعد ذلك بقليل ، حتى أن حياتهن أصبحت روتينية ، موجهة في غالبية الأحيان نحو الآخرين سواء أكانوا أزواجاً أم أبناء أم جيرانا .

ثم هناك البنات ، نساء شابات يرتدين في بعض الأحيان الملابس أوروبية الطراز ذات الأزياء الحديثة . وفي فندق أميركان كولوني في شرقي القدس من الشائع ان تجد شابات ، متحررات التفكير ، يرتدين بنطال الجينز وقميص تي شيرت ، وقد تجمعن في الساحة يرتشفن الكوكتيل ، ويتباحثن في شؤون عملهن ، وعائلاتهن ، وصداقاتهن مع الشباب ؛ ويتشكين كيف يحاصرهن آباؤهن ، وكيف أعطي أشقاؤهن الحرية في حين أن عليهن الالتزام بجملة من القواعد المطلقة ، وكيف أنهن يفضلن العيش بشكل مستقل لكنهن يقاومن مثل هذه الأفعال بسبب الخوف من استهجان المجتمع ولومه لهن . انهن مثقفات وليبراليات ويفكرن في حياة مختلفة ، بعيدة عن امهاتهن ، وبعيدة عن رتابة العمل المنزلي . وهن يؤمن بامتلاك هوية لا تكون مشتقة من اسم الزوج ولكن من مجموعة انجازاتهن .

وقد لعبت زهيرة كمال دوراً كبيراً في عملية تحديث المجتمع الفلسطيني . فقد ابتدأت بالدور التقليدي للمرأة كمعلمة ، ثم أصبحت نشطة سياسية ، وانتظمت في صفوف الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ذات الاتجاه اليساري ، ومنذ سنوات السبعينات أصبحت في طليعة الحركة النسائية الفلسطينية .

وهي واحدة من بين النسوة الثلاث (الى جانب حنان عشراوي وسعاد عميرة) ضمن الوفد الفلسطيني المشارك في محادثات السلام للشرق الأوسط . بالرغم من انها خطيبة مفوهة وصريحة ، الا انها - حتى اليوم - أقل شهرة من أولئك المندوبين الذين انجذبت وسائل الاعلام اليهم . وهي مهتمة بالجوهر ، وتتجنب كاميرات التلفزة . وفي حين أن عشراوي أصبحت صورة مألوفة على شاشات التلفزيون ، وهي تشرح الموقف الفلسطيني فيما يتعلق بتقدم المحادثات ، فان من الصعوبة جداً العثور على زهيرة . وهي تقول انها تنأى بنفسها على الاضواء ، معتقدة ان ذلك يبعدها عن عملها : «اذا كنت تريد اللحاق بوسائل الاعلام فانك لن تستطيع العمل . ان ما أفضله هو أن يكون لدي بعض الوقت من أجل القراءة ، والتحدث ، والاجتماعات» .

ومع ذلك ، فان تصرف زهيرة المتحفظ تقريبا يجب ان لا يفهم خطأ على انه لا مبالاة . فهي ملتزمة بشكل قوي بقضيتين اثنتين : حقوق المرأة ، والتحرر من الحكم العسكري الاسرائيلي . ولطالما كانت خياراتها المستقلة موضع تحد ونقد من كل من مجتمعها وعائلتها ، وربما كان هذا الاتجاه من النضال قد عزز احساسها بذاتها ، فهي تتحدث بدون تردد كامرأة واثقة بخياراتها وقيمها الشخصية . وحينما تتحدث عن الحركة النسائية فانها تتكلم عن التضامن ، عن الاخوة بين النساء ، وعن الحاجة الى عمل جماعي ، وعن الحقيقة البسيطة بان التقدم في مجال حقوق المرأة لن يتحقق الا بالنضال . وزهيرة تدرك بان المرأة الفلسطينية يجب ان تحرر نفسها من قوتين تقيدانها : الاحتلال ، والسيطرة الذكورية . ان هذين الأمرين المزدوجين اللذين يصطدمان مع النظام الأبوي والاستعباد قد ازدادا تعقيدا بسبب اتساع تأثير الأصولية الاسلامية في العالم العربي .

وترتدي زهيرة - الجالسة على الصوفا حديثة الطراز في غرفة الجلوس في منزل والدتها في شعفاط ، المطل على الجبال المحيطة بالقدس - تنورة صوفية الى الركبة

وكنزة ذات قبة عالية وردية اللون . أما والدتها فخرية فترتدي الحجاب التقليدي ، وفستانها وردي اللون يغطي رجليها ، وتضع غطاء أبيض على رأسها . ان نمطي الحياة المتناقضين يمكن ملاحظتهما هناك . تقول زهيرة دون ان تطرف عيناها السوداوان : «اننا نتطلع الى تغيير شامل لدور المرأة في مجتمعنا» .

ولدت زهيرة عام ١٩٤٥ في منطقة وادي الجوز في شرقي القدس لعائلة من الطبقة المتوسطة . وكان والدها أحمد ـ وهو ابن تاجر من القدس ـ مدرّسا لمادة الجغرافيا ، ومن ثم درس الدين والرياضيات في مدرسة الرشيدية . وتعود عائلة كمال في أصولها الى أيام صلاح الدين الأيوبي . تزوج أحمد من فخرية ـ وهي امرأة فلسطينية شابة ، كانت تبلغ السابعة عشرة من عمرها ـ حينما أصبح في بداية سنوات الأربعين من عمره ، وأنجبا ثمانية أبناء : ست بنات ، وولدان ، وزهيرة هي الأكبر سنا .

كان أحمد رجلا تقدميا ، مفكرا ، ومهتما بقضايا الحياة . وكان يدعو أصدقاءه الى بيته ليتحدثوا عن كل شيء ، بدءا من الأمور الدنيوية وانتهاء بالأحاديث السياسية الجادة . وكانت زهيرة في غالبية الأوقات تحضر هذه الجلسات ، بل انها كانت تجلس في غرفة المعيشة مع الرجال جميعهم ، وفي بعض الأحيان تطرح آراءها . ولعله من دواعي السخرية ان هذه المنادية بالمساواة بين الجنسين والتي تسعى الى حشد المرأة ، ومساعدتها سياسيا واقتصاديا ، تستمد عقلانيتها من والدها ، اذ ان أحمد كان انموذجها .

وتأثرت زهيرة بعمق بحادثة مبكرة كلفت فتاة شابة حياتها ، وهي رجاء عماشة . وقد تركت الحادثة هذه أثرا في نفس زهيرة بانه لا يمكن الحصول على شيء دونما تضحية . وتعزز ذلك عندها خلال السنوات الخمس التي قضتها في القاهرة بين عام ١٩٦٣ ـ ١٩٦٨ للحصول على الشهادة الجامعية . وفي حين انه خلال سنوات الثمانينات ـ وقبل اغلاق الجامعات الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة ـ كان العنصر النسائي يشكل حوالي ٤٠٪ من مجموع طلبة جامعة بيرزيت ، فان زهيرة ـ في سنوات الستينات في القدس ـ كانت واحدة من بين خمس طالبات من صفها البالغ عدد أفراده ثلاثون طالبة تمكّنّ من اكمال دراستهن . وتستذكر: «في ذلك الوقت ، وحتى لو كنتِ من عائلة برجوازية فانك لن تذهبي . كانوا

ينتظرون الرجل ليأتي وليتزوج» . وحينما تنظر زهيرة في حياة أمها ، فانها لا تستطيع تخيل نفسها تمارس الدور نفسه .

كانت فخرية امرأة عاقلة متعلمة ، وكانت شديدة الحساسية تجاه رغبات أبنائها ، ولكنها أيضا تزوجت وهي يافعة فكانت «مثل ابنة» لزوجها و «ليست كزوجة» . كانت فخرية تمثل الدور التقليدي للمرأة ، وبمجاراة معيارها الثقافي ـ فهي لم تذهب الى كلية ـ فانها تزوجت في سن مبكر ، وأنجبت العديد من الأولاد ، وبقيت في البيت ، في حين أن زوجها يعمل من أجل إعالة العائلة . وفيما يتعلق ببنات عائلة كمال الست ، فانه كان من المفروض ان يتزوجن أيضا ، وان يكوّن عائلات . أما الذهاب إلى الجامعة للدراسة فلم يكن يشكل جزءا من الحساب .

لكن بعد ان اجتازت زهيرة امتحان الثانوية ، أقنعت والدها بالسماح لها لمواصلة تعليمها . وعلى الرغم من اعتراضات زوجته والأقارب ، فانه وقف الى جانب ابنته ، ومكنها من الالتحاق بالجامعة في الخارج . وكمعلم فانه أدرك قيمة التعليم . تقول ابنته : «لقد أراد أن أواصل دراستي» . وفي الجامعة في مصر ، حضرت زهيرة المحاضرات والمناقشات عن المسرح ، وانضمت الى إتحاد طلبة فلسطين ، وكان ذلك في الوقت الذي حظر فيه نظام عبد الناصر التنظيمات السياسية تقول : «القاهرة ... مكتبة واسعة جداً .. كل ما تريده موجود هناك» .

مع حلول عام ١٩٦٨ ، كانت القدس ـ التي عادت زهيرة اليها بعد حصولها على الشهادة الجامعية في العلوم ـ قد تغيرت بشكل كبير . فالانتصار الاسرائيلي الذي تحقق في حرب الأيام الستة قبل سنة من عودتها جعل المدينة المقدسة مدينة موحدة جديدة تحت الحكم اليهودي . ومن أجل العودة الى وطنها ، اضطرت زهيرة للحصول على تصاريح خاصة من الادارتين : العسكرية والمدنية الجديدة ، وكان ذلك أول مذاق للاحتلال الاسرائيلي . وحينما وصلت ، علمت ان والدها ـ الذي كان آنذاك في أواخر الستينات من عمره ـ مريض جداً ، وقد توفي بعد عودتها بسنة ونصف . وعملت زهيرة على مساعدة أمها وشقيقاتها الصغيرات في تدبير شؤون البيت . كان ذلك أول صدام لها كامرأة تحمل الشهادة الجامعية مع الالتزامات الروتينية للحياة العائلية . تقول لصحيفة هآرتس عام ١٩٩٠ : «وأكدت آنذاك انه لا أحد آخر سيتدخل في اتخاذ قراراتنا . وبشكل رئيسي ، كنت مسؤولة عن عائلة كبيرة تتألف في غالبيتها من فتيات في سن المراهقة» .

أيضـا ، بدأت زهيرة تعمل كمعلمة في كلية تدريب المعلمين في رام الله ، وهو المنصب الذي ما تزال فيه . كان هذا المعهد يدار من قبل وكالة غوث وتشغيل اللاجئين (الأونروا) وأعدت زهيرة الطلبة للعمل في مهنة تدريس الفيزياء ، والعلوم وكان بعض طلبتها من الفقراء الذين يقيمون في مخيمات اللاجئين المجاورة . وكجزء من المنهاج ، شاركوا في برنامج مدارس الوكالة التي عملوا فيها مساعدي أساتذة في المدارس بالقرب من بيوتهم . وتستذكر زهيرة : «زرتهم هناك .. زرت بيوتهم في المخيمات . وحينها رأيت المرأة ، الحياة البائسة للمرأة ، والعدد الكبير من الأطفال الذي أنجبنه ...» وتتنهد قائلة : «في بعض الأحيان كان لديهن تسع بنات ويسعين الى انجاب الصبي . بالنسبة اليّ ، كان ذلك يعني انه يجب علينا العمل على هذا الأمر» . وكمدرسة مخلصة ، بدأت زهيرة بسرعة تضع خططا لنقل أكثر وقائع الحياة أساسية الى طالباتها الاناث . وتضمنت المساقات التي كانت تدرّسها ما يمكن ان يكون بالنسبة الى الغربيين الدروس الأساسية في علم الوراثة من حيث مَن «هو المسؤول عن جنس المولود من وجهة النظر العلمية» . وتقول بان هدفها كان مساعدة طالباتها على فهم حقيقة «ان الرجل هو المسؤول» .

كانت خبرة هذه المعلمة مع مخيمات اللاجئين الأساس الذي أوجد خططا ذات نطاق أوسع لتغيير دور بنات جنسها في المجتمع . وماتزال هذه النشطة لا تشعر بالارتياح تجاه كلمة (المساواة) . انها تضع القضية بأبسط عبارات حقوق الانسان: «حينما نتحدث عن المساواة فان ذلك يعني حق المرأة في العمل والتعلّم» وبهذين الأمرين تستطيع المرأة اكتساب المهارات للاستقلال الاقتصادي ، والتحرك بحرية ، والقراءة والدراسة ، وبالتالي احراز شيء من تحقيق الذات .

لكنها تقاوم التقاليد . فهناك عقبات دينية واجتماعية تجب مواجهتها في الحياة الفلسطينية . ففي المقام الأول هناك قاعدة النظام الأبوي ، والتي تتفرع منها العقبات الأخرى . ان دور الرجل على انه الحامي قد نشأ من حياة القرى الريفية حيث تؤكد الثقافة وحدة العائلة الممتدة . فالعائلة فوق الفرد ، والزوجة تذعن للزوج ، والأخت للأخ . في هذه البنية الاجتماعية القاسية ، تكون المرأة مقيدة برغبة أبيها وارادته ، ثم بعد الزواج ، برغبة زوجها . وعلى امتداد التاريخ الفلسطيني الحديث ، كان دور المرأة يغيب ويرتفع وفق المجرى السياسي ، والأوقات المتغيرة . وقد تطورت الأدوار على امتداد عدة حقب الى جانب نشوء

الوطنيـة الفلسطينيـة . وفي الواقع ، فـان الحـركة النسائية كانت سابقة من حيث نـشـوئهـا الحـركـة الوطنيـة . فـمع مطلع سنوات العشرين ، خـلال قـمع الحكم البريطاني اتحـدت النسـوة مع بعـضـهن لأهداف خيرية . لكن الخير كان مصـحوبا بشيء من الرعـاية . كانت الأعمال تدار بشكل رئيسي من قبل سيدات الطبقة العليا باسم أخـواتهن الأقل ثروة . وحـينما اشتد النزاع البريطاني ـ العربي ـ اليهودي ، زادت فعاليات النسوة الفلسطينيات . وشكلت في عام ١٩٢٩ لجنة السيدات العربية كـرد فـعل على قتل الجنود البريطانيين لتسع نساء عربيات من بين ١٢٠ عربيا في المسجد الأقصى في القدس .

وكـانت هناك نقطة تحول عام ١٩٤٨ ، وهي السنة التي أعلن فـيها قيام دولة اسرائيل وتدفق اللاجئون العـرب عبر الأرض المحتلة . فقد غادر العديد من عائلات الطبقة العليا الدولة اليهودية ، في حين بدأت نساء الطبقة الوسطى القيام بأدوارهن في «المنظمات الخيرية» التي كـانت تدار سابقا من قبل النساء الأكثر ثروة . ولما كنّ قـد فـقـدن جـزءاً كـبيراً من ممتلكاتهن ، فـانهن تشربن بحافز قوي للنضال على الصـعيد السياسي . ولكن لأنهن كن نسوة ، فان متنفسـهن كان محدوداً . وواصلن العـمل الخيري ، ومع ذلك فان الذين كانوا يتلقون العمل الخيري قد تغيروا . فبدلاً من المعـدمين اقتصادياً فقط ، فان المستفيدين من الأعمال الخيرية الأخرى هم الآن السجناء وعائلاتهم وبخاصة النساء .

في عام ١٩٦٤ أنشئت م. ت. ف. وفي عـام ١٩٧٥ أسس الاتحاد العام النسائي الفلسطيني . وبسرعـة عمل الاتحاد العام على تجنيد أعضاء من خلال التشديد على الاتصـالات الشـخـصـيـة الواسعة للنسوة أنفسهن : في القرى بين العائلات ، وفي المدن . وجيء بالنساء ـ عبر الاتحاد العام ـ لحضور الاجتماعات السياسية لاحياء ذكـرى الأحـداث الوطنيـة ، مثل : المظاهرات التي تقام سنويا بذكرى وعد بلفور ، وهي الوثيـقـة البريطانية التي أعلنت في ٢/ ١١/ ١٩١٧ واعترفت بحق اليـهـود في اقـامـة وطن قـومي لهم في فلسطين . ولكن حال انتهاء المظاهرة ، كانت المشاركات يتـفـرقن ويعدن الى بيوتهن . لم تكن هناك متابعة ، ولا اطار عمل ، ولا بنية يمكن معها ايجاد مشاريع واستراتيجيات طويلة الأمد على الأجندة النسائية . وبقي مبرر وجـود هذه المجـمـوعـة هو تقـديم المساعدة ، وليس التنظيم ، وادارة المستشفيات ودور الأيتام ، وليس زيادة الوعي .

وكانت هناك نقطة تحول ثانية وقعت بعد هزيمة ١٩٦٧ ، والتي تزامنت مع الاحتلال الاسرائيلي للمناطق . فقد بدأت النسوة الفلسطينيات بمشاركة الرجال في العمليات العسكرية الموجهة ضد اسرائيل . وبالتالي ، فان القوات الاسرائيلية بدأت باعتقال النسوة وبأعداد متزايدة للمرة الأولى . وكنتيجة لذلك ، تعرضت النسوة لحياة السجن . وحينما برزن - وفي بعض الأحيان وجهن اتهامات بانهن تعرضن للاساءات الجنسية - كن قد اشتعلن بهوى الثورة . فبالنسبة اليهن ، لم تعد المنظمات الخيرية تكفي بالغرض كمتنفس لهن . كذلك ، فان الجمعيات الخيرية لم تكن مرنة بشكل كاف لعكس الواقع السياسي الجديد . وكانت هذه الجمعيات تشعر بالرعب من النسوة ذوات الوعي السياسي القويّ الخارجات من السجن . كانت المنظمات تفتقر الى القدرة على مجاراة هذا الجيل الجديد من النسوة الميالات الى الثورة .

وأصبحت زهيرة عضواً في جمعية انعاش الأسرة في بلدة البيرة ، القريبة من مدينة رام الله . وتعتبر هذه الجمعية أكبر جمعية خيرية في الأراضي المحتلة ، وقد أسست سنة ١٩٦٥ على يد سميحة خليل ، وهي امرأة قوية ، وقادت الجمعية مجموعة من النساء اللواتي كانت عائلاتهن من أصحاب الأراضي والتجار الحضريين . وركزت الجمعية اهتماماتها على تدريب المرأة للقيام بأدوار تقليدية ، مثل الحياكة ، الطبخ ، ومهارات السكرتارية ، وتشغيلهن ، ثم بيع انتاجهن في الأسواق الخيرية ، من خلال شبكة توزيع . وقد عرفت سميحة خليل بلقب «الأم» لكونها تقوم على رعاية الأرامل وأطفال الشهداء الذين قتلوا في الانتفاضة . ولكن في السنوات الأخيرة ، أبدت سميحة - المؤيدة للجناح السياسي المنافس للجبهة الديمقراطية - اعتراضها على ترحيب زهيرة للقاء مسؤولين أمريكيين ، وانتقدت - الى جانب أعضاء أخريات في اللجنة - محاولاتها للتأكيد على قضايا المرأة .

وعلى الرغم من أن المجتمع يؤكد على التدريب ، فان ذلك لم يثمر الا القليل في مجال مساعدة المرأة سياسياً ، أو تحسين وضعها الاجتماعي . ووجدت زهيرة ان عملها محبط : «لم نغير دور المرأة في المجتمع» . واكتشفت ان العقلية التي تحكم قيادة جمعية انعاش الأسرة ليست تقدمية بما فيه الكفاية : «لقد قبلن دورهن [النساء] الوطني ، لكنهن لم يردن ان يكن نشطات اجتماعيا وأن يتسلمن مناصب

في كل مكان» وكما تقول إصلاح عبد الجواد ، وهي باحثة في جامعة بير زيت ، فان مهمة المنظمات الخيرية «ليست تنظيم النساء ، وليست زيادة وعي المرأة أو النضال من أجل قضايا المرأة ، ولكن وبشكل رئيسي من أجل المساعدة» . لقد كانت زهيرة جزءاً من جيل جديد ، وجد ان البنية الأساسية للمنظمات الخيرية غير ملائمة ، اذ تقول : «لدينا جيلان الآن» : جيلها الذي يؤمن ان القضية ملحة و«الجيل الآخر الذي يشعر ان هذا الوقت ليس هو وقت» التاكيد على قضايا المرأة، معتقدا ان الحاجة الى ذلك موجودة ولكن الوقت المناسب للسعي من أجلها هو «بعد التحرير» .

لذلك ، بدأت وزميلاتها عام ١٩٧٤ بزرع البذور من أجل جهاز أكثر فاعلية من حيث الاعتماد على الذات ، والذي تطور الى لجنة عمل المرأة ، والتي أسست في رام الله سنة ١٩٧٨ . وقد تعرضت هذه اللجنة مؤخرا الى الانشقاق - شأنها شأن النقابات - فكانت نتيجة ذلك أربع منظمات عكست الانقسام السياسي داخل المجتمع الفلسطيني . وقد عملت الفصائل السياسية الرئيسة الأربعة على ايجاد لجان بهدف توسيع نفسها من خلال المرأة : فهناك رابطة لجنة العمل النسائي الفلسطيني والتي تترأسها زهيرة ، وهي الأكبر ، وتنحاز الى الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين . وهناك أيضاً اتحاد لجان النساء الفلسطينيات العاملات ، وقد أسس في ٨/ ٣/ ١٩٨٠ (يوم المرأة العالمي) ويقف خلف حزب الشعب (الشيوعي سابقاً) . كذلك هناك اتحاد لجنة النساء الفلسطينيات ، وقد تأسس في شهر حزيران ١٩٨٢ ويرتبط مع منظمة فتح . وتعترف زهيرة ان التقدم قد تأخر «بسبب التنافس بين مختلف اللجان» وتسلّم بان ذلك «أثر في البرامج التي يقومون بها . وأعتقد الآن انهم وصلوا الى مرحلة قبول فكرة عدم التوحيد ، ولكن أستطيع القول قبول برامج موحدة آملة أن يقود هذا الى حركة نسائية موحدة» .

منذ سنوات الستينات ، أيدت زهيرة الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين . وفي حين أن فتح كمنظمة اعتادت نفي وجود تفرقة داخل المجتمع ، الا ان المجموعات اليسارية هي التي كانت معنية ومهتمة بقضايا المرأة . وبالنسبة الى منظمة فتح ، كان الهدف الرئيسي يتمثل في انهاء الاحتلال العسكري الاسرائيلي ، وبالتالي على العمال والفلاحين والمرأة ان يتبعوا قضيتهم حتى التحرير الوطني . وعلى النقيض من ذلك ، فان اليساريين ، مثل الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، والشيوعيين

طالبوا بمساعدة الفلاحين والفقراء . ولأن المرأة مضطهدة ، فان من الواجب عليهم الاهتمام بقضايا المرأة .

أسست الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في شهر شباط من عام ١٩٦٩ ، وذلك حينما انشقت عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . واذ اعتمدت على المفاهيم الماركسية - اللينينية ، تأسست على يد نايف حواتمة كحركة سعت الى تأييد أساسي في محاولة لحشد الجماهير . وفي عام ١٩٧٠ اتبعت استراتيجية تمثلت في محاولة توحيد القرى الفلسطينية الموجودة في شمال الأردن مع تلك الموجودة في وادي نهر الأردن على أمل شن هجوم مشترك ضد اسرائيل . ولكن في أواخر تلك السنة ، تحطمت تلك العملية كنتيجة لأحداث أيلول .

وبالتالي ، انشقت الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين الى فصيلين ، وتزعم الجناح الجديد ياسر عبد ربه الذي انتهج خطا أكثر ماوية . وفي شهر آب عام ١٩٧٣ ، بدأ فصيل عبد ربه يشق أرضية جديدة في سياسة الشرق الأوسط ، وذلك حينما تحدث عن اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية ، بالاضافة الى الدولة الموجودة على الجانب الشرقي من نهر الأردن . ان الكيان الفلسطيني يمكن ان يوجد الى جانب اسرائيل . ومع ذلك ، وبالنسبة الى غالبية الاسرائيليين ، فان هذه الايديولوجية - رغم انها تبدو معتدلة - كانت نسخة أكثر تهذيبا للخطر القديم . فبالنسبة اليهم ، كان التعايش مجرد رؤيا وتخيل كمرحلة مؤقتة ، وخطوة نحو استئصال الدولة اليهودية في النهاية لتحل مكانها دولة فلسطينية علمانية ديمقراطية . انه جناح ياسر عبد ربه في الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين الذي تؤيده زهيرة .

وياسر عبد ربه - النائب السابق لرئيس الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين نايف حواتمة - كيس ، مدخن ، دبلوماسي نشط ، وكان المحاور الفلسطيني الرئيسي في المحادثات التي عقدتها الولايات المتحدة مع م. ت. ف في تونس عامي ١٩٨٩ - ١٩٩٠ . ويعارض حواتمة - الذي يتخذ من دمشق مقراً له - محادثات السلام في مدريد وكذلك الحكم الذاتي «الموسع» الذي يهدفون الى ايجاده ، في حين ان عبد ربه يؤيد عملية السلام والمحادثات الاسرائيلية - الفلسطينية ، الأمر الذي دعا مسؤولا اسرائيليا رفيع المستوى للقول هازئا ان الجبهة الديمقراطية لتحرير

فلسطين/ جناح عبد ربه هي «فتح الصغيرة» . ويقول الاسرائيلي ان زهيرة كمال هي «نشطة صالون» ملمحا الى انها سليلة «سيدات الصالون» اللواتي كنّ يقمن بإدارة الجمعيات الخيرية في حقبة مبكرة ، مضيفا ان فصيل عبد ربه لا يوجد لهم اتباع كثيرون ، في حين ان لحواتمة جنودا في الشوارع : «لحواتمة ضباط صف وجنود ، في حين ان لعبد ربه شبكة تلفزيون CNN» ومع ذلك ، فان زهيرة اعتادت على هذه الوقاحة ، ولن تتركها تعوقها ، بل انها تؤكد الحاجة الى حل يتمثل في دولة مزدوجة ، وان على المستوطنين اليهود ان يغادروا الضفة الغربية ، اذ انها تدعي ان وجودهم هناك غير قانوني : «في لجنتنا ، نعتقد انه يجب علينا العمل من أجل العمل الاجتماعي والوطني . وهذا هو السبب الذي يقف وراء تأسيس اللجان لأن الجمعيات الخيرية لا تعمل من أجل قضايا المرأة كقضايا مرأة» . ان رابطة لجان العمل النسائي الفلسطيني تهدف الى الوصول الى غالبية النساء «ولذلك فاننا نذهب الى القرى والمخيمات ونعمل على مستوى القاعدة مع ربات البيوت . ان البحث عن تقرير مصيرنا بأنفسنا جزء من الحركة الوطنية في الضفة الغربية وقطاع غزة» .

لقد ناضلت رابطة لجان العمل النسائي الفلسطيني وفي المقام الرئيسي من أجل التخلص من الأمية النسائية بين أوساط ربات البيوت ، بادئة بالقواعد . وتؤكد زهيرة : «ليس فقط بالقراءة والكتابة ، ولكنا أيضا بالبحث ، وجعلهن متفتحات الفكر لتقبل الأفكار . وعند ذلك ، يصبح باستطاعتنا مواصلة الطريق» . وفيما بعد أقامت المنظمة برنامج تدريب مكثف أثناء الخدمة . تقول زهيرة : «كان علينا ان ندربهن على بعض أنواع المهارات ليتمكن من الحصول على عمل مناسب» والحصول على أجور . ان المنطق يقول ان «اخراج المرأة من البيت هو الخطوة الأولى نحو التحرير الاجتماعي» فعلى سبيل المثال ، كان هدف أحد البرامج التي طبقت في غزة تعليم المشاركات على الانتاج الجماعي للبسكويت ومنتجات صناعة الألبان . وفي رام الله ، تعلمت النسوة الحياكة والعمل بالنحاس . ان المهارات الجديدة نفسها ألحقت بمساقات في التخطيط التجاري والتسويق . . وشيئاً فشيئاً أصبحت النسوة ، مقاولات متعاونات .

كذلك ، فان زهيرة أدخلت دروساً في التخطيط العائلي ، اذ نشرت مناقشات عن التحكم في المواليد في العلن ، على الرغم من انها تعتبر ان التحكم في المواليد كتخطيط

عائلي أكثر فعالية . ومن وجهة نظر زهيرة ، فان على الوالدين أن يوسعوا بين فترات انجاب أولادهم بحيث لا تقل ثلاث سنوات بين المولود والآخر : «من وجهة النظر الصحية ، فان الصحة العامة للأم والصحة النفسية للطفل مطلوبتان من أجل وجود فترات زمنية بين الأولاد» والأكثر من هذا ، فانها تعتبر ان انجاب الأولاد بشكل متحكم فيه لا يتناقض والعقيدة الاسلامية . وبالنسبة الى هؤلاء الاسلاميين الذين تساءلوا عن اخلاصها وصدقها ، فانها تستشهد بآيات من القرآن وتعزز جملة من مقاييس التخطيط العائلي .

وأخيرا ، فان رابطة لجنة العمل النسائي الفلسطينية بدأت بتنظيم مثل هذه الخدمات الأساسية الداعمة كرعاية يومية للنساء العاملات الجديدات ، فأنشأت ستا وعشرين روضة وحضانة أطفال . وقدمت الرعاية الصحية وقامت بتوزيع نشرة صحية ، بل انها عملت على تدريس مساقات في ادارة الوقت ، هادفة بذلك الى مساعدة النسوة على الموازنة بين العمل خارج البيت ، وبين واجبات الطبخ ، والتنظيف ، والكي في البيت .

ثمة شيء واحد لم يكن من الضروري تقديمه وهو القضايا الآنية ، أو التثقيف فيما يتعلق بالوضع الداخلي . وتقول زهيرة ان القضايا السياسية كانت – وهي كذلك الآن – تغطى بدروس حسبما تمليه الأحداث ووفق ما تتطلبه المصلحة . غير ان الأحداث اليومية تقع قريبة جداً من الوطن ولذلك فان تعليم الجماعة بشكله الرسمي غير ضروري . وتقول زهيرة ان الناس «يعايشون الوضع ، وهم ليسوا بحاجة الى ان يتثقفوا سياسياً» .

ان وضع برامج دراسة أسلوب العمل جعلت زهيرة على اتصال مع مجموعة كبيرة من المجتمع الفلسطيني على امتداد المناطق المحتلة . وفي مقابلة مع صحيفة هآرتس تستذكر زهيرة المحاولة الأولى ، على النحو التالي : «طورنا كوادر محلية في القرى وفي مخيمات اللاجئين وفي المدن . وحينما كنا نود الوصول الى مدينة ما ، كنا نحاول تشكيل كادر من النساء المحليات ، متجنبات نخبة المدينة . حاولنا دعمهن وتقديم أفكار اليهن ، وحاولنا تثقيفهن ، ولكن ليس بالقوة . وحاولنا أيضاً اجتذاب الرجال ، حتى رجال الدين المسيحي منهم ، ولكن بشكل لا يصطدم مع العادات ، وانما يتفق معها» . وتعترف زهيرة ان القضايا التي تثيرها لا يمكن

الاجابة عنها ببساطة . وحينما تسأل كيف توازن التخطيط العائلي مع الالتزام المفروض بالمرأة القيام به من حيث انتاج ذرية فلسطينية ، فانها ترد قائلة : «لا أستطيع القول اننا قمنا بحل هذا الأمر» .

وعلى الرغم من أن دفاع زهيرة لم يوصل الى نتائج لم تتجاوز حدة المناقشات الحامية مع أناسها ، الا انه ـ من وقت لآخر ـ سبب لها مشاكل مع السلطات الاسرائيلية . ففي عام ١٩٧٩ تم ايقافها ادرايا لما يزيد على أربعة شهور بتهمة القيام بخروقات أمنية مزعومة . وتقول مستذكرة عن الضباط الذين أتوا الى منزلها ليحملوا اليها أخبار التوقيف «لم يقولوا لي لماذا ... لم يقولوا أي شيء» . ولكنهم حاولوا ـ كما تقول ـ ترويعها من خلال تهديدها بتمديد فترة التوقيف الى ستة شهور . وبالنسبة الى الاسرائيليين فانها تمثل تهديدا مزدوجا ، اذ كانوا يشكون بانها تستخدم رحلاتها المتكررة الى الخارج لحضور المؤتمرات اليسارية من أجل ايصال الأموال من م. ت. ف . الى مجموعات الفدائيين داخل المناطق المحتلة ، كما راودتهم الشكوك بانها كانت تؤيد الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين التي تؤيد ايديولوجية ـ حسب اعتقاد الاسرائيليين ـ تسعى الى إحلال دولة علمانية مزدوجة الجنسية مكان اسرائيل . وهكذا ، فبالنسبة الى العديد من الاسرائيليين ، وعلى وجه الخصوص بالنسبة الى أولئك العاملين في الخدمات الأمنية فان مهاراتها التنظيمية كانت خطراً على كل شيء يهودي فيما يتعلق بالشعب الصهيوني .

وتؤكد زهيرة ان سجنها لم يكن مبرراً لأنها كانت منشغلة فقط بالنشاطات اليومية لصالح لجنة المرأة العاملة . وتلمح الى أن من المحتمل ان يكون اعتقالها جزءا من محاولة عامة لاسكات القيادة الفلسطينية . وبالفعل ، فان السلطات الاسرائيلية لم تسألها أو تطلب منها على الاطلاق ان توقع على أي اعتراف . كانوا دائما يحاولون انتزاع اعتراف من سجناء آخرين : «ولكن بالنسبة اليّ فانني لم أفعل شيئاً» . وتعتقد زهيرة ان اعتقالها كان بسبب دوافع سياسية ، نتيجة لمعارضتها لاتفاقيات كامب ديفيد الموقعة سنة ١٩٧٩ ، والتي وقعت قبل شهر واحد من اعتقالها . وتقول زهيرة انها لم تكن تتخوف «انذاك من القول لأي شخص انني ضد كامب ديفيد» بسبب تجاهل هذه الاتفاقيات للفلسطينيين حسب وجهة نظرها .

وقد قضت زهيرة فترة التوقيف الإداري في سجن المسكوبية الواقع في وسط القدس الغربية . كانت الأيام العشرة الأولى من فترة السجن في منتصف عام ١٩٧٩ «شيئا صعبا» ومليئة بجلسات الاستجواب الممتدة طوال النهار وطوال الليل . وقد أعدت زهيرة نفسها لما عرفت انه سيكون فترة سجن لا يمكن تجنبها ، فقرأت كتبا عن حياة السجن . قرأت تقارير المحامية الاسرائيلية المشهورة فيليتسيا لانغر وليح تسيميل ، وهما امرأتان يهوديتان أصبحتا مشهورتين بسبب تمثيلهما للمعتقلين الفلسطينيين أمام السلطات العسكرية الاسرائيلية . ان تجربة السجن المتوقعة تركت زهيرة «لا أقول خائفة ولكن مع نوع من الخوف في داخلي» . لقد كان الخوف من المجهول ، الخوف مما ينتظرني خلف جدران السجن . لكن زهيرة لم تتعرض لايذاء نفسي خلال فترة سجنها ، بل تقول ان التخوف طبيعي وشرط أساسي في النضال «فان لم تكن هناك مخاوف فلن يكون هناك شعب شجاع» .

وقد تملق الاسرائيليون كثيراً لزهيرة في محاولة منهم ـ حسب اعتقادها ـ لتهدئتها ومن أجل ان تتقدم بطلب لاستئناف الحكم الصادر بحقها . وفي ١٢/١٢/١٩٧٩ ـ قبل يوم واحد من موعد المحاكمة ـ أطلق سراحها ، وقبل خمسة وأربعين يوما من انتهاء مدة الستة الشهور .

ومثل الكتب والكتابات التي أعدتها زهيرة للتوقيف الاداري ، فان هذه التجربة الأولى خدمتها كمتطلب سابق لمدة أطول للولادة . فمثل السجن ، كانت تلك فترة تقييد ، واستمرت ست سنوات ونصف ، ولكن أيضا كانت تعني اتصالات منتظمة مع السلطات الاسرائيلية في وحول بيت زهيرة ؛ كانت ما اطلق الاسرائيليون عليها «الاقامة الجبرية» وهي تجربة تصفها زهيرة بانها كانت «صعبة جداً ... بل انها أصعب من السجن» فعلى مدار خمس سنوات من الاقامة الجبرية كان روتين زهيرة قيامها بتسجيل اسمها مرتين لدى السلطات الاسرائيلية . فبعد شروق الشمس كان عليها ان تذهب من منزلها شرقي القدس ، الى منتجعها القديم في المسكوبية لتثبت حضورها . ثم تذهب الى عملها في رام الله ، لتعود الى القدس الغربية الساعة ٢,٣٠ بعد الظهر وتوقع هناك للمرة الثانية مثبتة بذلك حضورها .

في البداية ، تضارب هذا الروتين اليومي مع عملها في التدريس في مدارس الأونروا ، وبالتالي فإنها تكيفت مع قيادة صفوفها من منزلها ، اذ تقول : «لأول

مرة كانت الفيزياء تدرس بواسطة رسائل المدرسين والطلبة» . في كل صباح ، كانت ترسل الدروس ليتم تدريسها للطلبة ، وبعد ظهر كل يوم كانت واجبات الطلبة ترسل اليها . وكانت كل اسبوعين تذهب الى المدرسة لتشرف على التدريس . في الوقت نفسه ، فان عمل رابطة لجنة العمل النسائي الفلسطينية تطلب اهتمام زهيرة ، فكانت تكرس نفسها لمشاريعها في بيتها خلال اليوم ، وتشجع صديقاتها وزميلاتها على زيارتها في البيت . ومن خلال القيام بذلك ، جنبت زهيرة نفسها الانقطاع عن عملها ، وتقول : «طوال الوقت الذي قضيته في البيت كنت منهمكة في العمل لدرجة انني لم أشعر انني كنت معزولة ... وكان لدي عدد كبير من الأصدقاء لم أعرف انني كنت امتلكهم من قبل» .

وبعيداً عن خلق انسانة حاقدة جداً ، فان التجربة هذه عملت على تغيير بعض المفاهيم المسبقة لدى زهيرة ، ووسعت أفقها . فالحراس الاسرائيليون الذين كانت تقوم بالتوقيع أمامهم بشكل منتظم في سجن المسكوبية لم يكونوا كما توقعتهم ، اذ تقول انهم كانوا من بين أولئك الذين لديها أفكار مسبقة عنهم ، ولكنهم «يختلفون عن ذلك كلية حينما تلتقي بهم . لست مروعة على الاطلاق من رجال الأمن ... اتعامل معهم .. بكل شيء كطرفين متساويين ، ولا أشعر انهم متفوقون علي ، وأشعر انني انسان وان لي حقوقي» .

وبسبب من المقالات التي كتبت في الصحافة الاسرائيلية ، بالاضافة الى الاهتمام العالمي ، فقد ورد اسم زهيرة في نشرة منظمة العفو الدولية (أمنستي) على انها شخصية العدد (سجين الشهر) وحظيت سجينة «الاقامة الجبرية» بدعم معنوي ، حتى ان الاسرائيليين حضروا الى بيتها للاعراب عن تضامنهم معها ، اذ قالوا لها : «نؤمن بما تؤمنين به» . وتقول زهيرة : ان كل التشجيع الذي حظيت به من بعض الاسرائيليين يثبت : «ان المشكلة ليست في الناس» ولكن في بعض القيادات التي «تريد أن يبقى الوضع كما هو» .

وقد عالجت زهيرة وضعها من أجل تحقيق هدف . فبخروجها عن الانماط الجامدة المقولبة ، فانها أعطت بذلك درساً لابنتي اختها : مها وشيرين . لقد أرادت من التجربة هذه ان تكون «تدريبا لهما ، وبذلك لن تكونا خائفتين دائما من أشياء كهذه» . وفي مرات عديدة قبيل وقت التوقيع لفترة ما بعد الظهر ، كانت زهيرة

تتوقف عند روضة الأطفال التي تدرس بها مها البالغة من العمر آنذاك أربع سنوات ، وشقيقتها شيرين ذات الثلاث سنوات . كانت عمتهما تحضر معها ساندويشات ، ويصعدن ثلاثتهن نحو المسكوبية . وجدت الصغيرتان في البداية ان هذه الرحلة يمكن أن تكون أي شيء لهما باستثناء الرحلة الميدانية التي خططت زهيرة لها . تراجعت الفتاة الكبيرة الى الوراء في المرة الأولى حينما شاهدت ضباط السجن المسلحين يقفون الى جانب عمتها زهيرة وهي توقع مثبتة حضورها . غير ان الفتاتين تغيرتا فيما بعد . ففي إحدى هذه الزيارات الى المسكوبية ، التفتت مها الى زهيرة قائلة لها وهي ترى الفارق بين ما كانت تراه في السابق وهذه الاجراءات الجديدة المتخذة بسبب إحدى المناسبات في الضفة الغربية : «عمتي ! نسمع في التلفزيون ان هناك حظراً للتجول في كل مكان : في رام الله ، ونابلس .. في كل مكان حظر للتجول : لماذا لا يوجد في المسكوبية حظر للتجول ؟» .

في هذه الأيام ، وقد تجاوزت ابنتا شقيقتها مرحلة البلوغ ، تجلس زهيرة محدقة بدهشة ببصيرتيهما النافذة المبكرة ، وبخاصة قدرتيهما على مناغمة نفسيهما في مثل تلك المرحلة المبكرة في الطبيعة المختلفة للمجتمعين : الفلسطيني والاسرائيلي . وتصف العمة العزباء والتي لا أولاد لها - وتلاحظ زهيرة وهي تضحك في داخلها ان أمها «قلقة» بسبب تلك الحالة والتي لا خيار لديها سوى ان تقبل بها - كيف تقوم الفتاتان بالتمثيل . فقد جلست الفتاتان أمام بعضهما في جانبي الغرفة ، وصاحت احداهما بالأخرى : «هل تستطيعين الحضور لزيارتي ؟» فجاوبتها الأخرى : «سأحضر ولكنني سأتأخر قليلا لانه يجب علي الذهاب الى الشرطة كي أثبت حضوري هناك» . وتحب ان تتحدث عن ابنة شقيقتها التي - وببراءة الأطفال - أجابت المعلمة حينما طلبت من الأطفال ان يذكروا لها مثالاً عن إحدى العادات . وكانت الاجابة : «الذهاب الى الشرطة والتوقيع هناك ... إذا كنت قيد الاقامة الجبرية مثل عمتي ، فان عليك الذهاب الى الشرطة مرتين في اليوم ، وبذلك يصبح هذا الأمر عادة» . ان قيام عمتهما بكشف حقائق الوجود الاسرائيلي - الفلسطيني يبدو انه كان له تأثير طويل المدى ، بحيث جعل الفتاتين ، من وجهة نظر زهيرة «أكبر من عمرهما» . وبعد ان بدأت الانتفاضة ، قامت الفتاتان بمقاطعة المنتجات الاسرائيلية على نحو شخصي ، والتي امتدت لتشمل حتى الملذات الطفولية مثل الآيس كريم والكعك المحلى الاسرائيلي ، رغم ان العمة زهيرة لم تقتد بهما ، اذ

كانت تبتاع الملبوسات اسرائيلية الصنع في بعض الأحيان .

من أجل الحفاظ على حسابات رابطة لجنة العمل النسائي الفلسطيني وفق ما تسميه زهيرة «الجانب الآمن والصحيح» فان اللجنة عملت على الاحتفاظ بحساب في بنك ليئومي/فرع رام الله . كانت تدرك انه منذ بدء الانتفاضة ، فإن ارشيفات لجان المرأة قد وضعت تحت مراقبة السلطات الاسرائيلية . كذلك ، فان ثلاث عشرة امرأة من رابطة لجنة العمل النسائي الفلسطيني قد اعتقلن منذ بدء الانتفاضة ، بالاضافة الى مئات أخريات تم ارغامهن بالتهديد من قبل السلطات الاسرائيلية للتغيب عن اجتماعات اللجان . وتقول زهيرة : «فمنذ انشاء لجنتنا ، كانت مكاتبنا عرضة لغاراتهم المستمرة ، وكانت الأسماء تؤخذ من الملفات ، ثم يتم استدعاء النسوة الى التحقيق» .

وتقول ان الاسرائيليين سيحاولون أيضاً استغلال الطبيعة التقليدية للمجتمع الاسلامي من خلال «عدم استدعاء النساء أنفسهن ، وانما من خلال استدعاء آبائهن أو اشقائهن أو أزواجهن» . فإذا كان تاجراً ، فان الاسرائيليين سيهددونه بمنع بضاعته من عبور جسر اللنبي الى الأردن : «لن ترى منتجاتك حتى تكفّ ابنتك عن الذهاب الى هذه اللجان» . وتقول زهيرة : «نبذل جهدنا للذهاب الى العائلة واقناعهم بعدم الخضوع لهذا النوع من الضغوط ، وقد كان ذلك يثمر في بعض الأحيان ، كما كان يفشل في أحيان أخرى . وفي بلد مثل بلدنا ، بذهنيته الثقافية التقليدية ، تضطر المرأة في بعض الأحيان للتغيب عن الاجتماعات . هذا هو نوع الضغط الذي علينا تحمّله بشكل مستمر . انت تعلم انني لم أهيء نفسي لهذه الاوضاع ، ولكن حينما تحدث ، فانك تجد ان هناك شيئا خاصاً يجري» .

ان كلمات المرأة هذه ، ذات الصوت الأجش والشعر الاسود القصير ، يتردد صداها في سنوات التسعينات كما تردد في سنوات الستينات كفكر محرك في الضفة الغربية . وفي حديث لها مع صحيفة هآرتس عن انخراطها الاول في قضايا المرأة سنة ١٩٦٨ تقول : «المنطق وراء هذا العمل كان الخروج بالمرأة من البيت . كانت الخطوة الاولى بالنسبة الينا تتمثل في ان الخروج بالمرأة من البيت هو الخطوة الاولى نحو التحرر الاجتماعي ... لا يمكننا ان نناضل من أجل التحرر الوطني مالم يكن مترافقا مع إنجازات تتقدم باستمرار في الحقل الاجتماعي . إن إحدى

لبنات بناء دولتنا هو ايجاد مجتمع عادل صحي . ومن أجل ذلك يجب علينا ان نحرر المرأة» .

ومع ذلك ، فان زهيرة تعترف بوجود مواطن ضعف : «اذا كنا نتحدث عن الحركة النسائية ، فان من الواجب ان ندخل القطاعات النسائية فيها . واذا كنا نريد إحداث التغيير ، فان علينا الوصول الى الشابات ، ثم نركز على الطالبات ، وستجد اننا ناضلنا - على سبيل المثال - من أجل التعليم والعمل وأشياء كهذه . ان الجيل الأصغر منا يعتقد ان الاشياء معبدة أمامه واعتاد ان لا يناضل للحصول عليها . وبسبب هذا ، يمكنك ان ترى وجود اختلافات ، مثل إجبار المرأة على ارتداء الحجاب» . ففي الجامعات الفلسطينية ، مثل جامعة النجاح في نابلس ، وجامعة الخليل ، والجامعة الاسلامية في غزة ، من المألوف رؤية فتيات يرتدين الحجاب ، وهو ممارسة رفضتها امهات كثيرات منهن . ان زهيرة لا تعارض الحجاب «اذا كنّ مقتنعات بارتدائه واذا كنّ مؤمنات به» . غير انها تعترض عليه حينما تُكره العديدات على ارتدائه للهرب من لوم المجتمع وانتقاده . وتعتقد زهيرة ان ذلك مرتبط بشكل وثيق بالحقوق الاخرى : «المرتبطة بالعمل ، وبحق اختيارهن لأزواجهن ، لا ان يتزوجن في سن مبكرة . ان هذه الاشياء كلها مرتبطة ببعضها ، والحجاب ليس الا جزءا منها . فاذا نظرت الى الامر كله ، يبدو الخلاف» .

وتعتقد زهيرة ان التيار الاسلامي وقسما من المحافظين من الذكور يسيطرون على المجتمع الاسلامي . وتؤكد ان القيود المفروضة على المرأة من الاصوليين ، مثل: اللباس المحتشم جدا ، وتجنب بعض المواقف لا تستند في الواقع الى الاسلام ولكن الى النزعة الجنسوية عميقة الجذور داخل مجتمعها . وتقول ان الانجذاب المتعصب نحو الدين هو مجرد نتيجة ثانوية للفقر واليأس : «ليس كل مسلم بأصولي» . انهم يكسبون المصداقية في مجتمع محافظ حينما تسوء الظروف السياسية والاقتصادية فيتجه الناس الى الله . وتكون النتيجة ان الدين يجد تربة خصبة لذلك .

واذ أشارت الى هذه النقطة ، فان زهيرة تمضي - وعلى نحو مثير للعجب - لنفي ما يقال من ان الاصولية كان لها أثر سلبي في الحركة الوطنية ، بل وتؤكد : «بشكل عام لا نجد ان تأثيرهم يمنع الناس من المشاركة» في النشاط السياسي .

وتقــول انه بعــد مــؤتمر مــدريد ، شارك الاصوليون في اجتماعات جماهيرية ذات قــاعــدة عريضة ، ولم يقوموا بأي حركة لاعتراض سبيل المشاركين في المحادثات . ومن أجل توكــيــد مــا ترى فــيه انه التحرر العاطفي ـ ان لم يكن فعليا ـ المتنامي للمــرأة ، تســتــشــهد زهيرة بوجود حركة ردة اساسية ضد الاصولية ، فتذكر ان نســوة كن يوزعن منشــورات في غــزة ، تدعــو الى مــقــاومة ارتداء اللباس الشرعي والحــجــاب ، وتقول : «بدأت النساء بالحرب ، ولقد رأيت بنفسي معركتين . فخلال شــهــر رمــضــان كــانت هناك امرأة تأكل تفاحة ، فقال لها رجل : [ألا تخجلين ؟ تأكلين تفــاحــة] فما كــان منهــا الا ان شــتمته وحقّــرته . ثم أتى بعض الشباب ، وبدأوا بضرب الرجل» .

وتقــول زهيرة ايضــا من المهم وضع الاصــوليــة الاســلامية في سياق الاحداث العــالمــيــة . فــفي السنوات العشر الاخيرة «رأينا ان هناك توســعا وامتداداً للحركات اليــمــينية في مختلف أنحاء العالم ، وفي كل مرة يحققون المزيد المزيد من التمثيل في امــاكن مــتعــددة» بما في ذلك اوروبا الشرقية ، والولايات المتحدة ، والدول العربية ، واسرائيل . وتؤكــد : «انها اسلامية ، ومسيحية ، ويهودية ... انها منتشرة في انحاء العالم كله ، ونحن جزء من تلك الحركات . هكذا تعكس نفسها علينا» .

ان الخوف من نكوص المرأة قد تآزر بواسطة التاريخ الحديث . ووفق ما يقوله اوري نير مــراسل صــحــيــفة هآرتس في واشنطن الذي غطى أخبار المناطق المحتلة لمدة اربع سنوات ، فان الانتفاضة سجلت للمرة الاولى ان نساء فلسطينيات يؤكدن اســتقلالهن . وحتى في القرى ، فانهن شاركن في التظاهرات ضد الحكم الاسرائيلي . وقــد نظمت رابطة لجنة العمل النســائي الفلسطيني ، وشــقــيــقاتها بقية اللجان ، صــفــوف النســاء للمشاركة في المسيرات ، ولزيارة المتظاهرين الجرحى ، ولتوزيع الطعام خلال فترات منع التجول ، ولجمع المساعدات المالية لعائلات السجناء . لكن تبع ذلك ردة ذكورية أعادت المرأة الى دورها الذي لعبته مدة طويلة . فقد عمل ذلك النكوص الذكــوري على زيادة مخاوف المرأة من ان تتــقــدم الاهداف الوطنيــة على مكتسباتهن ، متخوفات ـ مرة أخرى ـ من ان يتركن في الصفوف الخلفية . وقادت الملاحظة هذه آمال خريشة ـ قيادية احدى اللجان النسائية الاربع ـ للقول : «نحن بطلات في الشوارع وخادمات في البيت» .

في شهر آذار من عام ١٩٨٩ تنبأت زهيرة بانه حال تحقيقهن لحريتهن ، فان النساء الفلسطينيات لن يسمحن لأنفسهن على الاطلاق بأن يُعدن الى الوضع الذي كانت عليه المرأة الجزائرية : النكوص والارتداد من ساحات القتال الثوري الى الاعمال الشاقة للعمل البيتي . وتقول : في الجزائر ساهمت المرأة بشكل رئيس في النضال ضد الاستعمار الفرنسي ، لكن مساعيهن لم تترجم فيما بعد الى تغيير في مكانتهن في المجتمع . وتؤكد ان «المرأة الفلسطينية لن تكون شبيهة بالمرأة الجزائرية ، أي ، لن يكنّ قطع أثاث في البيت» . ومع ذلك ، فبالنسبة الى زهيرة ، فان الدورين كليهما أساسيان ولا غنى عنهما ، اذ تقول : «اذا قارنت بين هذين الشيئين : العمل في المنزل والنشاطات في الشارع ، فيمكنك القول ان النساء بطلات في الشوارع وخادمات في البيت .. لكن الدور في البيت هو استمرار للمعركة في الشوارع : (فما هو البديل ؟)» .

حينما كتبت الصحف الاسرائيلية والفلسطينية الصادرة في الخارج عن انكفاء المرأة خلال الانتفاضة ، كلفت الادارة المدنية الاسرائيلية باعداد تقرير خاص عن ذلك حسبما يقول نير . وقد توصلت الى انه على الرغم من المشاركة النسائية في الصفوف الامامية للانتفاضة ، فان الوضع الاجتماعي للمرأة لم يتغير فعلا . كذلك فان التنظيمات النسائية في المناطق المحتلة لم تدحض النتائج التي توصل التقرير اليها فيما يتعلق بعودة الحالة القديمة ، كما يقول المراسل الاسرائيلي .

ان الانتفاضة أحدثت تدهورا اقتصاديا دفعت ضريبته الحركة النسائية أيضا . وتتحدث زهيرة عن وجود علاقة بين الظروف الاقتصادية المتدهورة وبين انخفاض سن الزواج بالنسبة الى المرأة الفلسطينية . فبينما تأخذ الاوضاع والظروف بالتدهور ، يعمل الآباء على التخلص من المسؤولية الملقاة على عاتقهم وذلك من خلال تزويج بناتهم . علاوة على ذلك ، فانها تربط انخفاض سن الزواج بالازمة التربوية التي يتسبب بها اغلاق الجامعات بشكل دوري على يد السلطات الاسرائيلية . ومع إحداق التهديد والخطر بالجامعات وفرص الاستخدام ، فان العوائق توضع من جديد أمام الفتيات . وحاولت رابطة لجنة العمل النسائي الفلسطيني الاستجابة لهذه التحديات الاكثر خطورة من خلال تقديم المساعدات الاجتماعية والقانونية في مكتبها الجديد في القدس .

وتطالب زهيرة القيادة الفلسطينية ـ وهي مجموعة مترابطة جداً من الرجال ـ ان تمنح المرأة مشاركة عادلة في السلطة ، وان لا تضن بها عليها ايضا . وحتى اليوم ، فانها تؤكد ان القيادة تتلاعب بالنشاط الوطني النسائي ، ويعيقون تقدمهن كنساء . وفي نهاية المطاف ، وحسب وجهة نظرها ، فان على مختلف اللجان النسائية ان تتوحد تحت لواء تحرير المرأة . وقد جرت محاولة في شهر كانون الاول ١٩٨٨ من أجل توحيد اللجان السياسية الاربع ضمن اطار المجلس النسائي الأعلى . وقد سعى المجلس الى الحيلولة دون التخلي والارتداد عن المكتسبات التي حققتها المرأة من خلال طرح جبهة موحدة مؤلفة من اللجان السياسية الرئيسة . لكن ذلك تطلب درجة من التعاون بين نساء الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وفتح ، والشيوعيين ، وهو أمر لم يحققه الرجال انفسهم أبدا . واليوم ، فان الأمر تغير ، اذ تقول زهيرة : «هناك اتفاق بين الاطراف كلها على مستوى القاعدة في حين ما يزال قيد الدراسة على مستوى القيادة» .

وبينما تجلس في المطعم الكائن في بهو فندق غراند اوتيل في واشنطن دي. سي. اثناء فترة الاستراحة خلال مفاوضات شهر كانون الاول ١٩٩١ ، تجد زهيرة كمال ـ التي يبدو انها متصلبة وعنيدة ـ نفسها الآن واحدة من بين ثلاث نساء في الوفد الفلسطيني المفاوض لاسرائيل . وتقول انه تم اختيارها ليس بسبب كونها انثى ولكن بسبب خبرتها وتمرسها في العمل السياسي . وتعترف ان تأييدها للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين/جناح عبد ربه ، قد ساعد على توسيع حلقة التمثيل في الوفد . وتتحدث عن لقاء عقد بينها وبين حنان عشراوي قبل السفر الى الواشنطن . فقد تحدثتا الى عدة مئات من النساء في مسرح الحكواتي في شرقي القدس . وكانت النساء المجتمعات يمثلن لجانا ومجموعات متعددة جدا ، وقد حضرن لنقل نصائحهن وآمالهن الى المرأتين اللتين اختيرتا الى جانب سعاد عميري أيضا ، ليكنّ عضوات في الوفد الفلسطيني الذي يسيطر الرجال عليه . تقول زهيرة بافتخار : «كنت أقوم بدور سياسي منذ ان كنت طالبة ، وكنت أناضل داخل أوساط العائلة وخارجها . انني محترمة سياسيا من الفئة التي أمثلها في الوفد ولانني مقبولة من قبل الجماهير ـ كشعب ـ الذين عملت من أجلهم على المستوى الأساسي» . وتتوقع وتطالب ان تعمل المحادثات على تمهيد الطريق من أجل

المساواة الكاملة بين الجنسين ، وتستشهد باعلان الاستقلال الفلسطيني لسنة ١٩٨٨ باعتباره يعطي حقوقا متساوية لجنسها . وعلى الرغم من انه لا توجد هناك نساء حتى الآن في اللجنة التنفيذية للمجلس الوطني الفلسطيني ، والبالغ عدد أعضائها خمسة عشر عضوا ، فان زهيرة تقول انه في أي مشروع للحكم الذاتي ، فان المرأة يجب ان تكون جزءاً حيويا في عملية صنع القرار . وتضيف : حينما يقيم الفلسطينيون دولتهم في نهاية المطاف ، فان المرأة يجب ان تكون قادرة على الوصول الى المناصب الوزارية ، وان تخدم على قدم المساواة في القوات المسلحة الوطنية . وتؤكد : «اذا كنا ندعو الى المساواة ، فمن الواجب عليك ان تكون جزءاً من كل شيء» .

ان ما يزيد على عقدين من الزمن قضتهما كمدرسة للفيزياء ، وكنشطة في نقابة المعلمين قد ساعدا على جعل اسمها كلمة مألوفة في المناطق . وتقول زهيرة : «بسبب هذا تم قبولي كجزء من الوفد وأصبحت معروفة كواحدة من الشخصيات الوطنية في البلاد» . لقد كان ذلك نضالا طويلا وقاسيا ، وكما تقول : «ان الأمر لم يحدث بين يوم وليلة» . ولكن الآن ، والعملية ما تزال قيد التقدم ، فمن المحتمل ان لا يستغرق الأمر عقدين من الزمن لرؤية امرأة تقود الشعب الفلسطيني .

زياد أبو زياد

● زياد ابو زياد يلعب المونوبولي مع ابنتيه : لمى (على اليسار) وهبه (على اليمين) .

● زياد أبو زياد في الثامنة عشرة من عمره (الثالث من اليسار ، وقوفا) مع والده خليل (جلوسا) ووالدته امينة (جلوسا) وشقيقيه وشقيقاته.

زياد أبو زياد

كان ذلك في مطلع شهر حزيران من عام ١٩٩١ ـ بعد مرور ستة أشهر على حرب الخليج ـ حينما تلقى زياد أبي زياد مكالمة هاتفية من يوسي سريد يطلب منه فيها ترتيب عقد لقاء مع فيصل الحسيني . وقد فوجيء زياد أبي زياد ـ الاصلع ، والذي بدأت خصل من شعره وشاربه تزداد مشيبا بعد ستة شهور قضاها في السجن نتيجة مزاعم عنه بانه عضو القيادة الموحدة للانتفاضة ـ بهذا الطلب ، لان زميليه : الفلسطيني فيصل الحسيني والاسرائيلي يوسي سريد صديقان منذ سنوات وبالتالي فانهما ليسا بحاجة الى وسيط مثل زياد لترتيب عقد لقاء بينهما .

لكن الحسيني كان ما يزال متألما من الهجوم القاسي الذي شنه سريد ضده في صحيفة هآرتس الاسرائيلية الليبرالية قبل سنة تقريبا ، اذ كان قد كتب مقالة يطلب فيها من القائد الفلسطيني ان «يتنحى» بعد أن أعلن تأييده للزعيم العراقي صدام حسين . عادة ، فان من السهولة بمكان تجاهل مثل هذا الهجوم ، لكن في هذه المرة فان الهجوم كان من قبل اليساري الاسرائيلي ، عضو الكنيست الذي كرس حياته السياسية لاقناع الرأي العام الاسرائيلي بانه يمكن الثقة بالفلسطينيين ويستحقون دولة خاصة بهم .

ايضا ، فان يوسي سريد تعرض للتوبيخ من قبل زعيم حزب (راتس) الذي ينتمي اليه بسبب الضرر الذي ألحقه بالحركة التقدمية في اسرائيل . ولم يتكلم سريد والحسيني مع بعضهما منذ عدة شهور ، وكان من السهولة بمكان معرفة السبب الذي يقف وراء ذلك . فالمقالة التي ظهرت يوم ١٧/٨/ ١٩٩٠ ، بعد مرور اسبوعين على دخول العراق الى الكويت ، لم تكن منضبطة في نقدها لرد الفعل الفلسطيني على الغزو : «على المرء ان يضع القناع الواقي من الغاز في محاولة للتغلب على الرائحة السامة والمثيرة للاشمئزاز لموقف م. ت. ف. تجاه صدام حسين ، لان العناق والقبلات بين ياسر عرفات وصدام تسبب الغثيان والرعب ايضا» .

ومثل عديدين آخرين ، والذين أيدوا المحادثات المباشرة مع م. ت. ف. فان سريد شعر بالخيانة ، لانه قضى عمره في حركة السلام ، مدبرا عن حياة متمسكة اكثر بالاعراف في حزب العمل ، حيث كانت غولدا مائير تَعِدُهُ بدور قيادي في

المستقبل . وإذ ازدرى تأسيس الحزب ، فان (سريد) انضم الى راتس ، وهو حزب صغير أيد الاعتراف بحقوق الفلسطينيين ، وسرعان ما اكتسب شهرة كرجل مبادىء ، وحمامة ملتزمة جدا ، فضل السلام على السلطة الشخصية ، حتى ان نقاده احترموا اخلاصه وتفانيه .

لذلك ، حينما ظهرت مقالة سريد ، كان لها أثر مدمر في اسرائيل وفي الخارج. فقد قامت السفارات الاسرائيلية باغتنام هذه الفرصة ، ووزعت طبعات ثانية منه في مختلف أنحاء العالم كدليل على إفلاس معسكر السلام ، على أمل ان يكون صدام حسين قادراً على تحقيق ما كان شارون وشامير قد أخفقا في انجازه : إسكات أصوات منتقدي سياستهما المتشددة . وقد حملت مقالة سريد العنوان التالي : «دعهم يبحثون عني» ويقصد بهم : ياسر عرفات ، وفيصل الحسيني ، وعبد الوهاب دراوشة عضو الكنيست . ان الكلمة العبرية Sheyecbappesu otti التي استخدمت في العنوان كانت اكثر بعدا عما يمكن ان تعنيه الترجمة الحرفية لها ففي معناها العامي المستخدم ، فان نصيحة سريد للفلسطينيين كانت «ابتعدوا» .

وكان من الواجب على قيادة الضفة الغربية ان لا تفاجأ كثيرا . فخلال ساعات من بدء الغزو العراقي للكويت في ١٩٩٠/٨/٢ ظهرت صور صدام حسين في المساجد ، والمحال التجارية ، والبيوت في مختلف انحاء المناطق المحتلة ، بالاضافة الى ظهور الشعارات المؤيدة للعراق على الجدران الحجرية القديمة في القدس ، علاوة على توزيع منشورات تمجد مناقب الزعيم العراقي . وبالنسبة الى الفلسطينيين ، فان العاطفة لا العقل ، تحكم الحياة اليومية . فهنا كان بطل ينتظرونه ، صلاح الدين اليوم ، اذ منذ ايام جمال عبد الناصر لم يكن هناك شخص واحد هدد اسرائيل كما فعل صدام حسين ، اذ أعلن انه سيستخدم الاسلحة الكيماوية ضد الدولة اليهودية اذا استمرت في تحدي قرارات الامم المتحدة الداعية الى انسحاب فوري من الضفة الغربية وقطاع غزة . فاذا أراد العالم الغربي أن يستجيب العراق لقرارات الامم المتحدة التي تطالب بانسحابه من الكويت ، فان من المفروض عليه ان يجبر اسرائيل على الانصياع «للشرعية الدولية» التي تجاهلتها لفترة تزيد على الربع قرن من الزمان .

وحتى لو كان صدام حسين يستغل القضية الفلسطينية ليخفي وراءها شهوته

للمزيد من النفط والارض ، فان ذلك لم يكن ليعني الا القليل بالنسبة الى سكان الضفة الغربية وقطاع غزة ، اذ انهم أطروا التزامه بقضيتهم وابتهجوا لتهديداته بالابتزاز الكيماوي والنووي . فبالنسبة اليهم ، أعادت جرأة صدام وضع الفلسطينيين الذين لا دولة لهم على الخريطة ، وعكس سلوكه المندفع غضبهم على العالم الذي تسامح طويلا مع الاحتلال الاسرائيلي ، وكان أصما عن سماع صوتهم ونداءاتهم وتوسلاتهم المؤلمة من أجل المساعدة .

وبالطبع ، فان الاسرائيليين رأوا الاشياء بشكل مختلف ، فالفلسطينيون برفضهم شجب الغزو العراقي للكويت ، وابتهاجهم لما حدث ، كشفوا لونهم الحقيقي . فاذا كانت الصورة تعادل ألف كلمة ، فان صورة ياسر عرفات وهو يعانق صدام حسين قد عادلت مجلدات ، لانه كيف يمكن ان يُصدِّق أي فلسطيني بعد ذلك ، حينما يقوم زعيمهم ـ قائد الفدائيين الذي أدان الارهاب واعترف باسرائيل ـ بمعانقة الرجل المجنون الذي أقسم على محو الدولة اليهودية ؟ يقول محلل شؤون الدفاع الاسرائيلي مارك هيللر لصحيفة الواشنطن بوست : «يجب عليك ان تفهم كيف كان الموقف في ذلك الوقت ... كان هناك غضب ونقمة كبيران وشعور بالخيانة من قبل عدد كبير من الاسرائيليين الذي نزعوا نحو التفكير بإيجابية في المفاوضات المباشرة مع الفلسطينيين . والآن ، ولدى أول فرصة ، منحوا تأييدهم لشخص ما مثل صدام حسين ، حتى ان الكثيرين رفعوا أيديهم قائلين : [أهؤلاء هم الناس الذين يفترض اننا نقيم سلاما معهم ؟]» .

وقد صاغ يوسي سريد القضية بشكل مباشر ، حينما قال في مقالته التي كتبها : «اذا كان الامر مقبولاً للبطل صدام حسين ـ الذي قتل عشرات الآلاف من معارضي نظامه دون ان تطرف له عين ، واطلق الغازات السامة على الاطفال والنساء والرجال الاكراد ـ فانه لن يكون من العسير والمرعب تأييد سياسات شامير ، وشارون ، ورابين ، بالمقارنة مع جرائم صدام حسين ، وخطايا حكومة اسرائيل النقية نقاء الثلج الهاطل» . وأشار الى أنه ما يزال يؤيد حق الفلسطينيين في دولة مستقلة خاصة بهم «لأنه من حقي التخلص من الاحتلال» لكنه أشار الى انه «يجب على عرفات ، والحسيني ، ودراوشة ان لا يفاجأوا اذا انخفضت حدة الصرخة اللاأخلاقية فيما يتعلق بالاعمال المرعبة في المناطق المحتلة الى حد الهمس» مضيفا

«وحتى اشعار آخر - بقدر ما أنا مهتم - باستطاعتهم المجيء ومحاولة العثور عليّ» .

ان التباعد بين اليسار الاسرائيلي والقيادة الفلسطينية المحلية كان عميقا جدا لدرجة ان زيادا ابي زياد فوجيء حينما تسلم تلك المكالمة الهاتفية من السياسي الاسرائيلي الذي كان يطلب مساعدته . غير انه في الوقت نفسه شعر بالسعادة لاحتمال ان يكون بامكانه مساعدة سريد والحسيني على تسوية خلافاتهما . ولقد كان ذلك هو الدور الذي قام به منذ اكثر من عقدين ، بل وحتى حينما تخرج من كلية الحقوق في جامعة دمشق عام ١٩٦٥ اذ سرعان ما اكتشفت ان لديه قدرة غريبة للتفكير والتحدث كاسرائيلي . وقد كان معروفا لديهم ايضا ، لانه أجرى أول اتصال مع موظفين اسرائيليين سنة ١٩٦٥ خلال عمله لدى الحكومة الاردنية كمدير لدائرة الجوازات والهجرة في القدس .

بعد ان احتلت اسرائيل الضفة الغربية عام ١٩٦٧ وضمت القدس اليها ، التحق زياد البالغ من العمر آنذاك سبعة وعشرين عاما بمدرسة كان الاسرائيليون يعلمون فيها المهاجرين اليهود الجدد اللغة العبرية ، وكانت الدروس تعطى في بيت هاعام (بيت الشعب) الواقع في وسط القدس الغربية . كان زياد أول عربي يلتحق بهذه المدرسة ، وعلى امتداد بضعة سنوات بعد الاحتلال ، عمل كمترجم للغة العبرية لدى صحيفة القدس الموالية للأردن ، ثم بدأ عام ١٩٧٧ يشرف على الطبعة العبرية من صحيفة الفجر الفلسطينية الموالية لمنظمة التحرير الفلسطينية . وحينما توقفت الفجر عن اصدار الطبعة العبرية سنة ١٩٨٦ قرر زياد اصدار صحيفة فلسطينية ناطقة باللغة العبرية خاصة به ، حملت اسم (غيشر/الجسر) وقد كانت محاولة شخصية منه للوصول الى الرأي العام الاسرائيلي .

ومن خلال زياد أجرى الصحفيون الاسرائيليون والفلسطينيون اولى اتصالاتهم. ويتندر الناس قائلين ان الصحفيين والمجرمين هم الوحيدون الذين يتعاونون مع بعضهم عبر «الخط الأخضر» وهو خط الحدود الذي يفصل الاسرائيليين عن الفلسطينيين . ولكن ليس هناك في الأمر أي دعابة ، اذ ان الروابط التي ساعد زياد على اقامتها بين الصحفيين الاسرائيليين والفلسطينيين كانت حقيقية وثابتة ، وكانوا هم فقط خطوط الاتصال التي بقيت سليمة خلال حرب

الخليج ، كما كانوا يذهبون معاً في مهمات صحفية ، حتى حينما كان ذلك يستتبع وجود مخاطر . وقد عمل صحفيان اسرائيليان هما : داني روبنشتاين وميرون بينفينيستي مع زياد في فريق واحد لاصدار [دليل الضفة الغربية : معجم سياسي] وهو أول كتاب يكتبه بشكل مشترك مؤلفون فلسطينيون واسرائيليون . وحينما كان المراسلون الصحفيون الفلسطينيون يريدون تجاوز الرقابة الاسرائيلية الصارمة ، كانوا يقدمون المادة الخام الى زميل اسرائيلي لهم ، ليقوم بنشر القصة ، وفي اليوم التالي لظهورها في الصحف الاسرائيلية كانت تظهر في الصحف العربية مترجمة عن الصحافة الاسرائيلية .

وزياد ليس جاهلاً بالوصول عبر الخطوط الممنوعة ، بل ان بلدته بيتونيا تقع على الحدود مع الضفة الغربية . ان جزءاً من بيتونيا - والذي يسميه العرب العيزرية - يقع ضمن حدود بلدية القدس والجزء الآخر خارج اسرائيل ، في الضفة الغربية . والعرب الذين يقيمون في بيتونيا الواقعة داخل «الخط الأخضر» يضعون على سياراتهم لوحات معدنية صفراء اللون ، أما الآخرون - أمثال زياد - والذين يعيشون في الجزء الواقع في الضفة الغربية فيضعون على سياراتهم اللوحات زرقاء اللون . وقد عمل زياد في الجانبين : في اسرائيل ، وفي الضفة الغربية ، محاولاً كل جهده ان يوضح للاسرائيليين ما الذي يجمع الفلسطينيين ببعضهم ، وما الذي يعطيهم هوية كشعب وكأمة . كذلك ، فان زياداً أدرك معاناة اليهود ، وغالبا ما قضى امسيات يلقي محاضرات في الكيبوتسات ، والقيام برحلات على مسؤوليته الى (ياد فاشيم/النصب التذكاري للكارثة) .

يقول زياد انه حينما تكلم مع ساريد ، فان ساريد أخبره انه شعر ان مقالته قد سببت أضرارا وانه يريد «بدء البحث عن تسوية» . ومع ذلك ، يقول سريد ، فان الفلسطينيين هم الذين سعوا الى الصلح : «وصلتني ذات يوم رسالة تقول ان فيصلا الحسيني يريد رؤيتي ، فقلت [سأكون سعيدا برؤيته] . لم أتخيل الأمر على انه اجتماع صلح ، فليس لدي شيء للمصالحة عليه ... لم أتخاصم مع أي شخص . وقد عبرت عن وجهة نظري فقط ، وما أزال عندها» .

بعد المحادثة مع سريد ، اتصل زياد مع الدكتور أحمد الطيبي ، وهو مواطن عربي اسرائيلي ، كان مقربا من فيصل الحسيني ، وغالبا ما اشتهر من قبل السياسيين والصحفيين الاسرائيليين على انه القناة الموصلة الى ياسر عرفات .

واقترح الطيبي ـ وهو طبيب نسائي مرموق ـ ان يلتقي الثلاثة (سريد ، الحسيني وزياد) في منزله الكائن في ضاحية البريد ، وهي ضاحية تقع خلف القدس الشرقية على طريق رام الله . هناك ، وفي يوم شديد الحرارة من أيام شهر حزيران وخلف الجدران الزجاجية للشرفة الامامية ـ حيث نصب الطيبي قضبانا معدنية لحماية غرفته المشمسة من تهجمات الشرطة الاسرائيلية ـ بدأ الفلسطينيان والسياسي الاسرائيلي اجراء تعديلات . يقول زياد موضحا : «كان الهدف اذابة الجليد فقط ، والبدء ، ورؤية فيما اذا كنا ما نزال أصدقاء وفيما اذا كان باستطاعتنا ان نتشارك معاً» . الاكثر أهمية من هذا ، انهم كانوا يريدون وضع المرارة الشخصية التي نجمت بعد مقالة صحيفة هآرتس خلف ظهورهم .

يقول زياد : «اعتقد ان الأمسية تلك كانت ناجحة جداً فقد تجنبوا على نحو واضح الحديث في السياسة . وحينما أراد سريد التقاط بعض الصور الفوتوغرافية ليثبت لمنتقديه انه استعاد علاقته مع الفلسطينيين ، اعترض الحسيني وزياد الذي يقول : «كنا هناك كمخلوقات بشرية ولم تكن هناك حاجة للعلنية ، ولذلك فانني طلبت ان لا ينشر شيء في الصحف وسيكون ذلك دليلا واضحا على اننا لم نعقد هذا الاجتماع من أجل ان نسجل نقاطا سياسية ... وقد كان سريد متفهما جداً لذلك» . واستغرق الأمر نحو سنة ـ من شهر آب ١٩٩٠ حتى حزيران ١٩٩١ ـ لكلا الجانبين حتى تمكنا من عبور الخليج الذي فصل بينهما . واقترح زياد ـ الجسر الانساني ـ ان يوسعوا نطاق اتصالاتهم ، اذ يقول : «بدأنا نخطط لاجتماع اكبر مع بعض أعضاء الكنيست . لكن الغضب بقي شديدا نتيجة حرب الخليج ، الامر الذي يعني ان ذلك الاجتماع لم يعقد أبدا» .

مع ذلك ، فان زيادا واصل جهوده الخاصة . ففي شهر آب من عام ١٩٩١ ـ بعد مرور سنة على الغزو العراقي ـ ظهر في ندوة عامة مع فيصل الحسيني واثنين من الاسرائيليين هما : شلومو لاهات ومردخاي غور في جامعة تل أبيب . وغور زعيم بارز في الكنيست ، ووزير صحة سابق ، وجنرال سابق قاد القوات الاسرائيلية حينما وحدوا القدس في حزيران ١٩٦٧ . اما شلومو لاهات فهو الآخر جنرال عسكري متقاعد ، ورئيس بلدية تل أبيب ، وسياسي مستقل ، وعضو في الليكود ، ولكنه يؤيد حق الفلسطينيين في اقامة دولة لهم ، كما يؤيد المحادثات المباشرة مع م. ت. ف. كانت الاجراءات الامنية دقيقة للغاية في قاعة غليمان في

الجامعة حيث عقدت الندوة . وفي الخارج تظاهر المجتمعون وهم من الجماعات الاسرائيلية المسلحة : غوش ايمونيم ، ريهافام تسفي موليدت ، وكاخ . يقول زياد: «لحسن الحظ ، وصلنا متأخرين مدة خمس واربعين دقيقة ... فظن بعضهم أننا لن نأتي ، وغادروا المكان . وتسللنا داخلين عبر باب خلفي» . في الداخل ، كان هناك أكثر من خمسمائة طالب قد احتشدوا من أجل المناظرة . ولاحظ زياد ان بين الحاضرين أربع فتيات يرتدين الزي الاسلامي التقليدي : الحجاب والجلباب . يقول ابو زياد : «لقد دلّ ذلك على مدى الثقة بالنفس الذي وصلت اليه الحركة الاسلامية ... فهنا ، في قلب جامعة تل أبيب ، في قاعة محاضرات كبيرة حيث الغالبية جمهور اسرائيلي يهودي ، تجد أربع فتيات عربيات يدرسن في جامعة اسرائيلية ويأتين ويجلسن ويسألن مختلف أنواع الاسئلة المتعلقة بالمناظرة» .

ان السؤال الاكثر شيوعا والذي طُرح من قبل الاسرائيليين ، كان : كيف يمكن ان يكون لدى الفلسطينيين قواعد اخلاقية عامة لشجب الاحتلال حينما أطروا الاحتلال العراقي للكويت ، وابتهجوا حينما ضربت العديد من صواريخ سكود التسعة والثلاثين التي اطلقت على اسرائيل ، مناطق سكانية ، فقتلت مدنيين كثيرين؟ وحاول زياد أن يوضح قائلا : «يجب ان لا تحكم علينا من خلال رد الفعل العاطفي في الشارع» . واكد ان الشيء الهام هو ان الموقف السياسي الفلسطيني لم يتغير ، وانه بقي ملتزما بالقرارات التي أصدرها المجلس الوطني الفلسطيني في شهر تشرين الثاني ١٩٨٨ ، والتي قبلت بحل يقوم على أساس دولة ثنائية . وقال زياد لجمهور الحاضرين : «وبما ان م. ت. ف. لم تتراجع أو تنسحب من هذا الموقف ، فانه ليس لكم الحق في ان تخبرونا كيف يجب علينا ان نشعر تجاه العراق او الكويت . انها قضية خلاف داخل نطاق الاسرة العربية ويجب ان نكون أحرارا في التعبير عن عواطفنا . ان تأييد صدام حسين لا علاقة له باسرائيل ، وهو ليس تأييداً فعليا لاننا نعلم ان م. ت. ف. كانت في موقف صعب : لقد أجبرت على الاختيار بين أن تكون معنا [العراق] أو ضدنا» .

وأكد أن م. ت. ف. حاولت البقاء على الحياد والتوسط لايجاد حل بين العراق والكويت ، غير أنها أخفقت في ذلك . واتهم زياد الحكومة الاسرائيلية ووسائلها الاعلامية ، بمحاولة مساواة م. ت. ف. مع العراق ، والمبالغة بشكل متعمد في استخدام صورة صدام حسين وهو يستقبل ياسر عرفات لدى وصوله الى بغداد .

يقول زياد متهما : «لقد كانت حملة لاغتيال شخصية م. ت. ف. وعرفات نفسه» . لكنه لم يُخْفِ ـ حتى أمام جمهور اسرائيلي ـ ان زعيم م. ت. ف. ارتكب خطأ مميتا : «في النهاية ، نحن هنا لنقرر ما يجب ان نفعله بخصوص المستقبل . ان هذا جزء من الماضي . وحتى لو كان حقيقيا ، وحتى لو ان عرفات ارتكب خطأ ، فان كل سياسي يخطىء ، ولا يمكنكم الاستمرار في الحكم عليّ بسبب أخطائي . يجب علينا ان نتعلم من أخطائنا ، وان نسير قدما ونتخذ معا خطوات مستقبلية» .

كان زياد يتحدث بين الفينة والأخرى باللغة العبرية ، حتى ان أوري نمير مراسل صحيفة هآرتس في واشنطن قال : «كدنا نعتقد انه اسرائيلي .. فزياد يتكلم العبرية بيسر ، ويعرف الكثير من الاسرائيليين وكيف يفكرون ، حتى اننا اتجهنا الى التعامل معه كواحد منا وكدنا نفقد احترامنا لحساسياته الفلسطينية . انه حساس جدا» . كان هناك دافع وراء تعلم زياد اللغة العبرية ، وذلك حينما اضطرمت من جديد علاقة صداقة قديمة بين اسرائيلي وبين والده خليل البالغ من العمر ثلاثة وثمانين عاما ، وهو فلاح وصاحب ارض : «لقد عاش فترة الاتراك ، والبريطانيين ، والاردنيين ، والاحتلال الاسرائيلي . ان جيله يمثل جيل الفلسطينيين الذين لم يشهدوا على الاطلاق أي يوم سعيد في حياتهم ؛ انهم ما يزالون يعيشون ثانية الحرب العالمية الاولى ، والحرب العالمية الثانية ، والانتداب البريطاني ، وحرب ١٩٤٨ بين العرب واليهود ، والآن الاحتلال الاسرائيلي» . في يوم من أيام منتصف شهر حزيران عام ١٩٦٧ ، بعد ان استولت اسرائيل على الضفة الغربية ، كان زياد يقف في ساحة منزل أهله المكون من طابقين في بلدة بيتونيا ، فرأى جنديا كان يقوم بأعمال الدورية في تلك المنطقة وهو يقترب من والده الذي كان جالسا أمام المنزل . تفحص الجندي ـ الذي كان جندي احتياط ـ وجه والد زياد ، وتفحص الوالد وجه الجندي . وبعد تردد وحيرة ، سأل كل منهما الآخر عن اسمه . والآن، وعلى نحو واضح تماما أصبحا على ثقة بأنهما لم يخطىء الواحد منهما الآخر ، وبأنهما الصديقين القديمين اللذين عملا مع بعضهما ، ولكن لم ير أي منهما الآخر منذ عشرين سنة ، وتعانق الرجلان بمرح . ودعي الجندي شيمون سبيغل لتناول القهوة ، وعادت الصداقة مرة ثانية . تحدثا عن الايام التي عملا فيها مع بعضهما في بلدية القدس خلال فترة الانتداب البريطاني ، وكيف تفرقت السبل بهما بعد حرب ١٩٤٨ . كان من المستحيل السفر من بيتونيا الى القدس بسبب حظر التجول

ولذلك فـان سـبـيـغل سأل خليـلا فـيما اذا كان بامكانه احضار أي شيء له من المدينة . ويقـول زياد : «اتذكـر انه قـال لي [ستفتح القدس أمام العرب وسيمكنك الحضور الى القدس الغربية . هذا رقم هاتفي . اتصل معي وسأصطحبك في جولة وأريك المكان كله]» .

وواظب زياد على الاتصـال مع سـبـيـغل ، وحينما رفع منع التجول بعد مرور شـهـر ، اتـصل مع الاسرائيلي ـ وهو مـقـاول بناء مـعـروف ـ في مكتـبـه . لكن السكرتيرة التي أجابت على الهاتف لم تكن تستطيع التحدث بالعربية او بالانكليزية كما ان زيـادا لم يـكن بقـادر على التكلم بالعبرية : «وقلت لنفسي [هذا هراء . نحن نعـيش هنا مع اولئك الناس ولا نسـتطيع التواصل ، حتى ولا على الهاتف]» وأخذ على نفسه عهداً بأن يغير حياته .

وقـدمـه سـبـيغل الى بروفسور في الادب العربي في الجامعة العبرية ، الذي قام بدوره بمسـاعدة زياد على الالتحاق في دورة مكثفة للغة العبرية للمهاجرين الجدد تقـام في (بيت هاعام) . ولم يمض طويل وقت حتى التحق بالدورة اكثر من ثلاثين فلسطينيـا . وأقام زياد علاقة شخصية وثيقة مع مديرة المدرسة روث آلون ، التي كـان زوجـهـا (ميناحيم) قاض في المحكمة العليا ، والذي سيتنافس فيما بعد مع حـاييم هيرتزوغ كـمرشح لليكود لرئاسة الدولة . ويستذكر زياد : «تشكى بعض المدرسين من ان الطلبـة الفلسطينيين في الصـفـوف كـانوا يمنعـونهم من القـيـام بواجـبـهم الصـهيوني ، وطلبوا تقسيم الصفوف الى قسمين : قسم للعرب ، وآخر لليـهـود ... لكن روث آلون رفـضت ، وقـالت [طالما تم توحيد القدس ، فانني لن أسمح بتـقـسـيم صـفوفي] . كانت سيدة مدهشة ، وأصرت على ان يستمر الطلبة العرب الفلسطينيون والطلبة اليهود في البقاء في صف واحد» .

ويمـثل أبناء آلون الثـلاثة الطيف السـيـاسي الاسرائيلي : فأحدهم كان عضوا في حـزب غـوش ايمونيم الديني المتعصب ، والثاني كان محاميا ومعتدلاً ، في حين ان الثالث كان ليبراليا علمانيا . وعلى امتداد السنوات ، كان زياد يقضي امسيات عديدة مع عـائلة آلون ، سـواء أكـان ذلك في بيـتهم أم في بيته . وفي احدى المرات ، حينما حـدثت مـشكلة بين شـقـيق الفلسطيني والسلطات الاسرائيلية ، قام المحامي سافي آلون بالترافع عنه أمام المحكمة .

وبسبب من معرفته للغة العربية ، والانكليزية ، والعبرية ، مارس زياد ثلاثة أعمال ، كمترجم لكل لغة منها . في الصباح ، كان يدرّس العلوم في مدرسة محلية ، وبعد الظهر عمل لدى شركة كهرباء منطقة القدس ، وهي مؤسسة عربية تزود اليهود بالكهرباء ، وكان عمله متمثلا في ترجمة الرسائل التي تتراوح بين الشكاوى وطلبات الخدمات الاضافية ، والتي كان يكتبها الاسرائيليون المقيمون في الحي اليهودي داخل المدينة القديمة ، والاسرائيليون المقيمون في التلة الفرنسية وضواحي جديدة أخرى حول القدس . أما عمله المسائي فكان الترجمة لدى صحيفة القدس .

يقول : «كنت أفكر في أن أصبح محاميا أو قاضيا» غير ان الاحتلال الاسرائيلي غيّر مجرى حياته : «لم يكن باستطاعتي ان أصبح محاميا ، فقد وجدت نفسي أنغمس في الصحافة ، واكتشفت انني مدمن على العمل الصحافي هذا . كان هذا هو التحول الاساسي في حياتي الذي لم أخطط له» . كذلك ، فان ولاءاته تغيرت أيضا ، فأصبحت ممزقة بين تراثه الفلسطيني ، وجنسيته الاردنية ، ومحتليه الاسرائيليين وكل واحد من هذه الولاءات له مطالبه عند زياد بان يعطيه جزءاً من نفسه من أجل ان يبقى : «ووجدت أني غير قادر على تحرير نفسي من هذه الولاءات» . ولكن كصحافي ، فانه استطاع ان يربط بين هذه الولاءات الثلاث .

وعلى الرغم من ان حياته المهنية في مجال القانون كانت محددة ، الا ان زيادا كمحام ووجه مرة أخرى بالمأزق الغريب للاحتلال ؛ فقد ترافع عن فلسطينيين أمام المحاكم العسكرية الاسرائيلية التي تستخدم قانون الانتداب البريطاني . ولعل اكثر القضايا التي لا يمكن ان تُنسى تلك القضية التي مثل فيها شقيقه خليل . ففي عام ١٩٧٠ القي القبض على خليل أبي زياد من قبل الاسرائيليين لكونه قائد مجموعة من فدائيي فتح . وعلى الرغم من ادعاء زياد بان خليلا لم يكن مسؤولا عن أي هجمات مباشرة ضد الاسرائيليين ، الا ان «بعض أفراد المجموعة اعترفوا ان خليلا كان شريكا في نشاطاتهم ونقل رسائل بينهم وبين قائدهم في عمان» ، وحكم على خليل بالسجن لمدة عشر سنوات قضاها كلها . ولمدة ثلاث أو أربع سنوات ، أبقي خليل في سجن الرملة ، ثم استمر ينقل من سجن الى آخر ، وهي الطريقة التي يتبعها الاسرائيليون من أجل إضعاف الشبكات الفلسطينية التي تتشكل في

السجون . يقول زياد : «بدأ زيارة السجون كلها ، من طولكرم الى بئر السبع الى الرملة فرام الله ، ثم الخليل . كنا نضحك على ذلك مع والدتي أمينة ، قائلين لها انه بسبب نقل خليل من سجن الى آخر ، فانها ستتاح لها فرصة زيارة أجزاء البلاد كلها» .

وأخيراً ، واذ اطلق سراحه سنة ١٩٨٠ ، واصل خليل اظهار نفسه كقائد ، وشكل لجنة للعناية برفاهة الناس الذين ما يزالون في السجن . وقدم كل شيء ، بدءاً بالملابس ، فالأموال ، وانتهاء برحلات في الباصات للزيارات العائلية ، وهي نشاطات خففت من خشونة السجن ، وبالتالي ، أثارت حنق الاسرائيليين . وبعد مرور سنة ، أصبح متورطا في محاولة أغضبت الاسرائيليين ، وكانت هذه المرة بسبب مساعدة الدروز ، إذ تظاهر عدد من دروز القرى المحتلة في الجولان ضد الحكومة الاسرائيلية ، فتم فرض حصار عليهم ، ومنع التجول ، وقام خليل باحضار عدد من سيارات الشحن الصغيرة ، وملأها بالطعام ، وعمل على ان تتجه هذه السيارات نحو القرى الدرزية . ولم يمض طويل وقت على ذلك حتى وضع تحت الاقامة الجبرية .

في شهر آب ١٩٨٥ ، وبعد مرور عدة سنوات دون ان تمارس اسرائيل سياسة الابعاد ، بدأت السلطات الاسرائيلية تطبيق ما يسمى سياسة «القبضة الحديدية» وأمرت بطرد خليل من البلاد . كان أول شخص يتم إبعاده ، وأراد الاسرائيليون ان يجعلوا منه عبرة . عند هذه المرحلة ، اتصل زياد بصديقه القديم سافي آلون الذي أعد أوراقه بسرعة لاستئناف القضية . وقام صحافيان اسرائيليان آخران ، هما : داني روبنشتاين من صحيفة دافار ، ويهودا ليطاني من صحيفة هآرتس بعرض مساعدتهما . واذ عملوا مع بعضهم عن قرب ، اتصل زياد والاسرائيليون الثلاثة بافرايم سنيح ، رئيس الادارة المدنية الاسرائيلية وتقدموا بالحل الوسط التالي : يقوم خليل ـ المعروف بانه كان قائدا لمجموعة فتح ـ بمغادرة البلاد لمدة ثلاث سنوات وبملء ارادته الحرة ، مع تقديم تعهد بان لا يشارك في أي نشاطات معادية لاسرائيل خلال اقامته خارج البلاد . وبالمقابل ، وبعد انقضاء السنوات الثلاث ، يسمح له بالعودة كأي زائر عادي . وأوصى سنيح النائب العام العسكري بانه يمكن قبول ذلك . ويقول زياد : «وهكذا ، فانهم ألغوا قرار الابعاد ،

وغادر البلاد . استقل سيارة اجرة الى جسر اللنبي ، وذهب الى الاردن» . وفي عام ١٩٨٨ عاد خليل الى وطنه .

يقول زياد مبتسما : «الأمر المضحك في هذا الأمر اننا وقعنا اتفاقا بين دولة اسرائيل وخليل أبي زياد . وأصرت اسرائيل على ان تدون الاتهامات الموجهة ضده كلها ، ولذلك فان الاتفاق أوضح أنه كان عضوا في م. ت. ف. وقائد فتح في الضفة الغربية . وبدا لي ان هذه أول اتفاقية وقعتها اسرائيل مع م. ت. ف. لانه اذا أصروا على انه من المنظمة وانه قائد فتح في الضفة الغربية ، وانهم رغم ذلك وقعوا اتفاقية معه ـ بين حكومة اسرائيل وخليل أبي وياد ـ فان ذلك أمر لا سابقة له : انها الاتفاقية الاولى مع م. ت. ف.» .

ان العديد من الاسرائيليين يرون زياداً أبي زياد ـ وكما قال العنوان الرئيسي لصحيفة الجيروزاليم بوست الصادر في شهر حزيران ١٩٨٥ ـ على انه «ذئب في ثياب حمامة» . ويسلّم قائلا : «يقول بعضهم انني من م. ت. ف. أي انني متطرف . وبرغم ذلك ، فانني أرى نفسي رجلا واقعيا وعقلانيا ، رجلا عمليا ، ولي وجهات نظري» . وحظيت وجهات النظر تلك باهتمام واسع من خلال مقالة كتبها زياد سنة ١٩٦٨ لصيحفة (الجسر) وتقبلت م. ت. ف. وجهات نظره بحذر . يقول زياد في مقابلة اجريت معه حينما نشرت المقالة : «بعد التعايش على أساس الاعتراف المتبادل والاحترام المتبادل ، فان القوة لا تستطيع حل المشكلة ... ولن يستطيع لا العرب ولا اليهود حل مشكلتهم من خلال هزيمة طرف لآخر . لا مجال لذلك ، الا من خلال تسوية سلمية سياسية» . وطرحت صحيفة الجسر تصورها لحلين ممكنين : الاول ، دولة ديمقراطية علمانية تضم العرب واليهود ، والثاني دولة فلسطينية الى جانب دولة اسرائيل «وليس لتحل مكانها» .

في تلك الايام ، فان مفهوم حل دولة ثنائية كان يتناقض مع سياسة م. ت. ف. التي كانت تطالب بالاعتراف الاسرائيلي بحقوق الفلسطينيين قبل ان توافق المنظمة على شرعية الوجود الاسرائيلي . وبعد ان نشرت مقالة صحيفة الجسر ، دعي زياد لالقاء محاضرة في معهد فان لير ـ دبابة التفكير الليبرالي في القدس ـ حيث كرر تفضيله لحل الدولة الثنائية . ومنذ ذاك ، أعيد نشر الافتتاحية في صحيفة الفجر ، وهوجم زياد من قبل الفلسطينيين المتطرفين ، غير ان المنظمة تدخلت للدفاع عنه .

ويستذكر ، انه بعد المحاضرة «حضر الـيّ اسرائيلي وأراني الناطق باسم م. ت. ف. [ويقصد مجلة فلسطين الثورة] التي نشرت النص الكامل للمقابلة» . فمجلة (فلسطين الثورة) التي هي جزء عضوي من م. ت. ف. وضعت مقدمة اوضحت فيها ان م. ت. ف. لا توافق على كل ما كتبه زياد . لكنها أعادت نشر المقالة كاملة . يقول زياد : «بالنسبة الـيّ ، فقد كان ذلك اشارة فى غاية الوضوح الى انهم لم يكونوا ضد ما كنت أقول أو أفعل» . واعتقد المسؤولون الاسرائيليون ان م. ت. ف. قررت بالتالي تمويل الصحيفة الناطقة باللغة العبرية ، لكن زيادا ينفي ذلك . ويؤكد ان الاموال المخصصة لتمويل صحيفة (الجسر) كانت تأتي من خدمات الاخبار التي يقدمها للمنشورات العربية الصادرة في اوروبا ومناطق أخرى من العالم .

لكن زيادا لم يفند مزاعم اسرائيلية بأنه قوّى علاقاته مع م. ت. ف. ففي مطلع شهر شباط ١٩٧٦ ، بعد مرور سنة تقريبا على قيامه برحلة الى لبنان ، قامت الشرطة الاسرائيلية باعتقال زياد متهمة اياه باقامة اتصالات مع قياديين على مستوى عال في م. ت. ف. خلال زيارته الى بيروت . وجاء في تلك الاتهامات ان من بين اولئك الذين قابلهم الرجل الثاني في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، التي كانت العقل الموجه لسلسلة من عمليات اختطاف الطائرات في مطلع سنوات السبعينات . ولم ينف زياد هذه اللقاءات ، لكنه قال للشرطة ان الناس الذين التقاهم كانوا أصدقاء دراسة ، وان اجتماع الشمل من جديد لم يكن يدور حول اسرائيل أو ضدها .

وعلى الرغم من ان المستشار القانوني العسكري قرر في النهاية ان ليست هناك أي جريمة ، ولم تحول القضية الى المحكمة نهائيا ، فان زيادا بقي في السجن في الخليل . ولمدة تزيد على اسبوعين ، خلال شتاء عام ١٩٧٦ ، احتجز بالسجن الانفرادي ، وحيدا في زنزانة شديدة البرد في أعلى السجن ، حيث يقطر الثلج الآخذ بالذوبان من شباك مكسور في السطح . يقول زياد : «لن أنسى أبدا البرد هناك ... كنت طوال الوقت أستدير من جانب لآخر كي لا أتجمد . ان ذلك الامر يشبه النار: حينما تلمس النار وهي حامية جدا ، فانك تتجه نحو الجانب الآخر حتى لا تحترق. لقد اكتشفت ان البرد يمكن ان يكون مثل النار . في بعض الأحيان تلمسها حتى تصل الى درجة لا تستطيع الاستمرار في لمسها لأن يدك أصبحت ساخنة

جداً» . وبعد قضاء ثمانية عشر يوما في الزنزانة ، تم ترحيله الى السجن العام وأرسل الى غرفة فيها ثلاثة وعشرون فلسطينيا . وقد كان ذلك بالنسبة اليه مثل العودة الى الوطن : «شعرت وكأنني أطلق سراحي ، لانك حينما تذهب الى هناك ، فانك تكون جزءاً من عائلة كبيرة جداً» . وقد أعطاه السجناء الآخرون بنطالا وتي شيرت ، وشيئا من الصابون ، وجعلوه في مقدمة الصف من أجل الاستحمام بالدّش . يقول زياد : «حينما تكون داخل السجن تشعر وكأنك بين عائلتك» .

وعلى النقيض من العديد من الفلسطينيين ، لم يَقْضِ زياد سنوات في السجن . فقد اعتقل مرتين ، تعرض خلالهما للارهاق واطلق سراحه . ففي الخليل ـ عام ١٩٧٦ ـ سجن لمدة شهرين . لكن آخر فترة سجن قضاها كانت الاكثر إرهابا لانه أُبعد عن زوجته وأولاده الثمانية خلال حرب الخليج . فخلال الاسابيع الستة للحرب ، لم تتوقف مخاوفه على الاطلاق من ان تقصر صواريخ سكود التي يطلقها العراقيون والمحملة بالاسلحة الكيميائية عن بلوغ أهدافها ، فتضرب المناطق الفلسطينية المجاورة في الضفة الغربية .

ولم يكن أولاد زياد ، وهم أربعة أولاد وأربع بنات ، مدركين على الاطلاق بأن أباهم سيعتقل . فعند غسق يوم ١٢/١١/ ١٩٩٠ اتصل الحاكم العسكري لبيت لحم ليدعو زياداً لزيارته وتناول فنجان من القهوة . كان الصحافي الفلسطيني يستجيب دائما لمثل هذه الدعوات . وفي الماضي كان الحاكم ـ الذي يعرف فقط بالاسم المستعار «دودو» وهو تصغير لاسم ديفيد ـ مهذبا معه ، وكان يسأله بعض الاسئلة ، ويتبادلان القيل والقال عمن هم داخل وخارج القيادة . لكن حينما وصل زياد هذا الصباح عند الساعة العاشرة ، قادته سكرتيرة الحاكم الى غرفة مجاورة ، حيث كان بانتظاره ثلاثة ضباط اسرائيليين ، فقاموا بتقييد معصميه في حين بدأ أحد الضباط بقراءة أمر اعتقاله . كانت الاوراق على الطاولة أمامه ، وبالطبع فانها كانت مكتوبة باللغة العبرية . يقول زياد : «قبل ان يقرأ السطر الاول كنت قد قرأت الصفحة كلها» . وبموجب القوانين العسكرية التي تحكم المناطق المحتلة ، فان من الممكن ان يوضع تحت الاعتقال الاداري لمدة سنة دون أن توجه ضده رسميا أي تهم ، وبالامكان تجديد مدة الاعتقال تلقائيا دون ان يكون له حق المثول أمام محكمة .

لم يكن زياد متأكدا على الاطلاق من سبب اعتقاله ، وقد راودته الشكوك في ان

الحكومة تعرضت لضغوط للقيام بشيء ما بعد أن طُعن ثلاثة اسرائيليين في منطقة البقعة في القدس ، والتي كانت سابقا بعيدة عن أعمال العنف . وقال زياد غير مبال بالدور الذي يرى الاسرائيليون انه بمثابة تهديد لأمنهم القومي : «كان الاتهام الوحيد انني متورط في القيادة الموحدة للانتفاضة» .

بعد أن أنهى الضابط قراءة الأمر ، زاعما ان زياداً يشكل خطرا وان سجنه ضروري لحماية الأمن والنظام العامين للدولة ، أُخذ السجين الى زنزانة معتمة ورطبة في طابق التسوية (القبو) . وحينما بدأ نزول الدرج التفت اليه أحد الحراس وعرض عليه ان يأخذ منه معطفه باهظ الثمن ، المصنوع من صوف الجمل : «اذا كنت تود ، فبامكاني أن أحتفظ لك به معي لئلا يتسخ» فالتفت اليه زياد وقال : «انك مهتم بالمعطف اكثر من اهتمامك بي» وأخذ المعطف معه .

قضى ساعتين ونصف الساعة في القبو البارد قبل أن يرحّل الى جنيد ، السجن المركزي في الضفة الغربية في نابلس . كانت مساحة زنزانته اثني عشر قدما مربعا وبها ثمانية أشخاص ، ينامون على اربعة أسرة نصبت فوق بعضها . وفي احدى الزوايا هناك ما يسميه الاسرائيليون دورة مياه وهي عبارة عن فتحة في الأرض ، كما كان هناك ما يشبه الحوض ، وحنفية صغيرة ينزل منها احيانا ماء ساخن . وعند كل صباح ، كان يسمح للمائتين وسبعين نزيلا في سجن جنيد بممارسة النشاط الرياضي لمدة نصف ساعة ، وفي وقت متأخر من النهار كان يسمح لهم بالسير حول الساحة لمدة ساعة ونصف الساعة . وعلى النقيض من بقية السجناء ، كان باستطاعة زياد زيارة اقسام أخرى ليعلم اللغة العبرية لمجموعة من الطلبة السجناء ، والقراءة والكتابة لمجموعة من السجناء الكبار في السن . وخلال الساعات الطويلة داخل السجن كان يلعب النرد (طاولة الزهر) .

كان الطعام يختلف من حيث الشكل ، لكن المذاق نادراً ما كان يختلف ، فالحساء خليط من الماء الساخن ، والزبدة ، والبهارات «وفي بعض الأحيان كانوا يضيفون شيئا من العدس ، لكن يجب عليك ان تسبح حتى تجد بعض هذه الاشياء» . فاذا كان هناك فائض من البندورة في اسرائيل «يمكنك توقع ان يكون لديك بندورة كل يوم ، والا ، فبامكانك ان تقضي شهرين أو ثلاثة ولا ترى البندورة» . وكان قادراً على الحصول على الشاي قليل التخمير ، اذ كانوا كما يذكر

«يغلون سبعة أكواب من الماء لمدة نصف ساعة بكيس واحد من الشاي» . وقد تركت التجربة هذه زياداً بدون شهية للطعام حينما اطلق سراحه في النهاية : «وحتى لو كان ذلك الأمر قبل نحو سنة فانني ما أزال أجد صعوبة في احتمال أي رفاهية . ما أزال أذكر الكثيرين من هؤلاء الناس الذين كانوا معي ، وذهنيا لا أستطيع المساعدة سوى المقارنة بين ما هو عليه الوضع خارج السجن وما كان عليه داخل السجن» .

ولن ينسى زياد على الاطلاق دوي صفارات الانذار التي كانت تطلق كلما كان هناك هجوم عراقي في الطريق . وقد سمع السجناء اولى صفارات الانذار من خلال راديو ترانزستور داخل زنازينهم . يقول زياد : «في البداية كنا مرتاعين فعلا لايماننا بالفعل ان صدام حسين يمتلك اسلحة كيمياوية وسيطلقها على اسرائيل ، ولأن ايا من السجناء الفلسطينيين لم يعط اقنعة واقية من الغاز أو امكانية الوصول الى غرفة مغلقة ، كما ان النوافذ في سجن جنيد كانت مكسورة من ناحية المزالج ، ولذلك فانه اذا أطلق أي اسلحة كيمياوية ، فاننا كنا سنموت في الحال» .

غير ان التجربة الاكثر اذلالا خلال الحرب كانت سماع الاعلانات كلما كان هناك هجوم بصواريخ سكود وشيك الوقوع : فقد كانت مكبرات الصوت تأمر الحراس الاسرائيليين بارتداء الاقنعة الواقية والدخول الى الغرفة المغلقة داخل مبنى السجن . وقد حاول زياد ان يوضح للضابط المسؤول عن السجن «ان عليه ان يجد طريقة كي يضع رجاله الاقنعة الواقية من الغاز ويذهبوا الى الغرفة المغلقة دون ان يجعلنا مدركين لما يحدث» . ويقول زياد انه قال للضابط : حينما تذاع التعليمات بواسطة نظام مكبرات الصوت «نشعر ان لا أحد يهتم بحياتنا واننا لا نساوي شيئا . وخلال الهجمات الاولى ، حينما لم يكن أحد يعرف فيما اذا كانت صواريخ سكود تحمل رؤوسا كيمياوية ، كنا نجلس لننتظر الموت» .

كان قلقا على أبنائه كثيرا ، وكانت الزيارات العائلية كل اسبوعين مرة . وبعد أن بدأت حرب الخليج في شهر كانون الثاني ، فرض حظر التجول على العديد من مدن وقرى الضفة الغربية وغزة . وبذلك مرت الاسابيع دون ان تصله أي أخبار من بيته . وخلال الحرب ، منعت عنه حتى زيارات محاميه : «كأب لثمانية اطفال

لم أكن أعـرف كيف كانوا يتدبرون أمور حياتهم : «هل كانت لديهم غرفة مغلقة ، ام لا ، وهل كـان لديهم طعـام كـاف أم لا أو نقـود كافية ، أم لا ، أو كيف كانوا يتدبرون أمورهم» . ان ابنته الكبرى جمانة ـ حينما كتبنا هذا الكتاب ـ كانت طالبة في الجـامـعة العبرية تدرس الأنكليزية والعلاقات الدولية ، ومثل والدها فانها تتقن العبرية بطلاقـة . واثنان من اولاده يدرسـان في الولايات المتـحدة : طارق ويدرس الهندسة في برغهام يونغ يونيفرستي ، وعلي البالغ من العمر عشرين عاما تقريبا ، ويدرس علوم الكمبيوتر . اما بناته الثلاث الاخريات ، فهن : نسرين وهي طالبة في المدرسة العالية ، ولمياء في الصف التاسع ، وهبة في الصف الخامس .

أمّا ابناه اللذان كان شديد القلق عليهما فهما : سري البالغ من العمر نحو أربعة عشر عـاما ، وعمار البالغ من العمر عشر سنوات . فعلى الرغم من ان ابنته نسرين اعتقلت وقضت ثمانية واربعين ساعة في السجن لقيامها بقذف الحجارة ، ورغم ان ابنته الكبرى جمانة كانت تنتقد والدها لكونه معتدلا جدا ، الا ان المتطرفين الفعليين في العـائلة كانا سري وعمار ، اذ انهما ولدا تحت الاحتلال الاسرائيلي ، وشبا خلال الانتـفـاضــة . فـحينما كان سري في العاشرة من عمره كان يلتمس امه للسماح له بالخـروج الى الشـارع وقـذف الجنود الاسرائيليين بالحجارة ، وكانت امه تقول له المرة تلو الاخرى ان اباه سيكون تحت طائلة المسؤولية وسيرسل الى السجن . غير ان سريا يصر على انه هو الذي يتـحمل المسؤولية : «اذا سألوني من أبوك ، فانني لن أخبرهم ... أعـرف انهم في السـجن يعذبون الناس ، وان الطعام غير جيد ، وان الأمور سيئة ، لكنني أريد الخروج» . هكذا كان سري يؤكد بكل براءة . يقول زياد : «كـان سري في سن صـعبة جدا ... ان هذه المرحلة من العمر صعبة جداً بالنسبة الى الوالدين والمدرسين» . ومع ذلك ، فـان المقـاتل الأشرس في البـيت هو ابنه عمار البـالغ من العـمـر عشر سنوات . فـقد قضى هذا الفتى الكثير من حياته في مخيم الأمـعـري للاجئين الفلسطينيين في رام الله ، حـيث كـان يعتنى به طوال النهار لان والدته ـ التي عـاشت في مخيم في غـزة ـ تعـمل مـدرسـة . ان البؤس الذي تعانيه المخيمات كان له أثر قوي في نفس عمار الذي كان وعيه الفلسطيني اكبر من وعي اخـوانه الاكبر سنا منه . فحينما كان يبلغ السادسة من العمر فقط ، كانت التسلية المفـضلة لديه رفع العلم الفلسطيني على الجـدران ، بل انه رفـع سـتـة من الاعلام الفلسطينيـة في إحـدى زوايا غـرفة نومه . ويقول زياد بشيء من الفخر «كان يريد

من كل شـخص ان يأتي ليراها» . ويتـذكـر الوالد ابنه حـينما أعلن «لقـد حـررت غرفتي !» .

ولد عمار عام ١٩٨٢ خـلال الاسبوعين الأسوأ من فترة حصار بيروت . وعلى الرغم من ان والديه يقـولان انهما لم يخبراه أبدا بما حدث ابان فترة مولده ، فانه سـمي فيما بعد بأبي عمار ، الاسم المستعار لياسر عرفات . يقول زياد : «لم يكن واضـحا فيما اذا كانت م. ت. ف. ستكون قادرة على الخروج أم لا ، ولذلك فان أبا عمار نفسه ، وقَـدَرَه كانا علامة استفهام ، وهذا هو السبب الذي يفسر لماذا أطلقنا عليـه هذا الاسم ، عمار ؛ بعـد أبي عمار لاحـيـاء ذكراه في حال حدوث شيء له» . ومنذ ان كـان في سن السـادسـة من العـمـر ، أدرك عمار التماثل بين اسمه وبين سميه ، وشعر بالتأثر فيما يتعلق به . وفي احدى المناسبات ، وحينما كانت العائلة تسير بالسـيـارة بجـانب مـركـز الاعـتقال ذي الجدران العالية ، سأل الطفل عمن بداخل المبنى ، وحـينما قيل له ان سجناء فلسطينيين بداخله ، قال الصبي الصغير البـالغ من العـمـر سـبع سنوات : «سأذهب الى ياسر عرفات وأحضره مع رجاله ، وسنحضر أسلحـة ونفـجـر هذه الجـدران . سنحـرر السجناء كلهم الموجودين في الداخل» تقول أمه : «كان جاداً تماماً حينما قال ذلك» .

بالنسبة الى الاطفال جميعهم ، فان رئيس م. ت. ف. اكبر من الحياة . ويوضـح زياد ان «عـرفـات رمز ، وليس مجرد شـخص ... وحينما يتكلم اولئك الاطفال عن عرفات أعتقد أنهم يتحدثون عن شيء متخيل . فبالنسبة اليهم ، فانه يمثل قيادة م. ت. ف. وحـينما يشـاهدونه على شـاشـة التلفـاز ، يقـولون : [هذا رئيسنا] . لقد اعـتـادوا رؤيتـه ويحبـون الشكل الذي يظهـر فيه . انهم ليسوا كالامريكيين الذين يريدون رؤيته حليق الذقن ، مرتديا بذلة وربطة عنق» .

ويحاول زياد الاحـجـام عن التأثير سـيـاسيا في أبنائه . ومثل كل الآباء ، فانه أسـعـد ما يكون حينما يقومون باداء واجباتهم البيتية «كوالد ، فانك دائما تريد ان يكون ابنك في أمن وسـلام . لكنك لا تسـتطيع أبدا التحدث عما سيتورط ابنك فيه لانه لا يخبرك ابداً عما يفعله» .

ان الفـارق الاكبر بين جـيله وجيل أبنائه هو «انني اعرف الاسرائيليين اكثر ، اذ لدي أصـدقـاء شـخـصـيـون من الاسرائيليين . هناك بعض أشـيـاء أدركـهـا عن

الاسرائيليين ، أو على الاقل ، انني على استعداد لفهمها» . فعلى سبيل المثال ـ يقول زياد ـ اذا قلت لشخص عادي من الفلسطينيين ان الاسرائيليين خائفون منهم ، فانه لن يصدق ذلك . ان ذلك ـ وبكل بساطة ـ أمر مبهم لأن تجربتهم كانت واحدة من المضايقات والجَلد على ايدي الاسرائيليين . وفي أذهانهم ، فان اسرائيل قوة عظمى ، تمتلك خامس اكبر جيش في العالم ، وتمتلك أيضا الاسلحة النووية . ويضيف زياد قائلا : «بالنسبة اليّ ، وبحكم خبرتي واتصالاتي مع الاسرائيليين ، اقول ان هناك الكثير من الاسرائيليين يشعرون بالخوف فعلا حينما يتحدثون عن الأمن» . ويشير الى ان المدارس العربية لا تعلّم الكثير عن ذبح ستة ملايين يهودي في الكارثة : «من المحتمل أننا هنا في المناطق المحتلة يمكن ان نتعلم شيئا من الاسرائيليين فيما يتعلق بمعاناتهم خلال الفترة النازية» . ويضيف ، لكن الاسرائيليين يمكنهم ان يتعلموا ايضا شيئاً ما من الفلسطينيين : «عليهم ان يدركوا اننا الآن نقوم بالدور نفسه الذي قاموا به خلال سنوات الثلاثينات والاربعينات قبل ان يقيموا دولتهم . نحن يهود اليوم» .

واليوم ، فان زياداً أبي زياد يشغل منصب رئيس اللجنة السياسية للقدس . وعلى غرار صحيفته الناطقة باللغة العبرية (الجسر) فانه يعتقد بان هذه اللجان ـ هناك ٢٠٠ لجنة في مختلف انحاء الضفة الغربية وقطاع غزة ، مشكلة بشكل قوي من مؤيدي فتح ـ يمكن ان تكون جسراً مهما بين الجماهير وبين المجموعة المنتخبة في الوفد الفلسطيني المفاوض . ويدافع عن الحاجة الى اللجان لأن هؤلاء الفلسطينيين ـ وبخاصة اولئك الموجودين في مخيمات اللاجئين ـ قد شعروا انهم استبعدوا من خلال اختيار فلسطينيين مثقفين وذوي معرفة واسعة للتفاوض مع اسرائيل . ويقول زياد سواء أكانوا محقين في ذلك أم لا ، فان الامر ليس موضع نقاش : لكن المحصلة النهائية كانت انهم شعروا «انهم لم يقوموا بالدور الذي اعتقدوا انهم مؤهلون للقيام به» .

ويعتقد زياد ان نشاط هذه اللجان على المستوى المحلي يمكن ان يكون سابقة مفيدة لتطوير الاحزاب السياسية ، حتى انه يشعر بالغضب لمواصلة الاسرائيليين حظر مثل هذه الاحزاب : «لقد شعرنا ان هناك حاجة لاقامة جسر بين الوفد وبين الناس للتواصل في كلا الاتجاهين . وقد اعتقدنا انه من خلال الاعلان عن هذه اللجان السياسية بطريقة علنية ومعبرة ، فان ذلك الأمر سيضفي عليها وعلى

عملية السلام نفسها الشرعية» . كذلك ، فان هذه اللجان كانت ضرورية كجسر بين جيله والجيل الذي يليه ، وهو الجيل الذي ولد تحت الاحتلال الاسرائيلي . فقد ترعرعوا وكبروا في ظل ظروف مختلفة كما يقول : «في اللحظة التي فتحوا عيونهم فيها وبدأوا يدركون حقائق الحياة ، كان أول شيء يرونه هو الجندي الاسرائيلي في الشارع ، الجندي الذي يحاول ان يضايقهم أو يستفزهم» . وتعلّم الاطفال بسرعة أن أبناء شعبهم من الفلسطينيين ، يعيشون في ظل ظروف تختلف عن ظروف الاسرائيليين : «لقد كبروا بعقلية المواجهة هذه» .

ويعترف زياد انه اذا أخفقت عملية السلام ، فان الجيل التالي سيكون اكثر تطرفا «لكن الراديكالية ليست الكلمة المناسبة» كما يقول : «اود القول انهم اكثر ادراكا ووعيا لهويتهم الوطنية ، واكثر التزاما بنضالهم الوطني ، واكثر ترحيبا بالتضحية لانهم يعيشون في مواجهة يومية مع الاحتلال» . وقد عاش هو نفسه الجزء الاكبر من حياته ، وتعلم من التجارب - الجيد منها والسيء - عن الاسرائيليين . يقول زياد وهو يدرك كم هو مؤلم ان لديه «مسؤوليات عائلية ... وان عليك في بعض الاحيان ان تنحني الى ان تهدأ العاصفة ثم يمكنك بعد ذلك ان ترفع قامتك . وبالنسبة الى الجيل الشاب ، بالنسبة الى شخص ما يبلغ السادسة عشرة او السابعة عشرة من عمره ، وليست لديه أي مسؤوليات أخرى ، فانه يعتقد انه الأقوى ، ويعتقد انه الاكثر شجاعة والاكثر جرأة ، ولذلك فانه لا يهتم بالاشياء التي أهتم بها وأنا في سني هذه» .

ان الاحساس بالقهر الذي يحدث في فترة الشباب قد انتهى بالنسبة الى زياد . فقد نضج سياسيا ، متجنبا التطرف والانفصال الكلي عن اليهود الاسرائيليين . لقد كسر الحاجز اللغوي بين اللغتين : العربية والعبرية ، والحاجز المادي بين اسرائيل والضفة الغربية ، والحاجز النفسي الذي يقود العديد من الفلسطينيين للعيش في دولة محاصرة .

وفي الوقت نفسه ، فانه سعيد بان الولايات المتحدة الامريكية تتصرف كجسر بين القيادة الفلسطينية داخل المناطق وبين م. ت. ف. في تونس . وفي هذه الايام ، فان كبار مستشاري ياسر عرفات ، أمثال : نبيل شعث ، واكرم هنية يسافرون بشكل اعتيادي الى واشنطن من أجل المساعدة في تقديم النصح والمشورة للوفد

الفلسطيني ، وكنتيجة لذلك ، فان روابط جديدة مهمة قيد التشكل ، روابط طالما سعت اسرائيل الى ان تعوق قيامها . يقول زياد : «لقد أتاحت عملية السلام الفرصة أمام الشعب في الداخل وفي الخارج للتواصل بحرية أكثر وبعمق اكبر . لقد سمحت لنا بان يعرف كل منا الآخر بشكل أفضل وان نعمل معا كفريق واحد . وكنتيجة لذلك ، فان الهوة الفاصلة بين الخارج وبين الداخل آخذة بالاختفاء ... اننا نعمل كفريق واحد» .

ويوضح ان هذا الامر جيد من أجل عملية السلام لان م. ت. ف. في النهاية هي التي ستكون فقط قادرة على «تقرير مستقبل الشعب الفلسطيني» واقرار أي تسوية تتوصل اليها القيادة المحلية . وحينما تحطمت طائرة عرفات في الصحراء الليبية ، وخُشي ان يكون قد فُقد ، كان هناك ذعر لان زعيم الفدائيين المسن كان بمثابة الصمغ الذي يمسك العملية ببعضها . والى ان يتم تحقيق تقدم فعلي في محادثات السلام ، سيبقى الرابط الاساسي الذي لا غنى عنه كما يقول زياد : «ان أي شخص من المناطق المحتلة لا يحظى بتأييد او حتى تغطية م. ت. ف. لا يساوي شيئا ؛ انه لا يستطيع اتخاذ قرار فردي» . غير ان الديناميكيات تتغير : «فمن خلال تقديم تسهيلات لاعضاء م. ت. ف. في تونس للسفر الى واشنطن ، فان الامريكيين يساعدون فعلا في جعل هذه العملية ذات هدف» على حد قول صحافي فلسطيني . ومن خلال تغيير القانون والسماح لمواطنين اسرائيليين باللقاء مع م. ت. ف. في تونس أو في أي مكان آخر ، فان الحكومة التي يقودها رابين في اسرائيل قد اتخذت اول خطوة نحو الاعتراف بمركزية المنظمة . وبالطبع ، فان ما لا يقال ، هو انه اذا نجحت عملية السلام ، فان العلاقات الناجمة عن ذلك بين الفلسطينيين والاسرائيليين ، وبين الفلسطينيين انفسهم داخل وخارج المناطق ستشكل الجسر الذي يسمح لفلسطينيين من الضفة الغربية مثل زياد أبي زياد للقيام بادوار جديدة كقادة لجماهير الناخبين الفلسطينيين .

سامي الكيلاني

● سامي الكيلاني مع ابنتيه (من اليسار إلى اليمين) ساره، وزوبا .

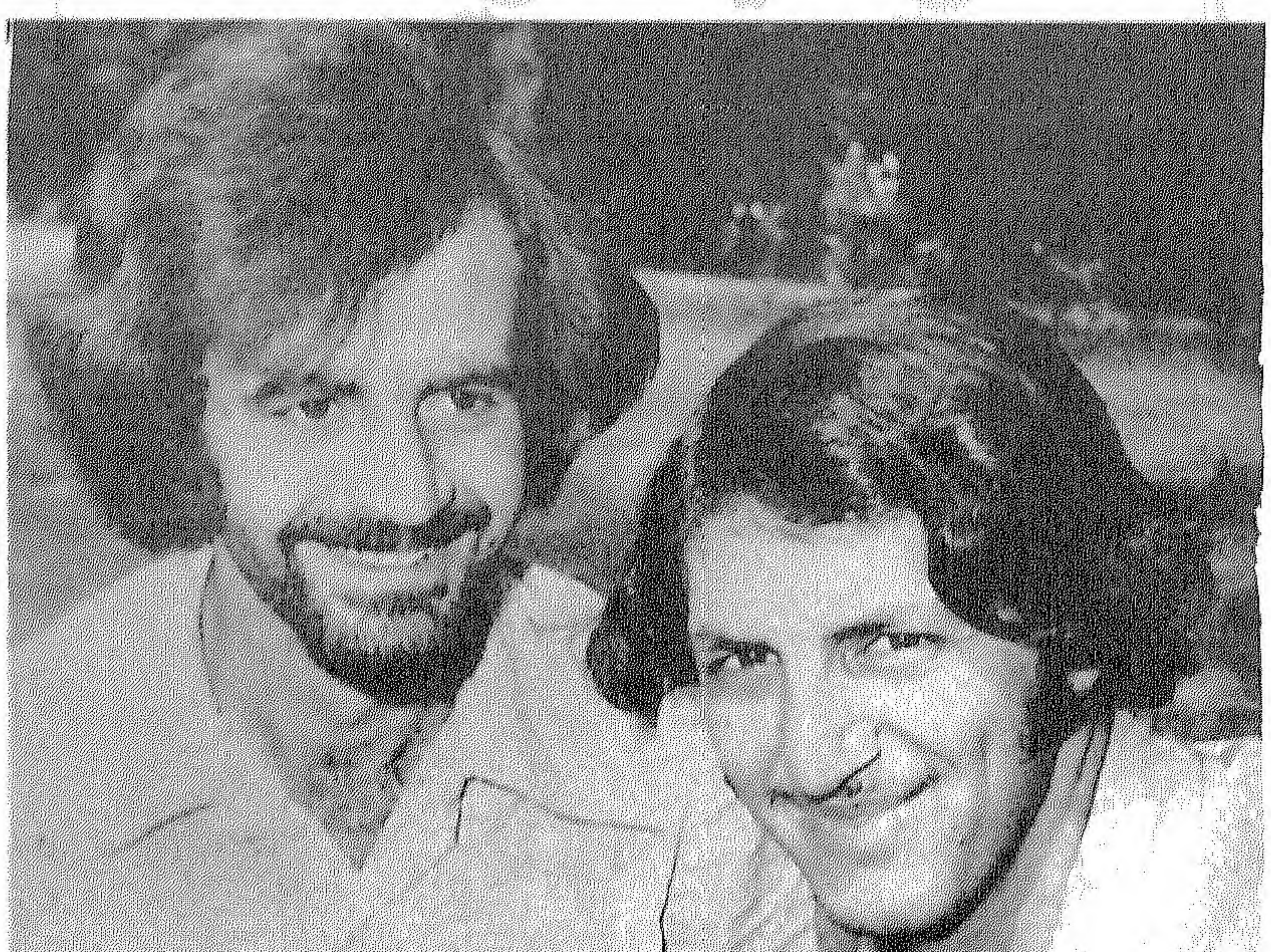

● سامي الكيلاني (إلى اليسار) مع شقيقه احمد .

سامي الكيلاني

حينما تتذكر غالبية الأمريكيين سنوات مراهقتهم المبكرة ، فمن المحتمل انهم يتذكرون أول موعد لهم مع فتاة ، أو أول مرة تناولوا فيها المشروبات ، ويتذكرون معبوديهم ، ومغنيهم مثل البيتلز ، أو البيش بويز ، أو الملاكمين أمثال كاسيوس كلاي . لكن سامي الكيلاني لديه بلا ريب ذكريات طفولية تختلف عن تلك . فهو يتذكر تبرعه بنصف مصروف جيبه الى صندوق خاص لمساعدة الطلبة المتطرفين في الجزائر . يقول : «كان ذلك بداية نشاطي السياسي» . ولم يكن أبطاله نجوما لامعين أو حتى ملاكمين محترفين في الحلبة ، بل كانوا مناضلي حياة وموت ، وثوارا شبابا أجبروا الجنرال تشارل دي غول على اعطاء الاستقلال للمستعمرة الفرنسية : الجزائر ، وكانوا (أبطاله) الفدائيين الماركسيين التابعين لجبهة التحرير الوطني في اليمن الجنوبي ، الذين حاربوا القوات الملكية للمستعمرة البريطانية في عدن . ويكبر المراهقون في الضفة الغربية ، وقد عبدوا الشخصيات المعادية للامبريالية والاستعمار ، مثل : فيدل كاسترو ، وارنستو تشي غيفارا في كوبا، وهوتشي منه في فيتنام الشمالية ، وماوتسي - تونغ في الصين الشيوعية .

ولد سامي الكيلاني في يعبد عام ١٩٥٢ ، وهي قرية ريفية كبيرة تقع بالقرب من جنين . وقد كونت والدته عائشة ووالده محمد - وهو مزارع تبغ - بيتهما ، وزرعا أولادهما الخمسة وابنتيهما عميقا في أرض الضفة الغربية الزراعية . لقد أصبحت القرية التي يعيشون فيها - والتي تبدو غير مهمة - مشهورة على نطاق واسع ، بسبب موت زعيم عربي فيها هو عز الدين القسام . فهذا البطل العربي الذي حارب ضد البريطانيين اكتُشف مختبئا في يعبد ، وسُلّم الى السلطات المسؤولة صانعا بذلك ليس شهرة البلدة فقط ، وانما أيضاً مصير الشباب .

كان الشيخ القسام أحد المنادين الأوائل بالجهاد ، و تذمر كثيرا من أن أموال الوقف كانت تصرف على ترميم المساجد . وقدم لشعبه ، بديلا متطرفا - الثورة - لمقاومة ما رأى انه النتيجة الحتمية لانتشار الهجرة الصهيونية وإقامة دولة يهودية في فلسطين . وباعتباره رئيس الهيئة الاسلامية في حيفا ، ومؤيدا قديما للأصولية الاسلامية ، عمل القسام على تنظيم الفلاحين العرب المطرودين من ديارهم في منطقة الأكواخ الواقعة على الساحل الشمالي لفلسطين في خلايا سرية

مسلحة . وكانت أول مرة لفت فيها انتباه الرأي العام في شهر كانون الأول عام ١٩٣٢ حينما شن هجوما بقنبلة يدوية على منزل في بلدة ناحال ، وهي واحدة من أوائل المستوطنات الزراعية في وادي يتسرائيل في جنوب الجليل . ويقول سامي مفتخرا ان القسام قتل بعد ذلك بأقل من ثلاث سنوات «كشهيد بالقرب من قريتي» حينما رفض الاستسلام للجنود البريطانيين . ويرتبط اسمه مباشرة بيعبد حتى انهم يدعونها في بعض الأحيان باسم يعبد القسام .

بعد موت القسام ، حظي تأييد العمل المسلح بشعبية أوسع ، ومع اندلاع الثورة العربية عام ١٩٣٦ ، أصبحت يعبد مقترنة بالمقاومة ، حتى ان موشي دايان وزير الدفاع الاسرائيلي خلال حرب الأيام الستة أكد بأن العنف الذي اعتنقه «الارهابي المتطرف» عز الدين القسام له قصة طويلة في يعبد . يقول دايان في مذكراته : «هنا ، قبل نحو ٣٥٠٠ سنة» نجا يوسف وبشق النفس من القتل على أيدي إخوته و «بيع الى تجار مدنيين عبيد» أخذوه معهم الى مصر . ويصف دايان أيضا واحدة من أشرس الهجمات سنة ١٩٦٧ ، للسيطرة على يعبد اذ يقول عنها انه أمر بها بسبب موقع البلدة الاستراتيجي على قمة هضبة تطل على وادي دوتان حيث قتل العديد من الاسرائيليين في هذه المعركة مع الأردنيين . وكانت تلك ذكرى مؤلمة للدولة اليهودية ، حتى ان أغنية تؤبن ضحايا «معركة وادي دوتان» وغناها كورس قوات الجيش الاسرائيلي أصبحت شائعة جداً بعد انتهاء الحرب .

وعلى الرغم من اعتداده بنفسه لكونه عضوا ني الوفد الفلسطيني المفاوض ، فان سامي يقف بمعزل عن غالبية الثوار الفلسطينيين . فهو لم يحارب بالسلاح وانما بالكلمات كمدرس ، وككاتب قصص قصيرة ، وكشاعر . ومع هذا ، فان جذوره ليست في المجال الأكاديمي ولكن في الأرض ، وفي معاناة أولئك الذين قضوا جل فترة شبابهم في السجون الاسرائيلية . حينما كان في سن الأربعين ، قضى سامي غالبية العقد الأخير من عمره قيد الاعتقال ، وقضى رحلة في عالم السجون : من جنيد ـ السجن المركزي للضفة الغربية في نابلس ـ الى مركز الاستجواب والتحقيق في الفارع ، الى الظاهرية ـ مخيم عسكري بالقرب من الخليل ـ الى انصار ٣ المعسكر الصحراوي النائي بالقرب من الحدود مع مصر . وعائلته ليست غريبة عن مثل هذه المشاكل : فمن ناحية ، هناك أربعة من أبناء الكيلاني الخمسة ـ سامي ، سليم ، خالد ، وعدنان ـ كانوا جميعهم في السجن في وقت واحد . وحينما

أدخل سامي الى السجن وقعت أكثر الأحداث أهمية في حياته . فقد كان في السجن حينما توفي والده ، وكان في السجن حينما استشهد أحد أشقائه خلال الانتفاضة ، وكان في السجن أيضاً حينما ولد ابنه الثالث . وحتى حريته اعترضتها عقبات خفية : فكمواطن عادي ، سعى الى مغادرة الضفة الغربية ، غير ان السلطات الاسرائيلية منعته من ذلك . يقول : «لقد غادرت لأول مرة منذ ست عشرة سنة .. حينما عينت عضوا في الوفد الفلسطيني» .

ويرى نفسه انه مختلف عن العديد من أعضاء الوفد الفلسطيني المفاوض ، فهم يتحدرون من عائلات غنية ، وتعلموا ، وسافروا الى الخارج كثيراً ، ويبدون رقيقين ، ويمكنهم الامتزاج بسهولة في الغرب . أما سامي الكيلاني فيرى نفسه بشكل ما انه خشن ، فظ ، ابن مزارع كافح كي يغذي عقله ، رجل مرح يبدو مذهولا بسبب الاهتمام الكلي الذي يحصله أكثر زملائه تعقيدا . وعلى النقيض من زملائه الموالين لفتح ، فانه يؤيد جناح الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين الذي يقوده ياسر عبد ربه بسبب ان حزبه ـ كما يقول ـ لم ينحرف ، اذ له علاقاته وروابطه مع الفلسطينيين في مخيمات اللاجئين ، و «يعتمد على الجماهير» . ويؤكد ان النشطاء السياسيين يجب ان تكون لديهم «جذور عميقة مع الناس ، وتاريخ وطني نظيف ، وقيادة ذات مصداقية» .

في غرفة فارغة في جامعة النجاح ، حيث يقوم الآن بتدريس مادة الفيزياء ، يجلس سامي ليستغرق في ذكريات أيام دراسته الثانوية ، والضغط الذي كان يمارسه رفاقه الأكبر سنا منه الذين أرادوا السير على خطوات الشيخ عز الدين القسام ، شهيد بلدتهم . في عام ١٩٦٢ ، حينما كان يبلغ العاشرة من عمره ـ وكما يستذكر ـ كان هؤلاء مع مجموعة من الأنصار الأكبر سنا منهم في المدرسة أعضاء في مجموعة سرية هي حركة القوميين العرب . وقد تأسست على أيدي الطلبة اليساريين في الجامعة الأمريكية في بيروت ، وذلك بعد مرور بضعة أشهر على استقلال اسرائيل من أجل حشد الجماهير العربية ضد الغزوة الصهيونية . يقول سامي : «كانوا نشطاء في هذه القرية .. وكنا [الشباب الصغار] نحاول تقليدهم واتباع خطواتهم» . ويستذكر ان الشقيق الأكبر لأحد أصدقائه المقربين التحق بالمجموعة ، وكان سامي يتبرع كل يوم بنصف مصروفه اليومي . وقد كان من المثير معرفة شخص ما التحق بحركة القوميين العرب ، وهي المجموعة التي أيدت

الاطاحة بالأنظمة العربية المنحرفة والمحافظة ؛ والأكثر من هذا فانها وعدت بشعب عربي موحد ، ودولة اشتراكية واحدة توحد الشعب العربي .

من بين المؤسسين الأوائل للحركة في الجامعة الأمريكية في بيروت كان جورج حبش ، وهو فلسطيني مسيحي ، أسر الجماهير ، وقد أسس فيما بعد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . ومثل شقيقتها المنظمة ، فان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أيدت استخدام العنف لتخليص الشرق الأوسط من النفوذ الغربي ، بما في ذلك اسرائيل والأنظمة العربية المدعومة من الغرب .

لم تكن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الفصيل الوحيد الذي يدعو الى استخدام كل الوسائل ـ بما في ذلك الارهاب ـ ضد الصهاينة . ففي شهر أيار من عام ١٩٦٤ حينما كان سامي يبلغ من العمر اثني عشر عاما ، عقدت م. ت. ف. مؤتمرها التأسيسي في القدس الشرقية التي كانت تحت الادارة الأردنية . وبقيادة أحمد الشقيري ، نادت م. ت. ف. بتدمير الدولة اليهودية من خلال الكفاح المسلح وقالت في ميثاقها ان هذا هو «السبيل الوحيد لتحرير فلسطين» . ويتذكر سامي انه على الرغم من انه كان كبيرا بما فيه الكفاية لمساعدة والده في قشر التبغ ، الا انه كان سعيدا بما فيه الكفاية للمساعدة في جمع الأموال لصالح منظمة التحرير الجديدة . وحتى بعد تردي العلاقات بين م. ت. ف. الجديدة وبين الأردنيين «واصلنا محاولة جمع الأموال لـ [م. ت. ف]» .

ومع حلول شهر آذار من عام ١٩٦٥ ، حينما كان سامي يبلغ الثالثة عشرة من العمر ، شنت مجموعة سرية جديدة أطلقت على نفسها اسم العاصفة وترتبط مع فتح ، عشر عمليات تخريبية وغارات فدائية ضد اسرائيل ، سبعة منها من الضفة الغربية الخاضعة للنفوذ الأردني ، في حين شنت العمليات الثلاث الأخرى عبر قطاع غزة الذي كان تحت السيطرة المصرية . ومع انتهاء السنة نفسها ، كانت قد شُنت خمس وثلاثون عملية مشابهة ، ثمانية وعشرون منها عبر الضفة الغربية وحدها . واعتبر الاسرائيليون ان أهدافهم التخريبية ـ زرع المتفجرات في أنابيب المياه وخطوط السكة الحديدية ، والطرق ، والمستوطنات الحدودية ـ هي هجمات على مناطق مدنية ، وبالتالي فانها تقع بعيدا عن قواعد الحرب . واكتسبت مجموعات عديدة مختلفة من المقاتلين الفلسطينيين ، مثل (أبطال العودة) و (جبهة

تحرير فلسطين) مصداقية لها بسبب هذه العمليات ، لكن أكثرها فاعلية كانت (فتح) . كان المسؤولون الاسرائيليون مدركين لحقيقة ان زعماء عدد من الأنظمة العربية مثل جمال عبد الناصر وحكومة لبنان يبذلون أقصى جهدهم لوقف هذه المجموعات الفلسطينية المتهورة ، غير ان جهودهم لم تكن مفيدة بما فيه الكفاية .

وخلال صيف عام ١٩٦٦ فقط ، وقعت خمس عشرة هجمة فدائية داخل اسرائيل ، انطلقت غالبيتها من الضفة الغربية . وحينما قام الفدائيون الفلسطينيون في شهر تشرين الأول من العام نفسه بتفجير ثلاثة منازل قرب محطة الباص الرئيسية في غربي القدس تاركين وراءهم امرأة مسنة جريحة ، وحينما قاموا بعد ذلك بشهر بتفجير لغم بالقرب من مستوطنة نيهوشا اليهودية ، فقتلوا بذلك ثلاثة جنود يهود وجرحوا ستة آخرين ، أحست الحكومة الاسرائيلية ان الأمور تطورت الى حد بعيد . وفي يوم ١٣/١١/١٩٦٦ ـ في وضح النهار ـ عبرت وحدات اسرائيلية مدججة بالسلاح الحدود الجبلية بالقرب من الخليل ، وفي اقل من يوم ، أسقطت طائرة عسكرية أردنية ، ودمرت عدة مواقع للجيش الأردني ، ومراكز للشرطة الأردنية ، وكرسالة منها الى الفدائيين ، قامت تلك الوحدات الاسرائيلية بهدم عشرات المنازل في قرية السموع العربية ، حيث كان يتوضع المقاتلون .

كانت العملية الاسرائيلية ـ التي شاركت بها الدبابات ، والمدفعية وسلاح الجو ، وقوات المشاة ـ أكبر غارة انتقامية منذ حرب ١٩٥٦ في السويس ، وكانت تهدف ـ حسب ما قاله يشعياهو غافيش قائد المنطقة الجنوبية ـ الى «اجبار الأردن على اغلاق منطقة جبال الخليل أمام نشاط فتح» . غير ان تلك العملية كان لها أثرها المضاد اذ ان العديد من الفلسطينيين ـ بما فيهم سامي الكيلاني البالغ من العمر آنذاك أربعة عشر عاماً ـ قد تولد لديهم انطباع بأن الأردن لن يكون وحده قادراً على مواجهة اسرائيل ، وان على الفدائيين ان يساهموا في ذلك . يقول سامي الكيلاني «لقد آمنّا بأن الفدائيين كانوا خارقين وقدمنا لهم كل احترام» . ويستذكر انهم تصوروا الفدائي أقوى بكثير مما كانوا هم عليه ، لكنهم مع ذلك ، كانوا أبطالاً حقيقيين : «كل ما كنا نفكر فيه هو كيف يمكن لنا أن نصبح فدائيين» .

لم يكن كبيراً بما فيه الكفاية ليتمكن من الالتحاق بخلية لفتح أو للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، ولكن بعد الغزو الاسرائيلي لقرية السموع ، انضم سامي الى عشرات الآلاف من فلسطينيي الضفة الغربية الذين تدفقوا الى الشوارع.

ولقد عزز الأثر طويل الأمد لغارة السموع ، ورد الفعل الفلسطيني على الغارة موقف م. ت. ف. بقيادة أحمد الشقيري . وفي الوقت نفسه ، فان الغارة عملت على زيادة الوعي الوطني الفلسطيني في الضفة الغربية ، وتوترت على نحو شديد علاقات الأردن مع مصر ، وسوريا ، وم. ت. ف. ففي ٣/ ١/ ١٩٦٧ اضطرت الحكومة الأردنية الى اغلاق مكاتب م. ت. ف. في القدس . «لكن الأمور تغيرت بعد ذلك» كما يستذكر سامي . ففي٣٠/ ٥/ ١٩٦٧ وصل الشقيري الى عمان عائداً مع الملك حسين من القاهرة ، حيث وقع العاهل الأردني اتفاقية دفاع مشترك مع جمال عبد الناصر ، واضعا قواته المسلحة تحت قيادة القوات المصرية . يقول سامي : «كنا سعداء جدا بأن العرب في النهاية كانوا يجمعون زخمهم لمواجهة اسرائيل ، ثم أُحبطنا بما حدث» .

كان سامي يبلغ الخامسة عشرة من عمره في ٥/ ٦/ ١٩٦٧ حينما بدأت الحرب وقد كثرت الاشاعات التي قالت انه سيكون هناك قتال ضار في الليل لأن الجنود الأردنيين والاسرائيليين تبادلوا نيران المدفعية في وقت مبكر من اليوم . ذهب سامي لزيارة الجنود الأردنيين على الضفة الشرقية ، ثم عاد الى يعبد ليجد ان لا أحد في منزلهم . وحين سأل الجيران ، أجابوه ان أسرته ذهبت الى كهف بالقرب من بستان تين في مزرعتهم . وحينما وصل الى الكهف ، رأى والده وهو يجرف الأوساخ بسرعة عن الجدران من أجل توسيع الملجأ . كذلك ، فان والدته كانت هناك الى جانب خمسة وعشرين شخصاً آخرين محتشدين مع بعضهم يتشاورون. ويستذكر سامي «كان هناك ازدحام شديد ، ولم يكن هناك مكان للنوم ، وكنا نجلس فوق بعضنا» .

خلال الليل وقعت معركة ضارية حولهم ، اذ يقول سامي : «كنا في الوسط بين الجيشين : الأردني والاسرائيلي» . وداخل الملجأ ، كان باستطاعتهم سماع صوت انفجار القنابل الملقاة من الطائرات المقاتلة الاسرائيلية ، كما كان باستطاعتهم رؤية الأضواء الساطعة لقنابل المدفعية المنفجرة حولهم . وحينما أشرق الفجر ، كان كل شيء قد هدأ . لم يكتشف الاسرائيليون مخبأهم ، وعادت عائلة الكيلاني الى يعبد . كانت القرية قد دمرت وسويت بالأرض نتيجة القصف الذي استمر طوال الليل . يقول سامي : «قصفت العديد من المنازل ، وكانت أسلاك التيار الكهربائي على الأرض ، وقد سمعنا ان بعض الناس قتلوا جراء القصف ، وانه كان هناك ما

يشبه المذبحة في الميدان الرئيسي ، السوق الرئيسي للقرية» .

عندما عاد الى البيت ، اتجه سامي نحو راديو الترانزستور محاولاً سماع ما كان يقوله جمال عبد الناصر . ويستذكر سامي : «لقد احترمنا ذلك الرجل كثيراً جدا ، واعتبرناه رمزا» غير انه لم يستطع ضبط موجة الاذاعة المصرية ، وكل ما استطاع سماعه هو (كول اسرائيل/صوت اسرائيل) الذي كان يوجه تعليماته الى سكان الضفة الغربية لرفع أعلام بيضاء فوق منازلهم ، مع وعود بأنه لن يلحق بهم الأذى .

وخلال ستة أيام انتهت الحرب : انتصار فريد للاسرائيليين ، وخزي موجع للدول العربية .

بالنسبة الى سامي ، فان الانتصار العسكري الخاطف كان له أثره الشخصي والدائم . فحينما عاد الى يعبد صباح ٦ حزيران وجد ان أحد أقرب أصدقائه اليه قد أصيب بجروح بليغة نتيجة القصف الاسرائيلي . وقد قال نايف أسد لسامي انه جُمع مع الرجال الشباب والفتيان كلهم في القرية ، وأُمروا بان يقفوا جنبا الى جنب تحت شمس حزيران الساطعة ، وقد قيدت أيديهم الى ظهورهم في الساحة الرئيسية للسوق . كانت حرارة منتصف النهار شديدة جداً ، حتى ان أحد الرجال حاول الوقوف تحت ظل بناية مجاورة لكن «الاسرائيليين اعتقدوا انه كان يحاول الفرار فأطلقوا النار : فقتل خمسة في اللحظة نفسها ، وجرح العديدون ، وكان صديقي أحد أولئك الجرحى . وقتل آخرون نتيجة القصف ، وكان اثنان منهم في مثل عمري ... ووضعت تلك الحادثة بصماتها على حياتي كلها» . وقد وطد العزم على الانتقام .

بعد مرور سنة على ذلك ، كانت هناك مواجهة لسامي الكيلاني مع الاسرائيليين اذ كان والده في مشكلة مع المحتلين الذين اتخذوا اجراءات صارمة ضد مزارعي التبغ . يقول سامي : ان تصنيع السجائر في البيوت كان «ممنوعا لأن الحكومة تعتبر السجائر شيئاً قابلا لدفع الضريبة ولا تستطيع بيعه بدون أن تدفع الضريبة» . ويضيف مبتسما : «كانت تلاحقنا قوات الجمارك الاسرائيلية» .

كان سامي يتوق لأن يصبح واحدا من الفدائيين «غير انني لم أكن كبيرا بما فيه الكفاية كي أكون واحدا منهم» . وعوضا عن ذلك ، فقد قرر كتابة بعض

الكراسات المعادية لاسرائيل بهدف توزيعها في شوارع يعبد ، والتظاهر ضد الاحتلال ، يقول : «كان يجب علينا ان نفعل شيئاً» وبمساعدة اثنين من مدرسيه في المدرسة الثانوية ، كتب اعلانات جدارية تقول : «فلسطين عربية» و «لا للاحتلال» . ونظموا مسيرة طلابية عبر شوارع يعبد ، واعتقل العشرات من المواطنين ، بمن فيهم سامي واستاذه حمد فضل الطاهر ، وقد استدعيا الى مركز شرطة جنين للتحقيق : «كانت المرة الأولى التي واجهت فيها التعذيب لأننا ضربنا بالاسلاك الكهربائية وصفعنا وأُهنا بكل طريقة» وتم ترحيل أستاذه الى الأردن في حين استدعي والد سامي الى جنين «وأجبر على التوقيع على كفالة بأنني لن أشارك في أي مظاهرة» ثم أطلق سراح النشط البالغ من العمر خمسة عشر عاماً .

وعلى امتداد السنوات التالية ، عمل سامي على أن يبقى بعيدا عن المشاكل ، مركزا اهتمامه على دراسته ، ثم تخرج من المدرسة الثانوية عام ١٩٧٠ وحصل على شهادته الجامعية في العلوم من الجامعة الأردنية . وبعد ان عمل لمدة سنة في عمان عاد الى الضفة الغربية ، حيث حصل على درجة الماجستير عام ١٩٧٦ من جامعة النجاح في نابلس ، والتي كانت آنذاك كلية لتدريب المعلمين . وخلال السنة التالية ، قام بتدريس الفيزياء في الجامعة ، وطور بسرعة مجموعة أتباع له بين أوساط الطلبة الشباب .

لكن في شهر تشرين الثاني ١٩٧٧ ، هز حدث مفاجىء وعنيف عالم سامي الكيلاني . فقد قام أنور السادات رئيس مصر ـ خليفة بطل طفولته جمال عبد الناصر الذي هُزمت بلاده في الحرب مع اسرائيل منذ ثلاثين سنة ـ بزيارة اسرائيل . كانت تلك الزيارة بالنسبة الى سامي ، قمة الخيانة للقضية الفلسطينية : فزعيم أكبر وأقوى دولة في العالم العربي ، يسافر الى القدس ، عاصمة الدولة اليهودية ، ويتحدث الى الشعب الاسرائيلي من مجلس نوابهم : الكنيست . ومرة أخرى دعا الى المقاومة ؛ كان ذلك واجبه تجاه شعبه . ويعترف سامي : «وزعنا كتيبات توضح اننا ضد هذه الخطوة الوقحة على حساب الحل الشامل . وقد ساعدت في كتابة هذه الكراسات» .

في العام ١٩٧٧ ـ واذ لم يعد سامي طفلا ـ فانه لم يكن محظوظا لفترة طويلة بعد أن أطلق والده سراحه . فقد اعتقل ، وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات بسبب «التحريض» وهي تهمة ، كما يقول سامي «بقيت ملازمة لي طوال حياتي» .

أرسل سامي في البداية الى سجن جنيد في نابلس ثم الى سجن جنين . وخلال السنتين الأولين كان والده يأتي لزيارته لمدة نصف ساعة في الشهر ، ثم لم يَعُدْ يزره . وخلال السنة الثالثة ، انقطع والده عن زيارته ، فكان سامي يسأل والدته عن السبب : «كنت أسأل [لماذا لا يأتي ؟ ماذا حدث ؟ هل هو زعلان مني ؟]» . وقد اعتقد سامي ان والده كان يلومه لأنه كان الأكبر بين الأبناء الستة وان والديه يعتمدان على راتبه المتواضع كمدرس لاعالتهم . ويستذكر ان الأمر كان في غاية الصعوبة بالنسبة الى والدته عائشة حينما اعتقل في البداية : «انني أكبر الأبناء وقد عدت من الجامعة وبدأت مساعدة العائلة . ثم فجأة حكمت بالسجن لمدة ثلاث سنوات . كان ذلك صدمة لها ان تزورني في السجن ، وكان باستطاعتي ان أرى في الوقت نفسه انها تحاول ان تريني وجهاً آخر ، بمعنى انها كانت تحاول معالجة الأمر ، لكنني كنت أدرك أنها كانت تعاني لأن أشقائي الآخرين الذين أكبرهم بخمس سنوات لم يكونوا قادرين على كسب عيشهم ، وكان والدي قد بدأ يقع فريسة المرض ، فبدأت تعمل في جمع الزعتر ، والقيام بأي شيء لمساعدة العائلة» .

ثم ، قبل يومين من اطلاق سراحه من السجن في عام ١٩٨٠ ، تلقى سامي النبأ . لقد كان «واحدا من أكثر الأحداث قسوة ومأساوية في حياتي» اذ ان لا أحد من عائلته كان قد أخبره ان والده البالغ من العمر خمسة وخمسين عاما لم يعد يأتي الى السجن لزيارته بسبب المرض الذي أصابه : نوع نادر من سرطان الدم استنزف قوته بشكل تدريجي الى ان قتله في النهاية . ولن ينسى سامي على الاطلاق كيف علم بموت والده . فقد طلب آمر السجن نقله الى زنزانة خاصة ، فاعتقد سامي ان ذلك كان تمهيدا لاطلاق سراحه بعد ثمان وأربعين ساعة . يقول سامي : «حضر وكان يتكلم باللغة العبرية ، فأسأت فهمه ... اعتقدت انه كان يتحدث عن بعض أعمال العصيان أو عن شيء حدث في غرفة أخرى ، وبما أنني كنت أحد زعماء السجن ، اعتقدت انه كان يريد مني التحدث بخصوص ذلك» . وأخبر سامي الاسرائيلي ان ليس لديه ما يفعله بشأن أي شيء من هذا القبيل ، ولأنه لم يَبْقَ لديه سوى يومان لاكمال مدة سجنه فانه كان يريد الحفاظ على أنفه نظيفاً . غير ان آمر السجن قال : «لا ، ليس الأمر كذلك» ويقول سامي : «ثم فهمت انه كان قد تحدث مع الحاكم العسكري لجنين» . ومع ذلك ، وبما ان آمر السجن كان يتكلم بالعبرية فقط ، ولم يكن سامي طليقا بهذه اللغة ، فان الأمر

دعا أحد حراس السجن وهو عربي اسرائيلي وذلك من أجل ان يتحدث الى سامي باللغة العربية . وقال له : ان من الصعوبة بمكان بالنسبة اليه ان ينقل اليه أنباء غير سارة ولكنه أُمر بذلك . ويستذكر سامي ان الحارس قال له «انه يشعر معه» ثم أخبره : «لقد توفي والدك» . وفجأة أدرك سبب عدم زيارة والده له خلال السنة الماضية . وأحس سامي بأنه مذنب ثم «بكيت بصمت» كما يقول .

في البداية ، لم تكن السلطات الاسرائيلية راغبة في اطلاق سراحه للمشاركة في الجنازة . غير ان ممثلي الصليب الأحمر الدولي ـ الذين كان يعمل كمترجم لهم في السجن ـ أقنعوا الاسرائيليين بعد إلحاح بالسماح له بالذهاب . ويستذكر سامي قائلا : «أتوا وأخذونى الى القرية . ذهبت وكانت ترافقني سيارتا جيب عسكريتان وكانت يداي مقيدتين الى أيدي رجال الشرطة ... سرت طوال الطريق الواصل بين بيتي وبين المقبرة ورجلي الشرطة ملتصقين بي ، في حين سارت سيارتا الجيب بموازاتنا حتى الدفن . أخذوني الى البيت حيث كان مسجى . ثم عدت لأقضي اليومين المتبقيين في السجن» .

خلال الفترة الأولى من سنوات السجن الثلاث ، كان لدى سامي متسع من الوقت ليفكر مليا في كيفية قيامه بخدمة عائلته والقضية الفلسطينية بشكل أكثر فاعلية مما كان قد فعل : «جمعت أفكاري وبدأت أتفهم النضال من وجهة نظر انسانية» . ويقول انه وبشكل ملفت للنظر لم يكن ممتلئا بروح الانتقام ، ولكن عوضا عن ذلك برغبة في القيام بمساهمة أكثر ثباتا من أجل النضال في سبيل حق تقرير المصير . ويقول سامي ان تلك السنوات ـ التي امتدت بين سن الخامسة والعشرين والثامنة والعشرين ، وهي السن التي تزوج الشباب الآخرون خلالها وكونوا أسرا لهم ـ قد أجبرته على أن يصبح عمليا أكثر : «لا أقول معتدلا أو متطرفا ، ولكن أقول انني أصبحت واقعيا» .

ويعتقد أن وفاة والده قد جعلت والدته وعائلته أقوى من ذي قبل . يقول مفتخرا : «ان غيابي مدة ثلاث سنوات قد ساعد على تطورهم ... فنحن ، مزارعو تبغ .. ان هذا النوع من الزراعة يتطلب من الزوجة ومن الزوج ومن جميع أفراد العائلة العمل معاً . وبعد أن أطلق سراحي بدأ شقيقي أحمد ينخرط في النضال وتم اعتقاله . كنت الى جانب والدتي في ذلك الوقت ، فأعطيتها شيئا من القوة . ثم

أخذت العائلة كلها تذهب الى السجن بما في ذلك احدى شقيقاتي . وقد جعلها هذا الأمر قوية» .

ان الوسيلة التي استخدمها سامي في مقاومته لم تكن السيف ولكن القلم . فقبل مرور أقل من سنة على اطلاق سراحه ، نشر أول كتاب له ، وهو مجموعة من القصص القصيرة التي كانت تدور عن الأرض وعن التضحيات التي رأى والدته وهي تتحملها . وكان عنوان هذه المجموعة (الزعتر الأخضر) . في ذلك الوقت ـ في صيف عام ١٩٨١ ـ ظهرت قصصه وكأنها شوكة في جنب اسرائيل ، شوكة واخزة كانت تثير السلطات في كل مرة كانت تظهر فيها قصيدة أو جزء من رواية في صحيفة فلسطينية محلية .

ويتذكر سامي انه حينما دعي للاستجواب من قبل «الحاكم العسكري نفسه» فان ذلك كان وسام شرف له أفضل من أي مراجعة اطراء لأعماله الأدبية . فقد سأله الحاكم العسكري : «هل تعلم لماذا أنت هنا ؟» وللوهلة الأولى ظن سامي ان ذلك كان ليسمع الأخبار الطيبة بأن سيسمح له بالسفر الى تركيا للحصول على شهادة الدكتوراة ، اذ انه كان قد حصل على قبول في برنامج الدكتوراة في معهد الشرق الأوسط للتكنولوجيا في جامعة أنقرة ، غير ان الطلبات السابقة التي كان قد تقدم بها من أجل الحصول على تصريح مرور قد أهملت من قبل ، وان من المحتمل انه تم الغاء القرار ، والا لماذا يريد الحاكم نفسه رؤيته ؟ وأجابه سامي : «آمل أن لديك ردا ايجابيا بشأني» فنظر اليه المسؤول الاسرائيلي بدهشة وقال : «لا ، ليس ذلك من طبيعة عملي ... انه من شأن الاستخبارات ، الشّين بيت» فقال له سامي بأنه ليست لديه أي فكرة عن سبب استدعائه ؛ فسأله الحاكم فيما اذا كان قد كتب مجموعة (الزعتر الأخضر) فأجابه سامي بالايجاب ، وانه قدم إفادتين محلفتين في مناسبتين الى الشرطة حينما اتهموه بكتابة قصص تحرض على الاضطرابات وبغض اليهود . فقال له الاسرائيلي : «أجل ، أعرف ذلك ، ولم يتوصلوا الى أي شيء يمكن أن يستخدم لاتهامك رسميا به لكنني أيضا أقول لك بوضوح وبمنتهى الصراحة : نريد منك التوقف عن كتابة هذا الخليط الخطر من الأدب والسياسة» .

قال سامي للحاكم ان العديد من القصص قد نشرت سابقا في دوريات عربية كانت تقدم محتوياتها الى الرقابة الاسرائيلية . ان دار القدس للنشر التي أصدرت

كتابه كان عليها أن تقدم محتويات الكتاب من أجل الحصول على الاجازة الرسمية وقال : «ان هذه القصص هي أدب ومن حقي كتابتها ... وحتى اذا كان [الكتاب] إجراميا فان ذلك ليس ذنبي ولكن ذنب الناشر الذي يجب ان يعتقل» وأجابه الحاكم : «أجل ، فنحن نعرف انك تعمل ضمن القانون ... ولكنك تلعب ضدنا ضمن هذه الدائرة ... يمكننا معاقبتك دون احتجازك ودون توجيه تهم رسمية ضدك ودون الاستعانة بمحاميتك فيلتسيا لانغر» . فسأله سامي : «ما الذي تريدني أن أفعله ؟» فأجابه الحاكم : «نريدك ان تتوقف عن الكتابة ، ما ردك؟» وأجابه سامي ان من المستحيل التنبؤ بما سيفعله : «ربما أكون الآن متحمسا وغير خائف فأقول [نعم ، سأكتب] وحينما أغادر هذا المكان سأشعر بالخوف منك وأعدك بأنني لن اكتب وحينما أغادر سأكتب . ليس عليّ ان أعطيك إجابة». فقال له الحاكم : «سوف يلقى القبض عليك اذ واصلت كتابة هذه الأوراق» . ويقول سامي انه كان يعرف ان الحاكم كان صفقا وانه (سامي) كان يشعر بالخوف : «في ذلك الوقت ، كان باستطاعته ان يعاقبني فعلاً» .

لكن سامي لم يتوقف عن الكتابة والنشر ، اذ صدر له كتاب ثان عبارة عن ديوان شعر وكان ذلك في شهر آب ١٩٨٢ ، وكان اسم الديوان (وعد جديد لعز الدين القسام) . ويقول سامي : «في هذه المرة حضروا الى بيتي في نابلس لاعتقالي ، وكنت قد تزوجت مؤخرا . قاموا بمصادرة نسختين أو ثلاث من كتابي» . ولم يؤخذ الى مكتب الحاكم هذ المرة ، وانما الى مقر القيادة العسكرية في جنين حيث قام ضابط اسرائيلي اسمه موشي إيلاد باستجوابه . يقول سامي «قال عن نفسه انه مستشار الحاكم العسكري للشؤون العربية» وكان ايلاد اسما سيصبح مشهوراً . ووضع هذا الشاعر الفلسطيني الممتاز تحت الاقامة الجبرية ، وكان عليه كل اسبوع لمدة الستة والثلاثين شهرا القادمة ان يثبت وجوده لدى موشي ايلاد ، أو كما أصبح يعرف في كتاب سامي التالي «العم موشي» . وأصبح موشي ايلاد الحاكم العسكري لجنين . ووفقا لما ترويه غالبية التقارير ، فان ايلاد كان حاكما غير عادي بشكل ما ، اذ كان رجلا عسكريا جيد الثقافة ، متواضعا ، باحثاً ، حصل على درجة الماجستير من جامعة حيفا ، ووفقا لما يقوله مراسل صحيفة هآرتس أوري نمير فانه كان «لايشبه الآخرين ، كان دمثاً جداً» .

لكن لم يكن هناك شيء ليبعث الاطمئنان من جديد في نفس سامي كيلاني فيما

يتعلق بالسنوات الثلاث من حياته الممتدة بين عامي ١٩٨٣ ـ ١٩٨٥ حينما وضع تحت الاقامة الجبرية في يعبد وكان عليه ان يثبت وجوده لدى العم موشي بشكل منتظم . يقول مفضلا السجن على وحدة وبؤس الاقامة الجبرية : «أعتقد أن هذه الفترة كانت الأسوأ في حياتي ... بعيداً عن عملي وعن بيتي في نابلس» . ويتابع سامي انه توجد في السجن صداقة حميمة بين السجناء ، وتزورك عائلتك كل أسبوع أو أسبوعين ، وحتى لو كنت معزولا عن العالم الخارجي ، فان العزلة تجعل الأمر سهل الاحتمال ، أما حين توضع تحت الاقامة الجبرية «فانك تكون محجوزاً في هذه القرية دون أي نشاطات ، ودون عمل ، ولا تفعل شيئا ، وتشعر في الوقت نفسه انك مسؤول عن عائلتك . يجب عليك ان تفعل شيئاً . في السجن ، فانك معذور لأنك لا تستطيع ان تفعل شيئاً ، ولكن حينما تكون خارج السجن تشعر انك مسؤول ، وأن عليك ان تفعل شيئاً من أجلهم» .

ويقول ان شهور الشتاء هي الأكثر صعوبة . فزوجته (نهى) وهي مدرّسة في مدرسة (عنبتا) وهي قرية صغيرة بالقرب من نابلس ، عاشت مع والديها من أجل المحافظة على راتبها المتواضع ، وهو المورد الوحيد الذي يمكن الحصول عليه بينما سامي تحت الاقامة الجبرية ، وبذلك كان بامكانها اطعام وإكساء طفلهم الأول ، الطفلة زويا ، التي سموها تخليدا لبطلة المقاومة الأوكرانية البالغة من العمر ستة عشر عاما التي أعدمها النازيون شنقا . كانت (نهى) وعائلتها يزورونه مرة كل أسبوع «مثلما كنت في السجن» ويستذكر سامي ان هذ الزيارات كانت تبعث على الألم لأنه كانت هناك دائمًا بعض المشاكل مع طفلتهما «ومن المفروض فيك ان تساعد على حل هذه المشاكل ، غير انك نفسك بحاجة الى المساعدة في هذا الوضع الصعب جداً ... لقد كانت أصعب بكثير جداً من فترة السجن نفسه» .

واستغل سامي وقته في يعبد ليعطي دروساً خصوصية لطلبة المدرسة الثانوية الذين كانوا بحاجة الى المساعدة في دروس الفيزياء والعلوم الأخرى ، وساعد على تأسيس اتحاد جديد لمزارعي التبغ . لكن في معظم الوقت كان يكتب : «تقريبا ، فان قصصي القصيرة كلها جزء من تجربتي الخاصة : فبعضها يتحدث عن السجن وحياة السجن ، وبعضها عن الحياة في ظل الاقامة الجبرية ، والبعض الآخر عن الحياة في القرية . ولكن في كل قصة قصيرة يمكنك ان تشعر ببصمات تجربتي مطبوعة عليها» .

أمــا أحب قصصه اليه فهي قصة (هنا الأنباء) وقد كتبت خلال الفترة التي كان سـامي يثـبت فـيها وجوده لدى موشي إيلاد كل أسبوع : «لقد ظن ان وجودي في القـرية كان مصدر كل عصيان وبالتالي كان يحاول القيام بكل شيء ليجعل الحياة صعبة بالنسبة الـيّ ... وبطريق الصدفة تركت شخصيته لمسات عديدة على أدبي ، لأن الأمر كان فعلاً عملية تحدي شخصية بيني وبين هذا الرجل» .

في القـصـة هذه ، يمـوه سـامي هويتـه ، فـتظهر الشخصية الرئيسة شخصية سكرتير نقـابة صغيرة في قرية ريفية . في يوم من الأيام ، وهو في طريقه الى مكتب البريد الواقع في سـاحـة القـرية ، يجيء سـاعي البريد الى سكرتير النقـابة بأنبـاء مـفـادها ان مكتب الحـاكم العسكري يبحث عنه : «يريدونك ان تذهب الى هناك» . وحـينما عاد الى البيت ليخبر زوجته ، ينتابها القلق الشديد ، وتتخوف من امكانية ان لا يعود أبداً . فقال لها النقابي الفلسطيني : «لا تقلقي ، انني ذاهب لتناول غذاء شـهي مع العم مـوشي ... أصريت على عدم المغادرة قبل أن أجعلها تضحك» . هكذا يقـول سـامي ، مـواصـلا اعادة سرد القصة وكأنه كان الشخصية الرئيسة فيها ، والذي هو بالطبع .

وحـينما يصل الفلسطيني الى مـقـر القيادة العسكرية الاسرائيلية ، يثور الحاكم سـاخطا بشـدة ، ويبدأ بالصراخ عليه : «انك سبب كل مشكلة أواجهها» ويتابع ... الخ . ويأمره بالتخلي عن بطاقة الهوية ، ويعلمه انه من الآن فصاعدا عليه ان يثبت وجوده كل يوم لدى مركز الشرطة في جنين بغض النظر عن الحالة الجوية . ومن أجل مـعـاقبة هذا الفلسطيني النشط ، كانت الشرطة تبقيه هناك حتى وقت متأخر من الليل ، ثم تطلق سراحـه ، ولكن دون أن تسأله حـتى ولو سـؤالا واحدا أبداً . وكـان يحـاول تزجـيـة الوقت من خـلال قـيـامـه بعد بلاطات الأرض والدرج ، والقضبان الحديدية الموجودة على النافذة . ويسأله سجين فلسطيني آخر استدعي هو ايضا : «مالذي تفعله ؟» فيجيبه سامي : «أحاول تزجية الوقت» فيقول المعتقل الثاني: «وفر وقتك.. فقد قام شخص ما بتعداد كل شيء وهو مكتوب على الجدار».

واقـتنع بذلك . فـهناك القـائمة : العدد الدقيق للبلاطات ، والدرجات ، وقضبان النوافـذ . ويبـدأ النقابي يفكر في وضعه . ان غالبية هؤلاء الذين استدعوا الى مركز الـشرطة يتـوقـعـون اعـتـقـالهم والذهاب الى الـسجن لشـهـور أو سنوات . وهم

مستعدون لقبول حقيقة انهم لن يروا عائلاتهم ، ومع ذلك فانهم يشغلون أنفسهم بحساب عدد البلاطات ، والدرجات ، والقضبان الحديدية لنوافذ السجن . وقال لنفسه : «ان الانسان قوي فعلا . وواحداً تلو الآخر يأخذ كل واحد من أولئك الذين أمروا باثبات وجودهم بالذهاب الى بيته ، كلهم باستثناء بطل سامي ، النقابي . ويقترب الوقت من منتصف الليل ، ويفكر في أن التأخير ناجم عن حقيقة ان المسؤولين يعدون مذكرة اعتقاله وانهم على وشك ترحيله . لكن رئيس الشرطة يصل ويقول ان باستطاعة سامي ان يأخذ بطاقة الهوية ، ويذهب الى بيته «سمعته يقول لضابط آخر وهو يضحك ضحكة مجلجلة [كيف سيصل الى بيته في هذه الليلة الشتائية الباردة !]» .

حينما يغادر الفلسطيني المركز ، يحاول العثور على سيارة تكسي ، ولكن ليست هناك من سيارة في تلك الساعة ، فينادي على سيارة خاصة تعمل «كسيرفيس» . وعلى الرغم من أن السائق رآه وهو يخرج من مركز الشرطة ، وها هو يرى من خلال هيئته المشعثة أن من المحتمل ان يكون غير قادر على ان يدفع ، فانه يوافق على أن يوصله الى البيت ، الى يعبد : «وحينما حاولت أن أدفع له رفض ، وقال [لا أنا أعرفك وأعلم ما الذي حدث لك]» .

يذهب النقابي في البداية ليلقي التحية على الجيران ، وهو لا يريد أن يرى زوجته مباشرة لأنه متأكد انها تعتقد أنه سجن بعيداً عن البيت . وبينما يدخل غرفة المعيشة في بيت مجاور ، تكون نشرات الأخبار قيد البث من الراديو . وتورد احدى النشرات ان ليخ فاليسا ـ زعيم نقابات التضامن البولندية ـ قد استدعي من قبل السلطات الشيوعية الى مركز شرطة غدانسك . وتقول النشرة ان فاليسا أطلق سراحه بعد ساعتين من الاستجواب . ان السخرية لا تفارق هذا الفلسطيني المغمور . ويقول لنفسه : «أي عالم هذا ؟ أخبار عالمية عن ان ليخ فاليسا اقتيد الى مركز الشرطة ، واستجوب مدة ساعتين . وفي الوقت نفسه ، فانني أقتاد الى هناك ليلا ونهارا طوال هذه الاسابيع والشهور من المعاناة» .

وعلى الرغم من أن سامي هو عضو اللجنة التنفيذية لاتحاد الكتاب الفلسطينيين وانه نشرت له أربعة كتب ، الاّ ان شهرته لم تساعد على ابقائه خارج السجن . يقول : «لقد قضيت الكثير من حياتي وأنا أدفع ثمن كتابتي» ويتابع ساخرا «في

أوروبا وفي الغرب يحصل الكتّاب على شيكات ثمناً لكتبهم ، لكننا هنا نحصل على لوائح التهم» .

في منتصف شهر تشرين الثاني ١٩٨٧ ، وقبل أسبوعين فقط من بدء الانتفاضة القي القبض على سامي الكيلاني مرة ثانية مع خمسة فلسطينيين آخرين بتهمتين : التحريض ، والعضوية في منظمة معادية «مرة يسمونها م. ت. ف. ومرة أخرى الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين» هكذا يقول هازثاً . وحكم عليه في البداية لمدة ستة شهور من التوقيف الإداري . ويوضح راجي الصوراني رئيس مركز غزة للحقوق والقانون ، وهو فرع من المفوضية الدولية للقانونيين : «بالطبع ، لايمكنك الدفاع عن نفسك لأن الادعاء العام سيقول ان لديه وثائق سرية» . ويضيف الصوراني ، الذين فاز عام ١٩٩١ بجائزة روبرت ف. كندي لحقوق الانسان «ان ذلك يشبه مواجهة شبح» . فالمتهم ليس له حق الاطلاع على الملف المقدم الى الادعاء العام من قبل الشين بيت ، والمحامون الفلسطينيون «ليس لديهم وحي أو الهام من الله ... انهم يريدون مواد ملموسة ، دليلا ، لائحة اتهام ... الخ وليس هناك شيء من هذا القبيل موجود ، ولذلك فانك لا تستطيع الدفاع عن موكلك . انه أمر يشبه اليانصيب» .

بعد ان قضى سامي الشهور الستة الأولى من السجن في جنيد ، تم تمديد الفترة لمدة ستة شهور أخرى . وفي شهر آب ١٩٨٨ بعد مرور تسعين يوماً على بدء مدته الثانية ، قرر الاسرائيليون نقله ونحو مائة سجين آخرين الى معتقل أنصار ٣ ، وهو مخيم عسكري في كتسيوت في صحراء النقب . وفي اليوم السابق لليوم المقرر للترحيل ، كانت زوجة سامي على وشك إحضار ابنته وابنه المولود حديثاً (محمد) للمرة الأولى : «كنت أهيء نفسي للزيارة ، وارتديت ملابس مرتبة - ولم يكن لدي مكوى ، ولكن يمكنك ان تضع الثياب تحت الفرشة بطريقة معينة - وأحضرت شيئاً من السكاكر لزويا . وفجأة ، في اليوم الذي سبق مجيئهم ، تم ترحيلنا الى معسكر أنصار ٣ ، وقد تركت هناك بعض الأعمال الأدبية غير المكتملة» .

أُحضرت ثلاثة باصات كبيرة الى سجن جنيد ، وكان قد تم تجميع السجناء أمام زنازينهم منذ الساعة التاسعة صباحا ، وقد قيدت أيديهم ، وعصبت عيونهم وتم وضعهم في الباصات بعد ساعة من وصولها . ولمدة أربع ساعات أخرى

وقفت الباصات بلا حراك تحت حر شهر آب المتقد قبل ان تبدأ رحلة الساعات الخمس الى مقر اقامتهم الجديد . ويستذكر سامي ان الباصات كانت بمثابة علبة معدنية ، فلم يكن هناك حتى ماء للشرب ، وكان هناك صراخ متواصل عندما احتج الفلسطينيون المتعبون على بؤسهم . ويقول : «كان كل شيء على وشك الانفجار» . وفي محاولة لانهاء العصيان ، نقل عدد من السجناء من داخل الباصات ، وأجبروا على الجلوس في الخارج . وبالهمس ، فان أولئك الباقين داخل الباصات تآمروا على ازالة عصبة العينين بشكل جماعي ، وذلك من خلال تمرير ايديهم المصفدة على جباههم . يقول سامي : «قيدت أيدينا أمامنا وليس خلف ظهورنا ، وبذلك تمكنا من تحريكها» . ومن أجل انهاء هذا العصيان المسلح ، وافق الحراس في النهاية على السماح لأولئك الذين كانوا في الخارج بالعودة الى الباصات ، ووافق أولئك الموجودون على متن الباصات على إعادة وضع عصاباتهم على عيونهم ، وبدأوا جميعهم الرحلة الطويلة الى أنصار ٣ .

وأنصار هو الاسم الذي اطلقه الفلسطينيون على المجمع الصحراوي الكائن في منطقة عسكرية مغلقة ، تبعد مسافة ٤١ ميلا الى الجنوب من بئر السبع ، في حين أن الاسرائيليين يسمونه مركز توقيف كتسيوت . وبعد مرور يومين على افتتاح المعسكر في ١٨/ ٣/ ١٩٨٨ من أجل اسكان المشاركين في الانتفاضة فيه ، صدر أمر عسكري خفف التقييدات المفروضة على استخدام الاعتقال الإداري ، وبحيث سمح لقائد أي منطقة لتجديد مدة الشهور الستة تلقائياً ، وحرر القوات المسلحة من تقديم أمر الاعتقال الى القاضي العسكري خلال ست وتسعين ساعة . في البداية كان هناك أنصار ١ في جنوب لبنان ، ثم أنصار ٢ في غزة ، وأخيراً هناك أنصار ٤ في خان يونس ، بالاضافة الى معسكر أنصار الأصغر في بلدة عناتا بالقرب من القدس ، وقد سمي كذلك بسبب وجود عدد قليل من المعتقلين فيه .

وأنصار ٣ مقسم الى أقسام وأقسام فرعية في كل قسم منها خيام بيضاء ، مرتبة جميعها بدقة على شكل صفوف . وفي كل قسم فرعي ما بين ثماني الى عشرة خيام مسيجة بأسلاك شائكة مزدوجة ، ويفصل بين هذه الخيام ممر ضيق بعرض ستة ياردات لتمكين الجنود من القيام بأعمال الدورية . أما فيما يتعلق بالخيام ، فان كل خيمة تتسع لعدد من السجناء يتراوح بين العشرين والخمسة والعشرين سجيناً ، وخارج كل قسم فرعي يوجد حارس يقوم بأعمال الحراسة

لمدة أربع وعشرين ساعة يومياً ، ويقول سامي ان لدى هذا الحارس «ذخيرة حية».

لدى وصولهم ، طُلب الى السجناء خلع ملابسهم المدنية ، وأعطي كل واحد منهم زيا موحدا أزرق أو بني اللون بالاضافة الى مجموعة من الملابس الداخلية ، وقامت اللجنة الدولية للصليب الأحمر بتزويد الاسرائيليين بعدد محدود من القبعات ذات اللون الأبيض صنعت لحماية السجناء من حرارة الصحراء اللاذعة . يقول سامي : «حينما وصلنا لم تكن هناك قبعات ، اذ كانت قد نفدت ، وعلى أي حال لم يكن يسمح لنا بارتدائها تحت الشمس» .

في كل يوم ، ولثلاث مرات في اليوم يتم جمع الفلسطينيين في صفوف ، ويتكون كل صف منها من عشرة أشخاص ، ويؤمرون بالوقوف بين خيامهم من أجل إحصاء عددهم . يقول سامي : «في بعض الأحيان كانت تمر أكثر من ساعة» قبل أن يصل المسؤولون . وكان الإجراء أيضاً يتغير باستمرار . ففي بعض الأحيان يكون كل قسم فرعي حرا في العودة الى خيامه حالما يتم تعداد السجناء ، وفي مناسبات أخرى كانت الأقسام الفرعية تنتظر حتى تكتمل العملية كلها . وبالاضافة الى تفقد الحضور ثلاث مرات يوميا ، هناك أيضاً جلسات طارئة «حينما يوقظونك عند الساعة الثانية صباحاً» كما يقول سامي . وحينما يتلى كل اسم ، فان على السجين أن يذكر رقمه . يقول سامي : «لقد أخذت أربعة أرقام . فمرة كان رقمي ٤٥٠٢٤ ، وآخر رقم كان ١٣٠٠٠» ثم كانت هناك عمليات التفتيش العامة ، والتي كانت تستمر مدة ثلاث ساعات : «فقد كان عليك أن تخرج كل شيء خارج الخيمة : الفرشة ، قطع الاسفنج ، الألواح الخشبية للسرير ، والبطانيات . عليك أن تخرجها الى الخارج تحت الشمس الحامية ، وأن تكدسها فوق بعضها ، ثم يأتوا من أجل التفتيش» .

يقول سامي : ومن بين الأشياء التي يبحث الاسرائيليون عنها القلادات الحجرية التي ينحتها السجناء وينقشون بإبر صغيرة عليها صورة الابنة أو الزوجة أو الأم ، لتقدم هدايا اليهن يوم الزيارة . ان تحويل هذه الحجارة القاسية الى قلادات يتطلب الكثير من الصبر : «نصقل وجه الحجر بالذهاب الى الحمام . فالأرض هناك من الحجر المستخدم لرصف الشوارع ، ونبقى نحكها بها

ساعات وساعات» . وفي النهاية ، يصبح وجه الحجر نظيفا ، ويأخذ شكله شكل المثلث أو المربع . وبعد أن تحفر الصورة على الحجارة ، يحفر ثقب صغير بالقرب من أعلى القلادة ويؤخذ خيط من الجورب يتم تطويله من خلال تعليق شيء ثقيل به مثل قطعة صابون . وحينما يكون الجورب ملونا ، فانه يصبح خيطا رائعاً «وقد كانت عملاً فنياً رائعا . كنا في بعض الأحيان نقضي أكثر من شهر ونحن ننحت حجراً واحدا . انه شيء يمكنني ان أزعم أنني كنت أول من قام به في السجن» . ان القلادات شائعة جداً لدى النساء الفلسطينيات لدرجة ان صديقة لابنة سامي البالغة أربع سنوات من العمر عاتبت والدها لأنها ليست لديها واحدة مثلها ، قائلة له : «لماذا لا تذهب الى السجن وتقدم لي هدية مثل والد زويا ؟» . وقال سامي لابنته زويا انه ليس على والد صديقتها أن يدخل السجن من أجل ان يعطيها قلادة ، وانه «سيصنع واحدة لها» . لكن الأمر لم يكن سهلا ، اذ ان الاسرائيليين كانوا يقومون بشكل متواصل بمصادرة القلادات «واكتشفنا أن الكثيرين من الجنود يقدمون القلائد كهدايا لصديقاتهم أو زوجاتهم» .

ان بعض الفلسطينيين فنانون موهوبون لدرجة ان باستطاعتهم إنتاج صناعات يدوية من أنابيب معجون الأسنان ى معجون الحلاقة وعلبة السجائر الفارغة ، و القداحات البلاستيكية . «وفكرت في أن أقسم القداحة الى قسمين وملئها بصورة» . في البداية ، حاول سامي أن يملأ الفراغ الموجود خلف البلاستيك بالخبز الذي استخدمه بمثابة قماش القنب «غير انه كان مبللا وبالتالي فان الرسمة تلفت» . ويقول انه جرب شيئاً آخر : «صنعت خليطا من معجون الأسنان والخبز ، لكن المعجون قتل الفطريات والأشنة . وأيضاً كان مبللا ، وبالتالي فانه أثر في الرسومات» . وأخيراً ، وجد تقنية أخرى سمحت للمزيج بأن يجف. ويؤكد «انني لست فنانا ولكني أصبحت كذلك . أصبح باستطاعتي أن أرسم رسومات جيدة جداً كأن أرسم وردة على وجه القداحة وعلى الوجه الآخر كنت أكتب بعض أشعاري أو أغنيات فلسطينية» . وبالنسبة الى سامي الكيلاني ، فان ذلك كان الانصهار الكامل في حياة مكرسة للعلوم والآداب ، والسياسة . وقد أصبح الحجر مجازا للمقاومة والجمال ، والقصيدة تمثيلا لمحاولته الخاصة اعطاء معنى لنضاله من أجل الوجود .

ان دربة سامي وعركته ساعدا على تقصير الأيام الطويلة في أنصار ٣ . ففي كل صباح ، كان السجناء يوقظون عند الساعة الخامسة صباحا من أجل تنفيذ أول تفقد لهم ، وكان عليهم ان يكونوا في خيامهم عند الساعة العاشرة ليلا . لم يكن يسمح بأن تكون هناك اضاءة في خيامهم ، وبالتالي فانه لا أحد يمكنه ان يقرأ . واذا ما أُمسك بأحدهم وهو يتحدث بعد منتصف الليل ، فانه يسحب الى زنزانة منفردة . وكان الروتين اليومي مقسما بين لعب طاولة الزهر ، والشطرنج وحضور الدروس التي يمكن من خلالها تعلم اللغة العبرية أو تحسين اللغة العربية . أما الطعام فقد كان غير دسم : كمية صغيرة من الفول في الصباح ، وشيء من الأرز مع كوب من الحساء عند الغذاء ، وبيضة مسلوقة أو شيء من المربى في المساء . وكان الحساء يحتوي عادة على قطعة من اللحم ـ دجاج أو سمك ـ ولكنها في الغالب نيئة أو بائتة . ويقول سامي حتى ولو ان الحراس الاسرائيليين كانوا يأكلون الطعام نفسه ، الا ان الفلسطينيين كانت لهم مقاييس أعلى ، لقد كانوا معتادين على أكل مواد أساسية مثل الخضراوات والمأكولات العربية اللطيفة ، ولذلك ـ كما يعترف ـ فان الطعام بالنسبة الى الاسرائيليين يمكن ان لا يبدو سيئا كثيراً .

خلال النهار ، وفي الليل ، كان كل فصيل ـ فتح ، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، والشيوعيون ـ يجمع مؤيديه في ندوات سرية في خيمة واحدة ، حيث يتحدث اثنان أو ثلاثة أو تكون الجلسة جلسة طرح أسئلة واجابة عنها . كان أحد النشاطات المفضلة لعبة تسمى (اعرف وطنك) ففي كل ليلة ، يقوم فلسطيني بالحديث عن المدينة أو القرية التي تنتسب اليها عائلته في فلسطين ما قبل قيام الدولة اليهودية ، ويقوم الآخرون بوضع علامة (درجة) لتقييم ادائه . ويقول سامي انه كان من المفروض عليهم ان يكونوا حذرين «لأن الاجتماع ضمن مجموعة حتى داخل الخيمة الواحدة كان ممنوعا» .

وقد انعكست التوترات القائمة بين مختلف الفصائل خارج انصار ٣ داخل المعتقل نفسه أيضاً . ويقول سامي ان خيام مؤيدي فتح كانت جامحة صعبة المراس لأنها كانت تضم في غالبيتها النشطاء الشباب ممن هم في طور المراهقة ، «والذين انخرطوا في فتح بشكل عاطفي من أجل أبي عمار [ياسر عرفات] لا بسبب انهم ناضجون سياسياً بما في الكفاية» ويقول ، مع وجود «هذا النوع من الناس ،

فـانـك لا تسـتطيع ان تقـول لهم انه سـيكون لدينا برنامج صـارم محدد ، واننا سنسـتـمع الى ثلاث محاضرات في اليـوم» . اما مؤيدو الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين فـانهم ـ وبشكل عام ـ أكبر سنا ، في منتصف العشرينات والثلاثينات من العـمر ، ويتصرفون بشكل أفضل . فقد كانوا قادرين «على اقناع شباب الانتفاضة بالالتـزام ببرنامج يومي محدد» . وكـان مـؤيدو حماس منضـبطين مـثل انضباط اليساريين والذين هم «أهل دين» بغض النظر عن أعمارهم .

وعلى الرغم من انه ليس متدينا جداً ، الاّ ان سامي يعترف انه يؤمن بالخرافات ولم يسـتمر طويلا في صنع القلائد الحجرية لأن ذلك ، كما يقول «مرتبط بتجربة سيئة جـداً في حـيـاتي . فالمرة الأولى التي فكرت فيها في النحت كانت خلال وقت مأسـاوي جداً بالنسبة الـيّ» . ففي شهر تشرين الأول ١٩٨٨ ، لم يكن الاستماع الى الراديو ومشاهدة التلفاز مسموحاً بهما في أنصار ٣ ، وكـانت الصـحـف تصلنا مـتأخرة مدة أسبوع . ولكن حينما يتم نقل وترحيل السجناء من مناطق أخرى في الضـفـة الغـربيـة ، فان شخصاً ما يتمكن بين الفينة والأخرى ، من تهريب جهاز راديو ترانزسـتـور ، وبوجـود هذا الجـهـاز ، يشكل آلاف السجناء الفلسطينيون شـبكة فـيكون هناك شـخـص مـا مسؤولا عن تتبع نشرات الأخبار بشكل سري ، وتدوينهـا، وتوزيعـهـا وسط مختلف أقسام المخيم . كان سـامي في خيمة صديق يقـرأ آخـر الأخبار ، وقد قرأ ان شابا من يعبد قتل على أيدي الاسرائيليين ، اذ كان هناك على مـا يبدو حادث رشق حجارة ، وقد أصيب ذلك الشاب الفلسطيني الذي كـان بـالقـرب من المتظاهرين في صـدره على يد اسرائيلي مـاهر في الرمـايـة ، أطلق رصـاصـتـه من سـيـارة الجيب الاسرائيلية . وغادر سامي الخيمة متخوفا من أن يكون ذلك الشـخـص أحـد معارفه . وسأل صديقه : «هل تعرف كيف يمكن لي أن أجـد تفاصيل الحادث ؟» . كان الصديق يعرف ، لكنه توقف برهة قبل ان يخبره : «أعـرف انك رجل صـبور . كنا نحاول التفكير في طريقة لاخبارك ان الاسم هو ... كـذا وكـذا . ومن خلال قراءة هذا الاسم فان الأمر غير واضح ، اذ ربما كان هناك شـخص آخـر اسمه احمد الكيلاني في القرية ، فعائلة الكيلاني عائلة كبيرة ، واسم أحمد اسم شـائع بين الفلسطينيين» . كـانت الساعات الست التالية موجعة الى حد مـؤلم بالنسبة الى سامي : «لم أعرف فيما اذا كان أحمد ، هو شقيقي ، أم شخصاً آخر».

وأخيراً ، عاد أحد الفلسطينيين الى المخيم من زيارة لمحاميه ، وقال لسامي : «أجل ، انه أحمد ، شقيقك» . كان أحمد هو الطليق الوحيد بين اخوته كلهم آنذاك . فقد أنهى لتوه مدة سبعة شهور في السجن وأطلق سراحه قبل أسبوعين . أما أخوة سامي الأربعة الآخرون فقد كانوا ما يزالون في السجن ، وكان أحدهم ، خالد ، في قسم آخر في سجن أنصار ٣ ، ويستذكر سامي : «لم يسمحوا لي برؤية شقيقي لنكون معاً في هذه اللحظات» كما انه لم يطلق سراح سامي بشكل مؤقت ، كما حصل حينما توفي والده ، لحضور مراسم جنازة شقيقه . وفيما بعد ، علم المزيد عن موت أحمد . يقول سامي : «لم يتمكنوا من أخذه الى المستشفى لأن القرية كانت محاصرة» ولذلك فانهم حاولوا الذهاب عبر طريق خلفي للوصول الى كفر قارة ، وهي قرية عربية مجاورة ، تقع عبر الخط الأخضر في داخل اسرائيل . ولكنهم حينما وصلوا الى المركز الصحي هناك ، أرسلهم الطبيب الى مستشفى مجاور «وحينما وصلوا ساحة المستشفى توفي أحمد» . لقد استغرق الأمر نحو ساعتين منذ اللحظة التي أصيب بها وحتى الوصول الى المستشفى . وقد توفي أحمد نتيجة نزف داخلي شديد ، يقول عنه سامي انه كان بالامكان ايقافه لو انه وصل الى المستشفى بسرعة .

وتوجد صورة لأحمد معلقة على جدار غرفة مكتب سامي في منزله في نابلس . وقد حوله موته الى شهيد . لقد اكتسبت الشهادة اسطورتها خلال الانتفاضة اذ توفي مئات الشباب في الصدامات مع الجيش الاسرائيلي . وكان على المجتمع الفلسطيني ان يجد طريقة للتغلب على هذه الظاهرة بدون منع الآخرين من المشاركة في الكفاح . ان روح الشهيد متجذرة في التقاليد والأعراف الاسلامية للحرب المقدسة ، لكن التضحية بالنفس هي التي تقرب المرء من الله . وتتمتع العائلات التي فقدت أبناءها خلال الانتفاضة بمكانة خاصة في المجتمع الفلسطيني وفي العديد من البيوت - بيوت المسلمين والمسيحيين - تجد صور الشهداء معلقة في أكثر أماكن البيت تبجيلا ، وأسماء عائلاتهم محفوظة في سجل الحياة الفلسطيني . ولا يرتبط ذلك بالمفهوم الاسلامي بشكل تام . فخلال أعياد الميلاد في شهر كانون الأول ، تتدلى مئات من صور الرجال والنساء الذين توفوا خلال الانتفاضة ، من غصون شجيرات عيد الميلاد بدلاً من الزينة التقليدية .

لقد كان لوفاة أحمد عام ١٩٨٨ أثر عميق في كتابات سامي : «ان كوني كاتبا ساعدني كثيراً جداً ، لأنك حينما تشعر بهذا الوقت العصيب جداً ، يمكنك ان تعبر عما في نفسك من خلال الكتابة» . وقد تأثر الكثير من شعره بروح الشهادة والتخيلات والمجازات المرافقة لها ، مثل : الأرض ، الحجر ، الدم ، والزواج .

كان سامي الكيلاني يعد العدة لدور القيادي الجديد طوال حياته . وقد كانت أكثر المواقف انفجاراً في معسكر أنصار ٣ والتي اختبرت قدراته كقائد حينما صدرت الأوامر الى الفلسطينيين كي يعملوا مباشرة لصالح آسريهم الاسرائيليين . ويوضح سامي ذلك قائلاً : «رفضنا من حيث المبدأ العمل من أجل الجنود ، وعملنا فقط من أجل التسهيلات التي تخدمنا» . وعند إعطاء الإشارة ، كان كل شخص يغادر خيمته ، والبدء بالسير بتشكيل عسكري ، والهتاف بالشعارات المعادية لاسرائيل : «في مثل هذه الأوقات ، فان كل شخص متحد مع الآخرين ، كل المجموعات مع بعضها ، ولامشاكل هناك» . كان الاسرائيليون يحاصرون القسم ، ويلقون قنابل الغاز المسيل للدموع على الفلسطينيين ، ويطلقون الرصاص الحي في الهواء «وكان بعض المعتقلين المجربين يلتقطون القنابل ويقذفونها على الجنود الاسرائيليين ، ويقذفون صواني الطعام والحجارة والأخشاب عليهم» .

قبل وصوله ، كان هناك انفجار عنيف خطير . فقد أصدر قائد اسرائيلي أوامر بان يعود كل شخص الى خيمته «وكان هناك شخص ما يقف عند طرف الخيمة ، فطلب اليه الدخول الى خيمته ، غير انه لم يفعل ذلك ، فما كان من القائد الاسرائيلي الا أن أطلق بنفسه النار عليه في صدره ، فخر صريعا . وحينما وصلت هذه الأخبار الى القسم المجاور ، كان السجناء يغلون ، وبدأوا برمي كل ما بحوزتهم من أشياء على الجنود ... ثم استشهد شهيد آخر» . يقول سامي : «في هذه الصراعات ، لا تريد ان يشعر أصدقاؤك أنهم ضعفاء ، وان عليهم اطاعة الأوامر المذلة ، مثل [اذهب الى خيمتك ايها الحمار الأبله] . لذلك فانك تبحث عن فرصة لتريهم انهم أقوياء . عليك ان تزن هذا وتتجنب ـ قدر ما هو ممكن ـ الشرارة التي تؤدي الى القتل» وتلك هي مسؤولية القائد الناجح : «عليك ان تكافىء بين هذين الجانبين لتبين انك قوي ، لتبين لأناسك ، أي المعتقلين ، انك تستطيع مواجهة الآخرين ، وفي الوقت نفسه ، تحجم عن الوصول الى نقطة انبعاث الشرارة القاتلة» .

واليوم ، فان سامي الكيلاني يقضي الكثير من الوقت مع القرويين في المناطق

الريفية المحيطة بنابلس ورام الله ، ويزور مخيمات اللاجئين ، ويتحدث في الندوات ويرد دائمًا على الانتقادات الموجهة لمشاركته في محادثات السلام مع اسرائيل . لقد وجهت امرأة مسنة ـ لاجئة من حيفا ـ سؤالا الى الوفد الفلسطيني كله في ندوة اقيمت مؤخرا في عمان ، حول ما اذا كانوا سيفاوضون على حقها في العودة الى وطنها في فلسطين . ويستذكر سامي : «لقد كان ذلك منظراً مؤثراً» . حاول كل واحد أن يجيبها ، لكنهم جميعاً ـ كما يقول ـ أجابوها من خلال التهرب من وطأة السؤال . فقد أجابها أحد المشاركين بقوله : «اذا كنت ستعيشين في جنين ـ الأقرب الى حيفا ـ فان ذلك سيكون أفضل من العيش في عمان» . وقال لها شخص آخر ان الفلسطينيين اذا أقاموا دولتهم في الضفة الغربية وغزة ، فإن ذلك الأمر سيساعد في حل مشكلتها : «الحل سيعتمد على قرارات الأمم المتحدة التي تقول ان لك الحق في الاختيار بين العودة والتعويض» .

ويقول سامي ان محاولات تهدئتها أربكته وأقلقته : «علينا أن نكون صريحين معهم . لا يستطيعون قبول الأمر بين عشية وضحاها . وحتى لو أقمنا دولتنا في الضفة الغربية وغزة ، فانهم سيطرحون السؤال نفسه مرة ثانية . انه الحلم والممكن . في بعض الأحيان أوافق على الممكن لكن ذلك لا يعني انني على استعداد للتخلي عن الحلم . انه شيء صعب جداً بالنسبة الى الفلسطينيين . وحتى لو أقَمتُ دولتي في الضفة الغربية وغزة فانني لن اتوقف عن تطريز خريطة فلسطين [اشارة الى الممارسة الفلسطينية الشائعة بتطريز خريطة فلسطين قبل عام ١٩٤٨]. أقول ان فلسطين وطني ولكنني اشترك فيها مع دولة أخرى . انها معضلة ولكن عليك أن تخترقها . والاختراق ان تكون واقعياً» .

ممدوح عكر

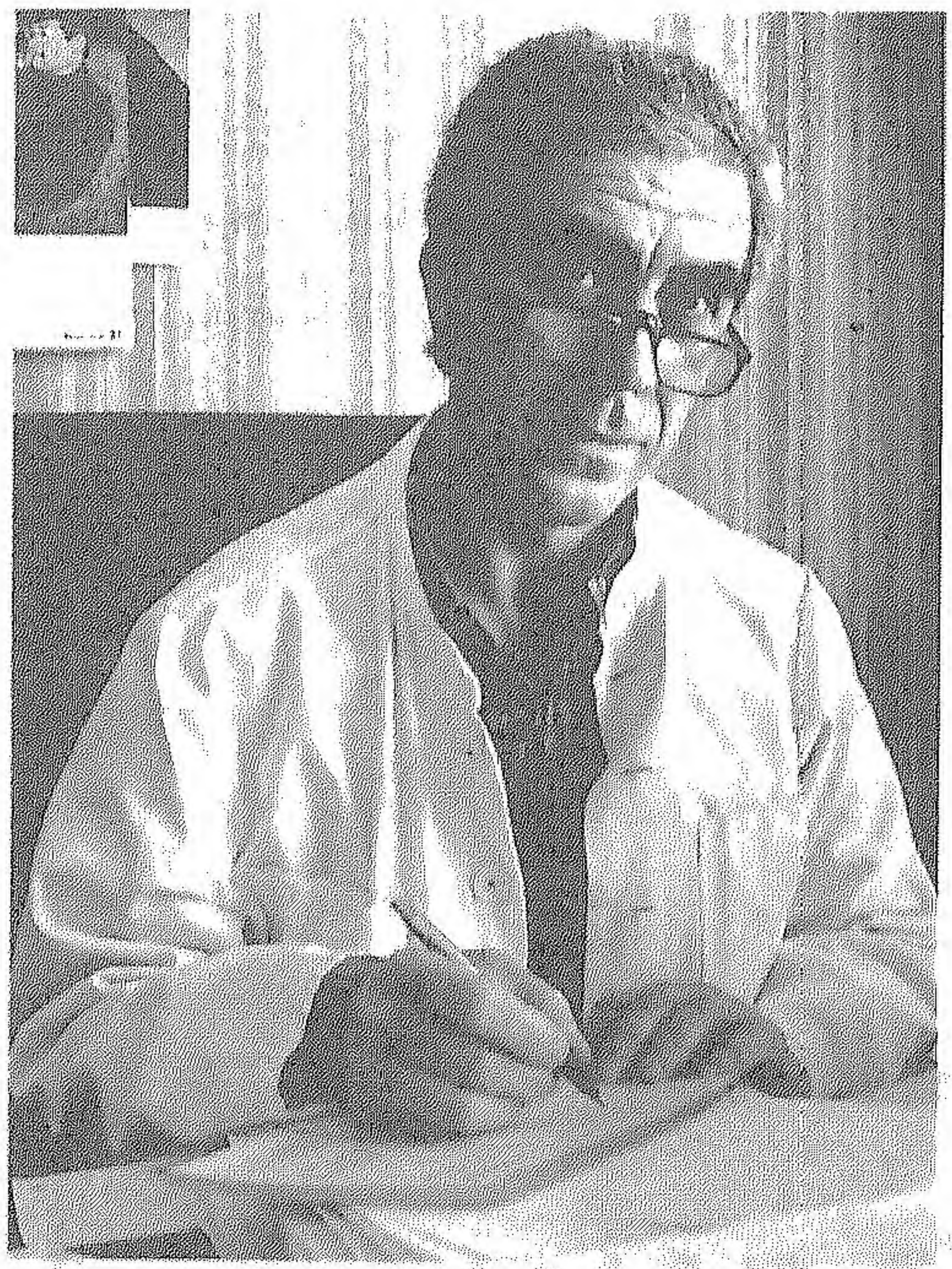

● ممدوح عكر (جراح مسالك بولية) في عيادته في مدينة رام الله .

● ممدوح عكر يناقش تقريرا طبيا مع مريضته في عيادته في مدينة رام الله .

ممدوح عكر

في قصيدة (موت الرجل المأجور) يكتب الشاعر الامريكي روبرت فروست عن مزارع نيو انجلندي وزوجته يتجادلان حول ما اذا كان من الواجب عليهما ان يؤيا رجلا شريدا كانا قد استأجراه قبل بضعة سنوات لمساعدتهما في «قطع حشيش المرج وتجفيفه» . وتوضح زوجة المزارع بحنان ان العامل المسن أتى الى «البيت» كي يموت . أما المزارع غير المضياف ـ المنزعج من ان زوجته ترتاب في كرمه ـ فيسخر من تعليقها ، ويقول «البيت هو المكان حيث يؤونك فيه حينما يتوجب عليك الذهاب اليه» . وأجابته : لا «كان عليّ ان أدعوه شيئا لا تستحقه بشكل ما» . وبالنسبة الى ممدوح عكر ـ وهو جرّاح ذو شعر أشيب ، وعضو رفيع المستوى في الوفد الفلسطيني المفاوض ـ فان البيت كان مفهوما لم يفكر فيه كثيرا حينما كان يكبر خلال سنوات الخمسينات في نابلس . وفي الواقع ، فانه لا يستطيع الانتظار من أجل الهرب .

كانت مدينة نابلس الواقعة في القسم الشمالي من الضفة الغربية ، والتي لا تبعد كثيرا عن بلدتي : جنين وطولكرم ، واحدة من اكثر الاماكن الدينية محافظة في فلسطين . وخلال عهود الحكم التركي ، والاردني ، والاحتلال الاسرائيلي ، بقيت هذه المدينة على حالها . ففي وسط المدينة هناك المشاهد المألوفة للتراث الفلسطيني: العربات المملوءة بالكعك المستدير الطويل وهي قطع تشبه الخبز مغطاة بحبات السمسم ، والبائعون يغرفون الفلافل ويلقونه في مقلاة الزيت الحار . وتفوح في الهواء هناك روائح الشاورما ، وفي الصواني الكبيرة المستديرة الكنافة النابلسية . ان نابلس مدينة صناعية ، فهي مركز صناعة الصابون منذ العصور الوسطى ، وما تزال القيادة السياسية المحلية خاضعة لهيمنة الجيل القديم لملاك الاراضي والتجار ، من أصحاب الاسماء المعروفة : المصري ، النابلسي ، طوقان ، الشكعة ، وعبد الهادي .

حينما كان ممدوح يكبر ويترعرع في نابلس ، لم تكن هناك نواد ليلية ، وكل ما كان محلات محدودة تبيع الخمور ، وبالتالي فان عدد السكيرين كان قليلا جدا . ويستذكر ممدوح قائلا : «اعتدنا وصف نابلس بأنها [مقبرة المثقفين] لان شخصا ما اذا أراد ان يفعل شيئا ما بحياته ، فان عليه مغادرة نابلس» . وهو ما فعله .

فعلى غرار مئات من اليافعين الفلسطينيين الاذكياء ، كان ممدوح يسير بسرعة لتأمين حياة مريحة في مكان آخر في العالم العربي . حصل على شهادة الدراسة الثانوية من مدرسة النجاح العالية وكان الاول في صفه . وحينما كان في التاسعة عشرة من عمره تقدم الى جامعة القاهرة لدراسة الطب ، ولم يخبىء هذا الفلسطيني الأنيق ، طويل القامة فرحته لتركه تلك المدينة العربية الريفية الى العاصمة المصرية العالمية .

وفي نابلس ، كان جد ممدوح لابيه قد أقام مصنعا كبيرا لجز جلود الاغنام والماعز التي ترعى في الاراضي الفلسطينية . وهناك أيضا حصل جده لأبيه على رتبة الشاويش ، أي الرجل الحكيم في المجتمع العربي ، اذ تأتي العائلات الى منزله وتدعوه الى منازلهم ليقضي في الخلافات الناشبة بين العشائر المتنافسة ، وبين اوساط العائلات . وفي نابلس ايضا ، التقى والد ممدوح بزوجته حينما احتجز والداها السوريان بسبب الانفجار المبكر لاعمال العنف العربية ـ البريطانية ، وكانا يقيمان في منزل عمته . وهناك أيضا ، أسس والده عام ١٩٢٥ شركة تجارية مزدهرة ، اذ كان يسافر بشكل منتظم نحو منطقة الشرق لشراء السجاد ، ليعود بعد أسبوع أو نحوه حاملا بضائع كمالية يبيعها لمالكي الارض العرب الاثرياء . لكن لا شيء من ذلك كله ، كان يهمّ ذلك الفتى ممدوح البالغ تسعة عشر عاما من العمر ، والذي غادر الضفة الغربية عام ١٩٦٢ متوجها الى القاهرة ، ولم يعد الا بعد نحو عشرين سنة ، اذ عاد أخيرا الى وطنه سنة ١٩٨١ حينما كان قد بلغ الاربعين سنة من عمره تقريبا .

ويستذكر زياد عكر ان شقيقه ممدوحا كان يريد ان يصبح طبيبا لامراض القلب : «سألته ذات مرة لماذا أصبح جراح مجاري بولية ، فقال لي انه حال ان تبدأ دراسة الطب ، ستجد ان الميدان الاكثر تعقيدا هو المجاري البولية» . ويقول زياد ان ممدوحا احب دائما تحدي تجزئة الاشياء ثم اعادة جمعها ببعضها ثانية . وحينما كانا يافعين وكان والدهما يسافر في رحلات عمل كان يسألهما ماذا يريدان ان يحضر لهما معه . ويستذكر زياد : «كنت دائما اقول كرة قدم أو بندقية» في حين ان ممدوحا كان دائما يطلب لعبة الميكانو : «اذكر مرة انه بنى قاربا كبيراً وكان للسفينة محركات وباستطاعتها ملء وتفريغ أشياء في السفينة . كنت أظن انه سيصبح مهندسا» .

لم يعلن ممدوح نهائيا رغبته في ان يصبح ثريا ، ولكن مثل الفلسطينيين الآخرين ، فانه احتُجز خارج وطنه حينما اندلعت الحرب العربية - الاسرائيلية في شهر حزيران عام ١٩٦٧ . واذ لم يُسمح له بالعودة الى نابلس بموجب القانون الاسرائيلي ، فانه أكمل دراسة الطب ، ومن ثم أخذ بنصيحة العديد من أقاربه وأصدقائه ، وسافر الى الكويت . كانت المحمية البريطانية سابقا تغري الفلسطينيين وتدعوهم - وهم الاكثر تعليما وبراعة في العالم العربي - للمساعدة في تحويل رمالهم المقفرة الممتدة في الخليج العربي الغني بالنفط الى واحات غناء . وجنبا الى جنب مع ياسر عرفات - الذي كسب اول مليون دولار كعمله من مهندس في الكويت - وصل عشرات آلاف الفلسطينيين الى الامارة المستقلة حديثا . ومثل عرفات الذي كان قد تخرج من جامعة القاهرة ، اعتقد ممدوح ان الكويت ستكون أرض الفرص الجديدة . فهناك سيتمكن الفلسطينيون المشردون من تحويل دراستهم الجامعية الى وظائف مربحة ، يعلّمون الشيوخ الاقل تعليما كيفية انتزاع ثروتهم من اللآلىء الملتصقة بقعر البحر ومن النفط الذي يتسرب من الارض . لكن الكويت كانت تشبه المغناطيس الذي جذب الفلسطينيين ولم يتحرروا منه . يقول ممدوح : «اعتقدت انني سأمكث هناك سنتين أو ثلاث سنوات ثم أعود ، لكنك تصبح كسولا وتغرق في حياة الكويت» وخاصة بسبب المادية والاستهلاك «امريكي الطراز» الواضح .

قضى ممدوح خمس سنوات في الكويت قبل ان يغادرها متوجها الى انجلترا سنة ١٩٧٤ من أجل ان يسير قدما الى الامام في حياته المهنية كمتخصص في طب المجاري البولية . وقد حصل على منحة جامعية للدراسة في انجلترا ، وبعد مرور سنة كوفىء باعطائه منصب جراح في اكثر المستشفيات شهرة في ادنبرة ، وكان ذلك في الكلية الملكية للجراحين . وبعد ذلك بسنتين ، عاد محمود الى الكويت ، وبقي هناك حتى عام ١٩٧٩ حينما عرض عليه منصب في (كنغز كوليج هوسبيتال) في لندن .

وعلى الرغم من ان ممدوحا كان يكسب أموالاً تزيد على ما كان يعتقد انه سيجنيه الا انه بدأ يدرك ان البحث وتحدي المهنة والحياة الجيدة تقوده بعيدا عن نفسه ، وبعيدا عن هويته كفلسطيني ، وبعيدا عن جذوره في نابلس حيث عاشت

عائلته جيلا بعد جيل . ان هذين العقدين من الزمان اللذين قضاهما في الخارج كانا يختلفان بشكل دراماتيكي عن تنشئته المسلمة الصارمة . فقد نجا من حرب الايام الستة وما أعقبها : التمازج الالزامي للمجتمعين : الاسرائيلي والفلسطيني . فبالنسبة الى ممدوح ، لم يكن هناك تمازج مع اليهود في القاهرة ، والكويت ، أو في أدنبرة .

ولم يكن هذا ما اعتاد عليه . ويتذكر من طفولته ان والده كان يبشر وينادي بالتسامح الديني ، وان عائلة عكر تشاركت في مبناها المكون من طابقين في نابلس مع عائلة مسيحية كانت تعيش في الطابق الارضي . وذات مرة ، حينما توفيت زوجة رب تلك العائلة ، فتحت عائلة عكر المسلمة أبواب بيتهم لتقبل العزاء عندهم. كذلك فان والده كان يتكلم بشكل حسن عن اليهود الذين كان الكثيرون منهم زبائن عنده . وهكذا ، كطفل ، فانه لم يكن لدى ممدوح الكثير من الاسباب ليكره اليهود . كان يبلغ الخامسة من العمر فقط حينما حصلت اسرائيل على استقلالها وانضمت الضفة الغربية الى الاردن . غير انه كان كبيراً بما فيه الكفاية ليدرك ان الحياة بالنسبة الى أبيه (مدحت) أصبحت اكثر صعوبة مع قيام الدولة اليهودية لاسباب عدة منها : ان تجارة والده في مجال السجاد كانت تعتمد على رحلات منتظمة يقوم بها والده الى دمشق حيث كان يتسوق السجاد الفارسي من سوق الحميدية ويعود به لبيعه في متجره في نابلس . كانت دكانه تقع في مركز المعرض الجديد وكانت مصدر فخر كبير لعائلة عكر . قبل حرب عام ١٩٤٨ ، كان من السهولة بمكان الانتقال من فلسطين الواقعة تحت الانتداب الى سوريا ومصر ولبنان ، والعودة اليها ، اذ ان حركة القطارات كانت تسير بشكل منتظم بين العواصم العربية ، وكانت هناك حركة تجارة وسياحة مستمرة .

غير ان حركة السفر تلك أصبحت اكثر صعوبة بعد الحرب ، فقد كان هناك توتر بين سوريا والاردن ، كما ان اقامة الحدود بين الدولة اليهودية والمملكة الاردنية الهاشمية كانت تعني انه لم يعد بامكان اليهود بعد ذلك الحضور الى متجر مدحت والد ممدوح . ويذكر ممدوح ان والده اخبره ذات مرة انه عشية حرب ١٩٤٨ اتصل به صديق حميم ـ تاجر سجاد يهودي ـ وطلب منه ان يسدي اليه معروفا ، اذ قال له : «مدحت ، لا أستطيع الحضور الى نابلس بسبب وجود

قلاقل على الطريق ، ولدي بعض الكمبيالات واريد تسديد قيمتها لدى البنك ، وهي مستحقة الاداء اليوم» . وطلب التاجر اليهودي من صديقه الفلسطيني ان يذهب الى بنك باركليز ويسدد قيمة الكمبيالات ، مضيفا «وحينما أحضر غدا سأدفع لك كل ما هو مستحق عليّ» . وقام مدحت بسداد قيمة الكمبيالات ، ووضعها في مكان آمن لاعادتها الى صديقه اليهودي لدى حضوره . «لكنه لم يره أبدا» هكذا يقول زياد الشقيق الاكبر لممدوح . وبعد مرور نحو شهر على احتلال اسرائيل للضفة الغربية في شهر حزيران ١٩٦٧ ، حضر جنديان اسرائيليان الى المركز التجاري في نابلس ، وأخذا يستعلمان عن مدحت عكر . يقول زياد : «لم يخبرهما أحد عن مكانه» لان جيرانه كانوا خائفين من ان يكون مدحت ـ الذي اضطر بسبب تقييدات السفر للتخلي عن تجارة السجاد والتوجه نحو بيع الملابس والقماش ـ قد وقع في مشكلة مع السلطات الاسرائيلية . وقال أحد الجنديين انه ابن صديق مدحت وان والده أوعز اليه للبحث عنه . واذ تمكنا من اقناع زملاء مدحت في نهاية الامر بانهما لم يأتيا لاعتقاله ، تم ارشاد الاسرائيليين الى منزله الواقع في منطقة الرفيدية ، وهي منطقة الطبقة الراقية في حي المنتزه في نابلس . وهناك تم اخبارهما بكيفية الوصول الى مخزن مدحت . حينما وصلا ، قال اكبر الجنديين سنا للفلسطيني ان والده طلب اليه دفع قيمة الكمبيالات مستحقة الاداء منذ عشرين سنة : «انه يدرك انه مدين لك بالاموال ، غير انه أصبح كبيراً جداً في السن ويرغب في ان يراك شخصيا ليعيد لك المبلغ بنفسه» . وحينما التقى الرجلان المسنّان ببعضهما بعد بضعة أسابيع ، جرى حوار عن مبلغ الفائدة المترتب على الالفي جنيه فلسطيني وهو مبلغ يعادل ٦٠٠٠ دولار . لكن مدحت كان يرى ان ما طرأ خلال العقدين الماضيين لم يكن جيداً بالنسبة الى صديقه اليهودي «ولذلك فان والدي رفض أخذ الفائدة» كما يقول زياد .

ومثل والده ، فان ممدوحا ذو «قلب كبير» وفق ما يقول شقيقه زياد . فحينما كانا صغيرين ، كان شقيقه الأصغر هو الذي يثير المتاعب ، اذ انه شخص يحب اثارة القتال مع الاولاد الكبار . وحتى حينما لا يكون الخطأ خطأ زياد ويبدأ شخص آخر القتال ، فان ممدوحا كان يتدخل ويقول له ان شقيقه لم يكن يقصد ذلك فعلا ، ويضيف زياد «حيثما يكون هناك أناس يعانون ، كان يحب ان يفهم ما يجري وان يتحدث للناس عن ذلك» . ويستذكر زياد انه حينما كان في السادسة

من عمره ويركب دراجة شقيقه ممدوح البالغ ثمانية أعوام من العمر ، رأى زياد والده وهو يقف عند اسفل منحدر ، واذ كان على ثقة بان والده سيعاقبهما معا ، فان زيادا قفز من الدراجة ، على الرغم من انهما كانا يسيران باتجاه أسفل المنحدر تاركا ممدوحا وحيدا على الدراجة ، حيث اصطدم بجدار ، ولحسن حظه نجا من امكانية اصابته بجروح خطيرة . ولكنه حينما نهض ليتفقد جروحه وخدوشه ، كان والده بانتظاره ، ويستذكر زياد «ولم يرني» في حين ان ممدوحا وبخه والده .

ويستذكر زياد ان العديد من الشبان من افراد عائلة عكر - سبعة أشقاء وشقيقتان - كانوا نشطاء على الصعيد السياسي . فبعد حرب الايام الستة - حينما كان ممدوح يدرس في القاهرة - كان سمير عائدا باتجاه بيته من المدرسة حينما تعرض لكمين من دورية اسرائيلية . يقول زياد : «كان بعض الجنود الاسرائيليين بانتظارهم ، ووضعوا كيسا على رأس شقيقي وحملوه الى السجن» حيث اتهم بانه طالب نشط ويحرض الآخرين على القيام باعمال العنف : «كان سمير الاكثر مصادمة مع الاسرائيليين ... لكن مازنا [شقيق أصغر] قضى هو الآخر الكثير من الوقت في السجن» . ويعمل سمير اليوم جراح تقويم عظام في مستشفى الهلال الاحمر الفلسطيني في القاهرة ، في حين ان مازنا - الذي قامت السلطات الاسرائيلية بترحيله - يعمل مهندسا في الامارات العربية المتحدة .

من ناحية أخرى ، كان ممدوح دائما يبدي اهتماما عقليا اكثر في السياسة . فقبل ان يصل التلفزيون الى الضفة الغربية ، اعتاد ان يقضي ساعات وساعات يستمع بتركيز الى الراديو . وفي منتصف سنوات الخمسينات - حينما كان في المدرسة الابتدائية - كان يسرع الى مخزن والده حال سماعه صوت الجرس الاخير في المدرسة . وهناك كان يجلس ويحتسي الشاي أو القهوة التركية مع التجار العرب الذين كانوا يزورون والده و«يخبرهم عما يجري في العالم» . ويتابع زياد مستذكرا : «كان يتحدث عن [باتريس] لومومبا ، وسوهارتو ، وسوكارنو ، كما كان لديه دائما بعض الشعر الذي يتحدث عن التمييز ، وعن العنف في افريقيا وجنوب افريقيا ... من المحتمل انه كان يبلغ العاشرة أو الثانية عشرة من العمر في ذلك الوقت» .

وخلال فترة الدراسة الجامعية في القاهرة ، كان ممدوح ايضا عضوا في الاتحاد

العام لطلبة فلسطين . ومثل بقية الطلبة الآخرين ، كان متحمسا لانشاء م. ت. ف. عام ١٩٦٤ وأيد ميثاق المنظمة الذي يدعو الى الكفاح المسلح لتدمير الدولة الصهيونية ، واقامة دولة علمانية ديمقراطية مكانها . ولم يقف ممدوح خارج نطاق النضال الفلسطيني ، وإنْ كانت هذه الفترة من حياته ما يزال يكتنفها الغموض ، ويقول زياد : «كان نشطا ولكنني لا أعرف بأي طريقة كان ذلك» . وفي القاهرة ايضا ، قامت صداقة أخرى ، وهي صداقة ربطت ممدوحاً بفلسطيني مهم جدا من أهل الداخل هو فيصل الحسيني ـ ويكبر ممدوح بثلاث سنوات ـ الذي كان يسافر بين القدس والقاهرة في مطلع سنوات الستينات . وقد التقيا ببعضهما خلال نشاطات الاتحاد العام لطلبة فلسطين . كان اتحاد الطلبة الذي طوره ياسر عرفات يخضع لرئاسة فيصل الحسيني في تلك الفترة ، ومن خلال الحسيني تعرف ممدوح لاول مرة على عرفات الذي كان قد بدأ في منتصف سنوات الستينات ينظم الكفاح الفدائي السري ضد اسرائيل .

مع ذلك ، فان ممدوح عكر كان مهتما جدا بمتابعة حياته الطبية اكثر من الانضمام الى حركة التحرير الثوري . وفي عام ١٩٦٩ غادر القاهرة الى الكويت . وهناك لم يكن على ممدوح ان يصارع آلاف العقبات التي يعانيها الفلسطينيون المقيمون تحت الاحتلال الاسرائيلي . فبوجود جواز سفره الاردني ، لم يكن بحاجة الى بطاقة الجسور برتقالية اللون التي تصدر للعرب في الضفة الغربية ، او الحمراء التي تصدر لعرب غزة . كذلك فانه لم يكن مضطرا ليطلب من الاسرائيليين ان يعطوه جواز مرور حينما كان يريد السفر خارج المناطق . وبالطبع ، فانه في بعض الاحيان كان يفكرْ مليا في قضية كم هي مذلة هذه العوائق البيروقراطية التي يعانيها الفلسطينيون الذين تركهم . انها اكثر من مجرد كونها عوائق ؛ انها تجاهل للهوية . فالمكان المخصص لكلمة (المواطنة) في جوازات المرور التي يحملونها مكتوب عليه (غير محدد) وهو بالتالي عامل تذكرة دائم بتشردهم وبانه لا جنسية لهم . وبانتقاله الى الكويت ، أصبح ممدوح جزءا من مجموعة كبيرة تبلغ ٣,٥ مليون فلسطيني يعيشون في الشتات . وكان النشاط السياسي ممنوعا في الكويت بالنسبة الى ممدوح و «الاجانب» الآخرين على الرغم من ان مشيخات الخليج العربي كانت تدفع بسخاء لصناديق م. ت. ف. ورغم انه لم يدرك كل ما كان يتضمنه قراره ـ مثل العديد من الفلسطينيين الذين تركهم وراءه

ـ فـانه اصـبح شخصا لا جنسية له . يقول ممدوح : في حين ان الحياة في الكويت تبـعث على الرضى من الناحـيـة المادية والمهنيـة ، الا ان التـمـيـيز الذي شعر به كأجنبي وكـفلسطيني كـان لا يحتـمل : «لقـد اعتادوا على معاملة الخبراء الغربيين الذين اسـتـقـدموهم بشكل افضل من معاملة الاطباء والمهندسين والخبراء العرب . لم أشعر فقط انني كنت أجنبيا ، ولكن شعرت انني اشبه أجنبيا من الدرجة الثانية أو الثـالثـة» . وقـد ولد ابناه كـلاهما في الكويت ، ولكن مثل غالبية الاجانب الذين يعيشون هناك ، فانهما لم يكونا قادرين أبدا على الحصول على المواطنية الكويتية . فقانون عام ١٩٥٩ يحدد الكويتي على انه الشـخص الذي ينحـدر من اولئك الذين كـانوا في الكويت منذ عام ١٩٢٠ . وان قـانون عام ١٩٦٠ يسـمح بالحصول على الجنسـيـة لكنه يقيد العدد بخمسين شخصا في السنة : «يمكنك ان تعمل هناك لمدة سبع ، أو ثماني ، أو تسع سنوات ومع ذلك تبقى أجنبيا» . وحتى ولديه ، فانه لم يُسمح لهما بالالتحـاق بالمدارس نفسـهـا التي يلتحق بها الكويتيون : «عليهم الالتـحـاق بمدارس خاصة ذات تكاليف باهظة» . واذا أراد فلسطيني شراء أرض او ان يقـيم مشروعـا تجـاريا خـاصـا به ، فيجب عليه ان يجد كويتيا يوافق على ان تكون له نسبة ٥١٪ من الاسـهم لقاء ذلك . لقد كانت الجنسية شرطا ضروريا من أجل الثروة الاقتصادية والعدالة الاجتماعية .

كذلك ، فان قانون الخدمة المدنية ١٩٦٠ حصر المناصب العليا والمنح الحكومية والتقاعد بالكويتيين فقط . لقد بني النظام الاجتماعي والسياسي من أجل خلق نظام ثلاثي الطبـقـات . فـالطبـقـة الاولى للـمواطنين الكويتـيين حصرا ، والطبقة الثانية للـمـغتربين الغربيين ، والطبقة الثالثة للمغتربين غير الغربيين بما فيهم الفلسطينيون والهنود ، والفـيـلبـينيـون . وتتكافأ الامـتـيازات والاجور مع مكانة الفرد في السلم الاجـتماعي . يقـول ممدوح : «اذكر انه في عام ١٩٧٨ ، بعـد عودتي من المنحة في الكليـة الملكيـة في انجلترا والعـمل كـجراح في الكويت ، وجدت ان الكويتيين والالمان والبريطانيين يعملون بموجب عقود خاصة» .

لكن الاذى الشخصي الذي جربه كان هو الاكثر اثارة للغضب . يقول زياد الذي عمل لفترة في بنك الخليج في الكويت : «انهم لا يعتبرونك انسانا» . ويستذكر حادثة حـصلت خـلال اليـوم الثـاني لوصـوله الى الكويت : «كان ممدوح يقود السيارة ،

وصدمنا كويتي . أوقف سيارته وأخذ يشتمنا بكلمات نابية جدا ، وشتم أبي وأمي باللغة العربية .... وجننت ... خرجت من السيارة وأمسكت به ، وبدأت أضربه ، في حين أخذ أخي يضربني . وقال لي : اذا شتمك البدوي فأنا موافق . وأضاف (اذا أمسكوا بك [السلطات الكويتية] فانهم سوف يرسلونك الى الجحيم). بامكاني تحمل ذلك ، واتوقع حصوله . ولكن ليس انت» . وقال ممدوح لشقيقه ان لا فرق فيما اذا كان البدوي هو الذي تجاوز الضوء أو مَن المخطىء ، فالعقوبة ستكون نفسها : «سيخلعون أحذيتهم ويضربونك ، في أي مكان ، وبدون ان يكون هناك سبب . لماذا ؟ لانك لو لم تترك بلدك ولم تحضر الى الكويت ، فان الحادث لم يكن ليقع على الاطلاق» .

يقول زياد ان ابن عمه خالد مر بتجربة مماثلة حينما كان يعمل رئيس دائرة طب الاسنان في مستشفى الاحمدي . فقد دخل الى مكتبه شخص مرموق وطلب موعداً فوريا . أوضح خالد له انه لا يستطيع تأجيل المرضى الذين ينتظرون دورهم منذ أسابيع وشهور لاجراء عمليات لهم ، وعرض عليه ان يعالجه بعد انتهاء الدوام في الساعة الخامسة . ويضيف زياد ان ذلك الشخص «رفض وضرب ابن عمي ... ان الكويتي يعتبر نفسه الها لانهم حينما ولدوا كانوا يعيشون على الجمال وفجأة أصبح لديهم كل شيء ؛ كل شيء» . ان الكويتي لا يدرك ان الفلسطينيين من أمثال عكر قد ساعدوا في تحويل تلك المستعمرة المتخلفة الى دولة حديثة : «انهم ينظرون الى الأمر من زاوية أخرى ، وليس من زاوية ان هذا الرجل أتى وبنى البلاد . لا . لقد عيّناه للقيام بذلك . يقول ممدوح : ان طبيبا متميزا قضى خمسا وثلاثين سنة يعمل في وزارة الصحة وأراد تمديد فترة خدمته «فمددوا الفترة الى ما بين سنتين ـ ثلاث سنوات ، ثم أعطي مهلة اسبوعين لمغادرة البلاد ... تخيل ، العودة الى الاردن . انه سيشعر بغربة تامة لانه لا يعرف أحداً هناك» . وحتى في انجلترا ـ كما يقول ممدوح ـ فانه لم يشعر بالتمييز ضده : «في الكويت ، هناك شعور دائم بانه في أي لحظة يمكن ان يلقى بك خارج البلاد ، وان يُنهى عقدك سواء أكان هذا العقد مع القطاع الحكومي ام الخاص . انهم يجعلونك دائما تشعر انك تفتقر الى السيطرة والتنظيم . في أي لحظة يمكن ان يحدث أي شيء» .

ويضيف ممدوح : اذا أردت ان تدرك سبب رد الفعل الفلسطيني المبدئي على الغزو العراقي للكويت فهذا هو السبب : «يجب عليك ان تعود لهذا النوع من العلاقة» . وبعد حرب ١٩٩١ في الخليج العربي ، أُجبرت غالبية الاربعمائة الف فلسطيني الذين يعيشون في الكويت على الرحيل الى الاردن ، البلد الوحيد الذي يقبل بهم . يقول ممدوح : «على المستوى الشخصي لدي أصدقاء كويتيون رائعون ، بعضهم من الاكثر ثقافة وتألقا ، ولكن حينما تنظر في الجو الذي خلقته الحكومة بكامله ، يبدو الأمر بشعا جدا ، ومؤذيا جدا» .

وفي النهاية قرر مغادرة الكويت بعد حادثة تعرض لها صديق فلسطيني كان يعمل رئيسا لقسم الصيدلة في وزارة الصحة . فقد قضى هذا الرجل من عمره ستا وعشرين سنة وهو يعمل لدى الحكومة الكويتية ، وكان اكبر أبنائه قد سافر الى الولايات المتحدة الامريكية لدراسة الهندسة ، وأراد العودة الى الكويت ليقضي العطلة الصيفية مع أهله . «وكان على الوالد أن يحصل على موافقة لابنه . واستغرق ذلك وقتا طويلا للحصول على تلك الموافقة ... لقد ولد ابنه هناك [في الكويت] واكمل دراسته هناك ، والآن يجب على والده ان يركض من مكتب لآخر للحصول على موافقة على عودته . لقد قضى ستة وعشرين عاما كرئيس دائرة في وزارة الصحة ، وابنه لا يعرف وطنا له غير الكويت ، والآن يُعاملون مثل الاجانب. ولذلك اتخذت قراري : لن يحدث هذا لابنائي أبدا . أردت ان اكون في مكان باستطاعتي ان اكون فخورا به» . واصطحب ممدوح عائلته عائدا الى انكلترا عام ١٩٧٩ ، وعرض عليه منصب في المملكة العربية السعودية «بأجر أفضل بكثير» من ذلك الذي كان يحصل عليه في الكويت .

لكن ممدوحا يقول انه لم يعد يريد العودة الى الخليج . علاوة على ذلك ، فان ولديه ـ مهند البالغ من العمر ست سنوات ونضال البالغ ثماني سنوات ـ أخذا يقولان : «نحن فلسطينيون ولكننا لا نعرف فلسطين» فقال لهما ممدوح : «حسنا سنذهب الى عاصمة فلسطين» . وحينما سئل فيما اذا كانت الارض هي التي تجتذبه الى الوطن ، أجاب ممدوح : «في أواخر سنوات السبعينات بدأت ادرك ان حركتنا الوطنية ـ والكفاح المسلح ـ لا يوصلاننا الى شيء . ادركت ان الامر سيستغرق طويلا ، وان الاحتلال سيبقى ويبقى . وفي النهاية ، توصلت الى نتيجة

مفادها ان الشيء الاكثر أهمية بالنسبة الى شعبنا هو البقاء في الارض وان نثبت ونقوي أنفسنا مهما كانت الاسباب» .

لكن ممدوحا لم تجذبه بساتين الزيتون وكروم العنب التي عاش شبابه فيها ، اذ تردد في العودة الى نابلس لانه شعر انها ريفية جدا . فبعد ادبنره ولندن والكويت ، فان نابلس المحافظة ستطوّقه وتحصره فيها . وبدلا منها ، هناك القدس التي اجتذبته بدنيويتها وتاريخها الغني بالديانات : الاسلامية ، والمسيحية واليهودية . ان المدينة المقدسة ـ بالآلاف من السياح الذين يحجون يوميا الى الاماكن الثقافية والدينية ـ خرقت ريفية غالبية المدن العربية . هناك ، كان متأكدا من ان باستطاعته ان يحقق التعديل ، وبما يتفق مع قراره بالعودة . وحينما اكتشف انه ليس هناك من شخص واحد في الضفة الغربية مؤهل في المجاري البولية ، أدرك ان عليه العودة : «قلت ، حسنا ، سأعود الى وطني ، ولكني لست ذاهبا للانخراط في السياسة . انني ذاهب فقط لاكون هناك لمساعدة الناس الذين هم بأمس الحاجة لذلك» . وفي خريف عام ١٩٨١ وافق ممدوح على الالتحاق بوظيفة في مستشفى المقاصد في القدس ، على الرغم من ان الراتب كان أقل من ثلث ما كان يحصله في الكويت . يقول عن أيام الكويت : «شعرت بانه ليس من الصواب ان تكون خارج البلاد في حين ان شعبك يعاني ، وفعلا ، شعرت بالذنب ... مجرد كونك كذلك [في القدس] كانسان متخصص هو التزام وطني بحد ذاته» .

ويصف ممدوح تجربة العودة الى الوطن بعد غياب استمر نحو عقدين من الزمان بانه «عملية مسخ» . ويقول : «كان هذا أول اتصال لي مع اسرائيل كواقع ومع الشعب الاسرائيلي . بدأت الاتصال مع الاسرائيليين من خلال عملي» . وكلما سافر الى تل أبيب فانه كان يُصدم بحقيقة مفادها «لا نستطيع تجاهلها» [اسرائيل] اكثر من استطاعة الاسرائيليين تجاهل حقيقة نحو ٢ مليون فلسطيني في وسطهم . لقد أدرك أشياء لم يكن قد فكر فيها من قبل اطلاقا . ويقول ممدوح : «بدأت أشعر كم هو عصيب الامر بالنسبة الى الشعب الاسرائيلي للحفاظ على يهودية الدولة . انهم لا يريدون هذه الدولة ثنائية الجنسية ، ومع الاستماع والمراقبة والاحساس بالشعور والعقلية الاسرائيلية ، بدأت أدرك جنون العظمة الذي يقف خلف ذلك» . وللمرة الاولى ، كما يقول ممدوح ، ادرك لماذا أحس الاسرائيليون

انهم بحاجة لتعزيز الاغلبية اليهودية في دولتهم ، وان أي نقص في ذلك سوف «يهدد وجودهم» .

ويقول ممدوح انه استنتج بعد ذلك ان «الطريق الوحيد هو الاشتراك في الارض وهذا هو سبب انني كنت واحداً من بين اولئك الذين قالوا منذ البداية بان من الواجب علينا ان نقبل بحل دولة ثنائية . فقبل الانتفاضة ، كان من الصعوبة بمكان الاعلان عن ذلك ـ باستثناء داخل اسرائيل ـ لانك حينما تقول [دولتين] يجب عليك ان تقبل وجود الدولة الاسرائيلية . لقد كان واضحا جدا انه يجب ان تكون هناك تسوية . لكن التسوية تعني تقديم تنازل ، وتقديم التنازل حينما تكون ضعيفا امر صعب جداً» . لقد أعطت الانتفاضة الفلسطينيين القوة لتبني حل يتمثل في دولة ثنائية كتسوية ضرورية .

لكن كلمات مسالمة كتلك كانت تقمع من قبل المعتدلين الفلسطينيين الذين كانوا يتخوفون من ان تلك الكلمات ستجلب عليهم غضب الفلسطينيين المعارضين للتسوية . لقد رأى ممدوح واحدا من أقرب أصدقائه يصاب بالرصاص بعد بضعة شهور فقط من عودته من منفاه الذي اختاره بنفسه . ففي مطلع شهر آذار من عام ١٩٨٦ اغتيل ظافر المصري رئيس بلدية نابلس ، إذ اطلقت النار على رأسه من الخلف في وضح النهار بينما كان متوجها الى مكتبه ، على يد عضو في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي يترأسها جورج حبش وتتخذ من دمشق مقرا لها . وقد نفذ عملية الاغتيال ثلاثة من طلاب جامعة النجاح ، من بينهم فتاة شابة ، وكانت جريمة المصري تتمثل في استعداده للخدمة تحت الادارة المدنية الاسرائيلية . وقد كشفت عملية الاغتيال المعركة الضروس الناشبة بين مجموعات م. ت. ف. المتنافسة في المناطق المحتلة ، وكانت فرصة مناسبة لكوادر فتح من أجل عرض عضلاتهم . كان ظافر المصري شخصا شعبيا استثنائيا ، وأحد أفراد واحدة من اكثر العائلات النابلسية شهرة ، ومؤيدا لفتح ، كما كان مقربا من الاردن . ومع هذا ، فان جنازته تحولت الى مظاهرة جماهيرية لتأييد ياسر عرفات .

بالنسبة الى ممدوح ، كان موت المصري ضربة شخصية قاسية . فقد كانا زميلي دراسة في المدرسة الثانوية ، وبقيا صديقين حميمين . ويستذكر زياد : «كان الناس يواسون ممدوح ، ويعبرون عن تعاطفهم ويقولون كم نشعر بالحزن لفقدانك

صديقك» . لقد أدرك ممدوح ـ كما يقول شقيقه ـ ان المصري قتل «لانه بدأ يقول ان باستطاعتنا صنع سلام مع اسرائيل . وساعد موته في اقناع ممدوح ان مكانه هو في الوطن ... ولدى عودته الى الضفة الغربية لم يغادرها أبدا» . ويقول ممدوح «اعتقد ان أحد الدروس التي تعلمناها نحن الفلسطينيين ، على الرغم من اننا تعلمناها بطريقة صعبة ، هو انه مهما حدث ، فان علينا البقاء في الارض . يجب علينا ان نبقى لان أي شخص يتحدث عن ان تكون في المنفى أو لاجئا ، انما يعني واحدة من التجارب الاكثر اذلالا . هنا ، وبصرف النظر عن شدائد وصعوبات ومعاناة العيش تحت الاحتلال ، فان النقطة الرئيسية ما تزال هي البقاء في الارض ومواجهة الاحتلال» .

رغم ذلك ، فانه كان ما يزال غير تواق جدا للانخراط في العمل السياسي . اما مهند ـ ابنه الاصغر ـ فقد كان الحافز وراء تحول ممدوح . ففي عام ١٩٨٦ تطوع مهند للعمل في المركز الفلسطيني لدراسات اللاعنف ، والذي كان يترأسه مبارك عواد ، وهو نشيط سلام فلسطيني . ويقول عواد ان الناس الذين لديهم مشاكل مختلفة مع الاسرائيليين كانوا يأتون الى مكتبه في القدس الشرقية ، حيث كان مهند يقابلهم ويدوّن ملاحظات عنهم بعناية «محاولا فهم لماذا حدثت هذه الاشياء» . ويوضح ان هذه المشاكل لم تكن مشاكل سياسية «وانما مشاكل اجتماعية : صعوبات مع الاسرائيليين» وتشتمل على اجتثاث الاشجار من جذورها وحرمانهم من تصاريح حفر آبار المياه على أي عمق لانها يمكن ان تحرم المستوطنات المجاورة من المياه . واشتكى فلسطينيون آخرون من ان عائلاتهم قد ازدادت أعدادها وانهم لا يستطيعون الحصول على تراخيص لبناء طوابق اخرى في بيوتهم «ولذلك فانهم كانوا يبنون بيتا ، فيأتي الاسرائيليون ويدمروا المنزل بكامله لانهم قاموا ببنائه دون الحصول على تصريح» كما يقول عواد . ايضا ، فقد يأتي شخص ما الى المركز محاولا معرفة مكان قريب له سجن في مكان ما في المناطق المحتلة . وعلى مدار السنتين التاليتين ، كان مهند يعود كل ليلة الى البيت ويخبر والده بتفصيلات القصص التي سمعها خلال النهار .

واخيرا ، في منتصف شهر كانون الثاني من عام ١٩٨٨ ، وبعد مرور أقل من ثلاثة أسابيع على بدء الانتفاضة ، توصل ممدوح الى انه لم يعد بامكانه البقاء صامتا اكثر من هذا ، فكتب رسالة «مفتوحة» الى «شخصية رئيسة في حزب

العمل» وهي رجل كان ملتزما بالحل السلمي ، وكان وزيرا للدفاع في حكومة الائتلاف التي قادها الليكود . كانت تلك الشخصية اسحق رابين . يقول عواد : «كانت تلك خطواته الاولى في العمل السياسي ، وكان ابنه هو الصِّنو الذي غَيَّرهُ» . في تلك الرسالة ، كتب ممدوح انه يخاطب رابين لا رئيس حزب العمل شمعون بيرس او رئيس الوزراء اسحق شامير «لانك تمثّل بالنسبة الينا القبضة الحديدية لفلسفة الليكود . وبالتالي ، فانك تمثّل بالنسبة الينا ، اكثر من السيد بيرس أو السيد شامير الموقف الاسرائيلي الرسمي غير الحزبي اتجاهنا» . ويقول انه قرر الكتابة لرابين لانه كان من «المهين جداً» الاستماع اليه وهو يصف باستمرار حوادث قذف الحجارة بأنها «شغب» ويدين الفلسطينيين «كارهابيين» . وقال ممدوح لنفسه: «انتظر لحظة . راقب . ان ذلك ليس صحيحا . انها انتفاضة شعبية انك ترى فيها الجماهير من كل الاعمار ، وكل النساء ، والمسنين ، وأطفال المدارس، واليافعين» .

لكن ايصال رسالته المفتوحة الى اهتمام رابين أثبت انه أصعب مما كان يعتقد. كتب ممدوح الرسالة باللغة العربية لانه أراد نشرها في صحيفة القدس الموالية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، والتي تصدر في القدس . لكن رئيس التحرير لم يكن متحمسا ، وقال لممدوح : «انها رائعة ... لكنني لا أستطيع نشرها كما هي ... يجب عليك ان تغير هذا وذاك» . وثار سخط ممدوح ، وقال : «لم آت الى هنا طالبا كتابة مقالة . لدي رسالة وكتبتها بهذا الشكل لانني أريدها ان تنشر كرسالة . لن أغير حرفا واحدا فيها» . ولم يتزحزح رئيس التحرير عن موقفه ، وقال : «سيغلقون الصحيفة ... لا أستطيع» . واتصل ممدوح مع صحافي اسرائيلي ، صديق له ، والذي اقترح ان يقوم باعادة كتابة الرسالة باللغة الانكليزية ، واعدا بمحاولة نشرها في صحيفة الجيروزالم بوست التي كانت في ذلك الوقت صحيفة اسرائيلية ليبرالية غالبا ما تنتقد الحكومة . ويستذكر ممدوح : «واتصل هاتفيا برئيس التحرير من أجلي ، وقال الرئيس : بالطبع ، يمكنه نشرها» .

ان الرسالة وثيقة غير عادية ، وبخاصة حينما ينظر اليها على انها كُتبت منذ الايام الاولى للانتفاضة ، إذ يحذر ممدوح بها رابينَ قائلا : في ميدان الطب «فان التشخيص بشكل صحيح هو اكثر من نصف العلاج» فبدون التشخيص الصحيح من الصعوبة بمكان فهم «القضايا الاساسية» . ويحذر رابين بانه يرتكب «خطأ

مميتا» اذا كان يعتقد ان اندلاع الانتفاضة يعكس «حالة من اليأس» بين أوساط الشعب الفلسطيني ، بل على العكس تماما على وجه الدقة . وجاء في رسالة ممدوح أيضاً : «طوال حياتي التي امتدت اكثر من أربعين عاما لم أر على الاطلاق شعبنا بمثل ما هو عليه اليوم من روح معنوية عالية وثقة بالنفس» . ويقول : ان التشخيص الصحيح هو ان الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة فقدوا الأمل من قدرة الآخرين - مثل الامم المتحدة وحتى القوتين العظميين - على مساعدتهم «وبالتالي فانهم اختاروا سبيلا آخر» . ويحذر رابينَ من ان ما يحدث في المناطق المحتلة لايمكن ان يوصف على انه «عصيان» و «واضطراب» و «شغب» و «اعمال عنف» :

> اذا كنت تريد فعلا معرفة ما الذي يجري ، فان عليك ان تعترف بانه انبعاث. انه ظاهرة مختلفة نوعيا ، تعكس ولادة فلسطينية جديدة ، وان أي وصف يتجاهلها لا يستحق اهتمامك . ان هذا التصميم ، وهذه الشجاعة ، وهذه الروح ، وهذه الحركة المدعومة كليا تشير الى انها ليست اقل من انتفاضة شعبية ... واذا كنت معنيا بصورة جدية بمعرفة السبب ، فانه الاحتلال . فهل تتوقع منا ان نرمي زهوراً على جنودكم ؟ هل فعل شعبكم الشيء ذاته حينما اضطهد في اوروبا ؟

ربما كان الجزء الاكثر بقاء في الرسالة الموجهة الى رابين هو بصيرة ممدوح في التنبؤ بان الانتفاضة ستعمل على تعزيز سلطة قيادات فلسطينية محلية مثله ، والذين كانوا الشركاء الطبيعيين في الحوار السلمي مع اسرائيل . وكتب ممدوح : «في عملية التشخيص ، فان ما هو أساسي أيضا ملاحظة ان هذه الانتفاضة تعيد بؤرة النشاط الفلسطيني الى مكانها المناسب ، وتعيد التأكيد على الحركة الوطنية الفلسطينية في (الداخل) . وأضاف : بالطبع ، فانه لاشيء يستطيع الانتقاص من «وحدة شعبنا أو الدور الرئيس لقيادات (الخارج)» .

لكن الدُفعة الرئيسة في رسالته كانت دعوة لرابين لبدء الحوار :

> ان المرء يدرك هاجسك فيما يتعلق بموضوع الامن ، ولكن بكل موضوعية ، وبدون اي استفزاز اسمح لي بالقول اننا نحن

الفلسطينيين الجهة الوحيدة التي تستطيع ان تضمن لكم الأمن والسكينة. فاذا كنت فعلا تريد السلام ، فانه سيتحقق فقط من خلال التحدث معنا ومن خلال ممثلنا الشرعي : م.ت.ف. ان السلام لايمكن التوصل اليه بواسطة جيشكم ، بغض النظر عن كم أصبح قويا . لاتوجد دولة عربية أو قوة دولية ، بما في ذلك الولايات المتحدة الامريكية ، تستطيع ان تمنحكم الامن . وفقط ، فان سلاما ناجزا يتم التوصل اليه بارادة حرة بينكم وبين قيادتنا الحقيقية سوف يوفر بيئة لمثل تلك المفاوضات .

ويختتم ممدوح رسالته بالتساؤل بشكل نبوئي : «لماذا انتم بحاجة كي تكتشفوا من جديد ان الارض كروية ؟ ان تجاهل الحقيقة الاساسية والرئيسة يعني فقط استمرارية دائرة المعاناة هذه بالنسبة اليكم والينا» .

لقد سجل هذا التحول نقطة انعطاف في حياة ممدوح ، اذ انه لم يعد بعد ذلك يقف موقف المتفرج تجاه النضال الفلسطيني . ويعترف «بانها كانت من حيث الظاهر رسالة جريئة ، وكانت هناك فعلا ردود فعل ـ سلبية وايجابية ـ من الفلسطينيين» . فالعديد من أصدقائه قالوا له انه من الآن وصاعدا سيصبح هدفا للاسرائيليين اليمينيين : «لقد شعروا فزعين بان من المحتمل ان يقوم المستوطنون بايذائي» . ولكنه ايضا تلقى الكثير من ردود الفعل المشجعة له من اسرائيليين عاديين ، على الرغم من انه لم يسمع على الاطلاق مباشرة من رابين . يقول ممدوح «بدون قصد وبدون تخطيط ، فان الرسالة وضعتني في وسط ديناميكيات الانتفاضة ... كنت أبحث عن دور لانني شعرت ان هذه [الانتفاضة] حدث تاريخي وانه يجب على ان اكون جزءاً منه» .

وتبعت ذلك رسائل أخرى ، نشرت في صحيفة الجيروزالم بوست وفي صحف اقطار أخرى ايضا . وفي شهر آذار ١٩٨٨ ساعد ممدوح في تأسيس منظمة الاطباء الاسرائيليين ـ الفلسطينيين لحقوق الانسان ، ويقول موضحا : «ثم بدأت المشاركة في أعمال الاغاثة والانعاش الطبي» لان غالبية القرى العربية في الضفة الغربية وغزة لاتوجد فيها عيادات طواريء. ويضيف : «حينما ترى الجرحى في المستشفيات ، فان ذلك أمر بشع فعلا» . ومؤخرا بدأ حملة للحصول على سيارات

اسعاف مزودة بغرف عمليات متنقلة لأن «العديد من الناس يموتون وهم في الطريق الى المستشفى» .

ان مشاركته في المساعدة على معالجة الجرحى جعلته يدرك ان من الواجب عليه ان يوسع نطاق مهمته ليشمل ما هو أبعد من الآلام المادية . يقول ممدوح : «بدأت أشعر اني مسؤول عن نقل رسالة الانتفاضة الى الرأي العام الاسرائيلي ، ولذلك بدأت بقبول الدعوات الموجهة اليّ من مجموعات السلام الاسرائيلية ، فحضرت عشرات الاجتماعات حيث ناقشنا كيفية ايجاد حل» . وقد كانت إحدى هذه المجموعات مجموعة «السنة ٢١» وهي منظمة اسرائيلية ـ فلسطينية عقدت اجتماعات في منازل اليهود. يقول (هاغيث غور زيف) منسق المجلس اليهودي ـ العربي للتثقيف السلمي : «عقدنا جلسات غير رسمية ، وهناك شهدنا بدايات حوار حقيقي حول المساواة في قضايا خلافية مهمة» بما في ذلك الارهاب الاسرائيلي والفلسطيني . ويقول ممدوح : «وحتى اليوم ، لا أعتبر ما أقوم به عملا سياسيا . انني أقوم بما أقوم به كمفكر وكوطني» .

ويتابع : حينما امتدت الانتفاضة الى مناطق ريفية نائية في الضفة الغربية «بدأنا نعرف اسماء قرى جديدة ، قرى لم اكن قد سمعت بها من قبل أبداً. وكان هذا حينما بدأت أشعر بالضجر والهم . يجب عليّ ان اكون جزءاً من هذا ... لقد شعرت منذ الاسبوع الأول أو الثاني ان هذا الامر مختلف ، هذا الامر مختلف . انني ممتن على الدوام لمهنتي : فكونك طبيبا يسمح لك بابقاء يدك على النبض» . ويوضح ان الشيء الفذ فيما يتعلق بالانتفاضة هو ان جذورها امتدت الى مستويات المجتمع الفلسطيني كله ، بما في ذلك مخيمات اللاجئين ، وانخرطت فيها مختلف الاعمار والاديان ، والرجال والنساء ، والاطفال : «مع الانتفاضة انتقلنا الى مرحلة المقاومة النشطة ؛ ليس فقط مقاومة الاحتلال ، وانما عبر قول اننا لم نعد نخشى ، فحاجز الخوف سقط الى الأبد» .

يدعي الاسرائيليون ان ممدوحا لم يكن فقط أحد الذين يساعدون الانتفاضة ، ولكنه أحد الاشخاص الذين يديرونها ، فاعتقل في ٢٧/ ٢/ ١٩٩١ ـ خلال الفترة التي قام فيها العراق بقصف اسرائيل بصواريخ سكود ـ ومثل امام محكمة عسكرية اسرائيلية في ١٣/ ٣/ ١٩٩١. ونقلت وسائل الاعلام الاسرائيلية عن مصادر حكومية رسمية قولها انه تم استجوابه لعلاقته باعمال شغب غير محددة:

التحريض على استخدام العنف ، اصدار مناشير معادية للسلطات ، واتصالات مزعومة مع منظمات غير مشروعة بما في ذلك م.ت.ف. وكان هناك مسؤول اسرائيلي رفيع المستوى اكثر فظاظة حينما قال : «انه كان عضو القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة» مضيفا ان هناك «شكوكا» راسخة في ان ممدوحا شارك في كتابة منشورات القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة. وقد خضع للاستجواب مدة أربعين يوما وأربعين ليلة . ويدعي الاسرائيلي قائلا : «في البداية انكر ان يكون له أي ارتباط بالقيادة الوطنية الموحدة ، ثم اعترف انه كتب جزءا منها [مناشير القيادة الوطنية الموحدة] وهو الفصل المتعلق بالامور الطبية . لقد كان جزءا من القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة بكل ما في الكلمة من معنى» .

وقال هذا المسؤول في معرض اتهاماته ان القادة الفلسطينيين أمثال ممدوح يلبسون طاقيتين ، لان دوريهم التوأمين - كنشطاء سياسيين في المناطق وكأعضاء في الوفد المفاوض الذي يعطيهم صفة دبلوماسية ان لم يكن حصانة كاملة - يخلقان مأزقا خطيراً بالنسبة للاجهزة الأمنية الاسرائيلية . ان عملهم طوال النهار هو التفاوض مع اسرائيل حول الحكم الذاتي للفلسطينيين و «عملهم الليلي» كما يقول هذا الاسرائيلي «هو اعطاء التعليمات سرا للقيام باعمال الشغب والاخلال بالأمن العام» . ولأن اسرائيل تريد تشجيع عملية سياسية سلمية لتحل مكان عنف الانتفاضة فان هذا الأمر «منطقة رمادية ... اننا في حيرة من أمرنا كيف نتصرف» .

في ٣/١٣ ، وهو اليوم الذي مثل فيه ممدوح أمام القاضي العسكري ليستمع للتهم الموجهة ضده ، أعلن الاضراب عن الطعام ، واستمر في ذلك مدة ثلاثة أيام ونصف اليوم . كان هناك شك بسيط حول ما كان الاسرائيليون يريدون : اعتراف كامل بدوره المزعوم كواحد من المنظمين الرئيسيين للانتفاضة . واحتجز ممدوح في زنزانة طولها ثلاثة أقدام وعرضها خمسة أقدام . يقول زياد : «كانت قذرة جدا ... كانوا يذلونه بكل طريقة ممكنة . وحتى حينما كان يريد الذهاب الى الحمام لم يكونوا ليسمحوا له . والطعام الذي قدموه له ، يشبه طعام الكلاب . وخلال عمليات الاستجواب وضعوه [ممدوح] في قفص يدعى (تابوت) . كان بحجم جسمه - فقط الرأس تكون خارج الصندوق - وحرموه النوم لفترة طويلة : مدة خمسة أيام أو أسبوع» .

وقد اتُخِذَ السجن اداة ضد هذا الطبيب البالغ من العمر ثمانية واربعين عاما

وضد عائلته ، اذ لم يسمح لمدوح برؤية اقاربه أو محاميه الا يوم ٣/٢٥ حينما تقدم مستشاره القانوني باستدعاء أمام المحكمة العليا الاسرائيلية وحصل على امر قضائي يسمح بزيارة ممدوح . واخيرا ، وحينما شاهد المحامي موكله ، كان ممدوح قد فَقَدَ الكثير من وزنه . لقد عانى من آلام في الصدر وخفقان في القلب . ومن خلال محاميه ، أصدر ممدوح بيانا عاما وصف نفسه فيه بانه «وطني فلسطيني وطبيب يشعر بألم ومعاناة شعبه ... لقد ايدت على الدوام الحوار والحلول السلمية والتعايش مع الاسرائيليين . وما أزال أعتقد ان هذا هو السبيل الوحيد لضمان الأمن والعدل للفلسطينيين وللاسرائيليين على حد سواء . لقد آمنت على الدوام باللاعنف وبالقوة الاخلاقية لموقف عادل اكثر من تأييدي لاستخدام السلاح والعنف» . وعلى الرغم من انكاره لأي تورط «حتى بصورة غير مباشرة» في أعمال التحريض على الاضطراب او العنف في المناطق المحتلة ، الا ان ممدوحا اعترف انه «خلال فترة الحرب [حرب الخليج] شعرت ان من واجبي كفلسطيني ان أقدم النصح والمشورة لرجال بلدي في قضايا تتعلق بالدفاع المدني ، والاعتماد على النفس ، والاستعداد للحالات الطبية الطارئة ، وأخذ الحيطة من المعاناة والعوز خلال فترة منع التجول الطويلة» .

وأثار اعتقاله اهتماما عالميا . فمن بين الهيئات التي اعلنت احتجاجها ورفضها لاعتقاله : منظمة العفو الدولية (أمنستي) و (ميدل ايست ووتش) و (مؤسسة نيلسون مانديلا) و (المركز الفلسطيني لدراسات اللاعنف) و (لجنة خدمة الاصدقاء الامريكية) و (المجلس الوطني للعلاقات العربية الامريكية) و (حركة السلام الآن الامريكية) و (الكلية الملكية للجراحين في ادنبرة) . وشكل مبارك عواد في واشنطن ـ الذي أُبعد من قبل السلطات الاسرائيلية بعد أن وجهت ضده اتهامات مماثلة بان له دورا قياديا في الانتفاضة ـ لجنة دولية للافراج عن ممدوح عكر . وقام الدكتور جوناثان فاين ـ المدير التنفيذي لجمعية أطباء من أجل حقوق الانسان ـ بالكتابة الى وزير الدفاع الاسرائيلي موشي آرنس ولوزير الخارجية الامريكي جيمس بيكر . وقال فاين انه التقى بممدوح «في اكثر من مناسبة» في اسرائيل ، واصفا هذا الطبيب بانه «رجل اعتدال كان يسعى باستمرار لحل سلمي للنزاع العربي الاسرائيلي ، وانه يُنظَر اليه عاليا في مجال عمله . والاكثر من هذا انه شخص رقيق جدا لا يؤذي أحدا» .

أخيرا ، في ٧/ ٤ وبعد مرور اسبوع على بدئه صياما آخر (شهر رمضان) وقبل عشرة أيام من الطلب الى المدعي العام تقديم اتهاماته ضده ، أطلق سراح ممدوح بكفالة مقدارها عشرة آلاف دولار ، ووضع تحت الاقامة الجبرية في منزله بانتظار محاكمته التي لم تجر على الاطلاق . وعلى ما يبدو ، وكرد فعل على الاحتجاج العالمي ، فان المدعي العام الاسرائيلي لم يوجه اليه على الاطلاق أي تهمة . ومع ذلك ، في ١١/ ٤ أرسلت السفارة الاسرائيلية في واشنطن - التي غمرها طوفان من الرسائل المكتوبة لصالح ممدوح - ردا لكل شخص استنكر اعتقاله . وقالت الرسالة الاسرائيلية ان ممدوحا اعتقل «للاشتباه بانه يحرض على نشاط ارهابي معاد» بالاضافة الى «احتفاظه بارتباطات مع منظمات ارهابية في المنطقة وفي الخارج» . وأضافت الرسالة «خلال الاستجواب ، اعترف السيد عكر بقيامه بدور في النشاطات المعادية وبأن له ارتباطات مع المنظمات الارهابية» . وقال مسؤول اسرائيلي : «من خلال ما عرفناه عن نشاطاته ، كان بامكان القاضي ان يحكم عليه بسنتي سجن على الاقل ، وبكل سهولة» .

ولم تتح لممدوح فرصة مواجهة متهميه الا في شهر تشرين الاول التالي حينما تم اختياره كواحد من الاعضاء الاربعة عشر في الوفد الاردني - الفلسطيني الى مؤتمر السلام في مدريد . كان أحد ضيفين على النسخة الخاصة بمدريد من برنامج محطة شبكة الاخبار بالكوابل المسمى (نيوز ميكر ساترداي) إذ استضافه مراسل شبكة CNN في البيت الابيض فرانك كيسنو . اما الضيف الآخر فكان زالمان شوفال سفير اسرائيل لدى الولايات المتحدة . قال ممدوح وهو يثب فرحا بان أتيحت له فرصة مخاطبة المسؤول الاسرائيلي بشكل مباشر : «لقد فرحت تماما حينما اكتشفت اننا سنلتقي هنا لانه خلال فترة اعتقالي - وفي معرض رده على الرسائل التي تلقاها من أجلي - وصفني السيد شوفال بانني [ارهابي نشط معاد] . هاأنذا . هل أبدو نشطا معاديا؟» . ورد عليه شوفال : «انني سعيد لسماع انك لم تكن ارهابيا» . لكن الاسرائيلي قال بعد ذلك ان الفلسطينيين كلهم تصرفوا بشكل غير مسؤول خلال حرب الخليج . فأجابه ممدوح : «ان الشيء الوحيد الذي شاركت فيه كان اعطاء ارشادات الى أبناء شعبي من وجهة نظر طبية» . وقال بانه لم توجه اليه على الاطلاق أي تهم ؛ وبعد اربعين يوما وليلة من الاستجواب وبعد ان اطلق سراحه بكفالة «أُسقِطَ كل شيء ضده» .

ومضى يتحدى نظيره الاسرائيلي حينما قال : «الخطوة الاولى أن تعاملني كَنَدٍّ. اننا شعب ، وهذه هي صرخة شعبي ، اننا شعب . لسنا مقيمين أو مستوطنين في يهودا والسامرة . نحن الشعب الفلسطيني . وفي اللحظة التي تعترف فيها بي كند فان الاجواء كلها ستختلف» . وقبل ان يتمكن شوفال من الاجابة ، تابع ممدوح : «اعترف بكم كشعب ، الشعب الاسرائيلي ، وكأمة ، وكدولة . هذه هي الروح التي أتينا بها الى هذا المؤتمر ، بقلب مفتوح وبعقل مفتوح ونحاول ان نمد أيدينا . انني لا انكر عليكم أي حق أطلبه لنفسي . فدعونا نعامل بعضنا كندّين مؤهلين لممارسة الحقوق نفسها» .

ان اداء ممدوح في مدريد ، ومظهره الانيق ، وظهوره واثقا من نفسه ، قد جعل منه ذلك كله بين عشية وضحاها حدثا تلفزيونيا مثيرا . فبعد ظهوره بفترة قصيرة على شبكة CNN طلبت اليه برباره وولترز الظهور في البرنامج الشهير (نايت لاين) الذي يبثه تلفزيون ABC . كذلك ، فان شبكات اخبارية أخرى عديدة بما فيها برنامج ماك نييل ـ ليهرر نيوز أور الذي يبثه تلفزيون PBS ، وجهت دعوات اليه ليتخذ موقف المقاتل أمام ضيوفهم الحكوميين الاسرائيليين .

وتبدو عيادته الخاصة ، الكائنة في رام الله في عمارة حنانيا خراز ، والتي من العسير وصفها ـ بغرفة الانتظار التي تحتوي على مقاعد بنية اللون تمتلىء بمرضى قلقين ـ عالما بعيدا عن دراما وشهرة مدريد . ولكن كما يفكر ممدوح في مستقبل نضاله ، فان الواقعين يبدوان مترابطين بشكل ما ، ربما من خلال مسحة على جدران عيادته ، مغطاة بصورة زيتية جدارية لغابة ، هي برغم كل شيء الارض التي ستقرر النتيجة . ويقول : «القضية ليست فقط قضية تجميد المستوطنات [الاسرائيلية] ... من المهم وقف النشاط الاستيطاني كله أثناء محادثات السلام وخلال الفترة المؤقتة كلها للحكم الذاتي . لا نستطيع التفاوض في حين ان القضية الاساسية : الارض ، تصادر كل يوم» .

وهناك هدف آخر لهذا الفلسطيني النحيف ، الانيق ، ذي الحواجب الكثة سوداء اللون ، والشعر القصير والجبين المتغضن : اقناع العديد من الاطباء الفلسطينيين ـ قدر استطاعته ـ بالعودة الى الارض التي يأمل ان تصبح نواة لدولة فلسطينية . ويقول ممدوح : «هناك عدد ضخم من الفلسطينيين الذين يحملون بطاقات جسور

اسرائيلية ويستطيعون العودة لكنهم يترددون ... اعتقد انهم في أعماقهم يشعرون بالذنب» . وحتى عائلته غير مستثناة من الضغط . يقول زياد الذي يعيش بالقرب من واشنطن دي. سي. في بيت جديد مترف ، فيه مسبح بحجم المسابح وملاعب التنس الاولمبية : «ان ممدوحا ورائي دائما كي أعود . والآن يحاول ايضا اقناع شقيقنا الاصغر سميرا وزوجته ـ وكلاهما طبيب ـ بالعودة الى نابلس والعمل فيها» .

ان ممدوحا مرهَق بالعمل على نحو واضح . فبين واجباته الطبية ـ فهو يقسم وقته بين ثلاث مستشفيات في القدس (القديس لوقا ، القديس جورج ، والقديس يوسف) ومستشفيين في نابلس (كلية التمريض النسائية ، والاتحاد) ـ وبين أعماله السياسية والدبلوماسية الجديدة ، ليس لديه متسع من الوقت لأي شيء آخر ، ويقول : «أصر على توفير ليلة واحدة في الاسبوع لأقضيها مع عائلتي» .

لكن بالنسبة الى ممدوح ، فان الدورين اللذين يقوم بهما ـ كمداوي من المرض وكمفاوض رئيس يحاول شفاء الجراح مع اسرائيل ـ منضفران مع بعضهما بشكل وثيق ، اذ يقول : «لدي مرضى كثيرون من مخيمات اللاجئين ، وأصر دائما على التحدث الى مرضاي وان يتحدثوا اليّ وعلى نحو خاص منذ أن سميت في الوفد [الفلسطيني] . ان كل واحد منهم ، بدون استثناء ، يتحدث عن آمالهم ، وأحلامهم ومعاناتهم» . ان هؤلاء الفلسطينيين هم مرضى ممدوح ، ولكنهم أيضا استمرارية مستقبله ، الناس الذين يحتمل ان يصوتوا لصالحه اذا أدت محادثات الحكم الذاتي الى اجراء انتخابات لتشكيل مجلس نواب وطني ، واذا قرر ترشيح نفسه لذلك المنصب . وفيما يتعلق بالوقت الراهن ، فان هذا المؤيد لفتح اداة وصل مهمة بين قيادة م. ت. ف. المنفية في تونس وجيل القادة الناشيء في الضفة الغربية وغزة ، الذي يكتسب شيئا فشيئا احترام وتأييد جماهير العالم . يقول ممدوح : «ان الشرعية تستمد من خارج المناطق المحتلة لكن المصداقية تأتي من الداخل» . ويقول ان «المصداقية» يؤكدها انصاره الكثيرون : «الناس المنتخبون ، يعرفهم الشعب ، ويحترمهم» . ثمة شيء واحد مؤكد : هو انه لن يترك الضفة الغربية مرة أخرى ـ على الاقل ـ حتى تصبح الدولة الفلسطينية واقعا وحقيقة . ويقول متحدثا عن نفسه وعن شعبه ايضا : «سنموت هنا ... ولن نرحل الى أي مكان آخر» .

سامح كنعان

● سامح كنعان مع والدته يهودية المولد (مازيل).

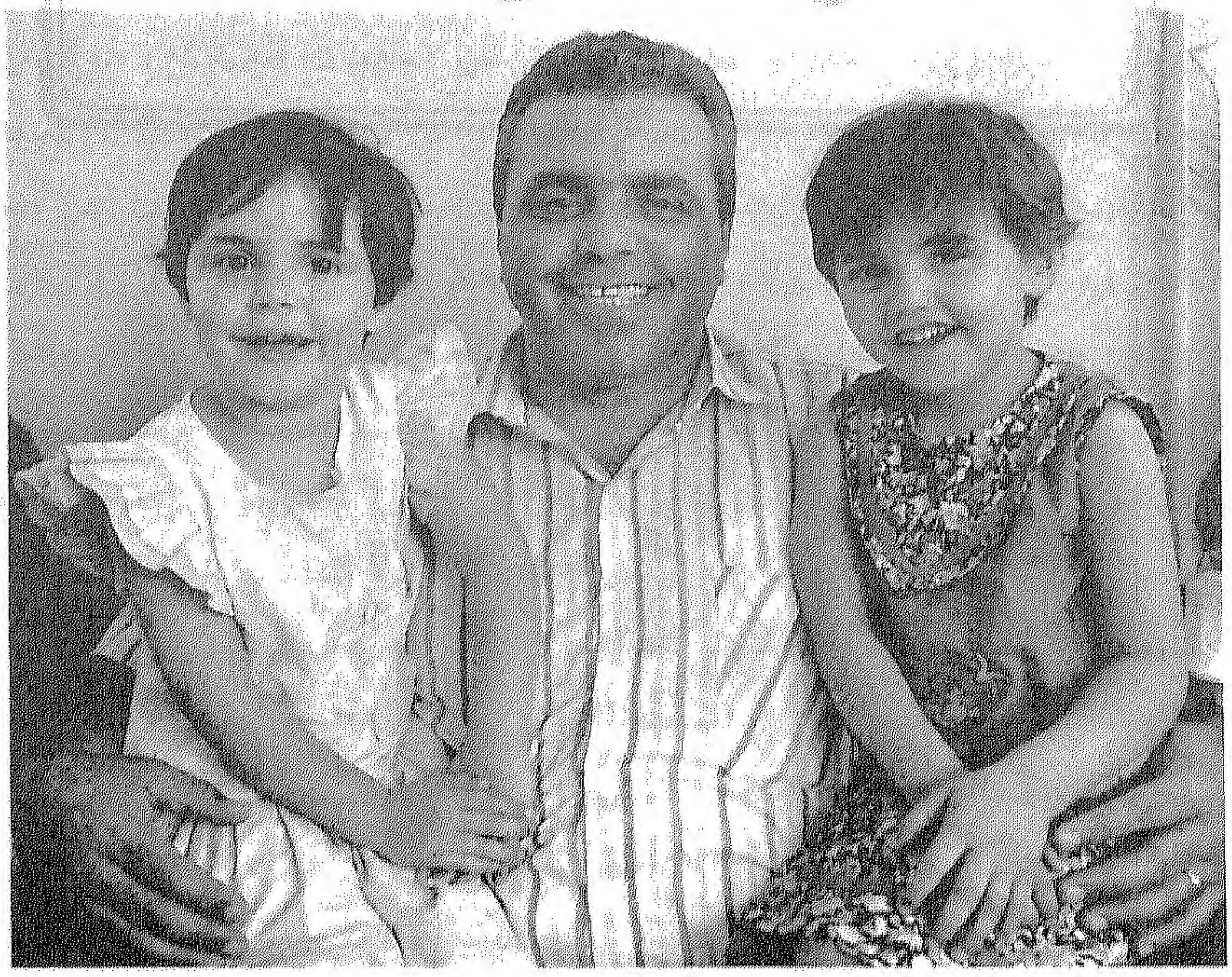

● كنعان مع طفلتيه (سماح) إلى اليمين و (هند) إلى اليسار.

سامح كنعان

يشكل سامح كنعان حالة من التناقض البشري : فهو يهودي يتحالف مع العرب ، وعربي يمكن ان يُعَدّ على انه احد افراد عائلة يهودية . ولك أن تسأل أي مسؤول اسرائيلي عن كنعان ، وسترى كشرة تعلو وجهه . صحيح ، ان جدّي كنعان كانا من السفارديم المغربيين ـ يهود شرقيون ـ هاجروا من افريقيا الشمالية واستوطنوا في القدس ؛ وصحيح أنهما كان شديدي التمسك بالعادات والتقاليد كيهود اورثوذوكس ؛ وصحيح ان كنعانا يتحدث اللغة العبرية بطلاقة ، ويقرأ الصحف الاسرائيلية ، ويتابع الاخبار الاسرائيلية ، ويبدي اعجابه بالكنيست الاسرائيلي الديمقراطي ، ويفهم عقلية اليهود المعاصرين ؛ وصحيح انه أحد الأشخاص الذين يتفاوضون حاليا على السلام بين العرب واليهود ؛ لكنه بالنسبة الى الاسرائيليين شيء شاذ وسخيف ؛ فبموجب الدين اليهودي هو يهودي ، وهو في الواقع مسلم عربي ، ومؤيد نشط لمنظمة التحرير الفلسطينية .

وسامح كنعان هجين ثقافي : مزيج من أب مسلم وأم كانت يهودية . فعندما كانا طفلين ، عاش والداه في بيتين متجاورين في المصرارة ، وهي إحدى ضواحي القدس ، وتقع مباشرة خلف أسوار المدينة القديمة . كان ذلك في أواخر فترة الانتداب البريطاني التي استمرت ثلاثين سنة ، والتي يقول عنها الكبار سنا انها فترة مجتمع مفتوح في فلسطين . فعلى الرغم من تنافسهم على الارض ، وانفجار اعمال العنف بين فينة وأخرى ، الا ان العرب واليهود في القدس اختلطوا ببعضهم بحرية ، وعاشوا وسط بعضهم . كان ذلك عهدا ـ وقد خبرته عائلة سامح ـ لم تكن الحواجز المادية والنفسية فيه والتي عملت على تقسيم الشعبين بعد الاستقلال الاسرائيلي سنة ١٩٤٨ قد شيدت بعد .

وعلى امتداد سنوات الاربعينات ، لم تُعِرْ عائلة ميمن ـ وهي عائلة يهودية هاجرت من المغرب ـ وعائلة كنعان ـ جيرانهم المسلمون ـ الكثير من الاهتمام لبعضهما ، ولم يفكروا في ان صبيا من أحد البيوت وصبية من بيت آخر سيقعان في حب بعضهما . لكن في عام ١٩٤٦ ، أعلن طالب كنعان ومزال ميمن انهما يريدان الزواج من بعضهما . ورفض والد الزوجة ـ وكان رجلا شديد التدين ـ ان يتغاضى عن زواج ابنته : «لانه لم يكن سهلا ان يعطي ابنته كزوجة لمسلم» كما

يقول سامح . فبالنسبة الى يهودي اورثوذكسي ، تعتبر مأساة ان يرى ابنته تتزوج خارج اطار الشريعة اليهودية ، وبالتالي فان زواجها كان يعني الجلوس والحداد عليها وكأنها قد ماتت . مع ذلك ، وبالنسبة الى عائلة كنعان ، فان الزواج المرتقب كان حدثا ممتعا حينما ساعدا زوجة ابنهما المستقبلية على الاستعداد لحياتها الجديدة . فقد قامت أسرة طالب بتعليم مزال التقاليد الاسلامية للطبخ وتدبير شؤون البيت . وعلى الرغم من ان الاسلام ـ على النقيض من اليهودية ـ لا يحرم الزواج من غير المسلمة ، الا انه يؤكد ضرورة ان تصبح الزوجة مسلمة . وقد اعتنقت مزال الاسلام أمام الشيخ عبد الحميد السائح الرئيس السابق للمجلس الوطني الفلسطيني ، والذي كان آنذاك شيخ نابلس . ويتحدث سامح عن مزال فيقول انها كانت مخلصة لزوجها على نحو واضح ، وبما فيه الكفاية لدرجة انها ضحت بالابتعاد عن عائلتها من أجل الزواج به : «لا شيء صعبا فيما يتعلق بالحب ... لقد ضحت بكل شيء من أجل والدي : بدينها ، وبأسرتها» .

تركت عائلة كنعان القدس ، واتجهت نحو نابلس ، حيث امتلكت اقطاعية لها على امتداد المدينة . وافتتح طالب ـ الذي كان يصنّع مقاعد باصات كعامل في شركة الباصات في القدس ـ محلا خاصاً به في نابلس . ولمدة سنتين عاش الزوجان حياة هادئة . ولكن حينما أعلن اليهود قيام دولتهم الجديدة سنة ١٩٤٨ ، اندلعت الحرب في المنطقة ، وتمكن الاردن في النهاية من المحافظة على الضفة الغربية ، ومن ضمنها نابلس والقسم الشرقي من القدس ، في حين سيطر الاسرائيليون على القسم الغربي من المدينة . وللمرة الاولى في تاريخها تقسم المدينة المقدسة . كان ذلك قبل مرور تسع عشرة سنة على رؤية مزال لاهلها مرة ثانية .

لكن مزالا أصبحت واحدة من أفراد المجتمع في نابلس . فالديانة التي فطرت عليها لدى مولدها لا تنثر الخلاف العرقي في المدينة العربية . وعاشت العائلة هويتها المسلمة دون أي غموض أو التباس ، اذ يقول سامح : «لاننا كنا نعيش في منطقة اسلامية وفي عائلة مسلمة فاننا نشأنا على التقاليد العربية . ولأن [أمي] أصبحت مسلمة ، فان تقاليدها تحولت الآن نحو الاسلام» . وعلى الرغم من ان طالبا لم يكن رجلا متدينا ، الا ان حياة العائلة المنزلية سارت وفق تعاليم دينه لا وفق تعاليم دين زوجته ، اذ كان يُحتفل بالاعياد الاسلامية في منزل كنعان لا

بالاعياد اليهودية ، وكان الحديث يتم باللغة العربية لا بالعبرية . ان السلالة اليهودية لعائلة مزال انتهت في حقيقة الامر مع زواجها من طالب ، اذ اصبح أولاد كنعان مسلمين ، وان كانوا وبموجب الديانة اليهودية يهودا .

في عام ١٩٥٤ ، غادرت عائلة كنعان مدينة نابلس في مسعى منها لكسب عيشها وارتحلت عبر نهر الاردن لتستوطن في مدينة اربد . وفي تلك السنة ولد سامح آخر أبناء طالب ومزال . ومثل أشقائه الاربعة وشقيقتيه ، نشأ سامح وتربى بطريقة اسلامية تقليدية ، فقد تعلم الدين والثقافة الاسلاميين في كل من البيت والمدرسة الحكومية التي التحق بها . وبعد مرور عشر سنوات - واذ كانت العائلة ما تزال تبحث عن ظروف اقتصادية أفضل - عبرت عائلة كنعان نهر الاردن مرة ثانية ، وعادت الى نابلس . ثم اندلعت حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ واشترك الاردن للمرة الثانية في الحرب ، غير ان اسرائيل تمكنت هذه المرة من الاستيلاء على الضفة الغربية ، وسيطرت على القدس كلها .

فجأة ، وللمرة الاولى بعد مرور عقدين من الزمن ، التقت مزال ثانية مع اسرتها . وسالت الدموع في ذلك اليوم الذي رحبت فيه اسرة كنعان بشقيق مزال وبزوج اختها في منزلهم في نابلس . وما يزال سامح - الذي كان يبلغ الثالثة عشرة من عمره آنذاك - يذكر الانفعالات التي سادت لقاء أخواله اليهود للمرة الاولى . اما جدة سامح لامه - التي كانت آنذاك قد أصبحت أرملة - فلم تذهب الى نابلس من أجل لقاء ابنتها ، اذ ان عشرين سنة من الفراق لم تجعلها مستعدة لاجراء عملية مصالحة مفاجئة . واستمرت السيدة ميمن تبارك ذلك اللقاء ، حتى تصالحت الوالدة وابنتها سرا في القدس ، اذ يقول اصغر ابناء مزال : «لا شيء يمكن ان يمنع الام من البحث عن قلب ابنها» .

لكن الى جانب صورة المتعة تلك تأتي صور أخرى ايضا : فالتوحيد العسكري للضفة الغربية مع اسرائيل ادخل الجنود اليهود الى نابلس . وحينما وقعت عيون سامح للمرة الاولى على الاسرائيليين ، كانت نظرته اليهم نظرة عدو لا نظرة عائلية. يقول مستذكرا المواجهة مع الجنود الاسرائيليين عام ١٩٦٧ : «كانت أعلام الدول العربية مرفوعة فوق تلك الدبابات ... كانت تلك الخدعة التي استخدمها الاسرائيليون لإيهام الناس انها دبابات عربية» . ويعتقد سامح ان الخدعة كان

يقصد بها اخراج سكان نابلس من منازلهم وإخماد المقاومة ضد القوات العسكرية الجديدة . وانطلت الحيلة على الرغم من قعقعة الرصاص وهدير الطائرات المقاتلة فوق الرؤوس . وحدث سامحا أصدقاؤه عن ان هناك آخرين ركضوا نحو الدبابات ، وحيّوهم مرحبين بهم . وقال الاصدقاء ان بعض الذين اقتربوا من الدبابات صودرت اسلحتهم ، وشُجعوا على مغادرة البلدة . وبعد مرور أربع سنوات ، أصبحت لدى سامح ، البالغ سبعة عشر عاما آنذاك ، وجهة نظر شخصية أوسع عن الجنود الاسرائيليين : لقد كانوا هم الذين احتجزوه عند جسر داميا .

مترعرعا في نابلس ، كان سامح يقضي الكثير من اوقات فراغه يلعب كرة القدم ، وكشاب يافع اطلق عليه وصف (افضل حارس مرمى في الضفة الغربية لسن ستة عشر عاما فما دون) . لكن الوجود المستمر للجنود الاسرائيليين ، وضغوطات الاحتلال سرعان ما حلت مكان متعة لعب الكرة . فكيافع ، شعر سامح ان السيطرة الاسرائيلية على بلدته امر غير مشروع ، فقرر الخروج الى الشوارع للاحتجاج .

وعلى الرغم من ان سامحا يقول انه أيد عددا من المجموعات المختلفة ، الا ان منظمة فتح ـ الجناح الاكثر شعبية في م. ت. ف. والذي يقوده ياسر عرفات ـ قد طالبت به : «بالنسبة اليّ في ذلك الوقت ، فان الشيء الاكثر أهمية كان النضال ضد الاحتلال . لم تكن المظلة مهمة . لذلك أعتقد انه في ذلك الوقت وبشكل عرضي جُندت في فتح ... الشيء الهام كان الكفاح ضد الاحتلال ، وكان لدى فتح مبدأ الكفاح فوافقت على الفور على أن أُجند فيها ... لقد جذبني صديقي الى المجموعة أعتقد ان فتحا كانت اسما هاما جدا في ذلك الوقت ، وقد جذبني اسمها ولذلك حينما قال لي (فتح) أصبحت مهتما بالانخراط فيها» . ورغم انه لم يخفِ ايمانه بالكفاح المسلح ضد الاسرائيليين ، ويعترف بانه «جُنِّد في منظمة فتح من أجل الكفاح بالوسائل العسكرية» الا انه يؤكد : «لم أشترك في أي شيء باستثناء بعض المظاهرات ضد الاحتلال ... لكن أصدقائي شاركوا في بعض النشاطات العسكرية» .

في عام ١٩٧٢ كان سامح عائدا الى الضفة الغربية بعد زيارة قام بها الى الاردن

وبعد ان عبر جسر داميا فوق نهر الاردن ، وعاود الدخول الى المناطق الخاضعة للسيطرة الاسرائيلية ، القي القبض عليه وعلى ثلاثة آخرين من زملائه في السلاح ، ووجهت اليهم تهمة العضوية في منظمة غير مشروعة : فتح . لقد قام شخص ما - وربما كان مخبرا - باعلام السلطات الاسرائيلية عن نشاطات الخلية . ويعترف سامح بقيامه بتدريب زملاء فلسطينيين على استخدام المتفجرات ، ولكنه - حتى هذا اليوم - ينكر تورطه في أي عمل ارهابي . ويؤكد مسؤولون اسرائيليون على مستوى رفيع روايته ، لكنهم واثقون ايضا من انه لم يكن مجرد مسافر بريء يمر عبر نهر الاردن «كان متورطا في عمليات نقل أسلحة : رشاشات اوتوماتيكية، ومتفجرات لصالح خلية حاولت القيام بهجمات ارهابية ضد اليهود . وفي النهاية لم يفلحوا . كانت هناك النوايا ، وكانت هناك الاسلحة ، ولكنه محق ، اذ انه شخصيا لم يقتل أي شخص بيديه» .

بعد القاء القبض عليه ، نُقل سامي مباشرة الى سجن نابلس ووضع في زنزانة عرضها قدمان وطولها سبعة أقدام . يقول هذا السجين : «كانت زنزانة وسخة جدا وبها أصوات الكثير من الفئران ... فئران حقيقية وبطانيات وسخة» . ولمدة واحد وعشرين يوما بقي في زنزانة سجن نابلس ، وتم استجوابه من قبل ضباط الاستخبارات الاسرائيلية . وبين الفينة والأخرى ، كان يتعرض للضرب واللطم في مختلف انحاء جسده ، ويذكر ايضا ازعاجات الحمامات الباردة . وتم استجوابه على نحو متكرر ، وقال الاسرائيليون له : «نحن نعلم انك كذا ، وانك فعلت كذا . فاعترف !» . وأجابهم : «لا أدري من الذي أخبركم عني . وفي النهاية ، اعترفت انني كنت عضوا في احدى التنظيمات الفلسطينية» المحظورة بموجب القانون الاسرائيلي . ويقول ان ذلك التنظيم كان منظمة فتح .

وقضى سامح السنة الثانية في زنزانة اكبر مع عدة سجناء آخرين قبل ان يمثل امام المحكمة العسكرية ، والتي أصدر عليه قضاتها العسكريون الثلاثة حكما بالسجن لمدة واحد وعشرين سنة ، وبغرامة مقدارها (٥٠٠٠) ليرة اسرائيلية . ونقل الى السجن بالقرب من بلدة بئر السبع الواقعة في جنوب اسرائيل حيث قضى هناك سنوات سجنه الثلاث عشرة . وفي عام ١٩٨٥ - وخلال عملية تبادل الاسرى الكبيرة ، والتي تم خلالها اطلاق سراح ١١٥٠ سجينا فلسطينيا مقابل ثلاثة جنود

اسرائيليين ـ تم تحرير سامح قبل ثماني سنوات من موعد انتهاء مدة الحكم الصادر بحقه .

وما تزال ذاكرته تمتلىء بصور بئر السبع ، اذ يقول : «انه سجن سيء جدا جدا... وضعني السجانون الاسرائيليون في قسم يدعى القسم ٧ والذي يتألف من خمسة واربعين زنزانة» كل زنزانة بطول سبعة أقدام وعرض خمسة أقدام ، وبداخلها سجينان . ولمدة سبع سنوات ، أزعجت ظروف الحياة هذه سامحا ورفاقه السجناء : «حينما كنا في السجن أحضروا لنا فراشا : تخت ذو طابقين ، وكانت الأسرّة في كل غرفة : أسرّة ، أسرّة ، أسرّة . لا تستطيع الدخول الى الغرفة . تأكل وتجلس في سريرك . لم يكن لدينا أي متسع من المكان . وحينما يأتي الضابط ليحصي العدد ، عليك النزول من السرير والوقوف أمامه» . ويتناول مجموعة الذكريات ليرسم صورة تفصيلية لحياة السجن التي تبعث على الملل : خمسمائة سجين ، وكان رقمه سبعة وأربعين ؛ وزوج من البنطالات للصيف وزوج آخر للشتاء . عند الساعة السادسة صباحات هناك تفقد ، وكذلك عند الظهر وعند المساء ، وتفقد في حالات الطوارىء . لكن «لنا كرامتنا . وكان بعضنا أشخاصا عقلانيين» فاتفقوا على اتخاذ موقف «ولذلك تحدثنا مع مدير السجن بشأن الازدحام» .

لقد وجد سامح ان مناخ بئر السبع الجنوبية صعب في أحسن الاحوال : الحرارة الشديدة ، البرد غير المتوقع ، ورياح صحراوية لا يمكن التنبؤ بها ، وهي امور كانت تبعث على الغضب . ويتذكر انه في بعض الاوقات ، كان يقف نحو مائة سجين في صف طويل من أجل الاستحمام بعد ان يقضوا ساعات تحت شمس الصيف . وخلال أيامه التي قضاها في بئر السبع ، اكتشف سامح ان حراسه اليهود كانوا انسانيين ايضا . ويشير الى سَجّانين مهاجرين من الاتحاد السوفييتي سابقا واللذين أقاما معهما صداقات محدودة . يستذكر سامي ان أحدهما كان يشجع السجناء خلال قيامهم بلعب كرة السلة والكرة الطائرة ، في حين ان الآخر أفضى الى سامح بعدم سعادته بواجباته الملقاة عليه وقال انه «لم يحب هذه الحياة» ويقول سامح : «قال لي : [هل تعرف معنى كلمة الحارس ؟] فقلت له : [نعم ، ان يحرس شخصا ما] فقال : [لا ، انني أشبه الكلب ... كلب الحراسة]» .

من أجل التخلص من السأم ، تابع سامح اهتماماته الفكرية ، وأصبح السجن «جامعته» . فقد شارك في الاجتماعات السياسية للنشطاء الفلسطينيين ، وقرأ الصحف والروايات ، وتعلم العبرية «أريد ان أفهم عدوي لان النبي محمد يقول [اذا كنت تريد أن تأمن عدوك فعليك ان تتعلم لغته]» . وبدأ سامح دراسة اللغة في بئر السبع . وقد جعل السجناء من انفسهم سلسلة لغوية ، اذ قام العرب الاسرائيليون بتدريس اللغة العبرية لاخوانهم الفلسطينيين ، فكان الواحد يعلّم الآخر ، الذي يقوم بدوره بتدريسها لشخص ثان ... وهكذا . وكان الذي درّس سامحا اللغة العبرية في بئر السبع هو محمد أزهر ، الذي درّس صفا به عشرون طالبا . ان برنامج تدريس اللغة العبرية كان محظورا من قبل سلطات السجن الاسرائيلية ، شأنه في ذلك شأن الاجتماعات السياسية .

والتهم سامح كل صغيرة وكبيرة عبرية كان يعثر عليها ، اذ قرأ كتبا ومجلات أعطاها له حراسه ، واستمع الى محطات الاذاعة الاسرائيلية التي تبث باللغة العبرية ، بالاضافة الى تلك العربية . وخلال فترة ما ، اشترك في صحيفة يديعوت احرونوت الاسرائيلية اليومية التي توزع على نطاق واسع . ويقول انه غير متأكد فيما اذا كان هو السجين الفلسطيني الوحيد في تاريخ اسرائيل الذي اشترك في صحيفة عبرية . وفي المقام الاول ، كرس نفسه للغة العبرية بسبب رغبة في اختراق النفس اليهودية ، وللامساك بالميكانيكيات التي تساعد المجتمع الاسرائيلي على السير . صحيح ان والدته تستطيع تكلم اللغة العبرية بطلاقة ، لكنها بعد زواجها لم تتكلمها في البيت اطلاقا . ولم تكن لسامح أي أفضلية على السجناء الآخرين ، على الرغم من ان من المحتمل ان لديه اهتماما اكثر بالتنقيب في جذوره . (حتى اليوم ، في كل ليلة يكون فيها بالبيت ، يعمل سامح على ان يكون أمام التلفزيون لمشاهدة نشرة أخبار التلفزيون الاسرائيلي التي تبث الساعة التاسعة . وبتلك الطريقة ، فانه يقلد عادات غالبية الاسرائيليين في بيوتهم في تلك الساعة) . وقد أدرك ان التمكّن من اللغة العبرية يمكن ان يساعده على ارضاء فضوله المشتعل عن الجانب الآخر : الجانب الذي شن ضده حملة عسكرية وهو في منظمة فتح ، الجانب الذي مثّله حراس سجنه ، الجانب الذي له لافتات شوارع واعلان استقلال وعملة خاصة به ، و ـ على الرغم من انه لا يقولها ـ الجانب الذي أبعد أمه عن أناسها وأهلها .

لكن سامحا يصر على ان دراسته المكثفة للغة العبرية تعكس فقط محبته العامة للبحث والتنقيب في الثقافة اليهودية . فهو يقرأ عن آخر الاتجاهات في الحياة الاسرائيلية ، ويقتبس من فيلسوف العصور الوسطى اليهودي الكبير ابن ميمون . سَلْه لماذا يكرس نفسه للقضية الفلسطينية ، وسيجيب باللغة العبرية بالاعلان الشهير عن المسؤولية الشخصية التي قالها هيلل الباحث اليهودي في حقبة الهيكل الثاني : «إنْ لم اكن لنفسي فمن يكون لي؟» . وإذا سئل عن شهر رمضان لدى المسلمين ، فانه سيتحدث عن قصة (البوريم) وهو عيد يهودي يصادف في شهر آذار ، أو عن قصة (شافوت) وهو عيد الربيع عند اليهود ، او عن كيفية تناوله خبز الفطير اليهودي في عيد الفصح وهو في السجن واستمتاعه بذلك . يقول : «ان الاعياد مهمة بالنسبة إلـيّ لانها تبين كيف يفكر الاسرائيليون ... انها تظهر كيف يحفظ اليهود تقاليدهم» .

لكن سر ثقافة الغرباء يخدم ايضا في مجال تأكيد الهوة التي يراها تفصل بين عالمي الشعبين ، بين عالمي أجداده : «إنني مندهش من كيفية ممارسة دينهم ومنعهم الآخرين من ممارسة دينهم ... سأعطيك مثالا : في كتسيوت [سجن النقب حيث قضى ستة شهور قيد الاعتقال الاداري] كنا ممنوعين من ممارسة الصلاة خارج خيامنا» . من المحتمل ان لا يكون السبب بالنسبة الى الاسرائيليين فرض قيود على ممارسة الشعائر الدينية بحد ذاتها ، ولكن قد يكون السبب الحقيقي هو ان كل انواع التجمعات لاكثر من مجموعة صغيرة من الفلسطينيين ممنوعة لان الاسرائيليين كانوا يتخوفون من ان تتحول تلك التجمعات الى تمرد منظم . ويتذكر سامح ايضا انه صُدم ذات مرة بسبب تقرير اخباري يتحدث عن حركة السير الاسرائيلية المتدفقة نحو الشمال من أجل الاحتفال بعيد الفصح . وقد تسبب التقرير له بالمرارة لانه جعله يفكر في «ان الاسرائيليين يذهبون في رحلات ، يذهبون الى كل مكان ونحن خاضعون لحظر التجول» .

ولمدة تسع عشرة سنة تحت الادارة الاردنية ، لم يعرف فلسطينيو الضفة الغربية ، أمثال سامح ، أي شيء عن الحياة الاسرائيلية ، اذ لم تكن هناك نوافذ بين الشعبين . لم تكن هناك العدواة اليومية المباشرة الفلسطينية ـ الاسرائيلية التي تشخص العلاقة في نهاية المطاف . ولقد كان غياب الاتصال بمثابة جدار سميك

مصمت . وبعد حرب ١٩٦٧ سقط ذلك الحاجز غير المرئي ، ورأى كل جانب الآخر للمرة الاولى .

لكن الاحتلال الاسرائيلي ولّد الغضب ، ومع الغضب حلّ العنف والخوف . ويعترف سامح ان خوفه الاكبر ان يقع ضحية للعشوائية ، وفي بعض الاحيان ليس العشوائية ، وانما العنف الناجم عن المواجهة الساخنة دائما بين الجانبين : «أعرف عن رجل ، سائق باص على الباصات العربية في الضفة الغربية . توجه بالباص الذي يقوده الى إحدى محطات الباص في الضفة الغربية ، وتوقف في مكان منعزل ، وتوجه الى الداخل واستقل المصعد . وبينما كان داخل المحطة ، توجه أحد حراس المحطة [وهو عربي] الى الباص ، وجلس على مقعد السائق . لم يكن هناك أي راكب على متن الباص في تلك الآونة ، اذ كان الباص فارغا ، وقد جلس الحارس على مقعد الباص ربما ليستريح . وأطلقت النار عليه ومات . كانت هناك أصوات بسبب اطلاق النار ، وعاد السائق أدراجه ، وأدرك ان من المحتمل انه كان سيكون هو الضحية» . وفي حين يوافق سامح على ان الحادثة يمكن ان تكون عمل عنف عشوائيا لا دوافع سياسية له ، الا انها تؤكد له هشاشة حياة الضفة الغربية وعدم امكانية التنبؤ بها . وتذكره ايضا بانفجارات العنف الغاضبة المرتبطة مباشرة بالنزاع الفلسطيني ـ الاسرائيلي .

يقول سامح : في الاسلام التقليدي ، يجب ان تكون مستعدا للقاء خالقك ، ولكن خلال السنوات الخمس الأخيرة من الانتفاضة ـ حيث لا شيء يمكنك ان ترجئه للغد ـ فان عليك ان تكون نظيفا جسديا قبل ان تقوم بمغامرة في أي مكان : «ان أي شخص في الضفة الغربية يغسل نفسه قبل الخروج الى الشارع . لماذا ؟ لانه في حال انه قتل ومات ، ولانه سيصبح شهيدا ، فانه يجب ان يكون طاهرا» . ويتوقف سامح عن الكلام ليضيف قائلا : «أجل ، حينما أخرج من بيتي أشعر بعدم الأمان لأن انطلاق الرصاص أمر طبيعي ، ولذلك فاني أغتسل أيضا» . ويقول ان ذلك جزء من صوفية الانتفاضة ، جزء من قوة تملي احتمالية ان يذهب فرد ما ليموت حيث تكون هناك مظاهرة .

واليوم تطارد سامحا أحلام محورها الجنود الاسرائيليون وآثار الاحتلال الاسرائيلي في روتين الحياة اليومية . فهو يشير اولا الى البيروقراطية المضطهدة

المزعجة ، ويذكر الضرائب المرتفعة ، ويشير الى الزام الفلسطينيين بحمل بطاقات الهوية التي يجب ابرازها حين الطلب . ومع انه يعلم ان هناك عربا واسرائيليين في اسرائيل يدفعون ايضا ضرائب مرتفعة ، وان على الاسرائيليين ان يحملوا بطاقات الهوية ، فان الامرين كليهما اشارات مزعجة الى النية الاسرائيلية المستمرة لتدمير الارادة الفلسطينية . انهما عاملا تذكرة يوميان بحقيقة ان الفلسطينيين لم يقيموا بعد دولتهم بنظامها الضريبي الذي يدعمها وبجوازات سفرهم . ان الذي يضايقه هو ذلك الانكار لهويتهم كشعب .

ثم هناك غضبه على ما يعتبره انه الالتزام الاسرائيلي بالعقاب الجماعي للشعب الفلسطيني في وسطهم : «سواء اكنتُ شابا ام صغيرا ام مسنّا ، فليس هناك فرق في ذلك لدى الاسرائيليين ... هناك عقاب جماعي ضد الفلسطينيين كلهم» . ان عقوبات مثل حظر التجول تعمم على الجميع «فالفلسطينيون كلهم سواء» .

مع هذا ، فان العشوائية ، والشعور بانهم لا يستطيعون على الاطلاق التخطيط لأي شيء ، وانهم لا يعرفون على الاطلاق ما الذي سيحدث لهم ، ان هذه الاشياء تساعد على تفسير رد الفعل الفلسطيني المرتجل حينما سقطت صواريخ سكود العراقية على اسرائيل . فبالنسبة الى العديد من الفلسطينيين ، فان ذلك كان بمثابة الاحساس بالرضى الذي أحسوا به لأن الاسرائيليين جربوا في النهاية النوع نفسه من الهجمات العشوائية ، وليست حقيقة ان الاسرائيليين كانوا يموتون هي التي سببت الابتهاج لدى الفلسطينيين . ان صاروخ سكود يمكن ان يسقط في أي وقت وفي أي مكان ، وحظر التجول يمكن ان يفرض دونما سابق إنذار ، ومثل الفلسطينيين ، كان على الاسرائيليين ان يُحتَجَزوا في منازلهم . انه هذا الشعور بان هناك قوة خارجية لا تستطيع التحكم بها يمكنها ان تغير حياتك في أي لحظة : الخوف من ان باستطاعة الجنود الاسرائيليين ان يقرعوا باب بيتك في منتصف الليل وان يقوموا بتفتيش المنزل ، هو سبب واحد ـ كما يقول سامح ـ يجعل الفلسطينيين يشعرون انهم يُعاقَبون كشعب «والفلسطينيون كلهم ضد هذه المعاملة، وليس [فقط] ارهابيو الفلسطينيين . انهم [الاسرائيليون] ضد الفلسطينيين كشعب لانهم لا يميزون بين الفلسطينيين» على حد قول سامح .

ولكنه يميز بين المعاملة الاسرائيلية لفلسطينيي نابلس ، واولئك الذين في القدس.

ففي نابلس ، كما يقول سامح «ليست هناك اتصالات ايجابية ، فكل الاتصالات مع الاسرائيليين هنا سلبية ، على النقيض من القدس على سبيل المثال . ففي القدس ـ اعتقد ـ عاملوا الناس على العكس تماما مما عاملوهم به هنا في نابلس . لماذا ؟ لأن [القدس] مكان مقدس ، ولذلك فان من المهم جدا جعل الناس يشعرون بالارتياح».

وحتى اليوم ، فان سامحا ما يزال يعيش في نابلس مع زوجته رويدة ، وبناته الثلاث : سماح (أربع سنوات) وهند (ثلاث سنوات) وزين (ولدت تقريبا ايام مؤتمر مدريد للسلام) وامه مزال ، البالغة من العمر ثلاثة وستين عاما ، والتي تفرق أبناؤها الاخرون في أنحاء العالم . فبناتها يعشن في القدس ، وولداها يعيشان في السويد ، وولد آخر في فرنسا ، وهناك آخر ايضا في نابلس . يقول سامح الذي يعمل مترجما للغة الانكليزية ـ العبرية في غرفة الصناعة والتجارة : «في نابلس نحن مثل الشعب الفلسطيني ... كل شخص في مكان» . وبالقرب من منزله تقع إحدى ملكيات عائلة كنعان القديمة ، والتي ينوي إحياءها قريبا . ويشير الى المبنى المهجور منذ مدة طويلة على انه «البيت القديم» ويقول : ذات يوم سيستخدم كمضافة (ديوان) .

بالطبع ، فان ما سيحدث يعتمد على الرياح السياسية . قبل بدء الانتفاضة الفلسطينية في شهر كانون الأول ١٩٨٧ بدأ سامح يلتقي ثانية مع اعضاء الاسرة اليهودية الذين لم يعرفهم حقا ، ومعظمهم ما يزالون يعيشون في القدس . وحتى الوقت الذي بدأت فيه الانتفاضة بقطع الخيوط الهشة التي تحقق التعايش بين الشعبين ، كانت علاقات عائلتي كنعان ـ ميمن حارة . «والان» كما يقول سامح هازا برأسه «لا شيء سوى المكالمات الهاتفية» . ان العائلة تسير على الخط الدقيق ، معترفة بعدم احتمال الحفاظ على عائلة موحدة ، والنظر فيما وراء السياسة ، والوصول الى نهايات لمصائرهم المختلفة . ورغم الصعوبات ، يقول سامح : «انني فخور ان امي كانت يهودية ، وقد كانت دائما تقول [السلام]» .

ويقول الرجل الذي قضى ثلاث عشرة سنة في السجن بسبب نشاطاته مع منظمة فتح انه ما يزال يرى م. ت. ف. على انها الامل المشرق لشعبه من اجل التقدم على جبهة السلام . وهو لا يبالي بمخاوف اسرائيل من هوية فلسطينية تسيطر عليها م. ت. ف. في الضفة الغربية . وفي حين يعترف ان م. ت. ف. تواصل

تنفيذ برنامجها عبر الهجمات الدامية واعمال العنف ضد الاسرائيليين ، فانه يؤكد ان المنظمة قد غيرت ما هو اكثر من خطها . فمن وجهة نظر سامح ، فان الفلسطينيين «ليسوا على النقيض من الحركات الوطنية الأخرى لان المنظمة ليست مجموعة ارهابية ولكنها حركة وطنية ، مثل حركات : المؤتمر الوطني الافريقي، والفيتناميين . انها ليست موجودة من أجل قتل الاسرائيليين فقط . لقد تغيرت . وهي ليست م. ت. ف. السابقة نفسها . انها حكومة . والآن سنترك م. ت. ف. جانبا ، وندع الاسرائيليين يصنعون السلام معنا» .

ان سامح كنعان يتحدث بشيء من المسؤولية ، فقد اختير كواحد من بين الاربعة عشر شخصا في الوفد الفلسطيني المفاوض لاسرائيل في محادثات السلام الخاصة بالشرق الاوسط . وهو يعتقد ان سمعته كرجل جدير بالاحترام سبقته من السجن وانها مسؤولة عن المحادثة الهاتفية التي تلقاها في السنة الماضية من الزعيم الفلسطيني سري نسيبة ، ويطلب منه فيها الانضمام الى الوفد الفلسطيني للتباحث مع اسرائيل . وبالعودة الى ايامه النشيطة ، يدعو سامح نفسه «حارس مرمى وفدنا» الذي لن «يسمح للاسرائيليين بتسجيل أهداف» .

ويعتقد ان الطريق الى السلام تتطلب مجموعات بناء رئيسة . وكمبتدئين ، فانه يتطلع الى الاسرائيليين لمواصلة طرح مقاييس بناء الثقة . ويقول ان مثل تلك المساعي تساعد على «اقناع شعبنا اننا في طريقنا نحو السلام» ويجب ان تتخطى تجميد النشاط الاستيطاني الجديد ، واطلاق سراح السجناء السياسيين ، واعادة فتح المدارس والجامعات الفلسطينية ، والتوقف عن فرض حظر التجول ، وهي قضايا أقرت بها الحكومة الجديدة التي يقودها رابين . وحينما يُسأل عن مقاييس بناء الثقة من قبل الفلسطينيين ، فانه يبدو أقل استعدادا لتقديم معلومات ، ويقول: «نعترف ان اسرائيل بحاجة الى الأمن ، لكننا الطرف الأضعف وهم الطرف الأقوى. ليست لدينا دبابات . نحن بحاجة الى الأمن اكثر من الاسرائيليين . صدقني ان هذا هو شعور الفلسطينيين كلهم في الضفة الغربية» . ورغم كل شيء ـ كما يقول سامح ـ فحالما تثبت اسرائيل نواياها الحسنة وتوقف بناء المستوطنات كلها ، يمكن للفلسطينيين ان يفكروا مليا في مقاييس متبادلة مثل تعليق الانتفاضة بشكل مؤقت .

ويتنهد بعمق ، ويمسح عينه اليمنى براحة يده وكأنه يزيح رؤيا بشعة ، ويتابع القول باللغة الانكليزية : «اسمع ... نحن مدركون ان اسرائيل تخشى من وقوع مسادا وكارثة ، وندرك ان كل شخص بحاجة الى الأمن . ولذلك فاننا على استعداد للجلوس مع الاسرائيليين لمدة خمس سنوات ضمن ترتيبات حكم ذاتي مؤقت ، من أجل منح الاسرائيليين [فرصة] لاكتشاف اننا لسنا ارهابيين ، واننا سنوافق على السلام» .

ان المقترح الفلسطيني المسمى (نموذج ترتيبات الحكم الذاتي الفلسطيني المؤقت) يطرح اجراء انتخابات لانتخاب مجلس تشريعي يتكون من مائة وثمانين عضوا ، وبدوره ، سيقوم هذا المجلس المنتخب بانتخاب لجنة مؤلفة من عشرين شخصا تتولى ادارة الوزارات الفلسطينية يوما بيوم . وبعد سنتين من الحكم الذاتي الفلسطيني ، تتباحث القيادتان : الفلسطينية والاسرائيلية ـ حسب الخطة ـ خلال السنوات الثلاث القادمة على الوضع النهائي للضفة الغربية وغزة . وقد قدمت الوثيقة هذه من الوفد الفلسطيني الى الاسرائيليين في شهر كانون الثاني ١٩٩٢ ، غير انها رفضت من قبل اسرائيل التي اعتبرت هذا المقترح نسخة طبق الأصل عن دولة فلسطينية . وعوضا عن ذلك ، اقترحت حكومة رابين الجديدة اجراء انتخابات في شهر نيسان ١٩٩٣ من أجل انتخاب مجلس اداري محدود يتألف من ثمانية عشر عضوا .

ويرى سامح ان الوقت يمر بسرعة ، ويدرك ان الافتقار الى التقدم يقوي أيدي الفلسطينيين المتشددين ، فتأتي كلماته بمثابة تحذير ودي للاسرائيليين : «اذا كانوا يريدون سلاحا حقيقيا [فيجب] عليهم تشجيع المعتدلين من أمثالنا ، من أجل إعطائنا الجرأة لنذهب الى شعبنا ونقول : [انظروا ، لدى الاسرائيليين فعلا نوايا حسنة لصنع السلام مع الفلسطينيين]» .

ويشعر سامح بالقلق ايضا من الرؤوس سريعة الاهتياج في كلا الجانبين ، الساعية الى نسف عملية السلام . وكمثال على ذلك ، يستشهد بانتخابات غرفة التجارة والصناعة في نابلس التي كانت ستجرى آنذاك . فكما هو الأمر عليه في مدن الضفة الغربية الاخرى حين تجرى انتخابات ، طرحت في نابلس قائمتان : قائمة الاصوليين الاسلاميين (حماس) وقائمة القيادة الوطنية التي تدعمها م. ت.

ف. ويقول سامح «أعتقد انهم يصبحون أقوياء بسبب الاحباط الذي يعانيه الشعب من الوضع السائد ... اننا نعيش حالة من الرعب والاحباط و[يتجه الناس] نحو الله ... ان هذا احساس نفسي . ولذلك فانهم يتجهون نحو حماس ، لتصبح اقوى . ايضا ، فانهم يستغلون الاحساس بانهم يجب ان يكونوا مسلمين ، فيستخدمون المساجد من أجل نشاطاتهم ... ولأن م. ت. ف. أيدت العراق ، أعتقد ان (حماس) بعد حرب الخليج حصلت على الكثير من المال من الدول الخليجية . وقد سمعت من الخارج أنهم حصلوا على المال قبل وقوع حرب الخليج من أجل منافسة م. ت. ف. ان المال مهم جدا ، وهم (حماس) الآن يدفعون الى الكثير من الناس للدخول في غرفة التجارة ، ويقولون على سبيل المثال : [بعد أن ندخل غرفة التجارة سنبني مؤسسات اسلامية]» .

ان مخاوف سامح من قوة حماس الناشئة حديثا أثبتت صحتها في مدينة رام الله وليس في نابلس . فمدينة رام الله ـ الواقعة على بعد عشرة اميال الى الشمال من مدينة القدس ، والمعقل التقليدي للوطنيين ـ شهدت الزحف المدهش لحماس نحو الانتصار في شهر آذار ١٩٩٢ مع حصول المجموعة الاصولية على عشرة مقاعد من أصل أحد عشر مقعدا . وأعادت م. ت. ف. تنظيم صفوفها من أجل انتخابات نابلس التي أجريت يوم ٢١/ ٥/ ١٩٩٢ فحصلت على تسعة مقاعد من أصل اثني عشر مقعدا . وقد انطلقت نحو الهجوم برد فعل احترافي وتكتيكي ، وخاضت الانتخابات تحت اسم الائتلاف الوطني الاسلامي . وقال مرشح حماس عماد كنعان لصحيفة ميدايست ميرور يوم ٢١/ ٥/ ١٩٩٢ ان المعارضين الوطنيين قد نجحوا من خلال زرع الارتباك والفوضى عبر التساؤل : «أيهما المجموعة الاسلامية الحقيقية» . وحينما أجابت حماس بلجوئها الى القيم الدينية ، كان سامح كنعان يقول : «ربما يكون الاسلام هو الحل ، لكن حماس ليست كذلك بالتأكيد» .

ان تسلل حماس الى الضفة الغربية ، بالاضافة الى نجاحها التالي في الانتخابات ، يبدو بالنسبة الى سامح اكثر من مجرد كونه تقدما جغرافيا من الاقطار العربية غير الديمقراطية المجاورة . ويتهم اسرائيل انها تحث حماس سرا وبخبث من أجل محاصرة الطريق نحو السلام ، لان بعض الفلسطينيين «يعتقدون ان حماس على صواب حين تقول [اننا ضد عملية السلام] . وهذا هو دور اسرائيل : جعل الامر

وهكذا ، يمكن للاسرائيليين ان يقولوا : [أجل ، نحن ذاهبون الى السلام ، ولكن الفلسطينيين ليسوا كذلك] . هذه هي اللعبة . ان الادارة المدنية الاسرائيلية تشجع حماس على ان تكون في غرفة تجارة نابلس ، ويشجعونها على الرغم من أنها [حماس] تريد فلسطين من النهر الى البحر . هذا هو التناقض بعينه» .

ويقول سامح ان المعتدلين الفلسطينيين الذين ظهروا مؤخرا عرضوا على اسرائيل أفضل الامكانيات لصنع السلام مع سكان المناطق : «ان لم يستغل [الاسرائيليون] هذه الفرصة ، فانهم سيخسرونها» وإلا ـ كما يقول سامح ـ فان المعتدلين لن يكونوا قادرين على صد الأصوليين والمتشددين في المخيمات الفلسطينية . ولكن في حين يحذر من هذه المخاطر من ناحية ، فانه من ناحية اخرى يناقش في انهم جزء طبيعي من العملية السياسية المتنامية : «لدينا معارضة وليست المعارضة كلها تتم بطريقة ديمقراطية . نحن مثل أي شعب آخر ولسنا شعبا بدائيا . نحن شعب مثقف وهذا سيساعدنا على ان تكون لنا ديمقراطيتنا» .

كان الوقت متأخرا بعد ظهر احد ايام شهر آذار الاولى عام ١٩٩٢ ، آخر الايام الثمانية المرهقة على طاولة المساومات الشرق اوسطية ، وكانت الجلسة النهائية قد اختتمت قبل نصف ساعة في وزارة الخارجية الامريكية ، وكان الدبلوماسيون الفلسطينيون في طريق عودتهم الى فندق غراند ، الفندق المترف في واشنطن الذي يسمونه بيتهم خلال لقاءاتهم المشهورة مع المندوبين الاسرائيليين . وفي حين كان زملاؤه يستمتعون بقيلولة في الطوابق العليا ، أو يدخنون السجائر في بهو الفندق ، جلس سامح كنعان ـ البالغ سبعا وثلاثين سنة من العمر ، وقد كان يرتدي بذلة مقلمة داكنة زرقاء اللون ، انيقة ، وربطة عنق حمراء معرقة ـ مسترخيا في مطعم الفندق المعتم ، يرشف كأس ماء . ان اسبوعين تقريبا من المحادثات المكثفة مع الاسرائيليين ، والاجتماعات المفعمة بعدم الاتفاق ، والاحباط بالنسبة الى الطرفين ، لم تستنزف اللون من وجهه المدور ، أو تزيل الابتسامة العريضة الموجودة دائما على شفتيه . قسمات وجهه حادة ، وعباراته القصيرة تذكر بالكوميدي الامريكي جاي لينو . وكواحد من بين الفلسطينيين الاربعة عشر المفاوضين ، يفكر مليا في نتائج الجولة الثالثة من محادثات السلام التي اختتمت لتوها ، وفي التقدم الذي حصل منذ عُقد مؤتمر مدريد في شهر تشرين الاول الماضي .

ان الحالة المزاجية تختلف كثيراً الآن عما كانت عليه خلال المساعي السابقة في مفاوضات السلام . ويقول سامح : «اعتقد ان كل شيء قد تغير ... والسياسة هي علم التغيير . في عام ١٩٧٠ أردت الكفاح ضد الاحتلال بوسائلي الخاصة ، ولكن الوضع الآن مختلف بالنسبة إليّ لانني الآن منهمك في السياسة ، ومنهمك في تحليل الوضع بعد حرب الخليج وبعد الانتفاضة . في ذلك الوقت ، كان نضالي من خلال الكفاح المسلح ، والآن أناضل من خلال الانهماك في عملية السلام . والانهماك في عملية السلام [اكثر] صعوبة من الكفاح المسلح لاننا نريد تبادل الكلمات لا الرصاص» .

من وجهة نظره فان ما توصلت اليه محادثات السلام الاسرائيلية ـ الفلسطينية في نهاية المطاف هو ان كائنات بشرية اخلاقية تجلس مع بعضها ، وتعرض خلافاتها مهما كانت كبيرة . وبالفعل ، فان معلّم المتفجرات السابق أتى الى طاولة المفاوضات وهو ما يزال يذكر تعاليم أمه : «لقد ربتني امي بطريقة صارمة جدا ... لقد تعلمت كيف أتصرف على نحو مناسب . أصبحت الشاويش في السجن كما تعلم . ان ذلك يعني انني كنت مسؤولا عن الآخرين في السجن» .

وحتى بعد فترة سجنه الطويلة ، وحتى بعد فترتي توقيف اداري ، وحتى بعد تفتيش منزله عام ١٩٩٠ وهو يشاهد لعبة كرة سلة اسرائيلية في التلفزيون ، فان هناك الكثير مما يعجب به هذا الدبلوماسي المبتدىء في اسرائيل . فهو يراها تقدم غذاء للمستقبل ، حكومة فلسطينية مستقلة : «انني مولع بالديمقراطية الاسرائيلية في مجتمعهم ، وأرغب في ان تكون لدينا [ديمقراطية مشابهة] . حينما شاهدت الكنيست ـ وانا أعرف العبرية ـ ومناقشاتها أدركت ما الذي يقولونه . لقد شتموا بعضهم البعض ، وهاجموا بعضهم البعض ، لكنهم في الوقت نفسه يجلسون بجانب بعضهم البعض . وفي وقت الخطر ، يتحد الجميع ، وكان ذلك يعني بالنسبة إليّ شيئا جيدا فيما يتعلق بالديمقراطية . كذلك فان الانتخابات [الاسرائيلية] تسير بشكل جيد ، دون أي هجمات : هجمات جسدية» .

ويبقى السؤال مطروحا امام العالم ، وأمام الشعب الاسرائيلي القلق ، وفي نهاية المطاف أمام الفلسطينيين انفسهم : هل الفلسطينيون المنقسمون على انفسهم بشكل صارم قادرون على اقامة ديمقراطية مماثلة ؟ يقول كنعان بوضوح : «نعم ، أقول

اننا قـادرون ، وسأعطي مـثـالاً على ذلك . في السجن كنا قادرين على ان تكون لنا ديمـقـراطيـة ، وعـلاقـات جيدة بيننا ، لانه كان لدينا شيء مشترك . واعتقد ان في فلسطين لدينا بشكل مـشترك الاهتمام العـام بالفلسطينيين كلهم . فـاذا نظرتَ الى هذا الامر بايجابية ، ستكون لنا ديمقراطيتنا» .

وفي حين كـان المفاوض الفلسطيني يتحدث ، كان يلعب بالثلج الموجود في كأسه ويتـغـضن وجـهـه ، وبدون تحذير ، ينشق فمه عن ابتسامة عريضة ، ليقول انه يرى في خلفيته الفريدة نواة أمل لتعاون فلسطيني ـ اسرائيلي مستقبلي : «برغم كل شيء ، هناك يهودي في الوفد الفلسطيني : إنه أنا !» .

عبد العزيز الرنتيسي

● عـبـدالعـزيز الرنـتـيسي (من مـؤسسي حماس) يلقي درسـاً على طالبات في الازهر : الجامعة الاسلامية في غزة .

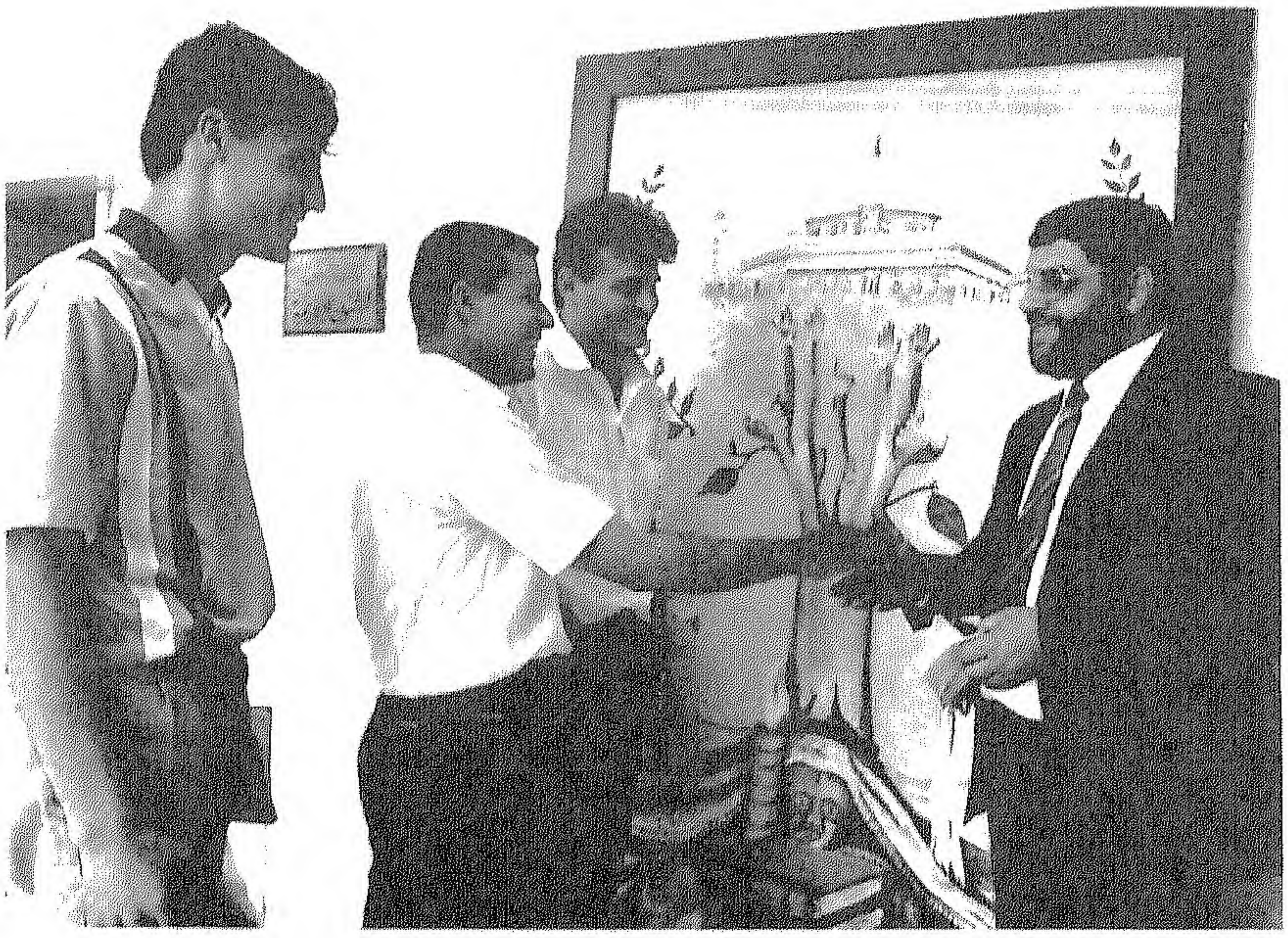

● عبدالعزيز الرنتيسي يصافح عددا من طلبته المتدينين أمام لوحة للمسجد الاقصى في القدس ، ثالث الحرمين الشريفين في الاسلام .

عبد العزيز الرنتيسي

بينما كان وليد البالغ من العمر ستة عشر عاماً يجلس مع عائلته يشاهد توم وجيري وهما يطاردان بعضهما البعض على شاشة التلفزيون ، كان باستطاعته سماع صوت المؤذن وهو ينادي على صلاة الظهر . كان النداء الديني ذاك يكاد يتلاشى بفعل زعيق القطة والفأر في التلفزيون . وفي حين ان وليدا كان يستمتع بأفلام الكرتون ، الا انه ـ كواحد من الشباب في غزة ـ أدرك أنه يفترض فيه التوجه نحو المسجد . كان منزله الواقع في مخيم جباليا ـ أكبر مخيمات اللاجئين في قطاع غزة ـ يخضع لحظر التجول ، ومع ذلك أدرك وليد انه كان من المهم جداً حضور صلاة الظهر في المسجد وهو المكان الوحيد في المخيم المزدحم ـ حيث يعيش ستون ألف نسمة في حالة من الفقر والنتانة المروعة ـ الذي يحظر على القوات الاسرائيلية دخوله . ومن هنا فانه كان ملجأ للشباب من أجل التخطيط لنشاطاتهم المعادية لاسرائيل .

كان وليد طالبا في الصف العاشر في مدرسة خالد بن الوليد الثانوية التي ـ مثل بقية غزة ـ كانت تشبه كرة قدم تقاذفتها مصر واسرائيل . فالمناهج المدرسية ـ كالتي وضعت خلال فترة السيطرة المصرية على قطاع غزة بين عام ١٩٤٨/١٩٦٧ ـ اشتملت على مواد اللغة الانكليزية ، والرياضيات ، والكيمياء ، والتربية الدينية . ومع هذا ، فإنه لم تكن في هذه المناهج مواد عن فلسطين أو عن السياسة الفلسطينية ، إذ ان الاسرائيليين حظروا ذلك . ومنذ احتلال قطاع غزة ، خلال حرب الأيام الستة ، حاولت الدولة اليهودية أن تحول دون وجود هوية فلسطينية مستقلة ، بل انها شجعت الاصوليين الاسلاميين على بناء المساجد كوسيلة لاضعاف وتقويض م. ت. ف. غير ان لا شيء من ذلك مهم الآن . في هذا اليوم الرطب الدافئ في مطلع شهر كانون الأول ١٩٨٧ ، كانت مدرسة خالد بن الوليد مغلقة ، وكان وليد يريد الوصول الى أصدقائه في المسجد . وخلال ركضه في الزقاق القذر الضيق التقى وليد مع عدد من زملائه ، فركضوا جميعاً مع بعضهم باتجاه المسجد الذي يختبئون في ساحته للاستعداد من أجل التظاهر .

ابتدأت المعركة مبكرة في ذلك الأسبوع ، فعند ظهر يوم ٦/ ١٢/ ١٩٨٧ تم طعن شلومو ساكال ـ وهو بائع بلاستيك اسرائيلي ـ حتى الموت في الشارع الرئيسي في

غزة ، بينما كان يفرغ بضاعة من سيارته ، وكان ذلك على يد عضو في منظمة الجهاد الاسلامي ، وهي مجموعة ميليشيات سرية اتخذت من ثورة آية الله الخميني في ايران نموذجاً لها . وبعد مرور يومين على ذلك ـ بعد ظهر يوم الثلاثاء الواقع في ٨/ ١٢ ـ اصطدمت شاحنة اسرائيلية بسيارة تقل مجموعة من العمال العرب الذين يعملون في اسرائيل وهم في طريق عودتهم الى بيوتهم في قطاع غزة . وقد قتل في هذا الحادث أربعة عرب من ركاب السيارة ، في حين أصيب الآخرون بجراح بليغة وكان أحد هؤلاء الجرحى (محمود) والد وليد وهو بدوي ، يعمل منذ نحو عشرين عاما كعامل بناء في المستوطنة الاسرائيلية الواقعة بجوار غزة . وسرت شائعات في غزة مفادها ان «الحادث» لم يقع عرضا ، وانما كان عملا مدبراً من أجل الانتقام ، قامت به عائلة التاجر الاسرائيلي الذي قتل طعنا في السوق الرئيسي قبل يومين . وحينما عاد المشيعون من الجنازة ، انضم اليهم آلاف من سكان مخيم جباليا ، وأخذت هذه المجموعة الضخمة من اللاجئين ترشق بالحجارة الجنود الاسرائيليين الذين وقفوا داخل مواقعهم الأمامية المحصنة المحمية بسياج من الأسلاك الشائكة . وأطلق الجنود الرصاص في الهواء ، غير ان ذلك لم يعمل على الحد من غضب ذلك الحشد من الناس ، وأخذ المتظاهرون يصرخون : «ستحترق الأرض من تحت أقدام الكافرين» و «الجهاد ! الجهاد !» ومع حلول صباح اليوم التالي ٩/ ١٢ قامت مجموعة جديدة غير معروفة بتوزيع منشور تشجب فيه مقتل الفلسطينيين الأربعة وتدعو الى ثورة جماهيرية . في الوقت نفسه قرر الاسرائيليون انهم لن يتساهلوا اتجاه أي أعمال شغب واضطراب أخرى ، وأصدروا تعليماتهم الى ناقلتي جند مدرعتين ـ تسبقهما سيارة جيب ـ بدخول مخيم جباليا لاستعادة الأمن والنظام .

وصل وليد الى المسجد في الوقت الذي وصلت فيه مجموعة من الجنود تتكون من خمسين شخصاً . والتقط وليد حجراً ورشقه باتجاه أحد الاسرائيليين . وخلال ثوان أطلق الغاز المسيل للدموع نحو نافذة المسجد ، وتحول هتاف «الله أكبر» الى صرخات ، ووقفت النسوة ـ اللواتي كن يغطين رؤوسهن وكانت هناك بعض المحجبات ـ على أبواب بيوتهن وبدأن الصراخ والعويل بشكل هستيري . هرب الشباب نحو سطح المسجد ، وهناك أخذوا يرشقون الاسرائيليين الذين كانوا قد تعرضوا لهجمات بالقنابل الحارقة . ثم أخذ الصبية العرب يقذفون الحجارة من (نقّافاتهم) ويرمون الزجاجات المكسورة عليهم ، في حين ألقى بعض

الفلسطينيين بأنفسهم فوق الناقلات ، وأجبروا سائقيها على تغيير مسارهم ، في حين حاول آخرون انتزاع الرشاشات من أبراج العربات المدرعة . وهرب وليد من سطح المسجد نحو بيت صديق له ؛ وهناك أدرك أن باستطاعته الحصول على منديل مبلل بالعطر من أجل التخلص من التهيج المثير الذي تسبب به الغاز المسيل للدموع في عينيه . غير ان باب بيت صديقه كان موصدا .

لكن الاسرائيليين الذين كانوا يستخدمون الرصاص المطاطي تحولوا الآن نحو استخدام الذخيرة الحية ، ويستذكر وليد : «كان باستطاعتك رؤيتهم وهم يجثون على ركبهم ويصوبون نحو هدفهم ... كانوا يجلسون على أوراكهم ويطلقون النار وكانوا يريدون اطلاق النار مباشرة باتجاهنا» . ولكن رغم احتفاظهم بتعليماتهم العسكرية ، الا انهم كانوا يطلقون النار على أرجل أولئك الذين كانوا يعتقدون انهم زعماء ويقول وليد : «لم أشعر بالطلقة الأولى ... كان الجنود عند الزاوية ... لم أرهم ... ثم ، بينما كنت أركض ، أحسست وكأنني فقدت رجلي اليمنى ، وكأنها قد شُلت . نظرت اليها ، وفجأة رأيت الدم يسيل من ركبتي» . وسقط على الأرض فالتقطه اثنان من أصدقائه ، وحملاه الى منزل طبيب المخيم . وهناك قامت الممرضة بإجراء الاسعافات الأولية له ، واتصلت هاتفيا من أجل إحضار سيارة اسعاف من الهلال الأحمر . كان وليد قد أصيب في أحد الشرايين ، الأمر الذي تسبب في حدوث نزف كثيف في فخذه ، إذ دخلت الرصاصة في النسيج الرقيق في احدى ساقيه ، لتخرج منها وتدخل في الساق الأخرى ، محطمة عظم الفخذ ، ولتكسر رضفته (العظم المتحرك في رأس الركبة) .

في اليوم نفسه ـ الذي جرح خلاله وليد في مخيم جباليا ـ تجمع مئات الطلبة في ساحات المدارس في رفح وفي مخيمات اللاجئين الأخرى يهتفون ضد الاسرائيليين بطريقة ساخرة من خلال شتمهم باللغة العربية، ومن خلال فتح قمصانهم ، معرين صدورهم ، متحدين الجيش اليهودي لاطلاق النار عليهم . وفي وقت متأخر من مساء ذلك اليوم ٩/ ١٢/ ١٩٨٧ أعلن ناطق عسكري في راديو اسرائيل عن مقتل ثلاثة شبان عرب ، وعن جرح عشرين آخرين . وقد سجلت أحداث تلك الأيام الأربعة من شهر كانون الاول في تاريخ النزاع العربي الاسرائيلي المؤلم بداية الثورة الشعبية المعروفة بالانتفاضة .

كان على الاسرائيليين ان يكونوا قد توقعوا حدوث مشاكل . فقبل بضعة أسابيع فقط ـ في شهر تشرين الثاني ـ إزدادت حدة التأييد لحركة الجهاد الاسلامي في الجامعة الاسلامية (الأزهر) بشكل دراماتيكي ، اذ حصل مؤيدو الحركة السرية المسلحة على غالبية مقاعد مجلس الطلبة . وقبل بضعة أيام من اليوم الذي وقعت فيه أحداث شهر كانون الأول ، كانت هناك مظاهرة حاشدة في غزة تأييداً للجهاد الاسلامي . وحينما قامت اسرائيل فيما بعد باعتقال زعيمها الشيخ عبد العزيز عودة هاجم ما يزيد على ألفي فلسطيني الموقع الاسرائيلي الموجود في جباليا .

يقول عبد العزيز الرنتيسي متباهيا : «في اليوم الأول للانتفاضة الواقع في ١٩٨٧/١٢/٩ كنت وخمسة آخرين مع الشيخ أحمد ياسين وقررنا تأسيس حماس في ذلك الوقت» . ويتابع طبيب الأطفال البالغ من العمر خمسة وأربعين عاما : ان حركة حماس ـ وحماس هي الحروف الأولى من : حركة المقاومة الاسلامية ـ قد أنشئت عن قصد من أجل تأكيد ان الاخوان المسلمين كانوا بين المبادرين الرئيسين للانتفاضة : «غيّرنا الاسم من [الاخوان المسلمين] الى حماس لأن الاخوان المسلمين ليسوا كلهم مشاركين في حماس ، اذ انها فرع من الاخوان».

ويدعي الرنتيسي ان حركة حماس أصدرت منشورها الأول يوم ١٢/٩ ، وهو اليوم الأول للانتفاضة . ويضيف : «كان القرار هو بدء الانتفاضة تحت اسم حماس ، وكنا نعدّ لذلك منذ فترة طويلة» . وعلى الرغم من انه ليس هناك من دليل ثابت لدعم رأيه ـ اذ ان المناشير الثلاثة الأولى لا تحمل توقيعا ـ فان الاسرائيليين ليس لديهم أي شك فيما يتعلق بهوية عبد العزيز الرنتيسي . فهم يعرفون انه كان أحد المؤسسين الاوائل لحركة حماس ، ففي شهر آذار ١٩٨٨ حكم عليه بالسجن بسبب اتهامه بتأسيس المجموعة وبكتابة منشورها الأول . وقضى عبد العزيز الرنتيسي مدة سنتين ونصف في السجون الاسرائيلية ـ بما في ذلك ثمانية شهور في مخيم أنصار ٣ ـ قبل ان يطلق سراحه في ١٩٩٠/٩/٤ . وبعد مرور شهرين ، حكم عليه مرة ثانية بالسجن لمدة سنة .

حينما يجلس في مكتبه في الجامعة الاسلامية في غزة ، فان هذا الفلسطيني يشبه رجل اعمال أكثر منه رجلا عالما باللاهوت . وهو يحتفظ بنسخة من القرآن الكريم

على مكتبه ، ويرتدي بذلة زرقاء اللون وربطة عنق ، وبالكاد يبدو عليه انه متعصب دينيا . وفي الجامعة ، يدرّس عبد العزيز مساقات في العلوم ، وعلم الوراثة ، وعلم الطفيليات ، ويعترف انه لم يتوقع أن يعيش هذا النوع من الحياة . ولكن بالنسبة اليه ، كما هو الأمر عليه بالنسبة الى ثلاثة أرباع سبعمائة وخمسين ألف نسمة من أهالي غزة ، فان الحياة لم تمنحه أي خيار آخر . ومثل ما يزيد على نصف مليون فلسطيني آخر في غزة ، فانه لاجىء أيضاً .

إن حياته تشبه حياة وليد ، ذلك الطالب في المدرسة الثانوية ، البالغ من العمر ستة عشر عاماً . وقد ولد عبد العزيز في شهر تشرين الأول ١٩٤٧ في يبنا ، وهي بلدة صغيرة تقع بين عسقلان ويافا ، وكان في الشهر السادس من عمره حينما هربت عائلته الى غزة . ومثل كل اللاجئين بعد حرب ١٩٤٨ ، كانت عائلته تعتقد انها ستعود الى موطنها خلال فترة وجيزة . ولكنهم عوضا عن ذلك ، انضموا الى مائتي ألف عربي آخرين تم ترحيلهم حينما أنشئت دولة اسرائيل ، والى الثمانين ألف عربي الذين كانوا يعيشون في القطاع . وأقامت عائلة الرنتيسي في خان يونس ثاني أكبر المخيمات الثمانية التي أقامتها الأمم المتحدة في قطاع غزة .

في مساحة أقل من سبعة أميال عرضاً في الجنوب ، وتضيق الى أربعة أميال فقط في الشمال وعند قسمها الأوسط ، فان الثمانية والعشرين ميلا من الرمال المشبعة بالبخار لم تكبح على الاطلاق انفعالات السكان . ويحد غزة من أحد جوانبها البحر ومن الجانب الآخر سياج من الأسلاك الشائكة مع اسرائيل . وقد شُبّه القطاع بزجاجة طويلة ضيقة . والثغرة (المنفذ) الوحيدة فيها هي الحاجز المزدحم دوماً حيث تراقب اسرائيل حركة المرور من وإلى الشوارع القذرة المغبرة المشبعة بالشمس في المدينة الرئيسة . ان هذه الثغرة الضيقة ، ولسانها هما الطريق الوحيد الى الخارج ، فهي مغلقة عند حدها الجنوبي بالحدود مع مصر . ولذلك ، فانه كلما وُجّه تهديد للأمن الاسرائيلي ، يتم اغلاق غزة ، وبشكل يجبر ما تحويه تلك الزجاجة من الحقد والفقر على التحول الى حالة هستيرية من العنف والموت .

هنا ، وسط البالوعات (المجاري) المفتوحة ، والحشرات التي تئز باستمرار ، وبالقرب من أكوام الزبالة الضخمة ، والبالوعات التي تصب في الأنهار الشتوية القذرة ، نشأ عبد العزيز . كان واحداً بين أحد عشر طفلاً ، تسعة صبيان وابنتان

لعـائلة لاجئة ، وهو الحجم النموذجي للعائلة في مخيم اللاجئين . وفي الوقت الذي أصـبح فيه عبد العزيز في طور المراهقة ، كان عدد سكان غزة قد تضاعف الى نحو ستمائة وخمسين ألف فلسطيني ، بمـعـدل ألف وثمانمائة نسمة للكيلومتر المربع الواحـد ، الأمر الذي جعل قطاع غزة أكثر المناطق كثافة سكانية عل وجه الأرض .

ولكن على الرغم من ظروف الازدحـام والضـيق ، فان عبد العزيز سيخبرك ان عـائلتـه كـانت باستمرار تعمل على الحفاظ على هويتها . وفي الواقع ، فان مصطلح (المخـيم) بالنسـبـة الى عـبد العزيز واللاجئين الآخرين هو استعمال مغلوط اذ انه يشـتمل على «المؤقت» . وعلى الرغم من الاستعمال المؤقت في المظهر ، فان المخيمات أثبـتت انها قـادرة على التحمل . انها عامل تذكرة دائم ، وشوكة في ضمير العالم ، تذكّـر بأن مـا بين أربعة الى خمسة ملايين نسمة من الشعب الفلسطيني مايزالون بدون وطن وبدون دولة . وفي المخـيمات ، فـان العـائلات تتوسع بشكل داخلي لا خـارجي ، فكل جـيل يبني فوق الذي سبقه ، وترتفع الأبنية الصلبة الى الأعلى ، لا لأن هذا هو الأسلوب العـربي في البناء فـقط ، ولكن أيضـاً بسـبب انه ليس هناك مكان آخر للذهاب اليه .

ولك ان تسأل اليـافـعين في خان يونس أو جباليا أو رفح من أين هم ، وستجد انهم لن يعطوك اسم الشارع الذي يقطنون فيه أو رقم صندوق بريد ، ولن يقولوا لك انهم من المبنى رقم ٣ أو ج أو حتى من المخيم في خان يونس أو جباليا أو رفح بل انهم سـيـقـولون لك انهم من يبنا ، أو من مـدينة أخرى في فلسطين حتى ولو انهم لم يروها .

ان والدة عبد العزيز الرنتيسي ما تزال تعيش في خان يونس : بعد مرور أربعين سنة على هروبها من اسرائيل . فـبـالنسـبـة اليها والى آلاف آخرين ، فان المخيمات حققت هدفاً : الحفاظ على الوجود الذهني لفكرة الوطن . ان العائلات التي هي من قـرية أو مـدينة معينة ، ماتزال تعيش مع بعضها ، ويتم ترتيب قضايا الزواج بين أبنائهـا وبناتها . وحـتى السلطة القـديـمـة مـا تزال مـوجودة : المختار . فالزعيم التقليدي ليبنا ، أو قراطيا ما يزال مختار المجمع السكني ج أو المجمع رقم ٣ وذلك كله أمر مقصود من أجل الحفاظ على تلك الذكريات حية .

نشأ عـبـد العـزيز الرنتيسي في المخـيم ، ولعب وسط أزقـته الرملية ، وقنوات

المجاري الضحلة المكشوفة ، وحصل على الرعاية الصحية من خلال التسهيلات الطبية التي تقدمها (الأونروا) . وقد عاشت عائلته في خيمة ، ويستذكر انه حينما كان في الرابعة من العمر ، كان الشتاء قارسا جداً حتى انهم اضطروا للانتقال الى مدرسة قديمة هربا من البرد . ونتيجة لذلك ، قامت (الأونروا) ببناء بيوت طينية للاجئين ، غير ان بيت الرنتيسي لم يكن يشبه في شيء البيت الجميل الذي أخبره والداه بأنهما تركاه في يبنا . وحينما كان في السادسة من العمر ، كان عليه أن يعمل خلال فصل الصيف ، مقابل أجر يعادل سنتا واحداً في اليوم ، يعطيه لوالده للمساعدة في شراء الطعام للعائلة : «لن أنسى أبداً انه لم يكن لديّ حذاء ، وكان عليّ أن أذهب الى المدرسة حافي القدمين وبملابس ممزقة . ولم يكن لديّ على الاطلاق ما يكفي للأكل» . وخلال أزمة السويس التي وقعت في شهر تشرين الأول ١٩٥٦ ، حينما كان عبد العزيز يبلغ التاسعة من العمر ، قام الاسرائيليون بقصف خان يونس لمنع الفدائيين الفلسطينيين من استخدام مخيم اللاجئين كقاعدة عمليات لشن غارات فدائية على اسرائيل . ويتذكر انه اختبأ في ملجأ وكان خائفاً : «حينما عدت الى البيت ، سمعت والدتي ووالدي يصرخان ، وقيل لي ان الاسرائيليين هاجموا منزل عمي وانه قتل» .

لكن أكبر أزمة في حياة الشاب عبد العزيز حدثت سنة ١٩٥٧ ، فقط بعد عيد ميلاده العاشر ، إذ يستذكر : «استقرضت بعض المال من أقاربي واشتريت شيئاً من البضائع من أجل بيعها في مصر» . كانت خان يونس تبعد عن الحدود المصرية بضعة أميال ، وكان من السهولة بمكان في تلك الأيام عبور الحدود والعودة في اليوم نفسه . ومع ذلك ، فان عبد العزيز لم يصل الى الحدود أبداً : «لقد سرق بعض اللصوص بضاعتي ، وهربوا بها ، وكان عليّ أن أعود الى البيت صفر اليدين . كنت أبكي لأنني كنت أعرف ان والديّ فقيران جداً ، وأنهما لايملكان بالطبع أي أموال لسدادها لأبناء عمي» .

انتظم عبد العزيز في المدرسة الثانوية في خان يونس التابعة للاونروا حيث ارتدى وشقيقاته الزي الموحد الأزرق والأبيض الذي أوصت به المنظمة العالمية . وفي عام ١٩٦٥ تخرج من المدرسة الثانوية ، يقول مفتخراً : «كنت من عائلة فقيرة جداً وكان علينا أن نكافح ، لكنني كنت الأول في صفي» . ويوضح ان التعليم كان

دائما الطريق الوحيد للهرب من واقعه . فحينما غادر خان يونس في وقت متأخر من تلك السنة من أجل البدء بالدراسة في جامعة الاسكندرية في مصر ، كان يعد العدة لحياة مهنية في مجال الطب ، ولم يكن يشغل ذهنه لا الدين ولا السياسة : «كنت منكبا على دراساتي الطبية» .

خلال سنوات طفولته ، وحتى قبل أن تقوم مصر بادارة قطاع غزة سنة ١٩٤٨ ، كان للقاهرة علاقة خاصة مع غزة . ويعود ذلك بشكل جزئي الى قرب البلدين من بعضهما ، والى سهولة تنقل الفرد ذهابا وايابا عبر الحدود عند رفح . ولكن كان هناك ما هو أكثر من حركة الانتقال البشري : فقد تبودلت تجارة البضائع بين مصر وغزة ، كما تبودلت الايديولوجيات . وأصبح أهالي غزة على ألفة بالتفزيون وبالكتب ، وبالثقافة ، والطعام ، واللهجة المصرية . وعلى الرغم من أن مصر لم تعمل على ضم غزة اليها أبداً ، أو حتى منح سكانها جوازات سفر ، الا ان المصريين حسّنوا وعلى نحو واسع النظام التعليمي في غزة ، وذلك من خلال فتح مدارس جديدة عديدة ، وفرض الزامية التعليم على كل طفل يزيد عمره على ست سنوات . كما فتحت مصر أبواب جامعاتها للطلبة الموهوبين أمثال عبد العزيز الرنتيسي ، مقدمة التعليم الجامعي لآلاف عديدة من الفلسطينيين كل سنة ، والذين لم تكن غالبيتهم قادرة على دفع الرسوم الجامعية .

وحينما يفكر مليا في تلك السنوات المبكرة ، فان عبد العزيز يقول انه تأثر بقوة ـ على الرغم من أنه لم يكن واعياً لهذا الأمر في ذلك الوقت ـ بشيخ التقاه لأول مرة حينما كان في العاشرة من عمره ، عندما بدأ بالتردد على المسجد في خان يونس. كان اسم الشيخ محمود عيد ، ويستذكر عبد العزيز : «كنت أشعر دائمًا انه كان رجلا حكيما وذكيا جداً» . وحينما بدأ عبد العزيز دراسته الجامعية في الاسكندرية التقى مرة ثانية بالشيخ عيد ، وبدأ الشاب والشيخ العجوز يلتقيان خلال أوقات الصلاة . ويستذكر عبد العزيز : بالطبع ، فان محموداً كان شيخ الجامع هناك . وكان عيد هو الذي حدثه عن الاخوان المسلمين ، وهو الذي ملأ عقله الحساس بـ «الحقيقة» عن الرئيس المصري جمال عبد الناصر وعن فلسفته المؤيدة للوحدة العربية ، ويقول : «بدأت أفهم سبب اخفاق النظام في العالم العربي ولماذا يوجد عند العرب مثل هؤلاء الزعماء السيئين . وفي الوقت نفسه ، كان الاخوان المسلمون يقولون ان بامكان الاسلام أن يحل المشاكل كلها في البلاد العربية . وبسبب من

محمود عيد أصبحت في نهاية المطاف من الاتباع المخلصين للاخوان» .

ويقول عبد العزيز انه ، وحينما كان يدرس في الاسكندرية ، عاش «صدمة نفسية» سببها الانتصار الاسرائيلي السريع والمفاجىء على القوات العربية في حرب عام ١٩٦٧ . فقد كان يبلغ العشرين من العمر آنذاك ، وكان يستمع الى التقارير المستمرة ساعة بساعة عن القتال من راديو الترانزستور ، ويشاهد الملخصات الاخبارية التلفزيونية . لم يستطع تصديق ما سمعه وما رآه . فخلال ستة أيام خسر العرب مرتفعات الجولان ، وقطاع غزة ، والضفة الغربية لنهر الأردن ، والقدس ثالث مدينة مقدسة في الاسلام . وكان للهزيمة أثرها العميق فيه ، اذ يقول : «جلست وحدي فترة طويلة ، ولم أكلّم أحداً لأسابيع . فقط جلست وحدي. ولمدة ستة شهور عانيت من ضيق تنفّس نفسي المنشأ ، واحساس ثقيل يضغط على صدري . كنت سريع الانفعال جداً . قضيت الليالي كلها وأنا غير قادر على النوم وبعد ذلك أصبحت مهتمًا بالدين» .

وأشار الشيخ محمود عيد الى ان عبد العزيز قرأ أعمال عالمين اسلاميين كبيرين، أولهما : الشيخ حسن البنا الذي أسس جماعة الاخوان المسلمين في مصر عام ١٩٢٩ وكان «المرشد الأعلى» لها الى ان قتل بعد ذلك التاريخ بعشرين سنة ، وأما الثاني فهو سيد قطب ، وهو منظّر وكاتب ، أُعدم شنقا عام ١٩٦٦ بسبب مؤامرة مزعومة لاغتيال الرئيس المصري جمال عبد الناصر .

لم يكن بالأمر المألوف بالنسبة الى طالب جامعي مثل عبد العزيز ان يتجه نحو الاخوان المسلمين ، وعلى نحو خاص بعد الهزيمة التي حاقت بمصر في حرب الأيام الستة . ومع حلول منتصف سنوات الستينات ، كان الاخوان المسلمون في مركز السياسة المصرية لفترة جيل تقريبا . وخلال الفترة التي كان فيها عبد العزيز في الاسكندرية ، احتلت سيطرة الاخوان عناوين الصحف المحلية .

ومع أن عبد الناصر مدين بدين كبير من العرفان بالجميل لزملائه «الضباط الأحرار» الذين أطاحوا بالملك فاروق ، ونصبوه رئيساً للسلطة ، الا انه كان أقل اقرارا بالجميل للاخوان المسلمين الذين ساعدوا أيضاً على الاطاحة بالنظام الملكي هناك . فبعد مرور ستة عشر شهراً على تولية السلطة ، حظر جمال عبد الناصر جماعة الاخوان ، وتلا ذلك صراع على السلطة مع محمد نجيب القائد المصري -

الذي كان قد ساعد على هندسة انقلاب عام ١٩٥٢ ـ والذي ضغط على عبد الناصر من أجل اقامة اتصال بسيط مع الاخوان . وفي شهر تشرين الأول عام ١٩٥٤ ، حمّل عبد الناصر الاخوان المسلمين مسؤولية مؤامرة استهدفت حياته ، واتهم تسعة عشر شخصاً من قياداتهم بتهمة الخيانة في محكمة علنية ، تم على اثرها اعدام ستة منهم ، الأمر الذي اضطر الاخوان للتوجه نحو العمل السري مرة ثانية.

لم يكن الاخوان المسلمون حينما وصل عبد العزيز الى الاسكندرية ، وحتى منتصف سنوات الستينات ، قد عاودوا الظهور كمحرّض رئيس . ففي سنتي ١٩٦٥ و ١٩٦٦ ـ بعد الاعلان عن محاولة أخرى للاعتداء على حياة عبد الناصر ـ تم اعتقال الآلاف من مؤيدي الاخوان المسلمين ، وحوكمت عدة مئات منهم ، وتم تنفيذ حكم الاعدام شنقا بثلاثة من زعماء الاخوان ـ من ضمنهم سيد قطب ـ في خريف عام ١٩٦٦ . وباعدام قطب البالغ من العمر واحداً وستين عاماً ، بعد ان قضى ما يزيد على العقد من الزمن في السجن ، فان عبد الناصر منحه وبدون قصد مكانة الشهيد . وبعد ذلك أشعل عبد الناصر لهيب الأصوليين باصدار حكم بالسجن لمدة طويلة على الشيخ حسن اسماعيل الهضيبي الذي خلف حسن البنا كمرشد أعلى للاخوان . ويعتقد ان الهضيبي مات في السجن بعد ذلك بفترة قصيرة.

في عام ١٩٦٨ ـ بعد الهزيمة المصرية في الحرب مع اسرائيل عام ١٩٦٧ ـ كانت هناك موجة جديدة من أعمال الاضطراب التي قام بها الطلبة في مختلف أنحاء مصر . ومرة أخرى وجّه عبد الناصر ـ الذي كان يقف موقف الدفاع ـ اللوم والمسؤولية للاخوان المسلمين ، ومع ذلك ، فان عبد العزيز حمّل عبد الناصر المسؤولية : لقد خسر العرب الحرب لأنهم لم يكونوا مسلمين صالحين : «بالتأكيد فان الاسلام منتصر ليس لأن الله يقف الى جانب المسلمين فقط ، ولكن لأسباب أخرى عديدة» . ان عبد الناصر وحكومته قد انحرفوا وفسدوا كلية ، وكانوا معتمدين أيضاً على النماذج السياسية والاجتماعية الأجنبية ، وعلى نحو خاص الاشتراكية العربية : «لا شيء يمكن أن يطلق عليه الاشتراكية العربية ... لقد كانت ماركسية مع شيء من التجميل لخلق الانطباع بأنها تناسبنا . وفي الواقع ، كانت الاشتراكية بذرة غريبة زرعت في العالم الاسلامي . ان حكومة عبد الناصر لم تكن

مخلصة حتى بالنسبة الى المصريين» .

ويوضح عبد العزيز ان الاسلام «يعني ان تكون مخلصا في كفاحك ، ان تكون مخلصا من أجل وطنك . انه يعني ان تعدّ نفسك من الناحيتين : الدينية والعسكرية» . لكن عبد الناصر فشل في اعداد جنوده للتضحية من أجل مصر ، وأساء تقدير قوة العدو ، وغالى في تقديره لقدرة القوات العربية الأخرى على مواجهة التحدي . ويؤكد عبد العزيز : «ان الجندي في الاسلام مستعد للتضحية من أجل الاسلام ... ان يتقبل ويعتقد ويشعر ان تضحيته سوف تدخله الجنة في العالم الآخر» و ان الجندي المسلم «يثق بقائده ولذلك فانه سيبذل جهده لاحراز النصر» . لكن لا أحد وثق بعبد الناصر وصدقه ولا بحكومته ، ولذلك فان الحكومة المصرية كان محكوما عليها بالفشل : «لقد سمعنا طوال الوقت ان كل الذين كانوا حول عبد الناصر كانوا لصوصا ، فكيف يمكنني ان أثق بهم ؟ كيف يمكنني ان أضحي من أجل بلادي ، وأواجه احتمال أن أُقتل حينما أرى زعيمي لصا ؟» . ويستنتج أن مصر عبد الناصر لم تكن فقط «بعيدة عن الاسلام» ولكنها أخطأت حينما حاولت أن تقحم النماذج السياسية المستوردة من الشرق والغرب ـ الايديولوجيات الاشتراكية والقومية ـ في الثقافة الاسلامية ، ويقول موضحا ذلك : «ان القومية كانت محاولة غريبة لحرفنا بعيداً عن الاسلام كشعب . والاشتراكية أيضاً ، كانت غير ملائمة كلياً للشعب الاسلامي في بلادنا» .

ان الاسلام فقط ـ بوعده لتحقيق الثقة الالهية في كل فروع حياتنا : في البيت ، والمدرسة ، والطب ، والهندسة ، وفي كيفية التعامل مع الآخرين ـ يمكن ان يمنح قوة للشعب العربي . ويقول عبد العزيز مستشهداً باقتباس من كتاب سيد قطب (معالم في الطريق) : «ان الاسلام يعني العلم والتطور ... يعني كل السلوكيات الجيدة في حياتك ، وفي المقدمة : القيم» .

وبالنسبة الى عبد العزيز ، وكما هو الأمر عليه بالنسبة الى سيد قطب من قبله ، فانه لا الشرق ولا الغرب يمتلك الاجابة . وخلال الفترة الممتدة بين عامي ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧ ، كما يقول ، فشل القوميون العرب في تحقيق أي مكتسبات ملموسة . وخلال العقدين التاليين ، فان الجماعات القومية المسلحة اللادينية ، مثل م. ت. ف. بما فيها الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، والجبهة الشعبية لتحرير

فلسطين ، والفصائل الموالية للشيوعية ، فشلت في نضالها لتحرير فلسطين . وفي سنوات التسعينات ، أضعف زوال الماركسية في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية الثقة بالايديولوجيات اليسارية .

ولا يشعر عبد العزيز ـ المخلص في ايمانه بالاسلام ـ بالدهشة ، اذ يتساءل : «مالذي تتوقعه حينما لا يكون في المنطقة زعيم اسلامي واحد ؟ ... لقد فشل الشيوعيون ، وكذلك القوميون ، وفشل العلمانيون كلية . ان الميدان فارغ الآن من كل الايديولوجيات ، إلاّ الاسلام» . ومرة ثانية ، يستشهد هذا الطبيب بمعلّمه سيد قطب الذي كتب في منتصف سنوات الستينات ان «كل الايديولوجيات الفردية والجماعية قد فشلت ، وانه في هذا الوقت الحرج جداً حيث يعم الاضطراب والارتباك ، يجيء دور الاسلام ، دور الأمة . لقد جاء وقت الاسلام» .

ويقول عبد العزيز ان المصداقية الحقيقية لليقظة الدينية تعود الى حسن البنا : «لقد كان [المجدِّد] . فقبل حسن البنا كنت لا ترى شخصا واحداً متدينا في الشارع أو في المسجد . كنت ترى فقط الرجال المسنّين . كنت لا ترى على الاطلاق شابا واحداً في المسجد . ولكن بعد حسن البنا اختلف الأمر . فقد دخل الاسلام في مختلف فروع حياتنا» .

بعد أن قضى سبع سنوات في مصر ، عاد عبد العزيز الى غزة عام ١٩٧٢ ، وكان الكثير قد تغير : فغزة الآن تحت الاحتلال الاسرائيلي ، وحرب الأيام الستة أجبرت آلاف اللاجئين الجدد على التوجه نحو غزة ، وكانت غالبية الناس ما تزال تعيش في ظل ظروف المخيم البائسة ، وكان اغراء م. ت. ف. المحظورة لا يقاوم ، اذ انضم آلاف الشباب الى جناحها العسكري ـ بما في ذلك فتح ـ والتحق العديدون بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي يترأسها حبش ، والتي نشأت كنتيجة لحركة القومية العربية .

ومع عدم وجود اي أمل بحل سياسي يمنح الفلسطينيين وطناً ، وقعت أعمال عنف في مختلف أنحاء العالم ، كانت تستهدف الاسرائيليين ، غير انها قتلت وجرحت عشرات المدنيين الأمريكيين والأوروبيين . وبدعم من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، قامت مجموعات ارهابية باختطاف الطائرات في أوروبا والشرق الأوسط ، واحتجاز ركابها كرهائن . وقد نفذت منظمة فتح ستين عملا تخريبياً

مختلفاً داخل اسرائيل . وفي غزة نفسها ، قام نشطاء م. ت. ف. بسلسلة من عمليات الارهاب ، اذ قتلوا الكثيرين من العرب الذين اعتبروهم متعاونين . وسادت الفوضى : فقد كانت حوادث اطلاق النار بين الشباب العرب والجنود الاسرائيليين تقع كل أسبوع تقريبا في أزقة مخيم اللاجئين الضيقة .

ان هزيمة حرب عام ١٩٦٧ زادت من لجوء الاخوان المسلمين الى فلسطينيي غزة ، ولكنها أيضاً راقت للاسرائيليين الذين واجهتهم المهمة الصعبة المتمثلة في وجوب حكم المناطق التي لا يسودها القانون ، والذين اعتبروا الأصولية الدينية ثقلاً موازنا مفيداً ضد منظمة التحرير الفلسطينية .

في عام ١٩٧٤ عاد عبد العزيز الى جامعة الاسكندرية للحصول على درجة الماجستير في طب الأطفال ، والتي حصل عليها بعد سنتين من ذلك ، وعاد عام ١٩٧٦ الى غزة وبدأ العمل كطبيب مقيم في مستشفى ناصر ، وهي المرفق الطبي الرئيسي في خان يونس : المخيم الذي نشأ فيه .

ان الاحباط الذي أصاب الفلسطينيين في غزة لم يبلغ ذروته الا عام ١٩٨٦ حينما وقعت مصر واسرائيل اتفاقيات كامب ديفيد ، اذ تعهدت الدولتان بانهاء حالة الحرب بينهما ، والتفاوض على اتفاق سلام رسمي . اما الذين تركوا في وضع حرج فقد كانوا المليون ونصف المليون فلسطيني في المناطق ، الذين قُدم اليهم ما اعتقدوا انه فقط شكل مذل من الحكم الذاتي ، والذي سيبقي الاحتلال الاسرائيلي فترة غير محددة . وبرغم ذلك ، فان الخاسر الحقيقي كان فلسطينيو قطاع غزة .

لم يكن أنور السادات - الذي خلف جمال عبد الناصر سنة ١٩٧٠ - يريد أن يواجه النوع نفسه من المشاكل التي خبرها سلفه وجربها مع الأصوليين . فقد أدان الاخوان المسلمون استعداده لاقامة سلام مع اسرائيل ، ووصفوا ذلك بأنه استسلام كلي للوجود الصهيوني . ولذلك ، فان السادات تصرف بحزم ، اذ أغلق الحدود مع قطاع غزة ، واضعاً بذلك الفلسطينيين تحت رحمة الاسرائيليين . ولم يعد بوسع الطلبة الفلسطينيين متابعة تعليمهم العالي في الجامعات المصرية . كذلك قام السادات بطرد أعضاء جماعة الاخوان المسلمين الذين عرفت عنهم اثارتهم للمشاكل ، وأرسلهم الى غزة . وكم هو مثير للسخرية انه بعد مرور ثلاث سنوات

على ذلك ، فان السادات نفسه سيقتل على أيدي أحد المتعصبين الاسلاميين .

ويستذكر مسؤول اسرائيلي خدم في غزة : «الآن ، وفي عام ١٩٧٨ ، حضر أولئك النشطاء الذين أبعدوا من مصر ومعهم آخرون الى الادارة المدنية وطلبوا تسجيل الجماعة على انها جمعية غير عنفية ... قالوا لنا انهم يريدون القيام بمحو الأمية وانهم يريدون بناء روضة لأطفالهم ، ومجموعة جديدة من المحال التجارية لشعبهم ، وانهم يريدون تشجيع النشاط الاجتماعي بين أوساط الجيل القديم . وبدأوا بالازدهار ... بنوا مسجداً واحداً ، ثم ثانيا ، فثالثا . وحاولنا اكتشاف مصدر الأموال . كانت الأموال تأتي من العربية السعودية والأردن ومن تحصيل الضرائب الداخلية ومن الزكاة» .

كان الشيخ أحمد اسماعيل ياسين هو المهندس الرئيس لحركة الانبعاث الاسلامي . وهو رجل نحيل ، ذو وجه مستدير ، ومشلول كلية تقريباً ، نتيجة لمرض أصابه في الطفولة .. وياسين ـ وهو عالم بالقانون الاسلامي ـ لم يُخف إيمانه بأن اسرائيل دولة غير شرعية ، ولكنه يحث أتباعه على عدم الاندفاع نحو الجهاد قبل ان يتحققوا من أن بامكانهم الانتصار . وعوضا عن ذلك ، فها هو يحثهم على الانهماك في التربية والدعوة .

ان شعبية الانتفاضة ـ كما يوضح ذلك كل من زئيف شيف وايهود ياعاري في كتابهما [الانتفاضة : القصة السرية للثورة الفلسطينية] ـ كانت الى حد ما حركة ارتداد ضد المادية والاباحية التي امتد الى غزة قادمة من اسرائيل ، ونتيجة ـ الى حد ما ـ للحاجة الى التواصل من أجل مشاركة الآخرين معاناتهم . وكان ياسين بمثابة الأب لأنصاره على حد زعم المؤلفين . يقول هذا الشيخ المقعد : «حينما تغلق الأبواب كلها ، فان الله يفتح باباً» . لكن المجموعات الأصولية أيضاً «قدمت نوعاً خاصا من النشاط والفعالية مزج الوطنية بالنقاء الأخلاقي ، والعمل الاجتماعي بنعمة الوعد الالهي ... لقد قدم الشيخ ياسين الى الشباب الفلسطيني شيئاً أبعد مما يمكن لعرفات أن يدركه : ليس فقط تحرير الوطن ، وانما خلاص الروح التي تشعر بالقلق » كما يقول المؤلفان .

وليس لدى الشيخ ياسين سوى الازدراء والاحتقار لعرفات ولقيادة م. ت. ف. الذين يشتمهم واصفاً إياهم بانهم «أكلة لحوم الخنزير وشاربو نبيذ» . ولذلك ،

حينما اتصل الشيخ مع السلطات الاسرائيلية - باعتباره المرشد الأعلى للاخوان المسلمين في غزة - من أجل تسجيل جمعيات خيرية لنشر الاسلام وتجنيد مؤيدين للايمان ، وافقت الدولة اليهودية عن طيب خاطر على تسجيل الجمعية ، وقدمت لهم اعفاءات مناسبة من الضرائب . وحصل أحد عشر رجل دين اسلامي بقيادة الشيخ ياسين على ترخيص لاقامة «المجمّع الاسلامي» في غزة ، وانشئت في نابلس «التضامن» وفي جنين «جمعية المسنّين» وفي الخليل «الجمعيات الاسلامية» وفي القدس والخليل «جمعيات الشباب المسلم» . لكن الأكثرها أهمية الى حد بعيد كان المجمّع الاسلامي في غزة ، الذي وصل عدد اعضائه الى ما يزيد على ألفي عضو ، وسيطر على مساجد غزة .

يقول أوري نير مراسل صحيفة هآرتس الذي قام بتغطية أخبار المناطق خلال سنوات عديدة ان السياسة الاسرائيلية في غزة كانت واضحة : «ففي منتصف سنوات الثمانينات كان لدى اسرائيل سياسة واضحة تمثلت بالسماح بتدفق الأموال لبناء المساجد ، ولبناء مؤسسات اسلامية ، وباعطائهم نوعاً من سياسة عدم التدخل في بيئتهم ، واقامة شبكات مكتبات ، ومساجد ، ومدارس ، ورياض أطفال» . ومن خلال شبكة المساجد كان الاسلاميون قادرين على توزيع كتب وأشرطة مسجلة ، موسعين من خلال ذلك نطاق تأثيرهم . ومن خلال دور الأيتام والعيادات ، والمكتبات ، قدموا تسهيلات اجتماعية ، وصحية ، وتربوية ، وبذلك يكونوا قد تحدّوا سلطة ومصداقية الفصائل الفلسطينية اللادينية . ويستذكر نير قول احد الاسرائيليين سنة ١٩٨٧ وهو مسؤول رفيع المستوى في الادارة المدنية في غزة: «لدينا علاقة طيبة مع المجمّع الاسلامي ، ونعمل بشكل جيد جداً معهم» .

وتكشف دراسة سرية قامت بها الحكومة الاسرائيلية وصدرت في تقرير سري في شهر نيسان ١٩٨٧ عن المدى الذي ضللت الدولة اليهودية فيه نفسها باعتقادها ان الاخوان المسلمين لم يشكلوا تهديداً أمنياً مباشراً لها . وقد فشلت الدراسة - التي أنجزت قبل ثمانية شهور من بدء الانتفاضة - في التنبؤ بامكانية وجود أي احتمال لثورة عنف ، او في أن الانتفاضة الفلسطينية ستشتعل على أيدي الاسلاميين الأصوليين . وقد شاركت في هذه الدراسة التي تحمل عنوان [قطاع غزة نحو العام ٢٠٠٠] عشرون هيئة ، بما فيها جيش الدفاع الاسرائيلي ، والموساد والشّين بيت . وأشارت مقدمة الدراسة التي وضعها الحاكم العسكري لغزة

الجنرال شايك ايرز الى انه كان هناك تصاعد في الحماسة الدينية في مختلف أوساط الفصائل الاسلامية الثمانية ، وأن طموحاتهم السياسية «تركزت حول اقامة دولة اسلامية مثل ايران على أنقاض مناطق اسرائيل الكبرى كلها» . لكن الدراسة توصلت الى ان كل «الحركات الاسلامية تريد التركيز أولاً على عملية كسب قلوب وعقول المعسكر الاسلامي ، وفيما بعد فقط تبدأ النضال الفاعل ضد اسرائيل . والاستثناء الوحيد هنا هو منظمة الجهاد الاسلامي التي تؤكد أسبقية النضال لتحرير فلسطين ، جنباً الى جنب مع عملية هداية المسلمين» .

ويوضح نير قائلاً : «المدهش في هذا هو انه على الرغم من أنهم كانوا مدركين لحقيقة ان هذه الجماعات هي ذات ايديولوجية راديكالية ، وانه هناك على الأقل احتمالية لبدء تنفيذها في لحظة ما ، الاّ انهم اختاروا سياسة تشجيع هذه الجماعات من أجل ان يكونوا ثقلاً موازناً لمنظمة التحرير الفلسطينية التي تنتهج سياسة معارضة ، تتمثل في ايديولوجية أكثر براغماتية ، ولكن مع القيام بأعمال العنف . لقد كان هذا الأمر متسما تماما جداً بقلة التبصّر» . ويتوصل البروفيسور الفلسطيني إميل ساحلية في كتابه [البحث عن قيادة : سياسات الضفة الغربية منذ عام ١٩٦٧] الذي نشره معهد بروكينغز الى النتيجة نفسها : «ان الحركة الاسلامية التي كانت معادية لتوجه م. ت. ف. العلماني ، وكانت تعارض اقامة دولة فلسطينية علمانية قومية ، أكملت سياسة اسرائيل الرامية الى ضرب كل مظاهر الوطنية الفلسطينية» .

وخلال العقد الممتد بين كامب ديفيد وبداية الانتفاضة ، جعلت الحركة الاسلامية أثرها ملموسا في غزة ، فالنسوة لم يعدن يظهرن في الشوارع بدون حجاب أو نقاب على رؤوسهن ووجوههن ؛ وتم بناء عشرات المساجد الجديدة لتستوعب العدد المتزايد من المؤمنين ؛ وقام الرجال باطلاق ذقونهم ، وعلى الشواطىء أصبح من النادر رؤية أي من الجنسين بملابس السباحة أوروبية الطراز ، فإذا ما تجرأوا على ارتدائه ، فانهم بذلك يجازفون بامكانية تعرضهم للضرب على يد المتعصبين .

حينما أغلق السادات الحدود مع غزة سنة ١٩٧٨ ، تعززت استقلالية الاخوان المسلمين في غزة ، ولكن مع اغلاق تلك الحدود ، أصبح الاخوان المسلمون أكثر

اعـتماداً على الأردن ، وأصـبح جسر اللنبي المخرج الوحيد الى العالم العربي ، الأمر الذي كـان يعني انّ على فلسطينيي غزة ان ينفذوا عبر اسرائيل والضفة الغربية .

لكن الانفـصـال عن مصر ، والاقتراب من الأردن خلق مـشـاكل غير مـتـوقعة بالنسـبـة الى الاسرائيليين . يقـول مسؤول اسرائيلي : في عام ١٩٨٤ «اكتشفنا أكبر مخزن أسلحـة من بين المخازن التي اكتشفناها في المناطق ... كان فيه ستون نوعاً من أنواع الأسلحة» من ضمنها بنادق م ـ ١٦ ، ورشاشات عوزي ، وقنابل يدوية وقـد تم شراء ذلك كله بواسطة عـالم الجريمة في اسرائيل . وفي منزل الشيخ ياسين وحده ، وجد الجنود الاسرائيليون مخبأ فيه ستون بندقية .

وحكم على قـيادات الاخوان المسلمين بالسجن لفترات طويلة ، في حين حكم على الشـيخ ياسـين بثـلاث عشرة سنة . وخـلال فترة الاعـتـقـال «تبين لنا أن الأموال المخـصـصة لشراء تلك الأسلحة قد وصلت من الأردن ، وأتذكر قيمتها : ٢٢,٠٠٠ دنيـارا . وقد وصلت من قبل اثنين من القادة البارزين في جماعة الاخوان المسلمين احـدهما عـضـو البرلمان الأردني ، وهـو [... ...] الذي مـا يزال عضواً حتى اليوم . كـانت تلك هي المرة الأولى التي حـصلنا فـيـها على الضوء الأخضر بان الاتجاهات كـانت تتـغير ، وان الاخـوان المسلمين لم يعـودوا على ارتباط بالمصريين ، وانهم في الأردن أصـبحوا مصدراً حقيقياً لقوة أهالي غزة ، وكذلك لأهالي الضفة الغربية » .

الأكـثـر اثارة للدهشـة من هذا بالنسـبة الى الاسرائيليين هو حقيقة «انهم كانوا يمـتلكون السـلاح منذ أكـثر من سنة ولم يطلقوا نهائياً أي طلقة علينا . فقد كانت لديهم سـيـاسـة تتمثل في عدم مواجهتنا الاّ حينما يكونوا قد استعدّوا » على حد قـول ذلك المسـؤول الاسرائيلي : «لقـد قالوا ان ايديولوجيتهم كانت ترتكز في المقام الأول على تنظيم انفسـهـم داخلياً لمحـاربة الفئات الأخرى ، مثل : فتح ، والجبهة الشـعـبية لتحرير فلسطين ، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، اليسار بشكل رئيس ، ومن ثم ، وعند الانتهاء من ذلك ، تجنيد الجماهير لمحاربة الصهاينة . لكن المهم عدم التوجه نحو القتال بدون استعداد» .

بعـد ان اعـتـقل ياسين ، تسلم عـبـد العزيز زمام القضية ، فساعد على تنظيم المجـمـوعـة الاسـلامـيـة لخـوض انتـخـابات مجلس الطلبـة في الازهر (الجامعة

الاسلامية) . وأطلق سراح ياسين عام ١٩٨٥ كجزء من عملية تبادل الأسرى التي قام بها أحمد جبريل زعيم الجبهة الشعبية - القيادة العامة ، والتي تم خلالها مبادلة ستة من الجنود الاسرائيليين الذين أُسروا في لبنان بألف سجين فلسطيني لدى اسرائيل . ولما كان غير متلهف للعودة الى السجن ، فان الشيخ ياسين تخلى عن رئاسة المجمّع الاسلامي ، والذي اشتبه الاسرائيليون بانه كان غطاء للأعمال المسلحة . وعوضاً عن ذلك ، تولى قيادة الاخوان المسلمين ، مكرسا وقته وبشكل رئيس لتحسين الأمور الصحية والتربوية .

وسرعان ما توضحت أسباب تكديس تلك الترسانة من الأسلحة . فبتوجيه من الشيخ ياسين ، ولكن بدون مشاركة مباشرة منه ، شن عبد العزيز الرنتيسي واثنان آخران من أتباع الشيخ حملة في ربيع سنة ١٩٨٦ لتخليص الجامعة الاسلامية من م. ت. ف. وعلى مرأى من عيون الاسرائيليين ، إذ استهدفوا مؤيدي الجبهة الشعبية والشيوعيين الذين لم يكونوا ملحدين فقط ، بل ويعملون على نشر الايديولوجية الماركسية الملحدة . وكان الشيوعيون أيضاً في طليعة الفلسطينيين الجدد المستعدين لقبول حل دولة مزدوجة ، الضاغطين على فتح للاعتراف بحق اسرائيل في الوجود مقابل اقامة دولة فلسطينية . وقد كان ذلك أمراً محرّما بالنسبة الى المؤمنين الاسلاميين .

مستغلين المجمّع الاسلامي كغطاء ، قام الأكاديميون الثلاثة - عبد العزيز الرنتيسي ، ومحمود زهار ، ومحمود صيام - بتشكيل جيش ديني صغير يتألف من سبعمائة مدرس وطالب في الجامعة . وللمرة الأولى كانوا مستعدين للدفاع عن أنفسهم ضد فتح وفصائل م. ت. ف. الأخرى التي سخرت من الاخوان المسلمين بسبب رفضهم المشاركة في الكفاح الوطني ، ووصفوهم هازئين بانهم «مُدَلّلوا الصهاينة» بسبب حصولهم على تراخيص اسرائيلية ، وهو أمر لا تقره م. ت. ف. وقد كانت المشاجرات الناجمة عن ذلك تشبه الحرب الأهلية في بيروت : اذ ضُرب الناس وقتلوا ، وكانت هناك موجة من الطعن الوحشي ، والرشق بالأسيد . واستمر الشجار الوحشي بين الفصائل لشهور عديدة ، قبل ان تتدخل القوات الاسرائيلية لايقافه . وفي الوقت الذي تدخل الاسرائيليون فيه ، كان المجمع الاسلامي قد كسب ٨٠٪ من تأييد الرجال والنساء الذين صوتوا حسب الشريعة

الاسلامية بشكل منفصل في الأزهر . وثنى الأصوليون عضلاتهم وكسبوا معركة حاسمة ضد م. ت. ف. وبدون ان تتدخل اسرائيل الآ حينما كانت المعركة على وشك الانتهاء .

لكن في منتصف سنوات الثمانينات ، قامت مجموعة أخرى ، هي مجموعة الجهاد الاسلامي ، بثني عضلاتها ، اذ ان أعضاءها لم يكونوا سعداء بأن يتبنى الاخوان المسلمون النضال التحرري ، في حين يحتلون هم مقعداً خلفياً في عملية إعادة أسلمة المجتمع الفلسطيني ، وكان الاخوان المسلمون يستنزفون مواردهم وهم يقاتلون م. ت. ف. من أجل السيطرة . كان على منظمة الجهاد الاسلامي أن تتبع انموذج الجماعات القومية التي كانت تمارس الكفاح المسلح ، بل وحتى التنسيق معهم . ان النضال ضد اسرائيل يجب ان يكون «حرباً مقدسة» . وتقول عقيدة منظمة الجهاد الاسلامي انه لن تكون هناك على الاطلاق ولادة ثانية تامة للاسلام حتى يتم تدمير الدولة اليهودية ، فلماذا العمل من خلال جمعيات خيرية أو مؤسسات موجودة ؟ ان التربية العامة والدعاية الجماهيرية عقيمتان ، ولذلك فان الطريق الوحيد لاثارة ثورة ايرانية الطراز في فلسطين هو من خلال شبكة من الخلايا السرية تكون مخفية جيداً عن الاسرائيليين ، وتضرب أكثر رموزهم قداسة.

وقد استمدت حركة الجهاد الاسلامي الهامها من اثنين من خريجي جامعة الزقازيق في دلتا النيل ، وهي مستنبت الاصولية الاسلامية وهذان الرجلان هما : فتحي عبد العزيز الشقاقي ، وهو طبيب من رفح ، والشيخ عبد العزيز عودة ، وهو خبير بالقانون الاسلامي ، وكان يعظ في مسجد الشيخ عز الدين القسام في قرية بيت لاهيا ، بالقرب من غزة . كان الرجلان قد عادا من مصر سنة ١٩٨١ ، وفي عام ١٩٨٥ حكم الاسرائيليون على عودة بالسجن لمدة أحد عشر شهراً بسبب تحريضه الرأي العام على الكفاح المسلح خلال خطبه التي كان يلقيها في المسجد . وبعد مرور فترة قصيرة على إطلاق سراحه ، أودع الشقاقي السجن مرة ثانية لقيامه بتهريب أسلحة ، ولاثارة أعمال العنف . لكن الوقت كان متأخراً .

فالهجوم الارهابي الأول الذي نُسب علانية الى منظمة الجهاد الاسلامي وقع بعد مرور بضعة شهور على سجنه . ففي شهر تشرين الأول ١٩٨٦ ، قام أعضاء المنظمة بالقاء قنبلة يدوية على مجموعة من أقارب أفراد مجندين في لواء المشاة

الاسرائيلي كانوا يحضرون مراسم حلف اليمين عند حائط المبكى في القدس . وقد حدث الهجوم في موقف للسيارات مجاور للحائط ، لكن هذا لم يُخفِ حقيقة ان منظمة الجهاد وجهت ضربتها بالقرب من واحد من أكثر المواقع اليهودية مهابة ، أو ان ذلك الهجوم كان ضد المدنيين لا العسكريين . وقد نجم عن الحادث مقتل والد أحد الجنود ، كما جرح أحد عشر آخرون . وكان هناك شيء آخر مختلفاً فيما يتعلق بهذا الهجوم ، اذ ان منظمة فتح ومنظمة الجهاد الاسلامي خططتا له معاً : فقدمت م. ت. ف. الأموال والسلاح ، في حين قدمت منظمة الجهاد الاسلامي الرجال .

بين عامي ١٩٨٦ ـ ١٩٨٨ صعّدت منظمة الجهاد الاسلامي أعمالها الارهابية. وعلى النقيض من الاخوان المسلمين ، فان الجهاد تعاونت مع م. ت. ف. على الرغم من انها ليست عضواً في القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة . ففي عام ١٩٨٨ اتهم يغآل كارمون مستشار رئيس الوزراء الاسرائيلي لشؤون الارهاب احدى الوحدات العسكرية التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، والمعروفة بـ «لجنة الـ ٨٨» انها كانت المسؤول المباشر عن عمليات الجهاد الاسلامي في المناطق . ويقول المسؤول الاسرائيلي : «لم تكن المنظمة الأولى التي انضمت الى الانتفاضة منظمة فتح التابعة لعرفات ، وانما منظمة الجهاد الاسلامي ، فقد كانوا أول من عرف بها ، وأول من قفز الى عربة الموسيقى ، وأول من شجعها» .

في الواقع ، ومن أجل تعزيز ودعم ادعائها بأنها فجرت الانتفاضة ، فان منظمة الجهاد تدعو أصحاب المحلات لاعلان الاضراب واغلاق حوانيتهم في يوم يختلف عن اليوم الذي تحدده م. ت. ف. وحماس ، اللتان تحتفلان بيوم ٩/ ١٢ كيوم ذكرى انطلاق الانتفاضة ، في حين ان منظمة الجهاد تطلب من الناس الاحتفال في اليوم السادس من كل شهر بذكرى الانتفاضة ، لأنها تعتبر السادس من تشرين الاول ١٩٨٧ اليوم الاول لبدء الانتفاضة . ففي ذلك اليوم ، قتل اربعة من الفلسطينيين في حي الشجاعية في مدينة غزة . وقد زعمت السلطات الاسرائيلية ان القتلى الاربعة كانوا أعضاء في منظمة الجهاد الاسلامي ، وقد عثر بحوزتهم على بندقيتين من طراز م ـ ١٦ ، ومسدسين ، وقنبلتين يدويتين ، وعدد من مخازن الذخيرة ، ومواد متفجرة ، وادعى الجنرال يتسحاق مردخاي قائد المنطقة الجنوبية

ان الخلية كانت تستعد لشن عملية عسكرية واسعة النطاق ضد اهداف اسرائيلية في المنطقة .

لكن عبدالعزيز الرنتيسي يفند ادعاء منظمة الجهاد الاسلامي ، اذ يقول مؤكدا : «ان القرار كان بان تبدأ الانتفاضة تحت اسم حماس ، وكنا نستعد لذلك منذ مدة طويلة» . ومع ذلك ، فان لدى المسؤولين الاسرائيليين رواية اخرى ، فهم يعتقدون ان كلا من فتح وحماس كانتا تلعبان (الزقطة) مع الجهاد الاسلامي . فخلال الاسابيع التي وقعت فيها الحوادث في شهر كانون الاول ١٩٨٧ ، أدركت فتح الخطر الذي يمكن ان ينجم عن عزل شبيبتهم لحركة الجهاد الاسلامي وإنْ لم يسمحوا لهم بالمشاركة في معارك الشوارع . في البداية كان هناك رشق الحجارة ، ثم قنابل المولوتوف .

ويوضح المسؤول الاسرائيلي : «ثم شاهدنا عام ١٩٨٨ تغيرا دراماتيكيا في سياسة الاخوان المسلمين . لقد اعتقدنا انهم تعلموا من درس سنة ١٩٨٤ حينما قمنا بسجن زعمائهم . وبعد مرور سنة ونصف على اطلاق سراحهم ، لم تكن هناك أي محاولة لاعادة تنظيم انفسهم مرة ثانية كجماعة ارهابية . وكل ما رأيناه كان نشاطات دينية ومدنية في المساجد» . ولكن مع بدء الاستعداد للانتفاضة كما يقول هذا الاسرائيلي «قالوا - فجأة - في شهر شباط ١٩٨٨ [لحظة واحدة ، دعونا نبني فرعا مسلحا ، ذراعا عسكريا مثل فتح] . وكما تعرف ، فان منظمة فتح لها فرع سياسي ، وآخر عسكري . وفي بعض الاحيان فان الاشخاص انفسهم يقومون بالعملين ، وخير مثال على ذلك ابو جهاد [قائد م. ت. ف. داخل المناطق] وقالوا : [دعونا نقيم نظاما يكون مسؤولا عن اعمال العنف : العنف المدني والعنف الارهابي]» . ويدعي الاسرائيلي هذا ان الشيخ ياسين أُجبر في شهر شباط ١٩٨٨ على الخضوع لمطالب أتباعه بانشاء جناح عسكري بعد أن اوجدت الجماعات القومية القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة التي أكدت حقها في ادارة شؤون هذه الانتفاضة . كان ذلك خلال اجتماع عقد في ذلك الشهر في منزل الشيخ ياسين حينما تم وضع البنية الاساسية للحركة السرية الجديدة التي كان اسمها (حماس).

في البداية ، حاول الاسرائيليون تشجيع هذه المنظمة ، معتقدين ان حركة حماس

الجديدة ذات الشعبية سوف تساعد على تقويض م. ت. ف. ويشير شيف وياعاري في كتابهما [الانتفاضة : القصة السرية للثورة الفلسطينية] إلى ان الجيش الاسرائيلي نادراً ما كان يتدخل لدى منظمي الاضرابات التي تدعو حماس اليها ، والذي رأى فيها ان أصحاب المتاجر يبقون متاجرهم مغلقة خلال الأوقات التي تأمر فيها القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة بابقائها مفتوحة . كذلك ، يكشف المؤلفان النقاب عن أنه في الوقت الذي كانت فيه م. ت. ف. ممنوعة من الحصول على الأموال من خارج المناطق ، فان الادارة المدنية لم تتدخل في تدفق الأموال من الأردن الى حماس «بل حتى انها كانت تسمح لمبعوثين من الاخوان المسلمين على مستوى عال بالحضور من عمان من أجل التشاور» . ويستنتج المؤلفان ان الاسرائيليين نجحوا في زرع الشكوك والشبهات في أوساط زعماء القيادة الوطنية الموحدة ، الذين اعتقدوا ان حركة حماس مسموح لها بشكل مقصود بأن تزدهر وان تقوى وبذلك تتمكن من الانطلاق ضد م. ت. ف. «محولة الانتفاضة الى حرب أهلية» .

واستمرت السياسة الاسرائيلية المبدئية المتساهلة نحو حماس . وحينما بدأت السلطات الاسرائيلية اتخاذ اجراءات صارمة ضد الاصوليين بدأت مع حركة الجهاد الاسلامي . ففي شهر تشرين الأول ١٩٨٧ اتهم الحُكْمُ العسكري الشيخ عبد العزيز عودة بالتحريض والاثارة خلال صلاة الجمعة في قرية بيت لاهيا الواقعة إلى الشمال من مدينة غزة . ووجهت التهمة اليه رسميا بعد مرور شهر على ذلك ، وتم ابعاده في شهر نيسان ١٩٨٨ .

ولم تتخذ الاجراءات الصارمة ضد حركة حماس الاّ عند منتصف فصل الصيف حينما لم يُترك أمام الاسرائيليين أي خيار آخر .

عند تلك المرحلة ، أدركت اسرائيل للمرة الأولى ان مساعيها الرامية الى إيجاد بديل غير عنفي لمنظمة التحرير الفلسطينية في غزة قد باءت بالفشل .

فالفقاعة انفجرت ، ولم يعد هناك أي مجال للتوهم أو للانخداع فيما يتعلق بالاصوليين الاسلاميين . يقول المسؤول الاسرائيلي : «في شهر آب ١٩٨٨ اعتقلنا المجموعة الأولى من الاخوان المسلمين بتهمة الارهاب في غزة ، فقد قاموا بوضع متفجرات في منطقة تقع الى الشمال من غزة» . كذلك اكتشفت الشين بيت انه تم

تأسيس ذراع عسكري جديد يحمل اسم «مجاهدو فلسطين» ويتألف من أكثر من مائتي شاب ، وكانوا يجهّزون مخازن من الأسلحة والمتفجرات . ان الفارق بين حماس وبين الاخوان المسلمين ان الشيخ ياسين حاول بجد ان لا تكون له علاقة بالموضوع على الأقل في غزة .

وبدءاً من شهر تموز وحتى أيلول ١٩٨٨ تمت محاكمة وسجن ما يزيد على مائة من زعماء حماس . وقبل عدة شهور ، واذ تشكلت هناك قناعة بانه كان واحداً من زعماء الثورة الرئيسين ، قامت السلطات الاسرائيلية باعتقال عبد العزيز الرنتيسي . ففي ١٥/١/١٩٨٨ حكم عليه بالسجن لمدة سنتين ونصف السنة ، قضى ثمانية شهور منها في معتقل أنصار ٣ (مركز الاعتقال في كتسيوت) في النقب والباقي في سجن غزة ، وفي سجن كفار يوحنا . وأطلق سراحه في ٤/٩/١٩٩٠ لكنه لم يلبث أن أعيد الى السجن بعد مرور شهرين على اطلاق سراحه . ولم يبد ان أي خطوة قد عملت على اخماد الحماس لدى المنظمة الأصولية الجديدة .

وبسجن قيادتها في معسكر انصار ٣ ، استمرت حماس بالعمل وفقا لميثاقها المعلن في ١٨/٨/١٩٨٨ ، والذي حدد في صفحاته الأربعين الموقف الايديولوجي للجماعة . فقد أعلن الميثاق ان الجهاد «التزام شخصي» وان التحرير يجب ان يكون كاملا «من البحر الى النهر» . ويؤكد المسؤول الاسرائيلي ان الميثاق أشار الى ان «حركة حماس هي فرع حركة الاخوان المسلمين في فلسطين ومسؤولة عن النشاط العسكري . ان هذا يعني ان كل [حماسي] هو أخ مسلم ولكن ليس كل أخ مسلم حماسياً !» ويشير الى الشيخ بسام جرار ، وهو زعيم اسلامي في رام الله ، كمثال على ذلك : «فهو يقف على السياج بين الطرفين ، وهذا هو السبب في انه ، حتى هذه اللحظة ، لم يسجن أو يعتقل» .

لكن ميثاق حماس ـ كما يوضح شيف وياعاري في كتابهما ـ قد مثّل ما هو أكثر من صرخات تظاهر من القيادة المسجونة . فقد كان ، كما لاحظا «معادلاً للتلويح بعلم أحمر أمام القوميين ، الأمر الذي كان يعني التخلي عن الميثاق الفلسطيني الموجود منذ مدة طويلة ، والوقوف الى جانب المأسسة الشكلية لحركة المقاومة الاسلامية كوجود سياسي مستقل ذي عقيدة خاصة به على نحو محدد» .

وفي ٢١/٩/١٩٩٠ وقعت فتح وحماس «ميثاق شرف» يتعهد بانهاء الاقتتال بينهما . وما كاد الحبر يجف ، حتى وصلت من غزة التقارير التي تتحدث عن وقوع أعمال العنف بينهما .

في غضون أقل من شهرين ، في ١٤/١٢/١٩٩٠ ، حكم على عبد العزيز الرنتيسي بالسجن لمدة سنة أخرى بتهمة التحريض على العنف ، وأعيد الى معتقل أنصار ٣ . وهناك ـ كما يقول ـ اشترك في زنزانة ضيقة مع معلّمه الشيخ أحمد اسماعيل ياسين الذي كان قد اعتقل مع مائتين وستين شخصاً من نشطاء حماس في شهر أيار ١٩٨٩ . ويستذكر عبد العزيز انهما كليهما فُصلا عن السجناء الآخرين لأن الاسرائيليين «شعروا انني كنت فاعلا جداً بين أوساط السجناء ، أعلّمهم و ... الخ» . وخلال الفترة الواقعة بين شهري تشرين الأول وكانون الأول من عام ١٩٩١ وضع في الحبس الانفرادي . يقول عبد العزيز بمرارة عن ذلك : «رفضت الوقوف لآمر سجن أنصار ٣ بسبب قناعاتي الدينية ، فديننا يمنعنا من الوقوف لأي شخص باستثناء الله . هذه هي العدالة اليهودية» . وأطلق سراحه في ١٢/١٢/١٩٩١ ، وبعد مرور شهرين على ذلك انتخب لعضوية اللجنة الطبية في غزة .

ولا يخفي عبد العزيز حقيقة ان تأييده لحماس مستمر حتى انه ليصبح ضريبة شخصية . فكمعارض لأي محادثات سلام مع اسرائيل ، يشعر عبد العزيز بمزيد من القلق اليوم تجاه سعادة أبنائه أكثر مما يشعر بالقلق تجاه الخطر الموجود دائمًا بأن يُسجن ، اذ يقول : «أخشى من أن يقوم شخص ما بمهاجمة أطفالي أو أن يجبرهم على أن يصبحوا مخبرين ... انه لأمر سهل جداً بالنسبة الى الموساد أو الشين بيت ... ولذلك فانني طوال الليل والنهار أضع أولادي تحت مراقبة دقيقة : أراقبهم ، أصطحبهم الى المدرسة وأعيدهم منها . ثم بعد ذلك ، أقفل أبواب غرفهم بنفسي . هل يمكنك ان تتخيل أي نوع من الحياة هذا ؟ انه أمر شاق جداً جداً . ان والدتي تقضي الليالي بدون نوم لانها تسمع أصوات سيارات الجيب وهي تعبر الطريق» معتقدة انهم قادمون لاعتقاله مرة ثانية . «أي وجود هذا الذي يُقتل فيه الأطفال ، ويطلق فيه الرصاص على الناس المسنّين ، وتدمَّر فيه البيوت دائمًا ؟» لكن المعاناة الشخصية لم تضعف حماسته للقضية الاصولية .

ويوضح عبد العزيز ان الخلاف مع م. ت. ف. يتمحور حول قبولها بحل لدولة مزدوجة ، ويقول : «أرض فلسطين وقْف اسلامي ، وغير مسموح بالتخلي عن أي جزء أو جماعة أو جيل منه على الاطلاق ... ان اقامة دولة فلسطينية على جزء من فلسطين أمر مقبول لدى حماس شريطة ان لا يكون ذلك على حساب الأجزاء الأخرى ... ان حركة حماس لا تقبل الاعتراف باسرائيل» . وهو يقول ذلك على النقيض من حركة الجهاد الاسلامي التي تتعاون مع الجماعات القومية العلمانية ، والموالية لايران . ويضيف عبد العزيز ان الهدف بعيد الأمد بالنسبة الى حماس هو «دولة اسلامية ، لكن الهدف الحالي هو فضح التصرفات غير الانسانية للسلطات الاسرائيلية» .

ويضيف محمود زهار الباحث الاسلامي في الأزهر : «نحن نعيش في دوائر ... الدوائر الأصغر داخل الدوائر الأكبر ، وكلها مُتَضَمَّنَة في دائرة اسلامية كبيرة . ليس هناك من تناقض بين ان يكون الانسان فلسطينياً ، وعربياً ، واسلاميا لأن فلسطين كانت دائمًا جزءا من الأرض العربية الأكبر . وعلى امتداد ألف وأربعمائة سنة ، كان العرب جزءاً مهما جداً في قلب الأرض الاسلامية» .

ويقول عبد العزيز ان نظام عبد الناصر سقط لأنه كان نظام الجاهلية ، وان الدول العربية كلها ـ باستثناء السودان التي يوجد فيها نظام اسلامي ـ تقع ضمن هذا التصنيف . ان ولادة الاسلام من جديد سوف تتم حينما «تبني الحركات الاسلامية في مختلف أنحاء العالم ـ في مصر ، والأردن ، والجزائر ، واليمن ـ قاعدة شعبية عريضة ، وحينما تنجح في نشر الاسلام على امتداد مختلف قطاعات المجتمع العربي على الرغم من وجود الشيوعيين ، والقادة القوميين وغيرهم» . ويقول : ان التاريخ يقف في صف الاسلام «فالنواة الأولى كانت في السودان ، والثانية في الجزائر . ان هذه [النوايا] سوف تلتحم وتندمج ببعضها» . ويضيف ان الديمقراطية تشكل خطراً على الزعماء العرب ، وإنها لو انتصرت في الجزائر في مطلع عام ١٩٩٢ ، لأصبح ذلك الشعب دولة اسلامية . ويتكهن عبد العزيز بان الديمقراطية ستوصل القادة الاسلاميين الى السلطة حتى في مدن الضفة الغربية المسيحية تقليدياً . ويشير الى انتخابات غرفة التجارة التي أجريت في رام الله في شهر آذار من عام ١٩٩٢ اذ فازت قائمة حماس بعشرة مقاعد من أصل أحد عشر مقعداً . ان ذلك الانتصار ـ الهزيمة الأكثر خطورة بالنسبة الى

القوميين الموالين لمنظمة التحرير الفلسطينية في مدينة كانت تعتبر دائمًا معقلهم - عكس معدل النمو المتزايد بين اوساط المسلمين في الضفة الغربية ، والزيادة في هجرة المسيحيين . لكن النتائج تصادق أيضاً على القوة المتنامية لحركة حماس على امتداد المناطق . وحتى نشطاء فتح يعترفون ان الجماعة الاسلامية تحتل اليوم المرتبة الثانية من حيث الشعبية ، وانها تتقدم بسرعة . ولعل احد المؤشرات الى سلطتها المتنامية هو اتفاق الصلح الذي شعرت م. ت. ف. انه يجب عليها التفاوض عليه مع حماس بعد عدة أيام من العنف المتجدد في غزة والتي ذهب ضحيتها قتيل في مخيم الشاطىء ، وهددت بالتحول الى حرب أهلية . وقد قام حيدر عبد الشافي - رئيس الوفد الفلسطيني المفاوض مع اسرائيل ، وهو رجل جليل ، ويحظى بالاحترام - بتوقيع اتفاق شهر تموز ١٩٩٢ نيابة عن م. ت. ف. كما قام عبد العزيز الرنتيسي بالتوقيع نيابة عن الاصوليين الاسلاميين ، وقد كان ذلك اشارة واضحة الى سلطاته الشخصية المتنامية .

تعتقد حماس ان المحادثات الفلسطينية - الاسرائيلية سوف تفشل في منح الفلسطينيين استقلالاً حقيقياً أو دولة ، وبالتالي فان المناطق سوف تبقى أرضاً خصبة لحشد التأييد لها [لحماس] ، بل ان محمود الزهار يتنبأ بأن عملية السلام الحالية سوف تعاني من المصير نفسه الذي عاناه نظام عبد الناصر ، وان «الصدمة [حينما تفشل] ستكون بحجم صدمة هزيمة ١٩٦٧» . ويقول : ان الحكم الذاتي «ليس مقبولا لدى غالبية الفلسطينيين» ويضيف : انه اقتراح اسرائيلي يهدف ببساطة الى إدامة الحكم الاسرائيلي : «فهم يعتبرون أرضنا أرض اسرائيل ، فكيف يمكنهم ان يعطونا فترة انتقالية حقيقية [نحو دولة فلسطينية] ؟»

وبالنسبة الى الأصوليين ، فان اتفاقا اسرائيليا - فلسطينيا هو مصدر همّ حقيقي اذ انه سيعمل فقط على اعاقة وتأخير هدفهم الأساسي ، وعلى نحو خاص اذا بدأ الفلسطينيون يشعرون ان حياتهم تغيرت وتحسنت على الصعيد المادي . ويتكهن عبد العزيز ان القضية ليست قضية كم سيحصّل الفلسطينيون ويكسبون من السلطة حينما يتسلمون حكمًا ذاتياً ، لأن النتائج ستكون كارثة بالنسبة الى الشعب العربي ، اذ سيتم انهاء الانتفاضة ، ومئات من المستوطنين اليهود سيبقون في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ولن يكون أمام الأنظمة الضعيفة في الوطن العربي أي خيار سوى اقامة «علاقات طيبة» مع اسرائيل .

ومن خلال عملية السلام الحالية ، فان الفلسطينيين سوف يُخدعون مرة ثانية اذ يصرح محمود زهار «نحن أصحاب الأرض الحقيقيون ، والحل الوحيد بالنسبة الينا هو الحصول على حقوقنا ... وسنعمل على اقامة دولة اسلامية» . ويضيف عبد العزيز الرنتيسي انه حتى لو نجحت محادثات السلام ، فان ذلك سيعمل على تعميق عدم التوازن الموجود بين الشعبين اليهودي والعربي : «ستكون اسرائيل قوية وسيكون الفلسطينيون ضعفاء» . وبرغم ذلك ، فان محادثات السلام ستكون مرحلة مؤقتة لأن الله وعد في القرآن بان المسلمين سوف يتحدون في دولة اسلامية وبعد ذلك فقط ستعود فلسطين . انها ليست نبوءة ، ولكنها كلمة الله ، كما يقول عبد العزيز الرنتيسي .

رياض المالكي

● رياض المالكي يناقش مشروعا في الهندسة المدنية مع احدى طالباته .

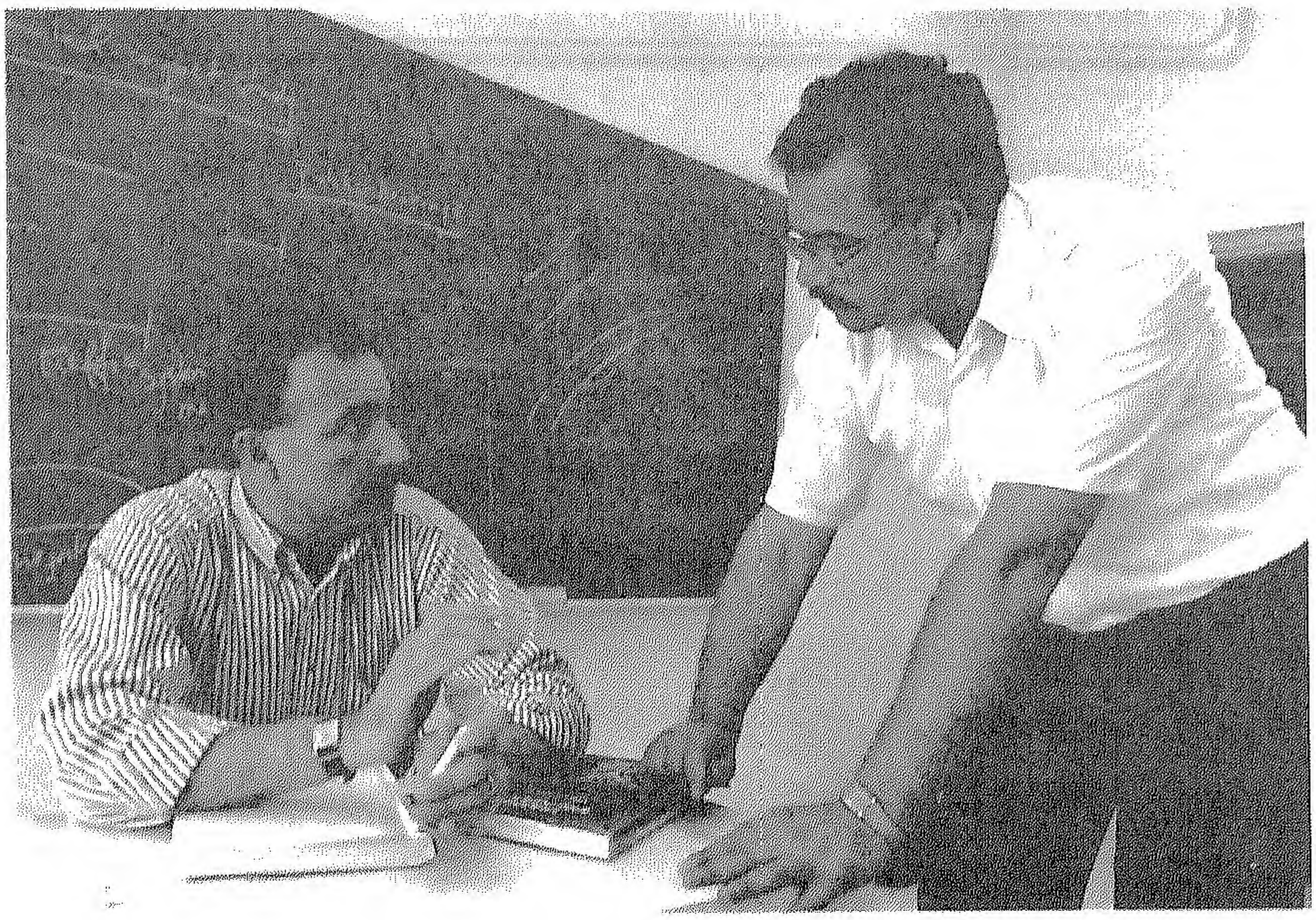

● رياض المالكي جالسا على مكتبه في احد الصفوف في جامعة بيرزيت ، حيث يقوم بتدريس الهندسة المدنية وتخطيط النقل .

رياض المالكــي

لدى وصــولك الى مكتب رياض المالكي ، تفاجأ برؤية مجموعة من الاسرائيليين وهم يودعــون الناطق غير الرســمي للجبـهة الشعبية لتحرير فلسطين ، كما تفاجأ ايضــا لسماعك الاسرائيليين وهم يشكرون بحــرارة ذلك الشــاب البـالغ من العـمر سـبـعـة وثلاثين عـامـا لاتاحـته الوقت للقائهم في شقته الواقعة في شارع الزهراء الهادىء في القـدس الشرقـية . هناك يلتقي رياض زوّار (البانوراما) مركز البحوث الذي أقامـه للصحـافـيين والدبلومـاسـيين الأجـانب . ولدى مـغادرتهم ، يقول الاسرائيليــون لرياض انهم يرغـبون في الالتقاء مرة ثانية ، ويطلب منهم ان يتصلوا به بعـد اسـبـوعين أو ثلاثة ، بعـد ان يعـود من جنيف حيث من المقرر ان يحضر مـؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتعاون . تصافحوا بالأيدي ، وذهب رياض وزواره كل في طريقـه : المجـموعة الصغيرة من مواطني الدولة اليهودية ، وعضو الجماعة التي تؤيد حـرب الفـدائيين لتـدمير اسرائيل ، الشعب الذي تسميه الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين «الكيان الصهيوني» .

ويتأكـد رياض من ان الصحــافي الذي يقف منتظرا يسـمع عن نيته للسفر الى جنيف . ولسنوات عـديدة ، وبالفعل حتى شهر كانون الاول ١٩٩١ ، كان رياض ممنوعـا من الســفـر الى أي مكان من قـبل السلطات الاسرائيلية ، اذ قالوا انه كان عـضـوا بارزا في القـيادة الوطنية الموحدة التي تدير الانتفاضة وتوجهها ، وقياديا بارزا في الجـبـهـة الشـعـبـيـة لتـحـرير فلسطين في المناطق ، وقد ساعد في كتابة المنشـورات السرية التي تعطي التـعليمات اليـومـية للشبيبة المتعلقة برشق الجنود بالحـجـارة في الميدان . ولمدة شهر ، في تشرين الثاني ١٩٩٠ ، اعـتقل الاسرائيليون رياضا ، وأودعوه في الحبس الانفرادي في سجن المسكوبية في القدس .

لدى النظرة الاولى ، فـانه من الصـعـوبة بمكان التوفيق بين مظهر البروفيسور المـهـنـدس حـسـن المظهـر ، الواثق بنفـسـه ، دمث السلوك وبين أعمال الارهاب الدرامـاتيكيـة للجـبـهـة الشعبية لتحرير فلسطين : خطف ثلاث طائرات مدنية الى الاردن في ايلول ١٩٧٠ (طائرة بان اميركان ٧٤٧ ، ترانس وورلد اميركان ٧٤٧ ، وطائرة جامبو BOAC) وقتل ستة عشر يهوديا منهم ثمانية من أطفال المدارس في

بلدة كريات شمونا في شمال اسرائيل ، وقتل رئيس بلدية نابلس ظافر المصري في شهر آذار ١٩٨٦ ، وقتل سبعين فلسطينيا مؤخرا بتهمة التعاون مع العدو ، على يد مجموعة «النسور الحمر» وهي فرقة الاغتيال التابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

ان هذه الجبهة لم تخف على الاطلاق تأييدها «للكفاح المسلح» وكانت عنيدة ومتصلبة في مطالبتها باستعادة فلسطين كلها : من النهر حتى البحر . وحينما تجرأ المجلس الوطني الفلسطيني على الاعلان عام ١٩٧٤ عن قبوله بدولة مصغرة على أي جزء من فلسطين يمكن «تحريره» انسحبت هذه الجبهة من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية احتجاجا على ما اعتبرته خطوة نحو حل لاقامة دولة مزدوجة ، وشكلت جبهة الرفض ، ولم تعاود الانضمام الى المنظمة الا في عام ١٩٨١ .

واليوم ، تبدو هناك شخصيتان تسميان رياض المالكي : واحدة خاصة ، والثانية عامة . على الصعيد العام ، فان رياضا أحد الناطقين باسم المعارضة الفلسطينية لعملية السلام الجارية ، اذ يقول لوسائل الاعلام انه ليس من المعقول بالنسبة الى الفلسطينيين ان يتفاوضوا حينما تكون كل الاوراق مكدسة ضدهم : فمنظمة التحرير الفلسطينية معزولة سياسيا واقتصاديا ، والعرب منقسمون في أعقاب هزيمة العراق في حرب الخليج ، والاتحاد السوفييتي والكتلة الشيوعية محطمان ، والقوة العظمى الوحيدة الموجودة ـ الولايات المتحدة الامريكية ـ قادرة على فرض ارادتها ورغبتها : «انه الوقت الافضل بالنسبة الى الامريكيين والأسوأ بالنسبة الى الفلسطينيين» هكذا يقول رياض ، مشيرا الى انهم اضطروا الى تشكيل وفد واحد مع الاردن «وكأننا غير ناضجين بما فيه الكفاية لتمثيل أنفسنا» . ويضيف انه لايعتقد ان هناك زمنا منذ الحرب العالمية الثانية كان الفلسطينيون خلاله في وضع ضعيف اكثر مما هم عليه الان بعد حرب الخليج ، ويقول ان امريكا أملت الشروط وهي شروط مذلة : فقد استبعدت م. ت. ف. من العملية ، ولم يسمح لأهل القدس الشرقية بالمشاركة ، ويعامل الفلسطينيون على انهم شعبان منفصلان ، موصدين الباب في وجه ثلاثة ملايين ونصف المليون من فلسطينيي الشتات ، والأسوأ من هذا كله ان النتائج مقررة سلفا . يقول رياض :

في كـتاب التطمينات الرسمي الذي قدمته ادارة بوش الى الفلسطينيين والاسرائيليين «قـال الامـريكيـون ان الحل الافضل هو الاتحاد الكونفدرالي مع الاردن . وقالوا لا لدولة فلسطينيـة مـسـتقلة ، كما قالوا لا لحق تقرير المصير للفلسطينيين» . وحتى اعـضاء الوفد الفلسطيني المفاوض البالغ عددهم أربعة عشر شخصا كان يجب ان توافق اسرائيل عليـهم مقدما ، كما يقول رياض : «ان هذا شيء لم يحدث اطلاقا في التاريخ : عدوك يختار وفدك المفاوض» .

ان الفلسطينيين يريدون حـلا ، ولكن ليس مجرد «أي حل» كما يؤكـد رياض . لقـد قـتل مـا يزيد على الألف شـخص خـلال فترة الانتفاضة ، كما جرح عشرات الآلاف ، والعـديدون منهم شُوهوا وأصيبوا بالشلل وأُقعدوا مدى الحياة . ويوضح ان هذه التـضـحـيـات لم تكن ناشئة عن فـراغ ، وانها بالتأكـيـد لم تكن من أجل الحـصول على شكل معين من الحكم الذاتي المحدود الذي يعمل على إبقاء الاحتلال الاسرائيلي: «انهم لم يقـدمـوا حياتهم من أجل الحكم الذاتي ... ان ابني أو ابنتي أو شـقـيـقـي أو والـدي مـات وهـو يـرفع العلم الفلسطيني من أجل ان يبنوا فـوق أجسادهم دولة ، دولة فلسطينية مستقلة !» .

وفي المقـابلات التلفـزيونيـة والصحافية ، يظهر هذا العنف والاتقاد ، والترحيب بقـبـول أي شيء لا يقل عن حل واضح تام ، أو كما يقـول ، فـقط «سـلام شامل وقـوي يحقق العدل بالنسبة الى الفلسطينيين» . هذا ما يحكم موقف رياض المالكي المبـدئي المعـارض لمحـادثات السـلام العـربية الاسرائيلية . ويتساءل : لماذا يُجبَرُ الفلسطينيـون على قبول ما هو أقل مما تقبله أي جماعة قومية أو عرقية أخرى في العـالم؟ «ان نظام الأبارثيـد يتـفكك ، وها هي ناميبيا تحصل على استقلالها ... ان الحـروب في انغولا ، وموزمبيق ، وأفغانستان» قد عملت على تحرير هذه الشعوب «والـشـعـب الـوحـيـد الـذي مـا يزال يناضل من أجل الاسـتـقـلال هو الشـعب الفلسطيني». ويحذر رياض بنزعـة مميـزة من ان «يبـقى الفلسطينيـون آخر تلك الشعوب . سنكون شوكة في جنب كل شخص» .

هذا هو رياض المالكي (العـام) والعلني (الجـبـهـة الشعبية لتحرير فلسطين) . وسرا خلف الكواليس ، هناك رياض مـالكي ثان ، يظهـر في اماكن أقل لفتا للنظر ، مـثل صـالونات القـدس حـيث يتم اتخاذ القـرار الفلسطيني للجـولة القـادمة من

المحادثات مع اسرائيل . والمثير للدهشة ، أن رياضا المالكي هناك ايضا . ان ما يتحدث به رياض الى فيصل الحسيني في جو السرية الذي يحيط بمناقشاتهما المتكررة يختلف بشكل ما عن موقفه المعلن ضد محادثات السلام . ويقول عضو بارز في الوفد الفلسطيني : «يقول لنا انه سينضم الينا اذا تغيرت الظروف ... ان رياضا يحضر اجتماعاتنا كلها ، تلك الاجتماعات التي نبحث فيها قضايا سياسية . انه هنا ، وحنان [عشراوي] هنا ، وغسان [الخطيب] هنا ، وفيصل هنا» . ومع ذلك ، فان رياضا حذر ، فهو يتجنب الرهان ، ويبقي خياراته مفتوحة ، ويقول بتهذيب : «لا أعتقد ان هذا سيجدي» أو أنه يقول : «ان تفعل هذا ، ربما يجدي الامر نفعا ، لكن لا تفعل ذلك» .

ولا يعمل رياض المالكي (الخاص) على الحد من المشاركة في جلسات ما قبل التفاوض التي تعقد في منزل فيصل الحسيني . ووفقا لمصادر من الوفد الفلسطيني ، فقد طلب رياض ـ الناطق باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وتسلم بشكل منتظم ـ ملاحظات حرفية لمن تكلم ، وبماذا تكلم كل شخص حينما التقى الوفد الذي يقوده الحسيني مع وزير الخارجية الامريكي بيكر ، وتسلم وقائع كل جلسة من جلسات الحسيني ـ بيكر «اجتماعا فاجتماعا» . وبعد ذلك ، أطلع رياض زملاءه في الجبهة على مضامين المحادثات الرسمية مع الولايات المتحدة الامريكية ، ومن ثم أصدر بيانا عاما كان شديد الانتقاد . ويقول احد اعضاء الوفد : «ولكن حين نجلس مع بعضنا ، فانه [رياض] كان يقول : [حسنا أي شيء تستطيع الحصول عليه ، احصل عليه ! لن نشارك ، بالطبع، ما لم تحدث ظروف جديدة لمحادثات السلام لاننا وعدنا أناسنا بذلك]» . ويوضح أن دور الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ليس الاسود والابيض . دعني اوضح لك : «انهم يمتلكون قوة سلبية ، فبامكانهم ان يثيروا المتاعب في وجه أي شخص . انهم لا يستطيعون ايقافها [عملية السلام] ولكن يمكنهم خلق متاعب» .

حتى الاسرائيليون يلاحظون وجود تغيير . فرياض المالكي (العام) يظهر كثيرا في مؤتمرات صحفية ومحاضرات مشتركة مع فتح ، ومع الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين/جناح عبد ربه ، ومع الفصائل الاخرى التي تؤيد عملية السلام . يقول قيادي من فتح : «نحن مهتمون بالظهور معاً منذ مدريد وبشكل اكثر من ذي قبل ... لدينا ايديولوجيتان مختلفتان ، ولكننا نظهر على منصة واحدة» .

وبرغم هذا ، وعلى النقيض من فتح ، فان البرنامج المعلن للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ كما أوضحته قيادتها في دمشق ـ يبقى متصلبا ضد الاسرائيليين :

* وافقت فتح ، التيار السائد داخل م. ت. ف. والتي يترأسها ياسر عرفات ، على وجود اسرائيل وكان ذلك في شهر كانون الاول ١٩٨٨ ، في حين ان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لا تعترف بوجود دولة يهودية مستقلة .
* وافقت فتح على قراري مجلس الامن الدولي رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ اللذين يعترفان باستقلال وأمن اسرائيل ضمن حدود عام ١٩٦٧ شريطة تخلي الدولة اليهودية عن مناطق في مرتفعات الجولان والضفة الغربية وقطاع غزة . ان تفسير القرار ٢٤٢ يسمح بتعديلات في المناطق تتطلبها حماية الامن الاسرائيلي . وقد رفضت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القرار ٢٤٢ كأساس وحيد للتفاوض ، مؤكدة على ان الوثيقة تلك تعامل الفلسطينيين كلاجئين ولا تضمن لهم حق تقرير المصير . وبالتالي ، فان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تطالب بتنفيذ قرارات الامم المتحدة الاولى كلها بما في ذلك القرارين رقم ١٨١ و ١٩٤ المتخذين قبل عدة عقود ، واللذين الزما المنظمة الدولية باعطاء الفلسطينيين دولة ضمن ما يشكل اليوم جزءا من اسرائيل ، ووعدا الفلسطينيين «بحق العودة» الى بيوتهم في فلسطين . وتسمي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القرارات الثلاثة (١٨١ ، ١٩٤ ، ٢٤٢) بـ «الشرعية الدولية» .
* شجبت فتح علانية الكفاح المسلح لتدمير اسرائيل . ومن مقرها في دمشق ، تواصل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التمسك بالعقيدة القائلة ان الكفاح المسلح ـ وبشكل رئيس استخدام العنف ضد الاهداف المدنية والعسكرية في اسرائيل ـ يبقى الوسيلة الوحيدة لتحرير فلسطين كلها في نهاية المطاف .

ويعتقد مسؤول اسرائيلي رفيع المستوى أن أهالي الضفة الغربية أمثال رياض المالكي قد تعبوا من طرح الشعارات ، ويبحثون عن أسس جديدة لبرنامج الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . ويشير الاسرائيلي الى مقالة كتبها رياض في شهر تموز عام ١٩٩٢ ونشرت في صحيفة القدس ـ الصحيفة الفلسطينية الوحيدة في الضفة الغربية ، وواسعة الانتشار والتوزيع ـ ترفض الانحياز الى جانب أي فصيل فلسطيني . وقد كتب رياض المقالة خلال عملية الحسم بين الجيش الاسرائيلي

وستة من ارهابيي «الفهود السود» المسلحين الذين كانوا يعملون على تعطيل انتخابات مجلس الطلبة في جامعة النجاح . فعملية الحصار التي استمرت مدة اربعة أيام تم حلها حينما وافق الجيش الاسرائيلي على رفع حصاره عن الاربعة آلاف طالب والفدائيين الستة ، على ان يقوم هؤلاء الفدائيون بالموافقة على :

١ ـ مغادرة حرم الجامعة في نابلس .

٢ ـ الاستسلام للصليب الاحمر الدولي .

٣ ـ ابعادهم الى الاردن (بعد تسليم اسلحتهم) لمدة ثلاث سنوات .

ويقول هذا السياسي الاسرائيلي : «لو لم تكن المقالة كتبت بخطه ، لاعتقدت انها كتبت من قبل وزير الاعلام الاسرائيلي ... انها مقالة مهمة جداً» .

ففي المقالة ، يدين رياض النشطاء الذين هربوا الاسلحة الى داخل الحرم الجامعي ، كما يدين مؤيدي فتح الذين ساعدوهم على ذلك . ويشجب المجموعتين لقيامهما بتهديد الفلسطينيين المنظمين للانتخابات ، بالاضافة الى الطلبة الذين كانوا يحاولون الاقتراع . ويتساءل رياض : «كيف يمكن لنا ان نسمح لاناس مسلحين بخوض الانتخابات؟ .. كيف يمكن لنا ان نطالب بالاعتراف بنا كدولة مستقلة اذا لم نكن قادرين على اثبات اننا قادرون على اجراء انتخابات حرة ، سلمية ، وديمقراطية؟» . وفي مقابلة مع مجلة الوسط ، يعيب رياض على الفلسطينيين الذين سمحوا للاسرائيليين بابعاد الفدائيين الستة ، متهما اياهم بانهم مشاركون في جريمة منفاهم الاجباري . ويخص فيصلا الحسيني متهما اياه انه ساعد رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق رابين «على النزول من أعلى الشجرة [بتزويده] بسلّم» . وتمضي المقالة قائلة ان الصفقة قد جردت م. ت. ف. من ورقة رئيسة استغلتها لحشد الرأي العام العالمي ضد سياسة الابعاد الاسرائيلية . لكن رياضا يؤكد ايضا ان الحرم الجامعي ـ من بين الامكنة كلها ـ يجب ان يكون حراً من كل قوى وتهديدات العنف .

ويقول المحلل الاسرائيلي : «حسنا ، ان المالكي ينتمي الى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ويستمتع بمهاجمة فتح ، لكن هناك ما هو اكثر من ذلك لانك تتوقع ان تتخذ الجبهة الشعبية موقفا اكثر تأييدا للنشطاء ، وعلى نحو بارز [للاعلان] عن أنه طالما ان هذه الاسلحة هي أسلحة فلسطينية فدعها هناك» . وعوضا عن ذلك ،

فـانه «يعترف انه كـان هناك اناس مـسلحون داخل الحرم الجامعي ، وانه لا يلوم فـقـط اولئك الـذين دخلوا بأسلحـتـهم ، ولكن ايضـا اولئك الذين سـمـحـوا لهم بالدخـول» . ان هذا الامـر يكاد يتـسق بصعوبة مع تأييد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين للكفـاح المسلح . ويضـيـف الاسرائيلي : «حتى لو انه كان يتحدث عن مبدأ [عـدم اسـتـعمال القـوة] فان ذلك مَعلَما هاما ... اعتقد ان رياضا المالكي سينحو منحى جـديدا . لا أريد القول ان هناك انقساما في صفوف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، ولكن بدون شك هناك اتجـاه جديد يمكن ان يؤدي مستقبلا الى انقسام والى نشوء فصيل اكثر براغماتية حتى من فتح نفسها» .

ان التـغير والتـحـول عن الايديولوجية الماركسية ـ اللينينية التقليدية لم يحدث بين عـشـية وضحاها ، فقد كان هناك تطور تدريجي نحو سياسة اكثر براغماتية منذ بدء الانتفاضة سنة ١٩٨٧ . وقد كان التغير الرئيس يتمثل في ادراك حقيقة انه على الرغم من ان النزاع الاسرائيلي الفلسطيني وجـودي بالطبـيعة ـ أي ان فلسطين مـستقلة يجب ان توجد بدلا من دولة اسرائيلية ـ فان هناك اعترافا جديدا بان هذا النوع من الحل المطلق لا يمكن ان يُنفَّـذ الآن .

ويوحي الصـحافي الاسرائيلي اوري نير ان التغير يمكن ان يكون اكثر لفتا للنظر حـينما تدرس تصريحات جورج حبش زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين قبل وبعد بدء الانتفاضة . ففي عام ١٩٧٦ قال حبش «لن يوجد هناك سلام ما دامت الدولة الصـهيونية موجودة» . وفي عام ١٩٨٣ طرح الاسئلة المنمـقة التالية : «هل يمكننا ان نعـيش مع الصـهـيونيـة ، حـتى لو أردنا ذلك؟ هل يمكننا الفصل بين اسرائيل والحـركـة الصـهـيونية ؟ أليست اسرائيل التجسيد المادي ، والعسكري ، والاقـتـصـادي ، والسـيـاسي للحركة الصهيونية ؟ هل نستطيع هزيمة الصهيونية بدون هزيمـة اسرائيل؟» . وفي معرض إجابته عن أسئلته يتساءل حبش : «هل هزم النازيون بدون ان يهزم نظام هتلر ؟» . في عام ١٩٨٥ ـ بعد توقيع اتفاق بين الملك حـسين وعـرفـات ـ توصل حـبش الى «اننا لن نكون قادرين على ضمان مستقبل جـيلنا اذا اسـتـمـرت البـذرة الصهيونية بالوجود على التراب العربي» . وفي شـهر تشرين الثـاني من عام ١٩٨٨ ـ مـع الاقـتـراب مـن نهاية السنة الاولى من عـمـر الانتـفـاضـة ـ بدأ حبش يفرق بين «الحل العادل» و «الحل الشامل» . فقد قال أمام مؤتمر صحفي «آمل انكم تشعرون انني لا أتحدث عن تسوية [عادلة] لانني أعتقد

انه لا توجد هناك تسوية [عادلة] للمشكلة الفلسطينية في هذه المرحلة ، طالما ان التسوية [العادلة] فقط ان تصبح فلسطين عربية مرة ثانية ، مثلما هي مصر عربية ، وسورية عربية . ومع ذلك ، فان تسوية شاملة ستسمح باقامة دولة فلسطينية وبعودة اللاجئين الى وطنهم» . ويشير نير الى ان هذه هي المرة الاولى التي يقبل فيها حبش ضمنيا حقيقة وجود اسرائيل من خلال الايحاء بان على الفلسطينيين ان يقبلوا بدولة . ان حبش لا يقول اين يجب ان تكون الدولة ، وبالتالي تترك مسألة الحدود مفتوحة للمفاوضات المستقبلية . ان اقامة هذه الدولة ومن المحتمل ان يكون ذلك في الضفة الغربية وغزة ، ستكون كافية لتحقيق حل شامل ، كما يقول .

ويتوسع حبش في هذا الموضوع خلال مقابلة أجرتها معه في شهر كانون الثاني ١٩٨٩ مجلة الهدف الناطقة باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ؛ اذ برر الحاجة الى اقامة دولة فلسطينية حتى ولو أنها لم تشمل فلسطين كلها : «ان الظروف العربية والدولية لا تمكننا من تحقيق ما هو اكثر من اقامة دولة فلسطينية على جزء من الارض الفلسطينية ... اننا نرى ذلك انجازا يمكننا الاعتماد عليه لمواصلة كفاحنا . نرى ذلك انجازاً من ناحية ، وبداية انتحار المشروع الصهيوني من ناحية ثانية ... فخلال السنوات الاربعين الماضية ، عمقت الصهيونية جذورها في ارضنا الفلسطينية ، فهل نستطيع تدميرها بضربة واحدة ؟ إن كان الجواب سلبيا ، فعند ذاك يجب ان نتحلى بالشجاعة وان نقول للجماهير انه في حين ان من الصحيح ان فلسطين عربية ، وانه لا يمكن ان يكون هناك على الاطلاق تعايش مع الصهيونية او الكيان الصهيوني ، فانه من الصحيح ايضا اننا لا نستطيع تدمير هذا الوجود الصهيوني بضربة واحدة» .

بالطبع ، فان ايديولوجية تسعى الى تدمير الدولة اليهودية على مراحل ليست اكثر من احتكام الى صناع السياسة الاسرائيليين . ولكنهم يعتقدون ان القضية قضية وقت فقط قبل ان يؤكد زعماء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين داخل المناطق استقلالهم عن القيادة في الخارج ، واتباع انموذج الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين التي انقسمت الى فصيلين : الاول ويؤيد عملية السلام ، والثاني الذي يعارضها . ويمثل رياض المالكي وراجي الصوراني ـ احد النشطاء في مجال

حقوق الانسان ، والحاصل على جائزة روبرت ف. كيندي لحقوق الانسان بسبب تأسيسه لمنظمة الحق ، وهي هيئة تراقب خروقات حقوق الانسان في غزة ، والعضو البارز للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في غزة - جيلا جديداً من المثقفين المفكرين ، كما يقول مسؤول اسرائيلي بارز : «انهما يلعبان لعبة مزدوجة ... فداخل غرفهم المغلقة يقولان انهما معها [عملية السلام] لكنهما يواجهان ضغوطات الخارج . ان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين منظمة جداً ، اذ لا يمكن ان تكون لك آراء معارضة وتبقى في الجبهة . لكن إنْ تسألني ، أَقُلْ : انهم يستلقون وهم ينتظرون موت الدكتور . انهم لا يجرؤون على القيام بأي شيء قبل ان يعرفوا ان حبش توفي» .

لم يكن رياض المالكي قد وُلد بعد حينما أسس جورج حبش - وهو مسيحي ، من بلدة اللد ، وتخرج من كلية الطب في الجامعة الامريكية في بيروت - حركة القوميين العرب في مطلع سنوات الخمسينات ، وقد كانت حركة سرية راديكالية عارضت الانظمة العربية التي كانت قائمة ، وتبنت العقيدة الماركسية - المادية . ومع حلول نهاية سنوات الخمسينات ، كانت الثورة المصرية قد غدت انموذجهم ، تلك الثورة التي أطاحت بنظام الملك فاروق الموالي للبريطانيين ، وأوصلت جمالا عبد الناصر ، قومي التفكير الى السلطة في القاهرة . وقد أيدت الحركات الجماهيرية كلها الشعارات التي طرحها عبد الناصر المتعلقة بمعادات الامبريالية ، وبالاشتراكية العربية . وكانت حركة القوميين العرب التي أسسها حبش مظلة مناسبة بالنسبة الى غالبية الفلسطينيين . ولكن قبل الانفصال الوحدوي بين مصر وسوريا عام ١٩٦١ أصبح من الواضح اكثر فاكثر ان شعار عبد الناصر المتعلق بالقومية العربية كان على خصام مع الطموحات الوطنية للفلسطينيين من أجل تحرير أرضهم .

أسس جورج حبش الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في شهر كانون الاول من عام ١٩٦٨ ، بعد مرور بضعة شهور على الهزيمة العربية في حرب حزيران ١٩٦٧ . ولكن لم يمض طويل وقت ، حتى انفرط عقد تحالف حركة القوميين العرب الذي كان وحّد جورج حبش ، ونايف حواتمة ، واحمد جبريل . وقد حدث الانشقاق ذلك في شهر آب ١٩٦٨ ، حيث أسس ثلاثتهم منظماتهم المستقلة عن

بعضها ، وتحت غطاء م. ت. ف. كان حبش يرى ان على الثورة ان تبدأ باثارة مواجهة مع الاردن ، لأن قبول الاردن بقرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢ الذي أنهى حرب الايام الستة قد تضمن اعترافا اردنيا باسرائيل داخل حدود ما قبل عام ١٩٦٧ ، الامر الذي كان يعني بالنسبة الى حبش ان الحكومة الاردنية تعقد معاهدة سلام مع اسرائيل مقابل استعادة ٢٢٠٠ ميل مربع من المناطق المحتلة في الضفة الغربية وغزة . لقد استمدت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تأييدها من بين أوساط الفقراء الفلسطينيين في مخيمات اللاجئين ، وبالتالي فان رسالتها القائلة «بانّ على البروليتاريا ان تختار قيادة الحركات الوطنية» راجت بشكل واسع لدى الشباب الفقراء ايديولوجيا . وأخذ حبش ينادي بان الوحدة العربية هي الشرط الضروري المسبق لتحرير فلسطين ، ولكن فلسطينا تلك يمكن ان تحرر فقط بعد ان تكون الجماهير قد ثارت واستبدلت بالانظمة العربية الفاسدة الديكتاتوريات الماركسية .

وعلى الرغم من ان احمد جبريل لم يكن ميالا لشعار حبش المنادي بسياسات عربية راديكالية ، الا انه لم يؤمن ان الوحدة العربية كانت ضرورية قبل ان يتم تحرير فلسطين ، اذ يقول : «لقد حاولت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ان تكون جزءاً من العرب كلهم في كل مكان ... لقد كنا فصيلا فلسطينيا وطنيا ... وكنا بحاجة الى ان تكون لنا علاقات جيدة مع سوريا والعراق» . ولذلك ، أسس احمد جبريل في شهر تشرين الاول ١٩٦٨ جبهته المنشقة المسماة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين/ القيادة العامة .

لقد كان الانشقاق بين حبش وحواتمه ـ الذي أسس الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين ، والتي عرفت فيما بعد باسم الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ـ عميقا جداً . يقول ياسر عبد ربه ، وهو احد قياديي الجبهة الديمقراطية : «لقد اعتبرنا عبد الناصر والانظمة العربية المسماة بالتقدمية مسؤولين عن هزيمة ١٩٦٧ . ولكننا شعرنا ان الرد على ذلك كان يتمثل في اقامة منظمة جديدة ، ترتكز على المبادىء الماركسية ، والتي يمكن ان تكون بديلا للناصرية من ناحية ، وللاحزاب اليسارية العربية الارثوذكسية التقليدية من ناحية ثانية» . ولم تؤيد الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين رغبة حبش في

اسقاط الانظمة العربية الموجودة ، ويوضح ذلك عبد ربه قائلا : «في حين ان التعامل مع البرجوازيات أمر رديء ، فان هناك شيئا أسوأ ، وهو الاحتلال ... لقد آمنا بان الوحدة كانت ضرورية ، ولذلك تحالفنا مع فتح وسوريا» .

كان رياض المالكي يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاما حينما وجدت هذه الفصائل ، لكن مواقفه اتجاه الاسرائيليين بدأت تتشكل من خلال أحداث حياته . كان رياض جزءاً من أقلية منذ البداية ، وقد ولد في ١٩٥٥/٥/٣١ فيما يقول عنه انه كان من عائلة مسلمة من «الطبقة الوسطى الدنيا» في بلدة بيت لحم المسيحية . وقد أصبح والده - الذي كان معلّما في مدرسة ابتدائية - مديرا لمدرسة خاصة في بيت لحم ، وفيما بعد عُين من قبل الادارة المدنية الاسرائيلية في منصب في دائرة التربية المحلية وكانت التربية تحظى دائما بالاولوية لدى عائلة المالكي ، اذ يقول رياض مفتخرا عن شقيقيه وشقيقاته الثلاث : «جميعنا ذهبنا الى الجامعات ، وتخرجنا ، بل ان اثنين منا اتيحت لهما فرصة العمل الجامعي» . ان توفير كل دينار لمساعدة الاسرة لزيادة الاموال من أجل تعليمهم ، كان الاولوية القصوى بالنسبة اليه ، وبشكل خاص لانه كان اكبر الابناء كما يقول .

ويستذكر انه حينما كان في العاشرة من العمر ، كان عليه ان يتخلى عن أثمن ممتلكاته ، وهي مجموعة من آلاف الطوابع الاجنبية جمعها بمساعدة أعمامه الثلاثة ، الذين كانوا يكتبون اليه بشكل منتظم من حيث كانوا يعيشون في امريكا الجنوبية . يقول رياض : «كانت الطوابع بالنسبة الي ذات معنى خاص جدا ، لكنني كنت مضطرا الى بيعها من أجل الحصول على بعض المال من أجل أسرتي!» . وقد عملت تلك التجربة على إنضاجه اذ يقول : «لقد أعطتني احساسا جيدا جدا بالمسؤولية . كنت قادراً على مشاركة والدي في أعبائه لتزويد الاسرة بدخل معين . ان هذا الامر يجعلك تكبر بسرعة ، بأسرع مما هو مألوف» .

بعد عودته الى البيت من المدرسة ، وخلال أيام العطل ، كان رياض يبيع بطاقات البريد (المعايدة) التي تحمل صور مذود المسيح ، والاماكن الدينية الاخرى الى الآلاف من الحجاج المسيحيين والسياح الذين كانوا يزورون مدينة بيت لحم . وحينما أتم الصف السادس ، كان رياض قد جمع مبلغ مائتي دينار . وساعد هذا المبلغ والده على ارساله الى أفضل مدرسة ثانوية في بيت لحم ، كلية تيراسانتا ،

وهي اكـاديمـيـة مـسـيـحية خاصة ، تدار وفق النظام الرهباني الايطالي ، الأخوة الفرنسيسكان . وهناك ، اختلط مع أبناء وبنات عائلات أغنى من عائلته ، اذ يقول الآن عن تجـربتـه تلك : «لم يكن ذلك بالأمـر السـهل وبخـاصـة اذا عرفت حدود عائلتي» .

ويـقـول رياض انه كـان يبلغ الثـامنة من العـمـر حـينما بدأ قـراءة المجـلات والصـحف ، ومن ضمنها : التايم ، والنيوزويك . كان يقضي ساعتين أو ثلاثا وهو يقـرأها من الغـلاف الى الغلاف . لقد أصبحت المنشورات نافذة له يطل من خلالها على العـالم الخـارجي ، وحـركت شـهيته نحو التاريخ والجغرافيا ، وساعدته على تعلم اللغـة الانكليـزية ، وعَرَّفته بالثورات السياسية والاجتماعية التي كانت تحدث في كـوبا ، والجزائر ، واندونيسيا . يقول رياض : «لقد ساعدتني على ادراك حقيقة لماذا لا تسـتطيع عـائلتنا النهـوض بأعبـاء احـتياجاتنا الاساسية ، ولماذا لم يكن باسـتطاعـة والدي ان يكون غنيـا مثل أي شخص آخر ، ولماذا كان علـيّ ان أعمل للحصول على أموال إضافية» .

لم يكن والد رياض شـديد الاهتمام بالسـياسة على الاطلاق ، ونادرا ما تناقشا بقـضـايا السـاعـة . وبرغم هذا ، فـان والده كـان مسلما جيدا ، ويمارس شعائر الصـلاة يومـيـا ، وأدى فريضة الحج ، غير ان رياضا لم يكن مهتما على الاطلاق بالدين . كـان المسلم الوحـيـد الذي يدرس في مدرسة التيراسانتا ، ولذلك فانه لم يحضر الدروس الدينيـة ، وكـذلك الأمر بالنسبة لدروس اللغة الفرنسية «بدون أي سـبب حقيقي» بل انه رفض حينما اصر والده ـ وكان رياض قد بلغ الرابعة عشرة من عـمـره ـ على ان يرافقه الى المسجد لاداء الصلاة . غير انه فيما بعد كان يذهب كل يوم جمعـة إلى الصـلاة ، واسـتـمر في ذلك لمدة عام كامل ، ثم توقف عن ذلك ذات يوم . وحـاول والده اقناعـه «لكنني أصريت على مـوقـفي ، وانتصرت. كـانت تربيته الدينية محدودة ، وتستهدف حشو دماغه بالمعلومات التي تمكنه من اجتياز امـتـحـان التـوجـيهي ، وبالتالي التخرج من المدرسة . ورياض لايعرف على وجه التـحـديد السـبب الذي جعله يطورمثل هذا الكره للدين ، وان كان يعتقد ان سبب ذلك هو قـراءته عن القـمع الذي تعـرض الفقراء له في بلدان امريكا الجنوبية حيث كـانت الكنيـسـة الكاثوليكيـة غنيـة وقـوية . ويسـتـذكر : «كنت مهتما بالمشاكل

الاجتماعية ، وبما كان يحدث في كل مكان في العالم ، اكثر من اهتمامي بقضاء الوقت في الصلاة من أجل الصلاة ... ربما كان ذلك بسبب اننا كنا نعيش في بيت لحم ... الجو في المدرسة كان مسيحيا ، ورفاقي كانوا مسيحيين ، والجو كله كان مسيحياً» . ومع ذلك ، فان والده لم يتوقف أبداً عن الضغط عليه للعودة الى الاسلام «لكنه يعرف انه كان يتحدث مع الحائط» كما يقول رياض .

بعد أن تخرج رياض من المدرسة الثانوية ، أصر الوالد على ان يلتحق رياض ـ البالغ من العمر سبعة عشر عاما ـ بمدرسة سانت جورج في القدس كي يستعد لاجتياز امتحان BCE البريطاني ، والذي يحتاجه من أجل الالتحاق بالجامعة . وخلال هذه الفترة ، كان انموذج رياض وبطله الزعيم العربي الذي سحر الجماهير في ذلك الوقت : جمال عبد الناصر . يقول رياض : «حينما كان يلقي خطابا كنا نلتزم الصمت» . لقد جذبت فلسفة عبد الناصر المتعلقة بالقومية العربية رياضا ، ولكن على العكس من اليافعين الآخرين «لم أحاول على الاطلاق ان أحفظ عن ظهر قلب ما قال» . ويستذكر انه اعتاد الايمان «بقدرة الجماهير بان تعبأ وان تتمرد ضد الانظمة ، وبانه من خلالها يمكننا ان نوحد الشعب العربي كله . لكنني أصبت بخيبة أمل بسبب مستوى استعداد هذه الجماهير . لقد فكرت في انه اذا انتظرت هذه الجماهير حتى تصل النقطة التي يمكننا عندها البدء بتحرك جماهيري نحو تحرير فلسطين ، فانني سانتظر طويلا جداً جداً . كان ذلك حينما بدأت البحث عن بدائل» .

وقد كان هناك حدثان أثرا بعمق في حياة رياض . ففي سن التاسعة عشرة كان عليه ان يسافر الى أمريكا الجنوبية لمتابعة تعليمه ، وليقضي السنوات الخمس التالية في كولومبيا ، في وقت كانت فيه حركات المقاومة هناك وفي الارجنتين وتشيلي تعمل على حشد جماهير الفلاحين الذي كانوا ـ على النقيض من العرب ـ يثورون ضد أنظمتهم الحاكمة .

أما الحدث الثاني ـ الذي وقع مبكرا ـ والذي عمل على تشكيل مواقفه ، فقد كان حرب حزيران ١٩٦٧ حينما وقعت مدينة بيت لحم وبقية الضفة الغربية وغزة تحت الاحتلال الاسرائيلي إذ تركت أيام الحرب الستة انطباعا عميقا في نفس رياض الذي كان يبلغ الثانية عشرة من العمر آنذاك . ويقول ان الحرب ودوره

الصغير فيها علمته درساً مذهلا ، وهو انه ليس من الصحيح ان الاسرائيليين لا يقهرون . ويستذكر : «لقد اعتدنا ان نسمع عن الاسرائيليين ، وان نحلم بهم ، لكننا لم نرهم أبدا ... لقد صورناهم دائما على انهم مختلفون عنا» موضحا ان غالبية الفلسطينيين كانوا يعتقدون انهم من نوع السوبرمان الذين لا يعرفون الخوف في المعركة ، ولا يعرفون الشفقة تجاه أعدائهم . وقد وجد رياض ان الامر مختلف . فحينما بدأت الحرب ، وحينما احتل الجنود الاسرائيليون مدينة بيت لحم أمروا سكانها برفع الاعلام البيضاء فوق منازلهم ، وكان عدم القيام بذلك يحمل مجازفة بتعريض البيت للقصف . لقد كان التهديد والخطر جديا : فطوال النهار كان رياض يسمع صوت هدير الطائرات وهي تطير فوق أسطح منازل بيت لحم .

وحينما دخلت القوات الاسرائيلية الى ساحة المهد ، أعلنت مكبرات الصوت الاوامر الى الناس لرفع الاعلام البيضاء ، ومغادرة منازلهم ، وان يتجهوا الى الطريق المؤدي الى أريحا . وقال جد رياض : «لن أذهب» . كانت عائلة المالكي كلها قد تجمعت في بيته . وتابع الجد : «اذا كانوا يريدون قتلنا ، فعندئذ أُفضِّل ان أُقتل داخل البيت . لن أغادر . لا نريد ان نرى مأساة عام ١٩٤٨ تتكرر مرة ثانية» . ويقول رياض ان العائلة قررت البقاء هناك . كان ذلك أول عمل من أعمال التحدي ، او ما يسميه الصمود الذي شهده .

لكن قبل ان يمر طويل وقت ، بدأت الشائعات بالانتشار ومفادها ان الاسرائيليين قد بدأوا بقصف كل بيت لا يرفع علما أبيض . وخشي والد رياض على بيته لانه لم يكن هناك أي شخص ليرفع العلم . ويستذكر رياض : «ولكوني اكبر الأبناء ، طلب اليّ والدي الذهاب الى البيت ورفع العلم في حال حدوث شيء ما . كان عليّ أن أسير ـ عبر مدينة بيت لحم ـ لمدة عشرين الى خمس وعشرين دقيقة» . كان يعرف شبكة الأزقة التي تفضي الى بيت والده ، ولكن من أجل الوصول الى تلك الازقة ، كان عليه الهرب حتى لا يراه الاسرائيليون . لم يكن قد سار مسافة قصيرة حين اكتشفته سيارة جيب اسرائيلية : «صرخوا عليّ طالبين مني التوقف أصبت بالذعر ، ولذلك ركضت . وصرخوا عليّ مرة ثانية ، وتبعوني» . وركض بأسرع ما يستطيع ، متواريا في الممرات وفي الشوارع الضيقة «متوقعا طوال الوقت رصاصة تصيبني في ظهري» . ويتابع رياض قائلا : «لا أدري من أين أتتني الشجاعة» . ووصل الى منزله ، ورفع العلم . لكن الوقت كان متأخراً ، وبدأ الظلام

يحـلّ ، ولم يكن تواقا الى العودة «لذلك بقيت وحدي مدة يومين وليلتين في البيت ، أراقب النيران المتبادلة بين الطرفين ليلا» . ويقول انه كان مروعا بما شاهده . لكنه بقي هادئا ، بلا حراك ، ينتظر انتهاء الحرب .

فـقط بعـد انتـهـاء القتال ، علم رياض أن أحد أصدقائه ـ ويكبره هذا الصديق بعـامين فقط ـ قتل بعد ان اطلقت النار على رأسه . ويقول رياض انه أراد رؤية ما حـدث ، فـسار الى الموقع الذي قتل صديقه فيه ، آملا «ان يجد أي شيء يخصه» . وكـان كل مـا رآه عـبـارة عن بركة من الدماء في الشارع . كان رياض يعمل دائما على ان يبـقي مـسـافة بينه وبين الاسرائيليين ، ولكنهم الآن فتنوه . وحينما حولت فـرقـة من الجنود مـدرسته الابتدائية الى معسكر مؤقت ، لم يستطع رياض البقاء بعـيـدا : «اعـتـدت ان انظر بعناية لأرى مـا كـانوا يفـعلونه ... بقـيت بعـيدا لان باسـتطاعـتـهم ان يضربوا فـعلا ... كانوا يستطيعون قتل أي شخص سواء أكانوا يعرفونه أم لا وبسبب أو بدون سبب على الاطلاق» . وقد تركت أحداث تلك الايام الصـيـفـية أثرها فيه : «وكأنني كنت أشعر ان هناك قوة في داخلي تدفعني باتجاه النشاطات السياسية» .

حينما كان يبلغ السابعة عشرة من عمره ، اتيحت لرياض فرصته الاولى للسفر الى الخـارج . فـقـد طلب أحد أصدقائه منه ان ينضم اليه في النمسا حيث كان ذلك الصـديق يدرس في جـامـعـة غـراز ، وهي ثاني أكبر مـدينة في ذلك البلد المحايد . والتـحق رياض بكليـة الهندسـة المدنية ، لكن تنظيم الوقت لديه كان عملا صـعبا ، وكـانت اللغـة الالمانيـة بالنسـبة اليه لغة يصعب تعلمها ، وبدا المجتمع النمساوي مجتـمـعـا منغلقا ومنعزلا بالنسبة الى الفلسطيني الشاب . فحينما حاول استئجار شـقـة ، تم تذكيره بوضـعـه كشخص لا جنسية له . والاسوأ من ذلك ، نُظر اليه بعين الريبة والشبهة . فقبل بضعة أسابيع ، قامت مجموعة ارهابية فلسطينية ذات علاقة بمنظمة ايلول الاسود باحتجاز مجموعة من الرياضيين الاسرائيليين كرهائن خـلال دورة الالعاب الاولمبية في ميونيخ عام ١٩٧٢ ، وقتلت منهم أحد عشر لاعبا خـلال عـمليـات اطلاق النار . وقـد قـالت صـاحـبة الفندق انها آسفة جداً ، فهو فلسطيني ولا تسـتطيع ان تخاطر بذلك . وفي النهـاية وجد شقة ، وعمل لفترة من الزمن في مـعـمل للتـقطير ، وزار يوغـسـلافيا المجاورة ، حيث تأثر بقضية «كيف يعيش الناس في بلد اشتراكي» . لكن رياضا استمر يشعر انه يعيش في غير مكانه ،

ولذلك حينما اقترح عليه عمه وعمته ـ حينما زاراه قادمين من قطر ـ ان يعود معهما الى بيت لحم ، شعر رياض بالسرور بان أتيحت له تلك الفرصة .

ومع هذا ، وبعد عودته الى وطنه ، اندلع نزاع عربي ـ اسرائيلي آخر ، حرب اوكتوبر ١٩٧٣ ، وأغلقت الجامعات في الضفة الغربية مرة أخرى ، فكتب رياض الى أعمامه في كولومبيا ، وأقنع والده بالسماح له بالسفر الى هناك لمتابعة دراسته . ويعترف رياض ان والده «كانت لديه نقطة ضعف حينما يتعلق الامر به» . في بوغوتا التحق رياض بكلية الهندسة المدنية في (بونتيفيسيا يونيفيرسيداد خافريانا) وهي جامعة يسوعية . وقد دفع أحد أعمامه ـ والذي كان قد أصبح موسرا هناك ـ الرسوم الدراسية لرياض . وبسرعة ، أصبح رياض طليقا باللغة الاسبانية . وعلى العكس من تجربته في النمسا ، وجد انه قُبل بسهولة في ذلك المجتمع ، أقلية ممثلة بشخص وسط العشرات من القبائل الاثنية والاقليات المحلية.

ومما يبعث على السخرية ، انه على بعد آلاف الأميال عن وطنه ، أخذت هويته كفلسطيني تتشكل على نطاق واسع «لقد رأيت أشياء كثيرة من خلال نظرات اقتصادية واجتماعية ، وليس سياسية فقط ... لقد رأيت كيف يعيش الناس فعلا ، الاغنياء والفقراء ، وكيف تستغل الشركات متعددة الجنسية ثروة هذه البلدان ، والفروقات بين ألوان الكائنات البشرية ... ان حجم الظلم» كان له أثر عميق في نفسه . ويقول انه لن ينسى على الاطلاق رؤية أسلاف امريكا الجنوبية ، الهنود الفقراء ، وهم يستجدون الطعام . انهم اليوم «مواطنون من الدرجة الخامسة في بلادهم . انظر الى الحضارة التي بنوها وانظر اليهم في شوارع كيتو ، ليما ، ولاباز وهم يستجدون الصدقات» . وبدأت تتشكل في ذهنه مقارنتهم مع الفلسطينيين : «لا تجد فرقا كبيرا في ان تكون في كولومبيا ، أو في البيرو ، أو في بوليفيا أو الاكوادور أو اسرائيل» .

لقد آلف نفسه مع مختلف أشكال حرب العصابات ، اذ يقول : «اعتدت ان أقرأ عن كل مجموعة من مجموعات حرب العصابات» . فقد قرأ عن «مجموعات حرب العصابات المدنية والريفية» مثل (شايننغ باث) في البيرو ، و(القوات المسلحة الثورية) في كولومبيا و(التوباماروس) في الاورغواي ، و(حركة اليسار الثوري) في تشيلي . وأراد معرفة لماذا «أشهرت السلاح ومن أجل أي هدف» كل مجموعة من

هذه المجموعات ، وتوصل الى قناعة مفادها انه بدون وجود برنامج للعدالة الاجتماعية والاقتصادية فان الفصائل الفلسطينية ـ مثل فتح ـ التي شنت بشكل أساسي كفاحا سياسيا لن تكون قادرة على الاستجابة الى احتياجات الناس . ويوضح : «اذا كنت تريد الوصول الى مستوى الناس ـ حيث يمكنهم ان ينسجموا مع ما تفعله ـ فان من الواجب عليك ان تمضي في ذلك عميقا» .

ويقول رياض انه تعلّم أيضا انه من أجل ان تنجح حرب العصابات ، فان من المفروض ان يكون لديها تأييد شعبي حقيقي . ان استخدام الارهاب لاكراه الناس وتخويفهم منتج عكسي . ويقول عن المذابح التي نفذتها (شايننع باث) والمجموعات الأخرى : «لست مع نظامهم المتعلق بفرض ايديولوجيتهم أو وجودهم بالقوة . واقصد (بالقوة) الحالات التي يذهبون فيها الى قرية ويذبحون كل شخص . انني أمقت هذا» . ويشعر رياض بالمرارة فيما يتعلق بذبح الفلسطينيين المتعاونين في الضفة الغربية وقطاع غزة . ويوضح ان النضال التحرري يكسب تأييدا لأن الناس يشعرون انهم محميون بواسطته «وليس بسبب انهم خائفون منه» . والتأييد يجب ان يوجد من خلال برنامج سياسي ، واقتصادي ، واجتماعي «الايديولوجية ، الفكر الذي تنقله والذي يتم قبوله لان الناس يؤمنون به ، ولانك مطلوب فانك تحظى بالتأييد والمحبة» . ان الشعب الفلسطيني يعتبر م. ت. ف. ممثله الشرعي والوحيد «ليس لأنها كانت مفروضة عليهم ، ولكن لأنهم أرادوها هكذا . وم. ت. ف. حققت مكانتها نتيجة للتضحيات ، وللنضال من أجل الدفاع عن حقوق الشعب ومواصلة ذلك النضال لفترة من الوقت» . ويتابع رياض قائلا: في امريكا الجنوبية «تتحدث عن وضع مختلف كلية» .

بعد أن تخرج عام ١٩٧٩ ، غادر رياض كولومبيا ليقضي سنة أخرى للحصول على درجة الماجستير في الهندسة المدنية والنقل والتخطيط في برنامج مشترك تديره جامعة نيويورك وبوليتكنيك بروكلين . وفي الوقت الذي عاد فيه الى بلاده ليبدأ حياته التدريسية في جامعة بير زيت عام ١٩٨٠ ، كان قد تشرب حماسة الكثيرين من العرب الذين كانوا يعيشون في مانهاتان ، والذين تعرضوا للآراء والافكار العاطفية القوية الموالية لاسرائيل من قبل سكانها اليهود الكثيرين . لقد شاهد تشابها جزئيا بين القمع في أمريكا الجنوبية وبين ما هو موجود في وطنه ، كما يقول . ويعترف ان تلك التشابهات الجزئية ليست دقيقة ، لكن «الظواهر هي

نفسها» .

ويؤكد رياض ان الولايات المتحدة تدعم اسرائيل من خلال تزويدها بعدة بلايين من الدولارات على شكل مساعدة عسكرية واقتصادية سنوية ، معظمها من أجل قمع الفلسطينيين واضطهادهم . وحينما تقع اساءات فاضحة لحقوق الانسان فان الولايات المتحدة ، واسرائيل ، والدول العربية المجاورة ـ مثل مصر ، والعربية السعودية ، والتي تعتمد بشكل كبير على الاسلحة الامريكية ـ ينظرون الى الناحية الأخرى ، مثلما فعلت حكومة الولايات المتحدة حينما صادرت الشركات الامريكية ثروة أمريكا اللاتينية ، واستغلت مواردها الطبيعية ، والقوة العاملة ، وزودت الانظمة العسكرية هناك بالسلاح من أجل تعزيز انظمتها الديكتاتورية . ويقول رياض : «اذا كانت الولايات المتحدة راغبة ، فان بامكانها ايقاف اسرائيل عن قمع الفلسطينيين من خلال تعليق المساعدة المالية وتوريد الاسلحة ... ان الناس الذين يضطهدونك هم أناس محليون ؛ لكن المعدات ، والآلات ، والأوامر تأتي من الخارج . وحينما نظرت حولي وسألت لماذا لم تأتِ الدول العربية لانقاذي ، اكتشفت انها ايضا مقيدة . كان الامريكيون يقولون لهم لا يمكنكم القيام بذلك ، لان الولايات المتحدة أرادت ترك اسرائيل تتمتع بتفوقها العسكري» .

اما التشابه الآخر الذي يراه بين الفلسطينيين وبين فلاحي امريكا الجنوبية فهو ارتباطهم الصوفي الغامض بالارض ، لان الارض والانسان شيء واحد : «فالأمر ليس كما هو عليه في الولايات المتحدة ، فقد تكون من كاليفورنيا وتعيش في تكساس ، أو تشتري منزلا وتقيم في اركنساس . هنا ، جذورك في هذه القرية ، وتصف نفسك دائما بانك شخص من تلك القرية ، وتعلّم ابناءك وأحفادك بأنك تنتمي الى تلك القرية . وإنْ تتحدث للفلاحين الذين يعيشون على قطعة من الأرض، سترى ما الذي تعنيه هذه الارض بالنسبة اليهم . انها حياتهم ؛ انها ثقافتهم ، وبقاؤهم ، وأسلافهم ، وتقاليدهم . وفي بعض الاحيان ، فان الفلاح ـ وبخاصة الفلاح الفلسطيني ـ يقضي مع الارض وقتا اكثر من ذلك الذي يقضيه مع اسرته ؛ فلديهم علاقة خاصة مع شجرة الزيتون ؛ انهم يتحدثون معها ؛ انهم يعرفون تاريخها» .

ويقول رياض ان الارض في الثقافة وفي الاغاني وفي الفولكلور الفلسطيني

مساوية للقوة البدائية للطبيعة : الأمومة . وفي التراث ، فان العِرض ، شرف المرأة وشرف الارض متشابهان ، وهناك قول بما معناه ، ان اكثر شيئين يهتم العربي بهما : هما الارض والعِرض . ويقول رياض : «اذا اعْتُدِيَ على امرأة فان ذلك نهاية العالم بالنسبة الى العربي . واذا صودرت ارضه ، فالامر نفسه ... كأنك تحاول قتل ذلك الشخص» . وهذا هو السبب الذي يفسر لماذا لم تقسم قطعة الارض التي تمتلكها عائلة المالكي ، على الرغم من ان كل واحد من الذكور في هذه العائلة - والد رياض، واعمامه الثلاثة ، وكل واحد من ابناء الابناء الثلاثة - يمتلك جزءاً منها . ويوضح رياض ذلك قائلا : «يجب ان نكون موحدين كقطعة واحدة من الارض» وهذا يفسر لماذا حينما يبيع أي شخص أرضه «فكأنك تبيع حياتك وعائلتك ... ان آخر شيء يمكن ان يفعله الفلسطيني هو ان يبيع أرضه» .

في عام ١٩٨٣ عاد رياض الى جامعة نيويورك لبدء التحضير للحصول على درجة الدكتوراة ، وقد حصل عليها عام ١٩٨٦ ، اذ عاد في ذلك الخريف لمواصلة التدريس في جامعة بير زيت . ان بدء الانتفاضة بعد مرور ما يزيد على السنة من عودته جعل حياته موضع الاهتمام ، منذ اليوم الذي باع فيه مجموعة الطوابع التي يمتلكها ، مروراً بجريه متجنبا الاسرائيليين في بيت لحم ، وانتهاء بالمعاناة والالم اللذين شاهدهما بأم عينيه في أحياء الفقراء في امريكا الجنوبية . لقد سجلت الانتفاضة بالنسبة الى رياض مرحلة مهمة في الحتمية التاريخية للشعب الفلسطيني، اذ تلاشى خوفهم من الاسرائيليين ، وبذلك اتخذوا الخطوة الاولى نحو تسلق الجدار النفسي الذي أبقى الاحتلال مدة طويلة ، ويقول رياض : «ان ذلك الطفل ، الطفل الفلسطيني ، الذي يجابه الجندي الاسرائيلي وهو يدرك انه من المحتمل ان يُقتل ، ومع ذلك يستمر في مجابهة الجندي» كان اختراقا معنويا للاجزاء الضخمة . لقد أعطى ذلك الفلسطينيين كبرياء ، وأعطاهم أيضا إحساسا جديداً بالمساواة مع خصمهم : «لقد كان الفلسطينيون قادرين على ازالة الحواجز المصطنعة كلها التي وُجدت نتيجة للعديد من الهزائم العربية . لقد كان الافراد قادرين على تحقيق ما فشلت الحكومات والجيوش العربية في تحقيقه ، وفعلا ، كانوا قادرين على إبطال ما خلقه العرب بشكل غير مباشر كنتيجة لهزائمهم : الاحتلال الاسرائيلي» .

وعلى مستوى آخر ، يقول رياض ان الانتفاضة علّمت الفلسطينيين ان الاسرائيليين ليسوا (سوبرمانات) : «ليست لديهم ارادة للقتال اكثر من الفلسطينيين . في هذه اللحظات يجابه الجنود الاسرائيليون الاطفال لانهم يدركون انهم يمتلكون الاسلحة الرشاشة وانهم على استعداد لاستخدامها للقتل . ان الجندي الاسرائيلي يدرك ان الفلسطيني يجابهه وهو أعزل ، كفلسطيني ، أعطني السلاح نفسه ، وأنا أضمن لك ان الاسرائيلي سيفر هاربا حينما يراني . ففي اللحظة التي يرى فيها الاسرائيلي فلسطينيا مسلحا ، فان سلوكه ـ واستجابته ـ سيكون مختلفاً» . ان الطبيعة لم تجعل الاسرائيليين أقوى أو أشجع أو أكثر تصميما من الفلسطينين . ويقول رياض : «لا أعتقد انهم يمتلكون ارادة اكبر ليحاربوا أو يقتلوا أو يعيشوا» وبالتالي فانه من غير المنطقي الاعتقاد ان شعبا يتكون من اربعة ملايين نسمة سيكون باستطاعته دائما ان يهزم مائتي مليون عربي . انها الظروف المصطنعة ـ بما فيها ترسانة الاسلحة التي تقدمها الولايات المتحدة الى اسرائيل ـ التي أوجدت الفرق بين المجتمعين . لقد جعلت الانتفاضة الفلسطيني يدرك ان اسرائيل «مارد مضخّم ، فإن تضغط على هذا المارد تستطيع تصغيره الى حجمه الحقيقي . هذا أمر غير مألوف» هكذا يقول رياض مؤكدا ان مبدأ الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين يؤكد دائما ان اسرائيل سوف تعود ذات يوم الى حجمها الحقيقي ، ويضيف رياض : «لقد عرفنا أن السبب الوحيد الذي يجعل اسرائيل ماردا هو ان الآخرين يريدونها كذلك . لقد ضخموها ، ولذلك فان معركتك ليست مع هذا المارد فقط ولكن مع الآخرين الذين يقفون خلفه ، الذين نفخوه ... هكذا أرى الوضع» .

ويعتقد رياض انه بالانضمام الى المحادثات وفق الشروط الاسرائيلية ، فان الفلسطينيين بددوا الكثير من المكاسب التي حققتها انتفاضتهم ذات السنوات الخمس ، يقول : في اللحظة الاولى ، حينما قرر الفلسطينيون الاجتماع مع السيد بيكر ، قبل ان يذهبوا الى مدريد او الى واشنطن ، كان يجب عليهم ان يكونوا قد فكروا في وضعهم وان لا يقبلوا الشروط الاسرائيلية . لقد قالها السيد بيكر بوضوح تام : [بدون الفلسطينيين لن تكون هناك عملية سلام] . ويوجه رياض اللوم الى م. ت. ف. والى قيادة فتح في داخل المناطق بسبب الاستسلام والاذعان لضغط من العرب الآخرين ، اذ يقول هازئا : «انني لا أنتظر العرب كي يحضروا

ويحررونا» . وعوضاً عن الاستسلام للشروط الاسرائيلية المذلة ، يقول رياض : كان يجب على م. ت. ف. الاعتراف بأن «وجودنا حيوي وهام من أجل بدء العملية ولذلك فان مشاركتنا يجب ان تكون مهمة بقدر أهمية وجودنا . وكان يجب علينا ان لا نقبل على الاطلاق بمجرد الحضور فقط ، بل كان يجب ان نصر على المشاركة الحقيقة» فاذا كانت الولايات المتحدة الامريكية واسرائيل وبقية العرب غير مستعدين للاستجابة لهذه المطالب ، فانه كان من الواجب على الفلسطينيين القول : «حسنا ، اذا كنتم لا تريدوننا ، فاننا لن نذهب ، و[خلاص] تلك هي النهاية» .

وباللجوء الى رؤيته الكبرى للعالم ، وجذورها الماركسية ، يقول رياض الموالي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين : انه حال الموافقة على تلك الشروط ـ لا يمكن للفلسطينيين ان يمثلوا انفسهم كوفد مستقل ، وم. ت. ف. مستثناة ولا مشاركة لاهل القدس، وفلسطينيو الشتات ممنوعون من المشاركة ـ فان النرد يكون قد القي ، ويضيف بازدراء : «العرب مهزومون ، والدول الاشتراكية اختفت ، وم. ت. ف. معزولة سياسيا واقتصاديا ونأتي ونتفاوض ! ... لقد اخترنا أسوأ وقت على الاطلاق لدخول عملية السلام» . ويرفض رياض الفكرة القائلة بان الفلسطينيين في المناطق المحتلة يمكنهم تحسين ظروف حياتهم اليومية ، وتخليص انفسهم من المظاهر الخارجية للاحتلال ، مثل : وجود الجنود الاسرائيليين في مدنهم وقراهم ، والحصول على حق اختيار قادتهم المحليين ، وادارة قضاياهم المحلية . ويقول : «هذه عملية سياسية تعتمد كلية على ميزان القوى في العالم الذي يميل بقوة ضد الفلسطينيين» . ويضيف : ان النظام العالمي الجديد هو في الواقع «النظام الامريكي الجديد» وبالتالي ، فان النتائج مقضية . ويعترف : «ادرك ان النتيجة ستكون لا شيء باستثناء الحكم الذاتي ... بنفس الطريقة التي يريدها الاسرائيليون» .

ويقول ان دخول المفاوضات أنعش من جديد منظمة فتح التي تقود م. ت. ف. من خلال إعطائها للفلسطينيين داخل المناطق سلطة لإملاء شروط المحادثات . يقول رياض : «تجلس القيادة هناك في القصور والفيللات في تونس على بعد آلاف الاميال وتقود النضال من هناك ... الثقل في الخارج والنضال في الداخل . ان الثقل يجب ان يكون حيث يكون النضال ... الاحتلال يومي ، والنضال يومي ، والمعاناة يومية ، ولديك أناس يعيشون في الخارج براحة تامة» . ونادراً ما يخفي

احتقاره للصراع المستمر على السلطة داخل فتح ، والذي يذكره بانهماك الحزب الحاكم في اليابان في الحفاظ على ائتلاف كبير بما فيه الكفاية من أجل الحكم : «دائما صراع ، دائما تنافس ، ودائما هناك أناس يحاولون حشد أناس آخرين الى جانبهم للحصول على السلطة لأنفسهم . هذه هي فتح . انها حركة مبنية على الافراد الذين يمكن أن يصبحوا أقوياء جدا خلال فترة قصيرة من الزمن . انها عملية ليست من النوع المنظم» .

ان ايجاد عملية من شأنها ان تمنح فلسطينيي الداخل أمثاله سلطة سياسية شرعية ـ من خلال انتخابات حرة وعادلة ـ هي واحدة من المكتسبات القليلة التي يعتقد رياض انها يمكن ان تبرر محادثات السلام الاسرائيلية الفلسطينية . وهي واحدة من جملة الاسباب التي تفسر لماذا عدّل موقفه ولطّفه تجاههم . ويوضح : في هذه الآونة ، في الضفة الغربية وفي قطاع غزة «كل شيء غير قانوني : فالنشاطات السياسية غير مشروعة ، والاحزاب السياسية غير مشروعة ، وكل شيء سري . يجب علينا ان نعمل في غياب بنية تحتية حقيقية» .

ويقول رياض : اذا نجح الفلسطينيون في انتزاع مسؤولية حقيقية من أجل انتخاب قادتهم في المناطق فان من الممكن ان يغير رأيه في نهاية المطاف . ومع ذلك، فانه لا يضيع أي وقت . فمؤسسة (بانوراما) التي أسسها عام ١٩٩١ تقدم ورشات عمل عن الديمقراطية و«المشاركون هم قادة القاعدة» السياسيون المحليون الذين يأمل رياض بانهم سيشكلون نواة انصار الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مستقبلا . ويقول ان مؤسسة بانوراما تخطط ايضا للبدء في اجراء استفتاء للرأي العام . ويدافع عن أحاديثه المنتقدة لمحادثات السلام ، مشيرا الى انها جزء من العملية الجديدة الهادفة الى تثقيف الجماهير حول كيفية حل نزاعاتهم سلميا عوضا عن اللجوء الى العنف ، ويقول : «من أجل القيام بذلك ، فانني شخص مسالم جدا . انني انسان أمقت العنف والعنف المضاد ، وسفك الدماء لانني لا أومن انه يحق لأي شخص ان يقتل شخصا آخر» . ويضيف : بين الفينة والأخرى يجب على حركة التحرر الوطني ان تبتعد عن قواعد السلوك المعترف بها «ولكنني شخص مؤيد للسلام ، وما أزال اعتقد انه في يوم من الايام سنتوصل الى تسوية في هذه المنطقة ، وهذا هو السبب الذي يوضح لماذا اقف الى جانب عملية سلام ،

ولكن يجب علينا ان نحدد تلك العملية» ويوضح ذلك قائلا : «ان تكن عملية تفضي الى إنصاف الفلسطينيين ، وان تكن متينة وشاملة» فانها تستحق تأييد كل شخص ويضيف : «أود الوصول الى نقطة حيث يكون هناك تحديد واضح جدا للسلام الذي يمكن قبوله من قبل كل شخص» .

ومثل آخر المقابلات العديدة ، وكل واحدة منها تستغرق ساعات طويلة ، وتأتي الى النهاية ، فان رياضا يريد ان يكون متأكدا من ان محاوره يفهم موقفه ، فيقول: «لا أقول إنتظر ، إنتظر واجلس ولا تفعل شيئا» . ويبقى رياض المالكي نهبا للشكوك حول عملية التفاوض الجارية . ففي مقابلة أجريت معه في شهر كانون الاول من عام ١٩٩١ حذّر من انه بدون وجود إجماع داخلي على تحديد مفهوم السلام العادل والقوي ، وبدون وجود الشرعية التي تستمد من خلال انتخابه من قبل الشعب ، فان الوفد الذي يمثل الفلسطينيين حاليا «يمكن ان يصبح حزب [الوفد] الخاص بنا ، بكل معنى الكلمة» . ففي عام ١٩١٨ شكّل البرلمان المصري وفدا [واطلق عليه اسم الوفد] لعرض قضية استقلال مصر على مؤتمر محادثات السلام الذي انعقد في باريس ، وانهى الحرب العالمية الاولى . وقد عاد الوفد الى بلاده وهو لا يحمل اكثر من وعود أطلقها البريطانيون . ان الوفد الفلسطيني المفاوض يمكن ان يعاني المصير نفسه اذا فَقَد الاتصال مع الجماهير ، كما يقول رياض .

وفي الوقت نفسه ـ كما يعترف رياض ـ فقد كانت هناك تحولات مشجعة في سياسات ادارة بوش نحو الشرق الاوسط ، اذ يقول : «بدأت السياسة الخارجية الامريكية تأخذ بالاعتبار العنصر الفلسطيني . لقد أصبح عاملا دائما في صياغة السياسة ، وهذا شيء جديد كلية ... لكنني أعتقد أن الادارة الامريكية ما يزال أمامها شوط بعيد عليها ان تقطعه قبل ان تصل الى وضع يمكن فيه للامريكيين ان يحظوا فعلاً بثقة الآخرين ـ وبخاصة الفلسطينيين ـ او ان يقدموا انفسهم كوسيط عادل» . وبالنسبة الى رياض المالكي ـ الاستاذ في جامعة بير زيت ، والبالغ من العمر سبعة وثلاثين عاما ـ فان الشيء الهام هو تذكّر موقف جده لأبيه المتمثل في البقاء متصلبا من أجل عدالة وأحقية قضيته ، حتى حينما تهدد الضغوطات الخارجية ، والنفعية الداخلية باضعاف عزمه وتصميمه . ويقول في معرض وصفه

لموقف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين المعارض لمحادثات السلام : «بدون عناصر الصمود هذه فانك تتحدث عن انتحار ، ولا أعتقد أنني أؤيد الانتحار ... وعلى النقيض من ذلك، فان أسوأ شيء يمكن ان تقوم به هو ان تقدم على الانتحار لانك تنهي حياة بدون أي هدف ومعنى» . ويلمّح الى انه يجب على الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ان لا تقدم على الانتحار من خلال بقائها معارضة لتسوية سلمية مع اسرائيل . ويأمل رياض المالكي على نحو واضح بان يكون ذات يوم جزءاً من مفاوضات مُشَرِّفَة ، مفاوضات تعطي حياته ماضيا وحاضرا معنى حقيقياً .

غسان الخطيب

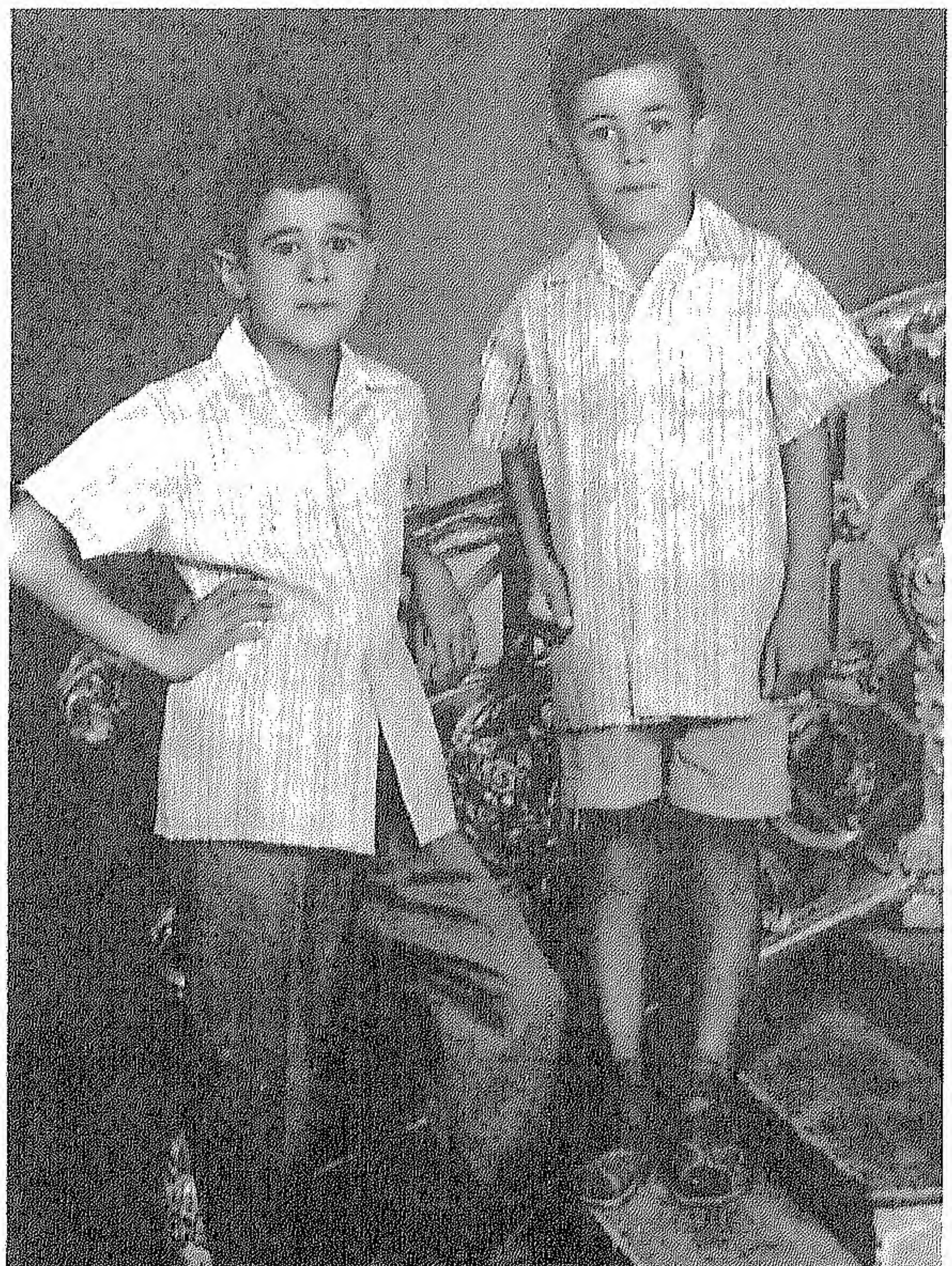

● غسان الخطيب (على اليسار) في الثامنة من عمره مع شقيقه .

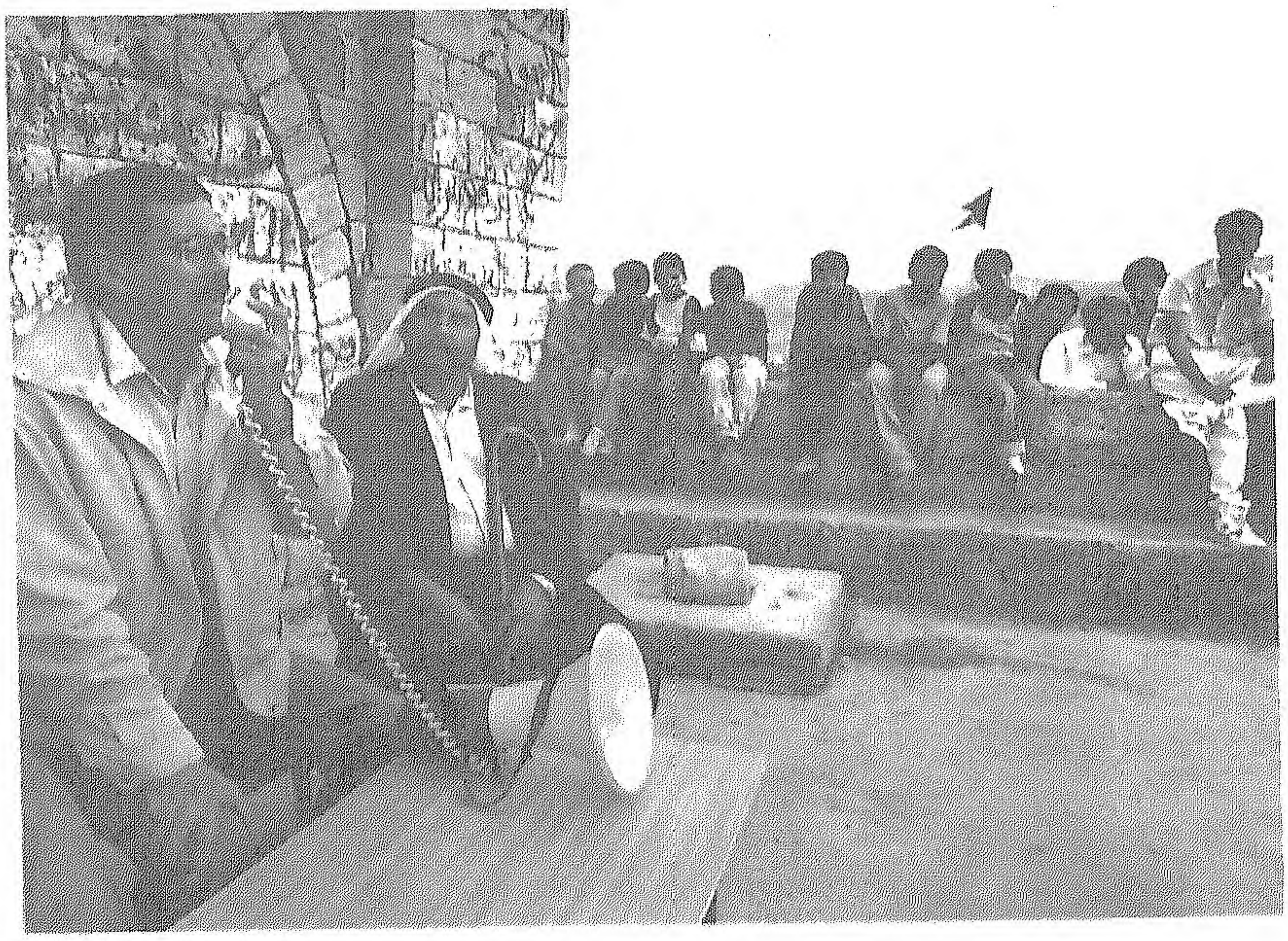

● غســـان الخطيب يتــحدث إلى أهالي قرية (كفرعين) بحثا عن تأييد لمحادثات السلام الفلسطينية ـ الإسرائيلية .

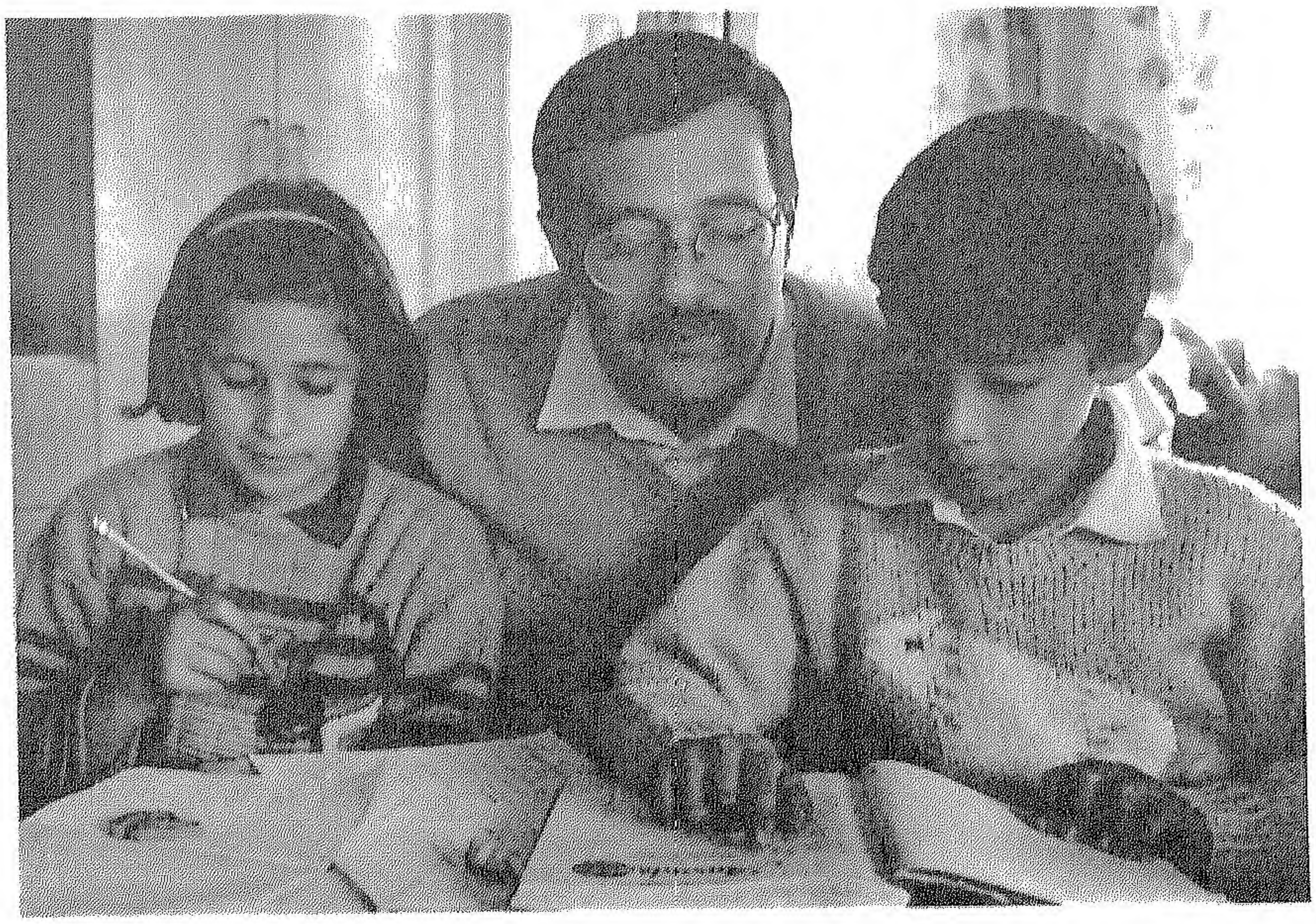

● غسان الخطيب في منزله في مدينة رام الله مع نجليه : ابنته رشا ، وابنه عبد .

غسان الخطيب

بعد ظهر يوم مشرق من أيام شهر أيار عام ١٩٩٢ ، وقبل فترة قصيرة ، من موعد بدء الجولة الخامسة للمحادثات العربية - الاسرائيلية ، كان غسان الخطيب ، عضو الوفد المفاوض ، يعد نفسه لالقاء محاضرة في الضفة الغربية يمكن ان تُعد أصعب مما يواجهه على طاولة المفاوضات الرسمية . بعد ان ارتدى سترته ، غادر شقته الكائنة في مدينة رام الله ، متوجها للقاء سكان قرية (كفرعين) . بدأ رحلته بسيارته الخاصة ، بيضاء اللون ، من طراز فولكس فاجن ، ولدى وصوله اعتذر عن وسيلة النقل البسيطة الصدئة ، وأشار الى انه كاد ان يلغي اجتماعا مقررا مع وزير الخارجية الكندي لأن المسؤول عن المرآب في القنصلية رفض ان يصدق بانه أحد الضيوف المدعوين . وبينما كان غسان يقود سيارته عبر المناطق الريفية الجبلية ، استذكر انه عبر هذه الطرق صعودا وهبوطا مرات عديدة ، ليتحدث الى العشرات من الجماعات القروية المحلية عن عملية السلام . ويقول انه حينما عاد من مدريد شارك في اربعة عشر اجتماعا مختلفا خلال ثمانية عشر يوما .

لدى وصوله الى بلدة كفرعين الساحرة - الواقعة بالقرب من قمة متن جبلي صغير مطل على الوادي - استقبله ممثل اللجنة المنظمة لاجتماع ذلك اليوم . وتوجه الى منزل مضيفه ، وجلس الرجلان لاحتساء الشاي الحلو ، واكل اللوز الأخضر . وعلم غسان من مضيفه ان القرية قد زارها بعض الزوار غير المرغوب فيهم في ذلك الصباح : جنود اسرائيليون أخبروهم انه خلال ثمان واربعين ساعة سيتم تدمير منزلين في القرية بسبب مزاعم عن ايواء احد الارهابيين . وانتهى الرجلان من تناول المنعشات ، وسارا في القرية البسيطة ، فمرّا ببعض البيوت الحجرية المتناثرة هنا وهناك ، وببعض اشجار الزيتون متجهين نحو المبنى الذي يعتبر مركز حياة القرية : المسجد . في ساحة المسجد ، وكما هو الأمر عليه في العديد من مناطق الضفة الغربية ، كانت الجدران مطلية بالكتابات . فقد كانت هناك كلمات مثل : (الله أكبر) وشعارات مختلف الفصائل ، بدءاً من حماس وانتهاء بالجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . وفي وسط الساحة ، كانت هناك أغصان شجرة ثُبِّتَ عليها علم فلسطيني بال ، في حين ان علما آخر - ممزقا ايضا - كان يخفق على عمود .

شيئا فشيئا ، وواحدا تلو الآخر ، بدأ الرجال بالتوافد الى ساحة المسجد ، حتى اجتمع نحو خمسة وعشرين رجلا تتراوح اعمارهم بين سن المراهقة وسن الستينات . في البداية ، بقيت النسوة في الخارج ، مجتمعات مع بعضهن ، في حين كان الرجال يدخلون ويجلسون على المقاعد الحجرية المبنية على جوانب الساحة ، وبعد ان يجلسوا ، تنضم النسوة اليهم . ومع دخول المزيد من الناس ، كان البعض يقوم بوضع الكراسي ، مشكلين شبه دائرة حول غسان الذي كان يجلس الى جانبه مختار القرية .

حينما هَمّ غسان بالقاء المحاضرة ، لاحظ وجود صبيين لا يزيد عمرهما عن عمره حين توفي والده . كان أحدهما يرتدي (تي شيرت) مطبوعة عليه كلمة (غالي) العبرية وهو اسم شركة اسرائيلية مصنعة للملابس الرياضية . فمثل العديدين من الصبية الفلسطينيين ، كان هذا الصبي قد اشترى لنفسه هذا القميص الرخيص بدون ان يفهم معنى الكلمة المطبوعة عليه ، بل ان بعض الصبية يرتدون قمصانا رياضية وقد كتب عليها (بيتار يروشلايم) غير مدركين انهم انما يشجعون فريق القدس لكرة القدم الذي يرعاه حزب حيروت الاسرائيلي المتشدد . لكن الصبي الآخر الذي رآه غسان كان يرتدي (تي شيرت) اكثر خطورة ، اذ يظهر صورة لناصر ابي حامد ، عضو القوة الضاربة لحركة فتح المسماة الفهود السود . وتحت صورة ناصر كانت هناك كلمات تقول ((مطلوب ميتا)) اشارة الى حقيقة ان حامدا أحد ارهابيي م. ت. ف. الذين تجري مطاردتهم .

يبدأ غسان محاضرته بالحديث عن انتهاء الحرب الباردة ، وعن الحقائق الجيوسياسية الجديدة التي تراكمت لتعمل على اضعاف الموقف الفلسطيني : فالولايات المتحدة الامريكية هي الآن القوة العظمى الوحيدة ، ولم يعد الاتحاد السوفييتي حقيقة قائمة ، وقد قبل الفلسطينيون شروطا مذلة لان وضعهم كان ضعيفا . ويعترف غسان ان هناك منظمات فلسطينية تعارض محادثات السلام ، لكنه يقلل من حجم الاختلافات بينهم ، موضحا انهم يختلفون حول الوسائل - شروط الدخول في المفاوضات - لا على الهدف . فكل شخص يتفق على ان المحادثات يجب ان تؤدي الى حق تقرير المصير ، والى قيام دولة فلسطينية مستقلة، ويمتدح القرار الامريكي المتضمن تجميد ضمانات قروض للاسكان

البـالغـة قـيمتها عشرة بلايين دولار الى ان تجمد اسرائيل النشاط الاستيطاني ، اذ يشير غسان الى ان هذا القرار لا سابقة له .

ثم يفتح غسان الباب امام الاسئلة ، فيوجه اليه فلسطيني مسنّ سؤالاً يبدو في ظاهره بسيطا : هل ستنجح محادثات السلام ؟ لكن السؤال محفوف بالخطر . فما المقصـود بكلمـة «تنجح»؟ كم سـيسـتـغرق الأمر من الزمن قبل ان يحصل الفلسطينيـون على حق تقرير مصيرهم ؟ وكم سيستغرق الأمر من الزمن قبل ان تكون لهم دولة خاصـة بهم ؟ وعدّل غسان من إجابته ولطّفها ، اذ لم يفرط في التـفـاؤل ، ولم يقدم اسـتشرافـا كثيـبا ، فيقول ان النجاح غير مضمون ، ولكنه يسـتحق المحاولة من أجله . ثم طرح عليـه سـؤال عن الانتـفـاضة ، فأجاب ان الانتـفـاضـة لن تتـقـدم الى الأمام ما لم ترافقها مفاوضات . وهو يدرك ان العنف وحـده مـتنفس للغضب الشديد ، ولن يجلب معه الا البغض والثورة فقط . فرشق الحـجارة والاضراب وتوجيـه الضربات للعـدو تكون مـفـيـدة اذا قادت الطرفين للجلوس مع بعضهما والتفاوض .

انه أداء لطيف ، رغم وجـود قلق شـديد ، ولكنه غير مـتـحـمس ، فليس هناك جـعجعة أو أي وعود محددة بتحقيق أحلام جامحة . لم يتحدث غسان بغلوّ ، ولم يبـحث عن الشـهرة ، كما انه لم يطالب بان يكون قائدا سياسيا . لقد أتى الى هذه القـرية ليـبحث علانية الوضع الحالي وبأمانة ، وبدون ان يترك انطباعات زائفة أو آمالاً ضخمة ، فكسب احترام الجمهور ، وها هم يغادرون وهم يشعرون بالرضى من ان اهتمامـاتهم هي قـيد البـحث حـتى وان لم تتحقق كاملة . وحينما كان في طريق عـودته بسيارته الفولكس فاجن ، كان يقول لنفسه ان من المهم بالنسبة الى الوفـد المحـافظة على تأييد القاعدة له : «سأقول لك شيئا ، انني من نوعية الناس الذين يعطون اهتمامـا كـبيرا لردود الفعل ـ وبخاصة ردود فعل الشباب ـ لما أقوم به» . ان صورة اليافعين الغاضبين المرتدين (تي شيرت) لا يمكن ان تغيب عن باله وهي تسـتـدعي صـورة غـسـان الخطيب الاكبر منهم ، الذي أحس انه أقـرب الى غـضـبـهم اكـثـر من قـربه من اسـتجابته الاكثر اعتدالا . ولن ينسى غسان على الاطلاق انه هو ايضـا ، مثل ارهابي فتح «المطلوب» كان يعتبر في فترة ما ارهابيا ، ويحتقره ويتجنبه الاسرائيليون العاديون .

كان غسان يبلغ الحادية عشرة من عمره حينما توفي والده ، وكان في الرابعة عشرة من عمره حينما ضربه الجنود الاسرائيليون ، وفي التاسعة عشرة من عمره حينما كسر الاسرائيليون فكّه ثم حكموا عليه بالسجن مدة خمس سنوات . كانت جريمته الانتماء الى فصيل مسلح تابع للحزب الشيوعي السري الذي يقود ائتلاف الجبهة الوطنية الفلسطينية . اما الشيء الاكثر ايلاما من ذلك كله - ولا شيء يذوي ذاكرة غسان البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عاما - فقد كان هو ذلك اليوم من أيام شهر كانون الاول ١٩٧٩ حينما القي القبض عليه وهو يتظاهر بالقرب من جامعة بير زيت ، ثم [سحبه] الاسرائيليون من السكن الداخلي للطالبات ، ويداه مقيدتان خلفه ، وضربوه بكعب البندقية ، وبالعصي ، ورفسوه . يقول غسان : «اذكر سماع صوت صراخ الفتيات ... كان الجنود يواصلون تحريكي من مكان لآخر من أجل جعلي عبرة أمام الطلبة» . لكن الوحشية ليست وحشية الضرب أو حتى الجروح التي أكد انها ما تزال تسبب الألم ، وانما ما حدث بعد انتهاء الحادث ، حينما حاول الاسرائيليون احتجازه في سجن رام الله .

جرت العادة انه كلما وفد سجين جديد ، كان يتعين على طبيب اسرائيلي ان يقدم شهادة تثبت ان حياة السجين او السجينة ليست في خطر . لكن المسؤول الذي قام بفحص غسان رفض تقديم مثل هذه الوثيقة قائلا عوضا عن ذلك وفق ما يرويه غسان : «من المحتمل ان يموت هذا الرجل في أي لحظة ، ولا أستطيع قبوله وهو بهذه الحالة» . وبدأ الضابط العسكري بالصراخ على الطبيب ذاك ، ولكن عبثا . لذلك ، أعيد غسان الى عربة الدورية ونقل الى بيت إيل ، وهو مجمع عسكري كبير يستخدم ايضا كمقر للادراة المدنية لمنطقة رام الله . وقام طبيب عسكري بفحصه في العيادة ، وكان الاسرائيليون يأملون منه ان يسمح في نهاية الامر بادخال غسان الى السجن . ويتذكر الفلسطيني ان الطبيب كان يسأله عن التخصص الذي يدرسه في الجامعة ، وحينما قال له غسان انه يدرس الاقتصاد ، قال له الطبيب انه اذا كان يريد ان يبقى متمتعا بالصحة فمن المفروض عليه ان يبقى بعيدا عن السياسة . ولكن بعد أن أتم الطبيب فحصه رفض الاستجابة لطلب الضابط ، واقترح نقل غسان الى مستشفى حداش في جبل سكوبس ، موضحا انه حال إصدار المستشفى تقريرها بامكان الجيش نقله الى السجن .

حينما وصلوا الى مستشفى حداش ، كانت صالة الانتظار مليئة بعشرات المرضى الذين ينشدون المعالجة الطارئة . أمسك جنديان اسرائيليان بغسان من تحت ذراعيه ، محاولين مساعدة الفلسطيني المنهك على السير خطوة فخطوة . كان معصماه مقيدين ، وهناك علامات زرقاء وسوداء تغطي مختلف أنحاء وجهه والدم ينزف من عنقه . وقد بعث منظر الجنديين اللذين يقتادان السجين وسط المرضى الموجودين هناك انذارات فورية في انحاء الغرفة للرجال والنساء والاطفال الذين كانوا ينتظرون بعصبية دورهم عند الأطباء . وحينما تحرك غسان نحو الأمام وكما يقول : «بدأوا يهمسون : مخرب ، مخرب ، وتنحى كل شخص جانبا» . أُمر غسان بالجلوس على مقعد (بنك) طويل ، وجلس الى جانبه جندى اسرائيلي في حين ذهب الآخر الى مكتب الادخال . كان هناك طفل يجلس عند الطرف الآخر من المقعد ، اذ تركته امه وذهبت من أجل ان تسجّل دورها . وفجأة ، لاحظ اثنان من رجال أمن المستشفى الطفل ، فهرعا نحو غسان وهما يصرخان على الأم: «كيف تتركين طفلا بالقرب من هذا الارهابي؟ من المحتمل ان يقتله» . بالنسبة الى غسان ، ما تزال تلك اللحظة تؤلمه ، اذ يقول : «كان الامر صعبا جدا بالنسبة اليّ . كنت في الخامسة والعشرين من العمر ، وشعرت انني شخص غير طبيعي وغير عادي». وجاء في تقرير الطبيب ان هناك ثلاثة أضلع مكسورة ، وان هناك جروحا في الساق والرقبة ، وانه يحتاج الى بضعة ايام من الرعاية الطبية ، ولكن ليس هناك خطر على حياته . وأعيد غسان الى سجن رام الله ، وحكم عليه فيما بعد بالسجن لمدة ستة شهور .

لم تكن هذه هي المرة الاولى التي يقبع فيها غسان الخطيب وراء القضبان . ففي ٤/ ٥/ ١٩٧٤ حكم عليه بالسجنِ لمدة خمس سنوات نتيجة مزاعم بانه عضو في خلية سرية تابعة للجبهة الوطنية . كان يبلغ التاسعة عشرة من العمر آنذاك ، ويقول : «لقد جندت في الجناح العسكري للحزب الشيوعي ... كانت مهماتي نشاطات عسكرية فعلا .... وقد دُربت على استخدام الاسلحة والمتفجرات» لكن المسؤولين الاسرائيليين يؤكدون انه على الرغم من التدريب فانه لا الجبهة الوطنية ولا غسان الخطيب قاموا بأي عمل من أعمال العنف على الاطلاق . وفي الحقيقة ، فوجيء الاسرائيليون حينما اكتشفوا في ربيع عام ١٩٧٤ ان الحزب الشيوعي قد شكل فصيلا مسلحا ، فالشيوعيون كانوا يمجّدون اللاعنف .

خلال سنوات العشرينات ، حينما تأسس الحزب الشيوعي ، كان عبارة عن حركة سرية يهودية هدفت الى مقاومة كل من الصهيونية والاستعمار البريطاني ، وكان من الطبيعي ان تحصل على تأييد عربي واسع بسبب موقفها العقلاني القائل بأنه يجب ان يعيش اليهود والعرب في دولة علمانية ديمقراطية واحدة . ويستذكر أحد الاسرائيليين وقد كان عضوا في الحزب ، فيقول : «كانت الفكرة هي النضال على المستويات الاجتماعية ضد المُضطَهدين ، الذين كانوا الاستعمار البريطاني ، بل انه كانت هناك خطة لانشاء كيبوتس مشترك» . وحينما اقرت الامم المتحدة عام ١٩٤٧ خطتها لتقسيم فلسطين الى دولتين : عربية ويهودية ، حذا الشيوعيون حذو انموذج الاتحاد السوفييتي ، الذي كان الدولة الثانية التي صوتت الى جانب اقامة اسرائيل وتوسيع الاعتراف الدبلوماسي بها . وعلى الرغم من ان زعماء عربا شيوعيين عديدين أصبحوا هم أنفسهم لاجئين ، الا ان الحزب قوّى موقفه المبدئي ضد استخدام القوة . فقد عارض حرب عام ١٩٤٨ ، والتي من خلالها (الحرب) دخل في نزاع مباشر مع الدول العربية التي أعلنت عن هدفها المتمثل في تدمير الدولة اليهودية التي أقيمت حديثا . ونتيجة لذلك ، انشىء الحزب الشيوعي الاسرائيلي في اسرائيل ، وهي الدولة الوحيدة في الشرق الاوسط حيث لا يخضع الحزب الشيوعي لاي حظر ، بل ويشارك في الانتخابات .

وقد كرس غسان الخطيب غالبية سنوات حياته في البحث عن بدائل للعنف . فهو يلقي محاضرات بشكل منتظم في الجامعات الاسرائيلية ، وعمل عن قرب مع حركة السلام الآن الاسرائيلية على تنظيم مسيرات الى قرى الضفة الغربية ، وساهم في عمليات الاعتصام التي كانت ناجحة جدا ، والتي ما يزال المسؤولون الامنيون الاسرائيليون يستخدمون اللغة العسكرية لوصفها ، اذ يقول أحد هؤلاء المسؤولين : «لقد قام **بعمليات** عديدة مع حركة السلام الآن» . كذلك ، كان لغسان دور رئيس في تشكيل سلسلة بشرية عشية عيد الميلاد عام ١٩٨٩ حينما قام عشرات الآلاف من الناس بالوقوف الى جانب بعضهم متشابكي الايدي حول الجدران الاثرية لمدينة القدس القديمة . وبعد مرور سنة على ذلك ، نظم حملة من أجل منع ترحيل وابعاد فلسطينيين والاستيلاء على بيوتهم في سلوان ـ وهي بلدة فلسطينية صغيرة مجاورة لمدينة داود ، اذ أراد وزير الاسكان الاسرائيلي أرئيل

شارون إقامة مستوطنة يهودية جديدة ـ حتى ان تيدي كوليك رئيس بلدية القدس شارك في الاحتجاج الذي نظمه غسان ضد خطط شارون .

لكن هناك دوراً جديداً لغسان في هذه الايام ، فهو عضو بارز في الوفد الفلسطيني ـ الاردني المفاوض ، وهو أحد اثنين ينتميان الى حزب الشعب الفلسطيني ويشاركان في الوفد الفلسطيني ، في حين ان الآخر هو سمير عبد الله . وغسان صديق حميم لفيصل الحسيني ، ومتواضع ، ومولع بالبحث والدراسة ، واكسبه سلوكه المقنع ، واسلوبه غير الأناني ، والعمل الجاد الذي يمارسه ، ثقة اعضاء الوفد كلهم .

وعلى الرغم من ان الحزب الشيوعي بحد ذاته انتهى من الوجود ـ إذ انه انقسم الى مجموعتين : حزب الشعب الفلسطيني والذي يتزعمه بشير البرغوثي ، والجمعية الديمقراطية الفلسطينية التي يترأسها جورج حزبون ـ الا ان غسانا لا يخفي اعتداده بالحزب أو بانجازاته التاريخية ، فيشير الى ان الدكتور حيدر عبد الشافي البالغ من العمر سبعين سنة ـ رئيس الوفد الفلسطيني المفاوض ، والذي ألقى الخطاب المثير باسم الفلسطينيين في مؤتمر مدريد للسلام ـ كان يوما ما العضو الاعلى رتبة والاكثر احتراما في الحزب الشيوعي السابق في غزة ، بل ان مندوبي فتح المنافسين يشيرون الى ان الشيوعيين يلعبون دورا في محادثات السلام اكبر مما يسمح به عدد مؤيديهم . ويوضح أحد زملاء غسان في الوفد : «يقومون بدور عقلاني قوي داخل الوفد ، وهم جزء من مجموعة اتخاذ القرار ... انهم يحضرون الى كل اجتماع ومعهم قائمة جاهزة بالمطالب وبالمقترحات وبالخيارات ... اما الآخرون فيأتون ليتحدثوا فقط ولوضع جدول أعمال» .

ويضيف المنافس ان الشيوعيين السابقين سيحصلون على أقل من عشرة بالمائة من الاصوات في أي انتخابات تجرى في الضفة الغربية ، اذ تضررت مصداقيتهم بسبب انهيار الاتحاد السوفييتي ، ولم يعد لهم على الاطلاق الكثير من القوة في الشارع الفلسطيني ، ويتساءل : «حينما نقول [الشارع] ما المقصود بذلك ؟ انه يعني السيطرة على الارض من خلال المؤسسات ، والاعضاء ، والبنية التحتية . انهم لا يمتلكون ذلك . وأين تجدهم ؟ ثلاثة أو أربعة اساتذة في جامعة بير زيت ، ثلاثة أو أربعة اشخاص في مكتب الادارة ، اثنان او ثلاثة في صحيفة . لكنك لا

تجـدهم على الارض على نحـو واسع مـثل الجـبـهة الشعبية لتحرير فلسطين ، أو حماس ، أو فـتـح . وهناك أسباب لذلك : ان مجتمعنا مجتمع ديني ، وحينما تقول [شيوعي] فان ذلك يعني شخصا لا يؤمن بالله ! الشيوعية شيء ما يأخذك بالقطار السريع الى جهنم !» . ويتابع هذا المؤيد لفتح : «ان الشيوعيين قصاصة من ورق ، ومـدرسـة وافكار ، وكـتـب!» . ويشير الى ان مكـتـبـتـهـم في رام الله تدعى [المكـتـبة الحـمـراء] وتدعى كتبهم [الكتب الحمراء] وقوتهم مستمدة من حقيقة أنهم «دائما يعـتـنقـون مـبـادىء كبيرة مثل المساواة والديمقراطية . لقد كانوا أول من أيد الحل الذي ينادي بدولة مزدوجة» .

ولكن عليك ان لا تسـتـخف أبداً بالشيوعيين ، كما يحذر مسؤول اسرائيلي ، اذ يقول صانع السياسة المحنك هذا : «لا تَزِنْهم بعددهم ، ولكن من خلال نشاطاتهم ... ان حزب الشعب مهم جدا ، فهم يعرفون كيف ينظمون حملات العلاقات العامة ويعـرفـون كـيف ينظمـون النقابات . وهم يعرفون كيف يكتبوا المنشورات . انهم اذكـيـاء جدا ، وهذا هو السبب الذي يجعلنا نقول [ان شيوعيا واحدا يساوي ستة من منظمة فتح!]» .

نشأ غـسـان الخطيب في الضفة الغربية التي كانت تحت السيادة الاردنية ، وقد ولد عام ١٩٥٤ في قـرية بيت ايـبـا بالقـرب من نابلس ، وهو اكبر أشقائه الستة : ثلاثة صـبـيان وثلاث بنات . أما والده عبد الوهاب فقد كان يعمل موظفا ، اذ كان مشرفـا تربويا في منطقـة الضـفـة الغربية . ويستذكر غسان ، فيقول : «لأنه كان مستخدما حكوميا ، فانه كان علينا ان ننتقل بشكل مستمر من مدينة الى أخرى ، الأمـر الذي كـان يمـزقنا الى حـد بعيد ، ولم أعش بشكل متواصل لاكثر من ثلاث سنوات في مكان واحـد» . وبالطبع ، فان ذلك كان يعني الالتحاق بمدارس حكومية جـديدة ، والاضطرار دائما الى اقـامة علاقات صداقة جديدة ، ولم يكن لغسان أبدا مكان دائم يطلق عليـه اسم وطن ، ويقـول ان ذلك جـعله يتـعرف على العديد من المدن والقرى في الضفة الشرقية لنهر الاردن .

مع هذا ، فـان الحـدث الذي غـيَّـرَ مجرى حـياته كان موت والده ، حينما كان يبلغ الحـادية عشرة من عـمـره . لم يكن عـبـد الوهاب قد ورث شيئا عن والديه ، ولانه لم يوفـر شيئا ، ولم تكن لديه قطعة أرض يمكن بيعها ، كان على العائلة ان تعـيش على اعمال الخير ، فكانت تتلقى المعونة التـقـاعدية من الحكومة الاردنية ،

بالاضافة الى الحسنات المقدمة اليهم من أقاربهم . اما التأثير الكبير في غسان فقد كان من عمه حافظ الذي يقول غسان عنه : «كان الوحيد الذي اعتنى بنا» . كان حافظ الخطيب نشيطا ، اذ كان من بين الاعضاء المؤسسين لمؤتمر العمال العرب ، ولمنظمة الجبهة الشيوعية التابعة له : رابطة التحرر الوطني التي ساعدت على تشكيل النقابات العربية في الاردن . وحتى عام ١٩٥١ كان اعضاء الرابطة من ابناء الضفة الغربية يؤيدون اقامة دولة فلسطينية متمتعة بالحكم الذاتي ، وعارضوا توحيد الضفة الغربية مع الضفة الشرقية تحت السيادة الاردنية ، فأعلنت الحكومة الاردنية ان الرابطة غير مشروعة وكان ذلك في سنة ١٩٤٩ ، وحُظر الحزب الشيوعي الاردني بعد سنتين من ذلك .

بقي حافظ الخطيب نشطا في العمل السري الشيوعي في الضفة الغربية ، مؤيدا لحزب سليمان النابلسي (الحزب الاشتراكي الوطني) الذي كان في طليعة المعارضين لنظام الحكم الاردني خلال سنوات الخمسينات ، والذي كان داوود ميخائيل والد حنان عشراوي من مؤسسيه . وفي الواقع ، كان حافظ موجودا مع غسان حينما دخلت الدبابات الاسرائيلية مدينة نابلس بعد مرور أقل من اثنتين وسبعين ساعة على بدء الحرب . ويستذكر غسان : «كانت هناك اشاعات بان هذه الدبابات إما انها عراقية أو جزائرية» . ولذلك فانه خرج من البيت مسرعا الى الشارع لتحيتهم غير ان رجلاً مسناً كان يعيش في جوارهم ويعرف الكثير رآه ، فانقض على الفتى البالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً ، وحمله عائدا به الى البيت وهو يقول له : «هؤلاء اسرائيليون . إبقَ في الداخل !» . كانت عائلة الخطيب تعيش عند الشارع الرئيسي في مدينة نابلس ، والتي كانت معقلا لقوات الجيش الاردني ، ولذلك حينما دخلت الدبابات الاسرائيلية المدينة ، وبدأت اطلاق النيران في مختلف انحاء المكان ، بحث حافظ وفاطمة [ام غسان] عن مخبأ للاطفال الستة . يقول غسان : «كنا نحو خمسة وعشرين شخصا نقف في ممر ضيق» حينما عبق البيت كله بالدخان . فقد أشعلت رصاصة طائشة النيران في فرشة كانت ملقاة في شرفة الطابق الثاني : «كنت أزحف على الارض آخذا دلوا تلو الآخر من الماء لاخماد النيران» .

وعلى امتداد الشهر التالي ، فرض حظر التجول في انحاء الضفة الغربية كلها . وحينما تم رفعه ، توجهت عائلة الخطيب إلى بيت إيبا ـ القرية التي ولد غسان

فيها ـ للتأكد من أن أحداً من عائلتهم الكبيرة لم يصب بأذى . وفي الطريق ، اختبر غسان أول واحدة من فظائع الحرب ، اذ يستذكر قائلاً : «مررنا عبر أحد الوديان والذي كان ميدانا للقتال ، وشاهدنا جثثا عديدة لجنود اردنيين معلقة على الاشجار وأجسادا محترقة ، وأشجاراً محترقة . لقد كان ذلك منظراً يبعث على الصدمة بالنسبة اليّ وأنا في ذلك العمر» . وفي بيت إيبا ، شاهد غسان للمرة الاولى وعن كثب الجنود الاسرائيليين ، إذ كانوا يفرضون بشكل منتظم حظر تجول محلي ، ويأمرون كل شخص يزيد عمره على ست عشرة سنة بالتجمع في ساحة المدرسة حتى يمكن القيام بعمليات التفتيش عن المخازن السرية للاسلحة من بيت الى بيت. وعلى نحو تقريبي ، كان على شباب القرية كلهم البالغ عددهم نحو ألفي شاب ان يتجمعوا في مدرسة بيت إيبا : «لقد استيقظت عند منتصف الليل على مكبرات الصوت الاسرائيلية . كنت هناك مع شقيقتي الأصغر سنا ومع عمتي العجوز . كنت تحت سن السادسة عشرة ، ولذلك بقيت في البيت . لقد روعنا فعلا ، اذ لم نكن نعرف ماذا نتوقع . وعند الساعة العاشرة تقريبا وصل الجنود ، ودخلوا البيت ، وأمروني ان أقف ووجهي نحو الحائط ، في حين قاموا بتفتيش المكان كله . وبالطبع ، لم يجدوا شيئاً» .

حينما عادت العائلة الى نابلس ، شجع العم ابن أخيه ، الذي كان ما يزال في طور المراهقة ، على الانضمام الى مجموعة من الشباب كانوا ينتقلون من بيت الى آخر لجمع الطعام والمال من أجل معالجة ضحايا القصف ، وللفلسطينيين الذين لا مأوى لهم ، الذين تدفقوا نحو الشمال قادمين من المناطق الغربية للمنطقة المحتلة حديثا ، وكانوا يعيشون في مراكز اللاجئين المؤقتة . يقول غسان عن نفسه حينما شارك في تظاهرة احتجاج مرتجلة في الشارع الرئيسي في نابلس : «كان أول تماس شخصي مباشر لي مع الجنود الاسرائيليين بعد مرور بضعة أشهر على الاحتلال ... لقد طاردوني دونما سبب ، وأمسكوا بي وبدأوا يضربونني ، ونُقلت الى المستشفى ثم أعادوني الى البيت» . كانت فاطمة غاضبة ، وحذرت غسانا طالبة اليه ان يبقى بعيدا عن مثل تلك المظاهرات ، لانه وإنْ كان في الثالثة عشرة من عمره ، الا انه مسؤول عن بقية أفراد العائلة . ويقول : «لقد بذلت والدتي جهدها لمنعي من الانخراط في الحياة السياسية» . وحاول جهده أن يطيعها ، وان يبقى بعيدا عن

المشاكل . ومثل غالبية الشباب ، كلما زادت والدته من محاضراتها عن مخاطر العمل السياسي ، بدا هذا النشاط اكثر جاذبية بالنسبة اليه .

مع بلوغ غسان سن السادسة عشرة من عمره ، كان يتجاهل نصيحة والدته ، فيقوم بتوزيع منشورات معادية لاسرائيل ، ويشترك في المظاهرات ، اذ يقول : «كان مصدر الجذْب حياة الطلبة ... كان هناك بعض النشطاء الشيوعيين في المدرسة .... كان الشيوعيون نشطاء وأقوياء بين أوساط العمال والطبقات الدنيا ، وقد كنت على اتصال معهم .... وانخرطت معهم ... لقد انجذبت الى الخط السياسي اكثر من انجذابي نحو الايديولوجية [الماركسية]» . وبعد الاحتلال الاسرائيلي انشق الحزب الشيوعي في الضفة الغربية عن منظمته الأم في عمان ، لأن الحزب الشيوعي الاردني كان يضغط من أجل إعادة توحيد الضفة الغربية مع المملكة الاردنية الهاشمية . ومع هذا ، فان الكثيرين من أعضاء الحزب الشيوعي الاردني بقوا في الضفة الغربية ، وأخذوا يعملون سرا من أجل اقامة علاقات مع رفاقهم في قطاع غزة .

مع مطلع سنوات السبعينات ، احتدم التنافس بين الفلسطينيين الموالين للاردن وبين الفلسطينيين ذوي الاتجاه الوطني في الضفة الغربية ، فانعكس ذلك على السياسة الصحفية في الصحف الفلسطينية : فصحيفة القدس اليومية التي تصدر في القدس ، اتخذت خطا مواليا للاردن ، في حين ان صحيفة الفجر سارت وراء منظمة فتح والتيار السائد في م. ت. ف. كذلك فان حزب العمل الحاكم في اسرائيل أخذ يطرح بقوة ما يسمى بـ «الخيار الاردني» وهي خطة كانت تهدف الى اعادة السلطة الاردنية في آخر الامر على الفلسطينيين شريطة موافقة حكومة المملكة الارنية الهاشمية على اجراء تعديلات اقليمية على حدود ما قبل عام ١٩٦٧ واقامة علاقات دبلوماسية بين الاردن واسرائيل . وفي الوقت نفسه ، كان الملك حسين يقدم مقترحاته لاقامة المملكة العربية المتحدة ، التي ستعمل على إعادة توحيد ضفتي نهر الاردن بعد الانسحاب الاسرائيلي النهائي من الضفة الغربية وغزة .

وعلى الرغم من الرواتب المالية السخية المدفوعة من عمان ، فان فلسطينيي الضفة الغربية كانوا يديرون ظهورهم للملك حسين ، بسبب كبحه لجماح منظمة التحرير الفلسطينية ، وبسبب ان عرفات كان قد أخذ بالظهور كقوة سياسية

بارزة على المسرح الدولي . وفي اسرائيل ، كانت سياسة «الجسور المفتوحة» التي نادى بها موشيه دايان - والتي سمحت للمؤسسات الفلسطينية بالعمل ضمن الحد الأدنى من التدخل بها ، وعلى أمل ان يواصل الاردن القيام بدور في ادارتها - آخذة بالضعف . وبمواجهة تهديدات وأخطار ارهابية جديدة في أعقاب ذبح أحد عشر رياضيا اسرائيليا في اولمبياد ميونيخ ، غدت الادارة المدنية اكثر صرامة تجاه مختلف مظاهر الحياة الفلسطينية ، فزادت من حدة مراقبة الكتب المدرسية والصحف ، وشددت الرقابة على كل شيء ، بدءاً من الامور الصحية ، وقضايا الحكم المحلي ، وانتهاء بشؤون اللاجئين . وفي الوقت نفسه ، كان يتم طرد المزيد والمزيد من الفلسطينيين لأسباب سياسية . ومع حلول عام ١٩٧٣ - وحتى قبل حرب اوكتوبر ١٩٧٣ - كانت الاتجاهات هذه كلها تتجمع لخلق احساس جديد قوي بالوطنية الفلسطينية ، وحقد متزايد تجاه النخبة المقربة من الاردنيين .

وقد برزت أولى مظاهر هذا الموقف الفلسطيني الجديد في صيف عام ١٩٧٣ حينما أرسلت أكثر من مائة شخصية بارزة تمثل الطيف السياسي كله في الضفة الغربية وقطاع غزة مذكرتين الى الامم المتحدة ، شاجبة فيهما الاحتلال الاسرائيلي، ومطالبة «بحق تقرير المصير ، وبالسيادة الفلسطينية على أرضهم بالنسبة الى سكان الضفة الغربية وقطاع غزة» . وقد كانت الرسالة واضحة بالنسبة الى م. ت. ف. في بيروت : فمن الآن وصاعدا ، من الأفضل ان تفكر المنظمة جديا في وجهات نظر فلسطينيي الداخل . اما الاولوية بالنسبة الى من هم خارج المناطق ، فيجب ان تركز على انهاء الاحتلال ، وايجاد نوع من التكيف مع اسرائيل من شأنه ان يقود الى دولة مصغرة للفلسطينيين . وقد لعب الحزب الشيوعي دوراً رئيسا في تنظيم فلسطينيي الداخل ؛ ففي شهر آب ١٩٧٣ أُجبِرَت م. ت. ف. على الاذعان والقبول بايجاد اول منظمة داخلية أقيمت كقاعدة سياسية لدولة فلسطينية مستقبلية ، والتي دعيت الجبهة الوطنية الفلسطينية ، وتشكلت من ائتلاف ضم : الشيوعيين ، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، والصاعقة . وقد قالت تلك الجبهة الوطنية عن نفسها : «انها جزء لا يتجزأ عن الحركة الوطنية الفلسطينية الممثلة في م. ت. ف.» . وقد تزامن انشاء هذه الجبهة مع طرح مقترح جديد قدمه الزعيم الماركسي نايف حواتمه امين عام الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، وجاء فيه ان تحقيق تحرير فلسطين كلها ليس

«أمرا واقعيا بلغة ميزان القوى الحالي» كما قال ، وبالتالي ، فان م. ت. ف. يجب ان تركز على «فن الممكن» أي الهدف الممكن احرازه اكثر من حيث اجبار اسرائيل على الانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة ، وبالتالي امكانية قيام «سلطة وطنية» جديدة على أي جزء من المناطق يتم «تحريره» .

ورغم انهم اعلنوا بسرعة ان الجبهة الوطنية غير مشروعة ، الا ان بعض المسؤولين الاسرائيليين كانوا يجادلون في وجوب السماح لها بالعمل ، مؤكدين ان تلك الجبهة التي يقودها الشيوعيون يمكن ان تصبح في نهاية الأمر منافسا لقيادة م. ت. ف. الموجودة في الخارج ، اذ يقول مسؤول اسرائيلي رفيع المستوى : «كان هناك نقاش قوي صريح حول هذا الأمر في مجلات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والحزب الشيوعي ، والتي حاول فيها اليسار اقناع منظمة فتح بالسماح لهم بانشاء قيادة في الداخل .... وقالوا : لا تخشوا من هذا الامر ، فهم سيعملون فقط على ادارة النضال وتوجيهه يوما بيوم . انهم لن يكونوا بديل القيادة الكلية لمنظمة التحرير الفلسطينية . اننا نريدها . لكن المنظمة لم تستجب . لماذا ؟» ويجيب عن تساؤله : «لان منظمة فتح لديها دائما هذا الخوف اللاواعي من انها اذا تركت مجموعة صغيرة كهذه تدير الحياة اليومية فانها ستتطور مع مرور الوقت الى قيادة بديلة . اما التخوف الثاني فقد كان يتمثل في انه طالما ان غالبية النشطاء الذين يشكلون قيادة الداخل كانوا من اليسار لا من فتح ، فانهم [فتح] كانوا يتخوفون من ان تصبح لهم اليد الطولى في الميزان الحساس جدا بين فتح واليسار في النضال اليومي» .

لكن المواقف الاسرائيلية المتسامحة بشكل مبدئي تجاه الجبهة الوطنية تغيرت بشكل دراماتيكي بعد حرب اوكتوبر ١٩٧٣ ، اذ كان ينظر الى الحرب في مختلف انحاء العالم العربي على انها انتصار عربي ، بل الانتصار الأول للشعب العربي على اسرائيل . ويستذكر هذا المسؤول الاسرائيلي : «ان العرب كانوا يشعرون بالحيوية» وقد قالوا لانفسهم «يمكننا التغلب على اسرائيل . لقد فقدت اسرائيل مصداقيتها» . وترجمت هذه الحالة النفسية داخل المناطق الى اعتقاد جديد مؤكد ، مفاده بأن الدولة اليهودية يمكن في النهاية ان تُجْبَرَ على الدفاع عن نفسها . وقد كانت الجبهة الوطنية العربة المثالية لتنظيم الحملة الجديدة . فاجهزة الامن

الاسرائيلية كانت لها لغتها الخاصة بها . وقد أطلقوا عليها اسم (خالابنيكس) وهو اسم يتكون من الحروف الاولى لعبارة (الجبهة الوطنية الفلسطينية) باللغة العبرية. ويقول المسؤول الاسرائيلي : «في البداية قالوا [دعونا نَقُمْ باعمال شغب] ما أسميه [عنفا خفيفا] : رشق حجارة ، اضرابات ، وعمليات احتجاج في الشوارع ... كانت المشكلة أن أجهزتنا الأمنية لاحظت بسرعة فائقة ان ذلك كان يتطور الى ماهو أكثر من العنف : الجناح المسلح للجبهة الوطنية . كان بامكانك ان ترى كيف بدأت الاجهزة الامنية بابعادهم ، واحدا بعد الآخر ، فقد ابعدنا الـ [خالابنيكس] كلهم ... ابعدنا سمك القرش الاكبر الى الاردن» . وفي الوقت نفسه ، فان المئات من الفلسطينيين الماثلين القي القبض عليهم ، وأوقفوا ومن ضمنهم غسان الخطيب . لكن المحاولة الهادفة الى تحطيم الجبهة الوطنية الفلسطينية لم تعمل الا على إشعال العاطفة الفلسطينية ، الأمر الذي أدى الى اجراءات قمعية أشد من قبل الاسرائيليين .

كان بشير البرغوثي - الفلسطيني الماركسي البالغ من العمر خمسين عاما ، وهو من قرية دير غسّانة الواقعة بالقرب من رام الله - هو الذي عمل على انقاذ الحزب من النسيان تقريبا . فقد عاد البرغوثي الى رام الله سنة ١٩٧٤ ، ويصفه زئيف شيف وإيهود ياعاري في كتابهما الذي يحمل عنوان (الانتفاضة) بانه «أصلع ، مولع بالتدخين ، متوقد الذكاء بشكل غير عادي ، وذو قلم حاد» كرس غالبية وقته من أجل الاشراف على صحيفته الاسبوعية الصادرة في القدس الشرقية ، والتي تحمل اسم (الطليعة) . وتحت قيادة البرغوثي ، كما يشير هذان المؤلفان ، فان الحزب الشيوعي «عاد الى فلسفته التقليدية ، مُبعدا نفسه عن الارهاب ، مؤكدا المبدأ الذي طالما ميزه عن التنظيمات الفلسطينية الأخرى : الاعتراف بدولة اسرائيل ضمن حدودها لعام ١٩٦٧ . ان هذين المعتقدين قد رددهما الرفاق في اجتماعات الخلايا ومن خلال جريدة الوطن السرية الناطقة باسم الحزب» . ويصف مسؤول اسرائيلي رفيع المستوى البرغوثي - الذي أصبح في الستينات من عمره الآن وما يزال له تأثيره القوي - بانه «العراب الشيوعي ، حيدر عبد الشافي الضفة الغربية» .

في شهر حزيران عام ١٩٧٤ اعلن المجلس الوطني الفلسطيني الذي تسيطر عليه فتح ، والذي كان منعقدا في القاهرة ، موافقته على الاستراتيجية السياسية الاكثر براغماتية ، والتي كان نايف حواتمة ـ زعيم الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ـ وحيدر عبد الشافي وبشير البرغوثي يعملون على اقناع ياسر عرفات بها . وعلى الرغم من ان تلك الهيئة الفلسطينية الحاكمة كررت هدفها المتمثل في انشاء دولة علمانية ديمقراطية في فلسطين كلها ، الا ان برلمان المنفى دعا ايضا الى اقامة «سلطة عسكرية وطنية شعبية مستقلة فوق كل جزء من ارض فلسطين يتم تحريره» . وقد فشل ذلك القرار التاريخي الذي اتخذه المجلس الوطني الفلسطيني ـ والذي قصد منه ان يكون اشارة إلى ان م. ت. ف. كانت تعتنق استراتيجية سياسية اكثر منها عسكرية ـ في التأثير في الحكومة الاسرائيلية ، التي شجبت الخطوة لانها تحول تكتيكي فقط نحو استراتيجية تدريجية لتدمير الدولة اليهودية على مراحل . كذلك ، شجب جورج حبش خطوة المجلس الوطني الفلسطيني ، والتي رآها على انها خطوة نحو الموافقة النهائية على دولة فلسطينية مصغرة في الضفة الغربية وقطاع غزة . ومع حلول نهاية شهر ايلول ، انسحبت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي يتزعمها حبش من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وشكلت «جبهة رفض الحلول الاستسلامية» .

في ٤/ ٥/ ١٩٧٤ القي القبض على غسان الخطيب ، ووجهت اليه تهمة الانتماء الى خلية مسلحة سرية . لقد اعتُقِل العديد من أصدقائه أيضا ، ويعتقد ان من المحتمل ان يكونوا قد ذكروا اسمه امام الاسرائيليين ، اذ يقول : «ليس من السهولة معرفة ما الذي دفعهم لاعتقالي .... لقد اعتقدوا ان هناك اسلحة مخبأة أعرف عنها» . ولمدة اربعين يوما ، احتُجز غسان في الحبس الانفرادي ، وكان يُستَجوب كل ساعة تقريبا عن اماكن وجود هذه الاسلحة المزعومة : «جربت مختلف انواع التعذيب كلها ، الى حد انهم كسروا فكّي خلال ضربهم لي بقبضات أيديهم ... واعتادوا الطلب اليّ ان اخلع ثيابي كلها ، وفي بعض الاحيان كانوا يضعونني تحت دوش من الماء البارد ، ثم يبدأون جلدي بخرطوم مياه بلاستيكي رفيع» . وفي نهاية المطاف اعترف غسان بانتمائه الى الجبهة الوطنية ، وبانه كان يتدرب على استخدام الاسلحة والمتفجرات ، لكنه انكر باصرار ان يكون قد تورط

على الاطلاق باي نشـاطات ارهابية او أعمال عنف . ولم يغير ذلك كثيرا من موقف السلطات الاسرائيليـة التي حكمت عليـه بالسـجن مـدة خمس سنوات قـضـاها في سجن نابلس المركزي .

وغـسـان فلسطيني فـيما يتـعلق بتـجـربته ، اذ يقول : «انها أعطتني درساً في المعـاناة» وان كـانت خلقت إحـساسا بالمشاركة - والذي يعترف بانه لم يشعر به من قبل - مع مئات الفلسطينيين الذين كانوا مشاركين في النضال السري اكثر منه. لقـد عكست التـوأمـة السياسية للستمائة معتقل الفروق القائمة في الفكر السياسي الفلسطيني في المجتمع بصورة عامة . وقد كان بين النشطاء مؤيدو : فتح ، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، الجبهة الوطنية ، الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، بل وحـتى بعض التنظيمات الصـغيرة ، مـثل : الصـاعـقة ، ومنظمة احمد جبريل المسماة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين/ القيادة العامة .

ويقـول غـسـان ان السجانين الاسرائيليين قساة ومُذلّون ، ولذلك ، سواء أكانوا مـتـعـمـدين لذلك ام بدون قصد ، فان «ذلك زاد من بغضنا لهم» . ويقول انه لن ينسى حـارس السجن الذي أجبر أحد القادة الفلسطينيين في السجن على الاستلقاء أرضـا ، ثم وضع قـدمه فوق عنقه قائلا له بصوت عال «لقد كان آباؤك وأجدادك خـدمـا لنا في أرض اسرائيل هذه ، وسوف تبقون ايضا كذلك !» . ويقول غسان : عوضا عن ان يعمل السجن على ردع الفلسطينيين عن مقاومة الاحتلال ، فانه خلق روابط رفـاقـية قوية ، أصبحت مهمة تقريبا قدر أهمية الروابط العائلية التي تقيد هؤلاء اليـافـعين في سنواتهم الاولى : «لقـد كان مكانا له التجربة الاجتماعية الاكثر تركـيـزا والتي يمكنك ان تتخيلها ... فها انت تعيش نهارك وليلك مع عدد كبير من الناس ، جميـعـهم من مناطق مختلفة ، ومن أعمار مختلفة ، ومن طبقات مختلفة» . ولان الاسرائيليين يحاولون احـبـاط السـجناء ، ومنعـهم من الاخـتلاط ببعضهم ، فـانهم كانوا ينقلونهم باستمرار من مكان لآخر ، الامر الذي يعني مع مرور الوقت بالطبع ، ان شـخـصـا كـغسان اكمل فترة سجنه الطويلة ، يعرف كل شخص من الـسـجـنـاء . وخـلال الـسـنتين الأخيرتين من فترة سـجنه ، اخـتير هذا الشـاب الفلسطيني البـالغ من العمر واحدا وعشرين عاما ليمثل السجناء في المفاوضات مع مـديري السـجن الاسرائيليين . فكلما كان هناك اضراب عام ، كان غسان هو الذي يساهم في نقل مطالب السجناء وايجاد تسوية للمشاكل . كذلك ، فانه عمل في لجنة

التنسيق المسؤولة عن «تنظيم حياة السجناء» اذ كان يعمل على ترتيب النشاطات الثقافية لهم ، ويساعد على حل المنازعات والخصومات الناشبة بين الافراد وبين الفصائل في داخل السجن . ويقول عن ذلك : «لقد كانت تجربة غنية جدا جداً ... ولو لم أمتلك هذه التجربة ، فانني أشك كثيراً في ان اكون قد انخرطت في الحياة السياسية» .

ان التحديات الفكرية العقلية في السجن كانت تتغلب على الملل والسأم ، وتنتصر على الاسرائيليين : «كنا نقسّم انفسنا في الغالب الى مجموعات وخلايا ، ونجلس مع بعض لنتحدث في القضايا التنظيمية ، والسياسية ، والثقافية . وبعد فترة قصيرة ، كان الاسرائيليون يدخلون الغرفة ويفصلوننا عن بعض . كانوا يواصلون تغيير نظام ترتيب الغرف والسجناء ، ويعملون باستمرار على نقلنا من مكان لآخر في السجن كلما أحسوا ان مجموعة معينة قد أصبحت تمتلك القوة والسيطرة» . كان الحراس ، وباستمرار ، يقومون بعملية تفتيش من زنزانة لأخرى بحثا عن أي مادة مكتوبة يمكن ان تمدهم بمعلومات عن مجموعة معينة . وكلما وجدوا شيئا يمت بصلة «للمظاهر التنظيمية لحياتنا» تتم مصادرته ، ويوضع مرتكبه في الحبس الانفرادي . لكن الوضع كان مضحكا . ويقول : في سجن حجمه كحجم سجن نابلس ، من العبث محاولة تجنب حدوث اي نقاشات سياسية ، أو ظهور زمر وجماعات . ويوضح غسان ان ذلك المأزق «لم يكن بامكان الاسرائيليين تجنبّه. فمن ناحية ، كانوا يريدون اعتقال الناس ، ومن ناحية أخرى لا يستطيعون منع مثل ذلك العدد الكبير من السجناء من الاختلاط ببعضهم وتنظيم انفسهم . ولذلك كان عليهم ان يدفعوا الثمن» .

لقد كانت زنزانته البالغة مساحتها عشرين قدما طولا وثلاثة عشر قدما عرضا كبيرة مقارنة بغيرها ، على الرغم من انه كان يشترك فيها مع عدد من السجناء الآخرين . كانوا ينامون على الارض لانه لم تكن هناك أسرّة ، وكانت النافذتان محاطتين بالقضبان الحديدية ، وغير مغطاتين . وكذلك الامر بالنسبة الى الباب . وفي فصل الشتاء ، يكون الجو بارداً بشكل قاس ومؤلم . كانت الارضية الاسمنتية ـ كما يقول غسان ـ مناسبة وجيدة لظهره ، لكن البرد المستمر جعله يشعر «وكأنك تنام في الشارع» . كان كل سجين يعطى خمس بطانيات في الصيف

وست بطانيات في الشتاء ، وكان غسان يضع اثنتين أو ثلاثا منها تحت جسده كفرشة ، ويغطي نفسه بالبطانيات المتبقية . عند الساعة السادسة من صباح كل يوم يذرع الحراس الممرات جيئة وذهوبا وهم ينادون على السجناء للاستيقاظ ، ويقرعون الابواب المعدنية الباردة للزنزانات بمفاتيحهم . وخلال الدقائق الثلاثين التالية يُتوقع ان يكون السجناء قد ارتدوا ملابسهم وطووا بطانياتهم ، وان يكونوا قد وقفوا على اهبة الاستعداد لتقوم سلطات السجن بتعدادهم . وعند الساعة السادسة والنصف تماما ، يبدأ الراديو المركزي ببث نشرة الاخبار الاسرائيلية باللغة العربية عبر مكبرات الصوت الموجودة في السجن ، ويتم احضار طعام الفطور اليهم وهم في زنازينهم . وبعد ذلك «ننتظر دورنا لحلول فترة العشرين دقيقة التي يسمح لنا فيها بالخروج الى الشمس» . ويقول ان هذا الجزء من الروتين اليومي كان امرا سورياليا تقريبا : «فكل شخص يسير في دائرة ، ولذلك فان ما تراه هو سجناء من مختلف الغرف يسيرون بشكل دائري» .

ويتم قضاء الساعات الثلاث أو الاربع التالية بالقراءة او الحديث مع السجناء الآخرين في زنزاناتهم . عند الساعة العاشرة هناك عملية تفقّد أخرى - هي الثانية من بين خمس يوميا - وعند الساعة الواحدة يتم احضار طعام الغذاء ، واجراء التفقد مرة أخرى . وبعد الغذاء كان غسان ينام أو يقرأ . وعند الساعة الرابعة هناك عملية تفقّد ثالثة . لكن الساعات الثلاث التالية - من الرابعة وحتى السابعة - تصبح هي الاكثر غنى من بين الاوقات كلها ، اذ يقول غسان : كانت تلك «جزءاً مهمّا جداً من اليوم» لانها كانت الوقت الوحيد الذي يسمح فيه للسجناء بالاختلاط ببعضهم . ففي يوم يقدم أحد السجناء عرضا لكتاب ، وفي اليوم الثاني تكون هناك مناقشة صريحة وعلنية لبعض القضايا المتعلقة بالاحتلال ، او يقوم شخص ما بتسلية الآخرين من خلال العزف على آلة موسيقية أو الغناء أمامهم . كان ذلك الوقت فرصتهم الوحيدة لقراءة الصحيفة ، اذ كان الاسرائيليون يعطون كل زنزانة نسخة واحدة من صحيفة الانباء «ذات الخط الحكومي ، والصادرة باللغة العربية» كما يقول غسان . في كل يوم كان يأخذ الموضوعات المهمة ويقرأها بصوت عال لنزلاء زنزانته . ويقول : «خلال هذه الفترة ، نحصل أيضا على آخر وجبة طعام لذلك اليوم» والتي تتألف من : «الحساء ، بيضة ، والحمص ... كنا لا

نأكلها في ذلك الوقت ، لاننا اذا أكلناها عند الساعة الرابعة أو الخامسة ، سنشعر بالجوع الشديد فيما بعد . لذلك كنا نحتفظ بها حتى الساعة السابعة أو الثامنة ثم نتناولها» .

وحينما خرج من السجن أخيرا ، قبل انتهاء مدة محكوميته بسنة ، كان يتوق الى الانضمام ثانية الى زملائه في الحزب الشيوعي ، ويقول : «ان غالبية الشباب الفلسطينيين الذين اطلق سراحهم من السجن انخرطوا في العمل السياسي» . لقد كانت تجربة السجن ـ بالنسبة الى غسان ـ هي المدرسة الاكثر نفعا وقيمة التي انخرط فيها على الاطلاق ، اذ يقول : «لقد تعلمت خلال السنوات الاربع غالبية الاشياء التي أعرفها في حياتي» . كان العالم الذي عاود الانضمام اليه عام ١٩٧٧ يختلف عن ذاك الذي تركه منذ اربع سنوات خلت ، اذ شنت الحكومة الاسرائيلية خلال فترة سجنه معركة جديدة للتغلب على الشعب الفلسطيني . ففي شهر تشرين الاول ١٩٧٥ قدم شمعون بيريز وزير الدفاع خطة «الادارة المدنية» التي وعدت بمنح سلطة أوسع للبلديات المحلية ، بما في ذلك تسمية فلسطينيين لادارة المناصب الادارية ، واقترحت خطة بيريز نقل كل سلطة تتعلق بالقضايا المدنية الى رؤساء البلديات والى مسؤولي المدن والقرى الآخرين في المناطق المحتلة ، وكان رد الفعل المبدئي عدائيا على نحو ساحق . يقول حكمت المصري ـ رئيس بلدية نابلس السابق ـ متهما : «ان فكرة [الحكم الذاتي] في المناطق المحتلة إهانة لكرامة الشعب الفلسطيني ، ونحن نرفضها بكل قوتنا» .

من أجل تنفيذ الخطة ، ولنقل سلطات محدودة الى الفلسطينيين ، كان على الحكومة الاسرائيلية ان تجري انتخابات بلدية . وللمرة الاولى ، قررت م. ت. ف. انه يجب على الجبهة الوطنية ان تطرح مرشحين ، من أجل ان تظهر قوتها داخل المناطق بشكل رئيس ، ومن أجل حرمان التجار والوجهاء الموالين للاردن من الحصول على مناصب في السلطة . ونتيجة لذلك أصبحت انتخابات شهر نيسان ١٩٧٦ موضع خلاف بين ممثلي م. ت. ف. ـ الذين قاموا بحملة تحت الشعار الوطني القائل (لا للادارة المدنية ، نعم للجبهة الوطنية) ـ وبين المرشحين الآخرين الذين أضمروا ولاءاتهم للمملكة الاردنية الهاشمية . وحينما تم فرز الاصوات ، حصل الوطنيون الموالون لمنظمة التحرير الفلسطينية على انتصار مقنع ، اذ حازوا

السلطة في الخليل ، وبيت جالا ، ونابلس ، ورام الله ، والبيرة ، وطولكرم ، وبيت ساحور ، وأريحا . لقد كان انتصار م. ت. ف. مكتملا تماما لدرجة ان الحكومة الاسرائيلية سعت خلال السنوات العديدة التالية لتقويض سلطتهم .

لقد تم إبعاد العديد من هؤلاء الفلسطينيين المنتخبين حديثا ، لكن ذلك زاد من شهرة الجبهة الوطنية وقد كان ذلك ـ في نظر الفلسطينيين ـ بداية القيام بسلسلة الاحداث السرية ، اذ يستذكر مسؤول اسرائيلي ، متعجبا : «لقد رفضوا قبول فكرة ان الأمر لن يستمر طويلا ... لقد كنت في الادارة المدنية في الحكومة المؤقتة عام ١٩٧٧ ... واذكر انني كنت أقرأ في مجلة الهدف الصادرة عن الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين كل اسبوع ، وكيف ان عندنا هيئة في المناطق تسمى الجبهة الوطنية . ذهبت لرئيسي وقلت له : «[ما الذي يجري هنا ؟] فقال [لا أعرف لقد أوقفوا نشاطهم منذ مدة طويلة]» . وبعد القيام باستقصاء سري من قبل الاجهزة الامنية توصل الاسرائيليون الى ان الشيوعيين وحلفاءهم من الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ومن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين حاولوا فعلا اعادة بعث وتجديد نشاطهم ، ويقول مصدر امني رفيع المستوى «انهم اتخذوا الخطوات الاولى لاحياء الجبهة الوطنية ... ثم اكتشفنا ان ذلك كان هدف اليساريين فقط ، فمنظمة فتح لم توافق على ذلك ، وبالتالي لم يعد هناك جبهة وطنية» . لكن مع نهاية عام ١٩٧٨ ، أثبت اليساريون مرة أخرى عزمهم على حمل الراية الوطنية في الداخل ، فعملوا على انشاء منظمة جديدة هي (لجنة التوجيه الوطني) لمعارضة اتفاقيات كامب ديفيد المبرمة بين مصر واسرائيل ، والتي كانوا يعتقدون انها ستحرم الفلسطينيين من حق تقرير المصير من خلال فرض نسخة معدلة قليلا وبشكل محدود ، من خطة بيريز للحكم الذاتي على الضفة الغربية وقطاع غزة .

كان من بين مؤسسي اللجنة فلسطيني بارز ويدعى ابراهيم الدكاك ، وهو مهندس مدني . في اليوم الذي سبق الاول من شهر تشرين الاول ـ وهو يوم تأسيس لجنة التوجيه الوطني ، وكان ذلك خلال اجتماع سري عقد في مبنى اتحاد العمال في بيت حنينا ـ ساهم الدكاك في الدعوة الى عقد اجتماع للحزب الشيوعي ، صدر عنه بيان طالب فيه الحزب باقامة دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية

وقطاع غزة ضمن حدود الرابع من حزيران عام ١٩٦٧ . وقد أُقر ذلك الموقف بشكل رسمي في ١٩٧٨/٩/٢٧ حينما صدر اعلان ـ خلال اجتماع حاشد للوطنيين الفلسطينيين في القدس ـ بانه «لا يمكن تحقيق سلام مستقر في هذه المنطقة بدون فرض السيادة العربية ـ الفلسطينية على القدس ، والضفة الغربية ، وقطاع غزة تحت قيادة م. ت. ف. الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني» .

وعلى الرغم من ذكر م. ت. ف. الا انه تم اتخاذ خطوة جريئة اخرى من قبل فلسطينيي الداخل كانت بمثابة اشارة الى انهم يطالبون على الاقل بصوت مماثل لتقرير مصيرهم . ان تأييد لجنة التوجيه الوطني تم الاعلان عنه حينما ـ بعد مرور فترة قصيرة على اقامتها ـ نظم ثلاثة آلاف شخص ـ من بينهم شخصيات موالية للاردن مثل حكمت المصري ـ تظاهرة في نابلس ضد اتفاقيات كامب ديفيد المقترحة . وقد رفعت في هذه المسيرة مئات الاعلام الفلسطينية المصنعة في البيوت وهي اشارة تنذر بان الاسرائيليين لن يكونوا قادرين على احتواء الطموحات الوطنية للشعب الفلسطيني ، والتي ستنفجر بعد مرور عقد من الزمن على شكل انتفاضة .

ولم يكتب للجنة البقاء طويلا ، فثلاثة من أعضائها ـ بسام الشكعة رئيس بلدية نابلس ، وكريم خلف رئيس بلدية رام الله ، وابراهيم الطويل رئيس بلدية البيرة ـ كانوا هدفا لمحاولة اغتيال جرت سنة ١٩٨٠ من قبل مجموعة سرية مسلحة من المستوطنين الاسرائيليين من بينهم صهر الحاخام الأصولي موشيه ليفنغر وزوجته ميريام . ونتيجة لتلك المحاولة ، أصيب كل من الشكعة وخلف بجراح خطيرة ، أدت الى بتر أرجلهما ، في حين تم ترحيل عضوين آخرين الى الأردن ، وهما : فهد القواسمة رئيس بلدية الخليل ، ومحمد ملحم رئيس بلدية حلحول ، كما تم وضع قياديين آخرين ـ بما فيهم ابراهيم الدكاك ـ تحت الاقامة الجبرية المنزلية . وللمرة الثانية ، عمل الاسرائيليون على قمع وحظر هيئة وطنية شرعية ، والتخلص من تهديد مباشر لأمنهم . لكن ثمن تعزيز وابقاء الاحتلال العسكري والمدني للسكان اليائسين الحرونين سيواصل ارتفاعه حتى أصبح العنف المتواصل للثورة الفلسطينية الرد الوحيد على الهيمنة الاسرائيلية .

في عام ١٩٧٧ عاد غسان الخطيب الى جامعة بير زيت ليكمل دراسته ، التي انقطعت حينما شارك في شهر كانون الاول ١٩٧٩ في مظاهرة بالقرب من الكلية ،

حيث عانى من كسور في ثلاثة أضلع ، وحكم عليه بالسجن مدة ستة شهور . ويقول غسان : «لا يمكنك تخيل الوحشية التي شاهدتها في بير زيت ، فقد قتلوا طلبة عديدين حينما كنت هناك ، بل انهم ضربوا غابي برامكي رئيس الجامعة عند الدرج المؤدي الى مكتبه» . وقد حصل غسان على درجة البكالوريوس في الآداب سنة ١٩٨٢ .

وفي عام ١٩٨٣ تقدم الى جامعة مانشستر في بريطانيا لمتابعة دراسته للحصول على درجة الماجستير في اقتصاديات النمو . وما يزال يذكر فرحته حينما تلقى الانباء : «فبعد أربع سنوات من السجن ، وبعد خمس سنوات في جامعة بير زيت ، كانت تلك هي المرة الاولى في حياتي التي كنت خلالها قادرا على مغادرة البلاد ... لم أكن صغيرا» . وبالفعل ، كان غسان في التاسعة والعشرين من العمر حينما بدأ دراساته العليا . كانت السنوات التالية ايضا مثيرة للدهشة بالنسبة اليه اذ كان يعتقد ان كل شخص في العالم على دراية ومعرفة بالنزاع العربي ـ الاسرائيلي ، وانه يؤيد حق الشعب الفلسطيني في اقامة دولة مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة . لكنه اكتشف انه لا يستطيع حتى تقديم نفسه على انه شخص من الضفة الغربية المحتلة ، ويستذكر : «كانت الاجابة الانموذجية : [ضفة غربية ماذا ؟]» .

وفي انكلترا اكتشف ان سمعة العرب قد تضررت على نحو سيء بسبب «بعض الخليجيين الاغنياء الذين اعتادوا السفر الى اوروبا ينفقون الأموال ويسعون وراء المومسات ... لقد شعرت بالخجل بسبب تصرفاتهم» . واذا لم ينظر الاوروبي العادي الى العربي على انه مستهتر خليع ، فانه كان يراه ارهابيا ، ويقول غسان : «أدركت ان هناك الكثير مما يجب القيام به لتحسين صورة الشعب الفلسطيني في عيون العالم الخارجي» . ويوجه اللوم الى التشويهات المتعمدة التي تقوم بها المجموعات المجهولة المسؤولة عن نشر «دعاية معادية عنا» . لكنه أيضا يخطيء الفلسطينيين انفسهم ، وبخاصة «الأفراد الفلسطينيين الذين هم خارج المناطق» الذين لطّخوا صورتهم ، اذ يقول : «لقد أدركت اننا نعيش في بلد صغير جدا وضعيف في العالم واننا لن نكون قادرين أبدا على الحصول على استقلالنا ما لم يتفهم العالم حقوقنا ومعاناتنا . وفكرت في انه يجب علينا ـ كفلسطينيين ـ ان نحاول ترسيخ سمعتنا ، رؤيانا ، وشخصيتنا ، وان نغير نظرة العالم الخارجي

الينا» . واعلن غسان انه حين عاد الى المناطق المحتلة ، جعل الاولوية الاولى لديه تحسين صورة شعبه ، ويقول : «لقد راودتني فكرة تأسيس مركز القدس للاتصال والاعلام حينما كنت أدرس في بريطانيا» .

واليوم ، فان هذا المركز واحد من اكثر المؤسسات احتراما في الضفة الغربية ، اذ يقدم اكثر مما يمكن لوسائل الاعلام الغربية ان تحصل عليه من محيط فندق اميركان كولوني . ان المكوث في مقر اقامة الباشا السابق ، ومقابلة المفكرين والمثقفين من جامعة بير زيت اثناء الجلوس في ساحة الفندق وبما تحويه الساحة من البوغنفيليه [نبات امريكي معترش] المزهر وبركة السمك ، يترك المرء في حالة من نفاذ البصيرة المشوهة ، وباحساس زائف من الطمأنينة بان الامور ليست فعلا سيئة الى هذا الحد . مع هذا ، وفي الواقع ، يرى غسان فندق كولوني اميركان على أنه مأوى للفلسطينيين الأثرياء ، ويعتقد ان الاحتلال ـ بالنسبة الى العديد من الصحافيين ـ يصبح شيئا عقيما ، شيئا لفظيا ، ولكن ليس مجربا .

وقد اعتقد ان بامكانه القضاء على شيء من هذه العزلة والتعصب من خلال اصطحاب الصحافة الى الميدان لزيارة مخيمات اللاجئين ، والقرى النائية ، ومن خلال تقارير باللغة الانكليزية عن السياسات الاستيطانية الاسرائيلية ، وعن التعليم ، وعن الزراعة ، وعما هو منشغل فيه من استعادة الحقوق المتعلقة بمصادر المياه الثمينة في الضفة الغربية . ان مركز القدس للاتصال والاعلام ـ ولانه بمثابة جسر بين المجتمع الفلسطيني ووسائل الاعلام الخارجية ـ قد زاد أيضا من ظهور غسان أمام شبكات الصحافة الغربية ، والذي حاز على شهرة بانه مصدر حسن الاطلاع وفاعل . فحينما اعلن رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق رابين عن تجميد النشاط الاستيطاني الجديد في شهر تموز ١٩٩٢ ، اجريت مقابلات عديدة على نطاق واسع مع غسان في تقارير اخبارية بثتها شبكات التلفزة.

وحينما لا يكون غسان في مهمة للتفاوض مع الاسرائيليين ، او لا يقوم بزيارة القرى الفلسطينية النائية ليتحدث عن عملية السلام ، او لا يعمل مع مجموعات مثل حركة السلام الآن لانهاء العنف ، فانه يقوم بالتدريس في جامعة بير زيت ، ويرئس الشركة الزراعية المتحدة ، وهي هيئة غير ربحية ، تتلقى مساعدة من المجموعة الاقتصادية الاوروبية ، وتقدم قروضا للمزارعين الصغار لمساعدتهم على

تسويق منتجاتهم في الخارج ، مثل : البطاطا ، والبندورة ، والخيار، والفواكه ، وغيرها من المنتجات التي ينتجونها «وبشكل رئيس في منطقة وادي الاردن» . ويقول غسان : على الرغم من ان عمر الشركة أربع سنوات فقط ، الا انها تعمل برأسمال قدره ١,٥ مليون دولار امريكي «وقد سمح لنا مؤخرا فقط بالتصدير مباشرة لدول المجموعة الاقتصادية الاوروبية . على الصعيد الجغرافي ، فاننا كنا نصدر من خلال اسرائيل ؛ اذ اننا اعتدنا التصدير من خلال الشركات الاسرائيلية ، ولكن للمرة الاولى ، تم السماح لنا الآن بالتصدير مباشرة بدون وكلاء اسرائيليين» وللمرة الاولى توقع اتفاقية رسمية من قبل هيئة من المصدرين الفلسطينيين من المناطق المحتلة وبين مجموعة من الدول المعروفة (المجموعة الاقتصادية الاوروبية) وكانت المشكلة التالية كيفية ادخال المنتجات الى الاسواق الاوروبية ، اذ كانت اسرائيل تصر دائما على وجوب تصدير منتجات المناطق المحتلة كلها من خلال (أغركسكو) وهي شركة حكومية اسرائيلية رسمية لتصدير المنتجات الزراعية . يقول الاسرائيليون : «لدينا البنية التحتية اللازمة لذلك : لدينا شاحنات وطائرات ، وسفن . استخدموا تسهيلاتنا وصدِّروا باسمنا ... سنحميكم من الفشل ... واذا رفضتم العمل معنا ستسقطون على وجوهكم !» . وأجابهم الفلسطينيون : «دعونا نجرب» . وشهدت الشهور التالية مفاوضات مكثفة حول ما سيكتب على أقفاص الشحن البحري التي ستوضع فيها بضائع الضفة الغربية: هل سيقال «انتاج دولة فلسطين» ام «انتاج الضفة الغربية ـ اسرائيل ؟» أو «انتاج الضفة الغربية ـ فلسطين ؟» . وفي النهاية تم التوصل الى تسوية ، حيث تقرر وضع علامة على الاقفاص تقول : «انتاج الضفة الغربية» . ويقول أوري نير مراسل صحيفة هآرتس : «لقد كان انتصارا مهما للفلسطينيين ، اذ أعطاهم نوعا من الاستقلال» .

لكن ذلك ايضا كان تقدما بالنسبة الى غسان فيما يتعلق بانموذجه الخاص بالاستقلال الاقتصادي المستقبلي : نوع من الخطوة التي ستساعد على اثبات ان دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة يمكن ان تكون وجودا اقتصاديا قابلا للتطبيق ، بل وربما دليلا على عهد جديد من التعاون الاردني ـ الاسرائيلي ـ الفلسطيني. ومع ذلك ، فإن المُنتَجَ الذي يسوّق من خلال قروض تمنحها الشركة الزراعية المتحدة ، ينمو على الارض التي كانت ذات يوم مرتبطة بالاردن : الشركة

فلسطينية الملكية ، واسرائيل تسمح بشحن منتجات الشركة الى اوروبا عبر الموانيء الاسرائيلية الواقعة على البحر المتوسط . وبالنسبة الى غسان ، فان هذا النوع من البراغماتية على وجه الدقة ، هو الذي سيمكن الفلسطينيين في نهاية الأمر من ان يصبحوا متمتعين بالاكتفاء الذاتي . ويقول : «في العصر الحديث ، فان الموارد الطبيعية وكل المظاهر التقليدية الأخرى للثروة يجب ان لا تبقى بعد هذا هي الاشياء التي يجب على المرء الاعتماد عليها ... اليوم ، يعتمد الاقتصاد على الموارد البشرية ، وهناك رؤوس أموال كامنة» . ويحذر من توقع حدوث معجزات بين عشية وضحاها نتيجة عملية التفاوض : «ستكون المفاوضات صعبة وستستغرق وقتا ... ولكنني أعتقد أنها ممكنة الآن . اننا لا نقترح سلاما يجب ان يتم حالا .... بل نقترح مراحل انتقالية تهدف أولاً الى خلق ثقة ، وثانيا الى اختبار كل طرف للآخر . سنقوم بخطوة واحدة في وقت ما . وكلما اقتنعنا ان الطرف الآخر جاد فعلا ، سنقوم بخطوة أخرى . هذا هو النوع من الفهم والتربية الذي يستحق الاعتماد والاتكال عليه» .

رضوان ابو عياش

● رضـوان ابو عـيـاش مع ابنتـه شـذى ، بعد ان تم انقاذ عينيها على يد جراح عيون اسرائيلي في مستشفى هداسا .

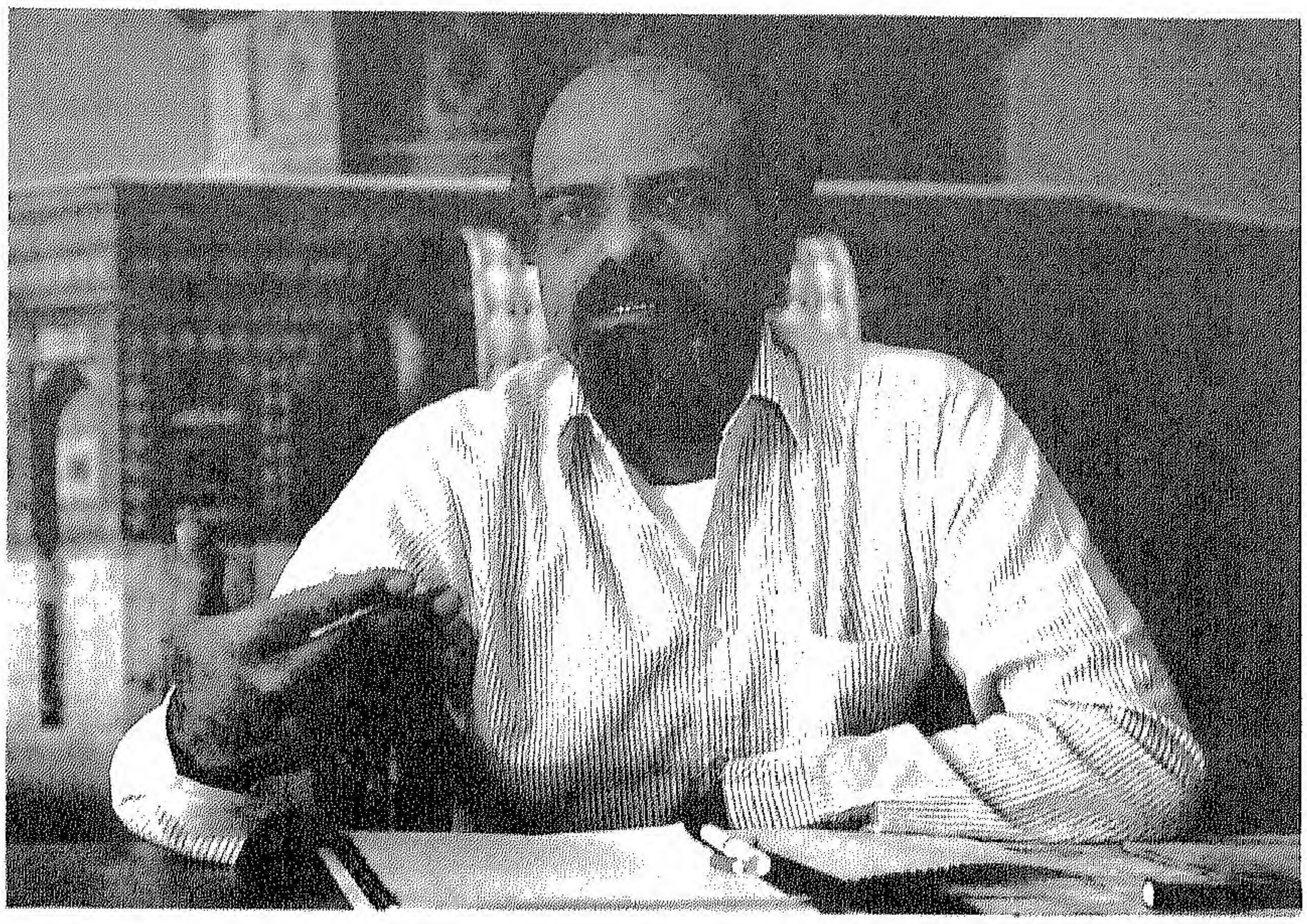

● رضوان ابو عياش في مكتبه في المركز الاعلامي العربي في القدس الشرقية .

رضوان ابو عياش

لو أنهم كانوا في هوليوود ، يختارون ممثلا للقيام بدور ياسر عرفات ، لكان رضوان أبي عياش البالغ من العمر اثنين وأربعين عاماً أكثر الناس ملاءمة للقيام بهذا الدور . فمثل عرفات ضئيل الجسم ، فان رضواناً قصير (حتى ولو انه أكثر نحولاً من عرفات) وله لحية (على الرغم من ان لحيته أنيقة ومشذبة أكثر من لحية زعيم الفدائيين الخشنة) كما أن رضواناً ذا البشرة داكنة اللون له شاربان وان كانا كثيفين ، وله عينان ثاقبتان . ومع هذا ، فان عيني رضوان لا توحيان بانهما تتهددان وتومضان ومضة أذى . والرجلان كلاهما مشاكسان ، متحمسان في انفعالهما من أجل قضية شعبهما ، وكلاهما يستمدان تأثيرهما من الانسان الفلسطيني العادي الذي أجبر على مغادرة بيته ووطنه حينما أُقيمت دولة اسرائيل.

ورضوان ، أيضاً ، لاجىء من الطراز البدائي للاجئين ، ولد في خيمة في مخيم عسكر للاجئين في نابلس سنة ١٩٥٠ . لكن جيله كان أول جيل من عائلة عياش يولد فقيراً . فأجداده هربوا من بيوتهم في جماسين ، وهي قرية موسرة ، وأصبحت الضاحية الغنية التي تسمى اليوم رامات أفيف ، وتقع الى الشمال من تل أبيب . ان المزارع الموجودة هناك تباع اليوم بنحو مليون دولار تقريبا للدونم الواحد ، ويمتلك جداه عبد الله ونايف خمسين دونما هناك تشكل «نحو ثلث مساحة القرية» كما يقول رياض . كذلك ، فانهما كانا يمتلكان مئات بساتين البرتقال والكلأ حيث اعتادت قطعان الماشية العائدة لهم (الأحصنة والأبقار) أن ترعى هناك ، وكذلك ـ المصدر الطبيعي الأكثر قيمة ـ الينابيع الطبيعية تحت الأرض .

حينما فرت والدته عائشة مع زوجها ابراهيم خلال حرب ١٩٤٨ ، كان من المفروض انهما يعرفان انهما لن يعودا على الاطلاق ، ولذلك فان أمه أخفت مئات القطع الذهبية في ثيابها كما يقول رضوان . وكانت تنفقها بعد ذلك حينما يكون زوجها أو أحد أبنائها التسعة بحاجة الى الرعاية الطبية ، أو حينما لا يكون هناك طعام يكفي العائلة . ويقول رضوان ان والدته أرادت منه أن يعرف أن أجداده كانوا أثرياء : «كانت والدتي غنية جداً ، وقد اعتادت ان تخبرني انها تمتلك العديد

من القطع الذهبيـة في يديها الاثنتين . وحنيما بلغتُ الرابعة عشرة من العمر أنفقتْ آخر قطعة» .

ومـثل عـرفـات ، فـان رضوانا أيضاً نشيط ، مقاتل في الشوارع ، وجنوده من الشـبـاب الذين يشكلون حـجم سرية من راشـفي الحـجارة الموالين لفتح ، والذين يسـمـون الشـبـيـبـة . وهو يقـوم بانتظام بزيارة مخيمات اللاجئين والجرحى في مـسـتـشـفـيات الضـفـة الغربية ، وقد استغل سلطته كصحافي لايقاظ ـ ويقول الاسرائيليـون لاشـعـال ـ العواطف الفلسطينية . ومثل آخرين كثيرين جداً ، قضى فترة في السـجن: شهر عام ١٩٨٢ ، سـتة شهور عام ١٩٨٧ حـينما القي القبض عليـه عـشـيـة الانتفاضة ، وخمسة شهور خلال حرب الخليج . لكنه ـ كما يقول مسؤول اسرائيلي ـ اذكى بكثير من أن يقوم بأعمال عنف بنفسه .

ولا ينكر رضـوان انه نقل أمـوالاً من م. ت. ف. بشكل خـفي الى داخل المناطق كما أنه لا ينفي انه التقى مع عرفات سراً حينما كان في الخارج ، بل انه يعترف ان له سَـرِيّة سِـرّية من المقـاتلين في الضـفـة الغـربيـة ، وانه فخور على نحو واضـح بلقـائه مع عـرفـات . ويقـول : حـينما تحطمت الطائرة التي كـان على متنها ياسر عرفات في الصحراء الليبية ، كان هو الشخص الوحيد الذي تلقى مكالمة هاتفية عند السـاعـة الثـالثـة والنصف صباحاً لاعلام قيادة فتح في الضفة الغربية بالحادث : «كنت الوحـيـد الذي أخبر فيصل [الحسيني] ... باستطاعتي الاتصال معه مباشرة [عـرفـات] دون الرجوع الى مستشارين آخرين ... ان قربه مني يعود الى قوتي في الشـارع ، فـهو يعرف ان باستطاعتي القيام بالكثير في الشارع . استطيع ان اكوّن جيشاً من الشباب» .

ولكن ، مثل عرفات ، فان لرضوان أبي عياش أعداؤه ، فهم يوجهون اتهاماتهم قـائلين انه يشترك في مـيـزة مع زعيم م. ت. ف. : هي الفساد . ويؤكدون انه بدد آلاف الدولارات على نفـقـاته الخـاصـة ، ويشيرون الى رحـلاته المتكررة الى رومـا وباريس ولندن ، ويقـولون انه يقود سيارة باهظة الثمن من شركة جنرال موتورز وانه مـدمن على الشراب ، ومكروه في أيام الاصولية الاسلامية هذه . كذلك ، فانهم يتـهـمـونه بانه على علاقة وثيقة بالاسرائيليين ، لكن التهمة الأكثر حداثة وتخريبا من بين التـهـم تلك كلها ، هي ان رضوانا أبي عياش يقوم ببناء منزل جديد ، ليس

منزلا عـاديـاً ، وانما فـيـلا مترفة فوق التلة الواقعة عند سفح الجبل المطل على رام الله ، وان هذه الفيلا مزودة بمسبح . ويروى ان امرأة ـ منذ مدة ليست بالبعيدة ـ اتصلت مع زوجـتـه سلمى وقـالت لها : «سـمـعنا ان لديكم حـوضا للسباحة في منزلكم» فـفـوجئت سلمى وقـالت مـتسائلة : «في أي بيت ؟ هل يقوم زوجي ببناء بيت دون علمي ؟ هلاّ أريتني اياه ؟ بامكاننا الذهاب والانتقال الى هناك بدلاً من ان نبقى محصورين في شقتنا الصغيرة» .

ان بيتهم المكوّن من غرفتي نوم ـ وهو ضمن مجمّـع يتألف من سبع وسبعين شـقـة يقع في شـارع الاذاعـة في رام الله ـ صـغير جداً وضيق ، لدرجة ان ابنهم شـادي البـالغ من العـمـر أربعة عشر عاماً يتوجب عليه النوم على صوفا في غرفة المعيشة ، ويقول : «ليس هناك مكان لغرفة الطعام» .

ولذلك فان العائلة تأكل على طاولة صغيرة محشورة في مدخل ضيق ، ويشـترك رضـوان مع زوجـتـه في غرفة نوم ، في حين تنام بناته الثلاث ـ سونا وتبلغ ثمانية عشر عـامـا ، وصـمـود وتبلغ اثنتي عشرة سنة ، وشـذى وتبلغ من العـمـر ست سنوات ـ في الغـرفـة الأخرى . ويقـول رضـوان أن ابنه شـادي أصـيـب بجروح مـؤخراً حينما سقط رف من الكتب عليه اثناء الليل ، ويضيـف : «ان متُّ غداً ، فان أولادي سيقعون في مشكلة كبيرة ، لانه منذ سنتين ـ كما يقول ـ لم يُـدفـع الايجار الـشـهـري الـبـالغ مـائة دينار أردني» . ويشير الى ان زعماء فلسطينيين آخـرين يـمـتلكون فـيـلات ، وبامكانهم الاسترخـاء في بيت «وأنا ليس لدي بيت .. لا شيء أملكه باستثناء أطفالي وايماني واعتقادي بما أقوم به» .

ويقـول رضـوان ان الشـائعـات المسـتـمـرة من الاتهامات الموجهة ضده حول الفـسـاد ، والانفـاق على الشراب والمسـتـوى المرتفع من الحياة انما هي «جزء من الحـرب التي تشن لتـشـويه سمعتي» وان معارضيه ـ كما يقول ـ لم يتمكنوا من العـثـور على «أي باب في مـيـدان السـيـاسـة لمهاجمتي من خلاله ، لأنني شـخص عـقـلاني وعـملي ، ولذلك فانهم بدأوا بنشر الاشاعات. إن اذهب الى مطعم وأتناول الطعام ، وأتناول أي نوع من المشروبات فانهم يقولون [سِـكّـير !] . انهم يريدون ان يسلبوني أكثر القيم التي أملكها أهمية [السمعة] . ان هذا الرجل صديق الفقراء وصديق هذه الطبقة الاجتماعية» .

ومنذ ان كـان رضـوان أبي عياش صبيا ، احتال على عيشه ، اذ يقول : «بدأت أعمل حـينما كان عمري تسع سنوات» . وخلال العطل المدرسية ، كان يقوم ببيع البطيخ الأحمر ويعمل حـمّـالاً ، اذ كان يقوم بنقل مؤن الطعام من شاحنات وكالة الغـوث (الاونروا) الى الأكـواخ الطينية والاسمنتية في مخيم عسكر . ويقول : «كنت آمل الحـصول على بخشيش قيمته نصف قرش للحصول على شيء من المال لشراء قميص أو بنطلون أو لشراء كتبي للسنة الدراسية القادمة» .

ولكن «حـتى هذه القـروش القليلة ، فـان والدي لم يكن قادراً على توفيرها من أجلي» ويتـذكر انه كان يخوض حافي القدمين في برك الوحل ويسير مسافة خمسة أمـيـال الى المدرسة ، وينظر جائعاً الى الآخرين الذين كانوا يأكلون الساندويشات . وقد أرسله والداه الى مدرسة الجاحظ الثانوية في نابلس ، التي بدت عالما بعيداً عن مخيم اللاجئين الفـقير . وحتى لو أنّ المدرسة تقع على بعد أميال قليلة من بيته الا انه صـبـاح كل يوم كـان يمـر عبر أشـجـار النخـيل المورقة الموجودة على جانبي الشـوارع ، وكـان يرى البضائع الطازجة في المحال التجارية . وفي المدرسة ، كانت لديه مأدبة عقلية لقراءة الكتب الجديدة كلها .

حـتى مـا قـبـل حـرب الأيام السـتة ، كان باستطاعة رضوان الالتحاق بإحدى جـامـعات الضفة الغربية . غير ان تلك الجامعات أُغلقت بعد الحرب ، وكان السفر الى الخـارج مكلفـاً للغاية ، ولذلك ، وبعد إكمال الدراسة الثانوية في نابلس ، التحق ذلك الشـاب البالغ من العـمر ثمانية عشر عاماً بكلية تدريب المعلمين في رام الله ، وهـي مـعـهـد تـشرف عـليـه (الأونروا) ويزعم الاسرائيليـون انه «مكان لتـدريب المحـرِّضين» . في عام ١٩٦٩ انتـخب رضـوان رئيسا لطلبة مدرسته ، وبعد مرور سنة تخرج من المعـهد حاصلاً على شهادة الدبلوم التي مكنته من البدء في تدريس مادة اللغة الانكليزية في مدرسة سلواد الثانوية للذكور . ويقول ضاحكاً : ان طلبته كـانوا في مثل سنه تقريباً ، وقد علّـمه ذلك أهمية التعليم ، لكنه أيضاً فتح عينيه - كما يقـول - على جـرعـات الدعاية الاعلامية التي اعتاد الزعماء العرب استخدامها لتخدير الشعب الفلسطيني .

ويتـذكـر رضـوان ذلك اليـوم من أيام الصيف الحارة في شهر حزيران ١٩٦٧ حـينما طافت دبابات أجنبـيـة في أرجـاء نابلس . كان وقتها في السابعة عشرة من

العمر ، ومع ذلك استطاع ان يلتقط انفاسه حينما كان يركض من مخيم اللاجئين الى الشارع العام . توقف عند سياج اسطبلات الجيش الأردني ليراقب الجنود وهم يتحركون من جبال وادي الأردن نحو المدينة العربية القديمة البالغ عدد سكانها خمسين ألف نسمة . كان الناس الموجودون يركضون ويمرحون بصخب ، فانضم الى الاحتفال ، يغني ويرقص للجنود معتقداً انهم جاؤوا لتحرير فلسطين .

لم يعرف أحد من أي بلد كان هذا الجيش : عراقي ؟ أم جزائري ؟ أم مغربي ؟. لم تكن تلك قضية . لكن رضوانا أصيب بالارتباك والحيرة حينما لمح العلم الأزرق والأبيض المرسوم على المدافع ، فليس هناك دولة عربية لها مثل هذا العلم ، ولكنه سيعود الى الاطلس ليتأكد من ذلك . ورجع مسرعاً الى مخيم عسكر ، ونظر في الأطلس ، لكن شيئاً مما شاهده في تلك الصفحات الملونة لم يكن يشبه ما رأى على الدبابات . وفجأة أدرك : ان هذا الجيش ليس الجيش العربي الذي أتى ليحررهم ، انه جيش عدوهم : اسرائيل. وفي الخلف كان باستطاعته سماع اصوات تدوي عبر مكبرات الصوت . كانت أصوات العدو وهو يطلب الى المواطنين رفع أعلام بيضاء فوق بيوتهم . وخلال دقائق ، أصبح مخيم عسكر بحراً أبيض . خلال الأيام الأولى من الاحتلال الاسرائيلي تنقل رضوان بخوف ، مروعاً كلما أزت طائرات سلاح الجو الاسرائيلي فوق مدينة نابلس ، وهي ترمي منشورات من الجو. وبعد ظهر ذات يوم ، حلقت الطائرت على علو منخفض جداً لدرجة ان أصوات محركاتها صدّعت الجدران الاسمنتية للاكواخ ، فما كان من رضوان الا ان نادى بصوت عال على شقيقه عدنان ، الأصغر منه ، للذهاب معه والاختباء تحت شجرة ، معتقداً ان الموت في الخارج أفضل من الموت في الداخل .

ومع مرور أيام الاسبوع ، أصبح رضوان غاضباً ، أولاً بسبب الاحتلال ، وثانيا على العرب بسبب عوزه للتعليم ، وتساءل : لماذا يجب ان أبقى جاهلاً ؟ لماذا لم أُعلّم عن هذا البلد القوي : اسرائيل ؟ . ففي المدرسة ، تجب عدم الاشارة الى اسرائيل .

وفي الكتب العربية ، كان الاسرائيليون عبارة عن حفنة صغيرة من قطاع الطرق الذين باستطاعة مجموعة صغيرة من الشباب الفلسطينيين وضعهم في قارب ودفعهم نحو البحر . لقد أصيب بخيبة الأمل من الزعماء العرب ، ويقول : «بدأت

اكتشف انهم قاموا ببناء جدران في عقلي ، وان كل جدار كان يسقط . يجب ان نتخلص من هذه الشعارت الدموية كلها ، التي كانت تشبه مورفينا يعطينا اياه الزعماء العرب . يجب أن تكون عقولنا منفتحة» .

وعلى امتداد السنوات العديدة التالية ، قام رضوان بتعليم شبيبة رام الله ، وأصبح معروفاً للمرة الأولى لعائلات كان باستطاعته بشكل ما ان يحافظ على ثروتها . وتعلم العبرية ، وطوّر علاقات صداقة بين جيل الفتيان الذين كانوا يأتون اليه طلباً للنصيحة والدعم المعنوي .

في عام ١٩٧٠ التقى رضوان بفتاة ، وبعد التودد اليها لمدة تزيد على سنتين ، قرر - وقد بلغ الثانية والعشرين من العمر - الزواج منها . كانت الفتاة ابنة طبيب ثري ، سليل اسرة مشهورة ، عائلة من العائلات الفلسطينية البارزة . ورغم ان رضوانا طلب يدها ، ورغم انها وافقت ، الا ان التقاليد العربية تتطلب من والده ووالدته أن يطلبا يد الفتاة رسمياً من والديها . والى حين موافقة الوالدين على طلبه فانه ليس بامكان رضوان الظهور معها على الملأ ، ويوضح : «حتى بعد الخطبة ، فانه لايسمح لك بالانفراد معها» .

حينما استجمع شجاعته ، طلب الى والديه : عائشة وابراهيم ، الذهاب الى رام الله لطلب يد الفتاة . وما يزال رضوان يذكر كلمات والدته وكأنها قيلت بالأمس : «انهم من طبقة اجتماعية مختلفة . يجب عليك ان لا تفعل ذلك» وذكّرته بالمثل العربي القائل : «من طينة بلادك لُطّ خدادك» . وحينما احتج على ذلك ، أوردت له أمه مثلاً آخرا مشهورا : «على قدّ فراشك مدّ إجريك» فقال رضوان «أمي ... اريدك ان تذهبي» . وفي النهاية وافقت ، غير انها قالت له : «أخشى ان لا تكون قادراً على دعوتي لحضور حفل زفافك ... هؤلاء الناس لديهم قواعد مختلفة . انهم سيشعرون بالخجل لرؤية امرأة من طبقتي . لن أحضر» .

وذهبت الى رام الله ، وقال لها والدا الفتاة انهما سينظران في أمر طلب يد الفتاة. ويقول رضوان وهو ما يزال يشعر بشيء من الألم عند سرد القصة : «لم يرفضا في الحال ، وقالا [حسنا ، سنعطيكم الجواب فيما بعد] كان هذا يعني مع السلامة ... لقد ذهبت والدتي الى هناك ، ورفض طلبها ... والسبب كان انني لاجيء» .

كانت مخطوبته منزعجة قدر انزعاجه ، ويستذكر رضوان : «كانت تريد الزواج مني ، وقالت لي انه يجب عليّ ان أحضر اليها ونتمّ خطبتنا بأي شكل ، بل انها عرضت الهروب معي ، ولكنني قلت لها : لا» . ولم ينس تلك الحادثة أبداً : «لقد كانت إحدى المراحل البارزة في حياتي حينما اكتشفت انه سواء اكان بوجود النضال التحرري أم بعدم وجوده ، فان الطبقية موجودة» مشيرا الى اختيار أعضاء الوفد المفاوض مع اسرائيل «بغض النظر عن النضال التحرري ، وبغض النظر عمّن هو في المناطق المحتلة ، فان الوفد مؤلف وفق ميزان قبلي ... اننا بحاجة الى ثورة اجتماعية» .

وخلال السنوات التي تلت ، مزج رضوان بين التدريس والكتابة ، ومثل كل شيء فلسطيني ، دمجهما بالسياسة . وحينما يُسأل متى أصبح نشطا على الصعيد السياسي ، فانه يجيب : «انضممت الى الصحافة عام ١٩٧٥» . كانت تلك السنة هي السنة التي بدأ فيها العمل كمترجم لدى صحيفة الشعب اليومية الموالية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وثالث اكبر صحيفة في الضفة الغربية وغزة . ومثل الصحف الفلسطينية كلها ، كانت صحيفة الشعب تخضع للرقابة الاسرائيلية كلما ارتأت تلك الرقابة في مقالات الصحيفة انها عامل تحريض على اعمال العنف . وفي عام ١٩٧٦ ، وباعتباره رئيس اللجنة العامة للمدرسين في مدرسة البيرة الثانوية ، نظّم رضوان اول اضراب للمعلمين في المناطق المحتلة .

وفي أواخر سنوات السبعينات درس رضوان مساقات أخرى في جامعة بير زيت في الضفة الغربية ، على أمل الحصول على درجة البكالوريوس في الآداب ، غير انه لم يتخرج أبداً ، اذ كان مشغولا جدا كنشيط سياسي . وبدأ بتشكيل مجموعات (الشبيبة) وهي اندية للشباب الموالين لمنظمة فتح ، شكلت من أجل القيام بالعمل الاجتماعي الفلسطيني وللتحريض ضد الاسرائيليين . لكنه الآن يتقن اللغة العبرية بما فيه الكفاية ، وبما يمكنه من الحصول على شيء من الدخل الاضافي من خلال عمله كمترجم . فقد قام بترجمة كتاب (الاختراق) وهو الكتاب الذي ألفه موشي دايان ، ويتحدث عن الدور الاسرائيلي في المساعدة في مفاوضات اتفاقية السلام المصرية الاسرائيلية عام ١٩٧٩ ، بالاضافة الى كتاب آخر معاد للاسرائيليين ويحمل عنوان (سادة التجسس في اسرائيل) . كذلك ، الف كتبا عديدة مثل المجموعة الشعرية (ألحان كمان) وبدأ يكتب زاوية يومية في صحيفة الشعب .

في عام ١٩٧٩ ، بعد اكمال عدة شهور من المساقات في جامعة بيروت العربية ، حيث التقى بياسر عرفات لأول مرة ، ترك رضوان مهنة التدريس ليصبح صحافيا متفرغا في الضفة الغربية ، ومساهما في تأسيس اتحاد جديد ، هو اتحاد الصحافيين العرب . وقد سمح له عمله التالي مع مركز الخدمات الصحفية الفلسطيني ـ وهو مركز موال لمنظمة التحرير الفلسطينية ، اسسته ريموندا الطويل وزوجها ابراهيم قراعين ـ ومع مجلة العودة الاسبوعية التي يصدرها المركز الصحفي ، بتقوية دوره القيادي بين أوساط الشبيبة . وفي عام ١٩٨٢ سجن رضوان للمرة الاولى لقيامه بنشر كتيب يحتج فيه على اجراءات الرقابة التي تمارسها الادارة المدنية الاسرائيلية . وقضى في السجن فترة تقل عن الشهر ، الا ان الحادثة وصلت الى اهتمام ياسر عرفات الذي أرسل اليه رسالة تهنئة من رفاق بيروت على اتخاذ هذا الموقف الشجاع ضد الاحتلال .

وفي شهر آب عام ١٩٨٢ خاض رضوان انتخابات الهيئة الادارية لاتحاد الصحافيين العرب ، وكانت أول انتخابات تجرى ، فحصل على أصوات أكثر من الاصوات التي حصل عليها الفلسطيني الذي انتخب رئيسا للاتحاد ، لكنه وافق على ان يكون رئيسا للجنة العلاقات العامة .

كان النادي الصحافي والى حد بعيد هو الأقوى بين التنظيمات المماثلة له في المناطق المحتلة . فمن بين أشياء أخرى ، كان هذا النادي بمثابة نقطة ارتباط مع الصحافة الأجنبية التي كان رضوان يمدها بشكل منتظم بالمواد الصحفية . وكمثال على ذلك ، انه في عام ١٩٨٥ ، حينما وُجد أحد الفلسطينيين ميتا في حقول بيت هورون ، نظّم رضوان حملة إخبارية هادئة ، وجدت طريقها الى الصحافة الرئيسة في دول عديدة . وقد قال للصحافيين الأجانب ان القصة تتلخص في ان ذلك الرجل كان يعاين قطعة أرض كان عربي «متعاون» قد قام ببيعها الى اليهود ، وان ذلك الفلسطيني قتل في الحقل على أيدي المستوطنين اليهود . لكن عملاء اسرائيليين علموا فيما بعد ان القصة لا تنطبق مع الواقع ، فالفلسطيني كان عضوا في شبكة معقدة تعمل على تهريب السلاح الى الضفة الغربية . فالمتفجرات أُدخلت الى البلاد من قبل شخص ، ثم خبئت في الحقل من قبل شخص آخر ، وحينما توجه رجل ثالث لاخراجها عند المنحدر ، قتل : اذ انفجرت قنبلة يدوية من طراز F - 1 روسية الصنع في يده .

وخلال السنوات الثلاث التالية ، استخدم رضوان مجلة العودة من أجل تشجيع (الشبيبة) وتعزيزها . ويعترف : «اعتدت ان يكون لدي ما يشبه المنظمة السرية» والتي تم فيها تجنيد مؤيدين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة الى العشرين سنة ، ويتابع «لقد نظروا إليَّ على انني معلّمهم ، على انني الشخص الذي يستطيع ان يسدي المشورة اليهم ، ويستطيع الذهاب الى المدارس ، والذهاب الى الجامعات ، والذهاب الى المخيمات ، والى القرى ، وحل مشاكلهم المادية والمعنوية» . ولا يخفي رضوان حقيقة ان نشاطاته كانت تحظى بدعم من خلال هبات ومنح سخية يقدمها صديقه ياسر عرفات الذي كان قد أُجبر على نقل مقر قيادته الى تونس . ويقول رضوان : «بالطبع ، فقد اعتدت على تسلم اموال من م. ت. ف. من أجل عملي ، وهذا يعني انني كنت قويا» .

كان رضوان ناجحا جداً في التعامل مع الأخبار ، وكان يبني أتباعا مخلصين له بين أوساط الشبيبة ، حتى انه قرر عام ١٩٨٥ منافسة أكرم هنية رئيس تحرير صحيفة الشعب ، وكذلك رئيس اتحاد الصحافيين العرب . وانتخب رضوان بالاجماع في جولة الاقتراع الاولى ، ومباشرة شرع في تحويل الجمعية الى نظير لنادي الصحافة الوطنية في واشنطن دي. سي. فقد هدف الى اعطاء المراسلين الفلسطينيين الحقوق والامتيازات نفسها التي يتمتع بها الصحافيون الموجودون في الولايات المتحدة الامريكية حيث حرية الصحافة محمية ومصونة بموجب الدستور. كان ذلك الهدف هدفا طموحا ، وبخاصة ، ان وزير الداخلية الاسرائيلي رفض بشكل مبدئي منح الاتحاد اجازة لاعتماد مراسلين أجانب .

لكن رضوانا كان عاقد العزم . ففي عام ١٩٨٦ ـ من خلال دوره الجديد كرئيس لنادي الصحافة ـ سافر الى أمريكا ، حيث قضى شهرا كضيف على وكالة المعلومات الامريكية ، ذراع حكومة الولايات المتحدة وسلاحها . زار مدينة نيويورك ، وواشنطن دي. سي. وميامي ، ومواقع عدة في نبراسكا ، وسان فرانسيسكو ، مطلعا على الكثير من جوانب الاعلام الامريكي ، وبخاصة قوة التلفزيون . وقد أحبّ تلك البلاد . غير ان اكثر ما جعله يُشعر بالصدمة هو كَم من القليل يعرف أولئك الناس أو يهتمون بقضية شعبه ، اذ يقول : «انهم يهتمون بآخر أغاني مادونا ، ويهتمون بمباريات كرة القدم ، وبقمحهم . لكن أحداً منهم ـ

باستثناء قلة قليلة من الناس - لا يهتم بالشرق الاوسط» .

ومع بدء السنة الثانية لرئاسته ، كان رضوان يزداد قوة اكثر فاكثر ، اذ أصبح رئيس لجنة التنسيق الفلسطينية للمنظمات غير الحكومية التابعة لمنظمة الامم المتحدة ، والتي تمثل المؤسسات المحلية كلها في الضفة الغربية في تلك الهيئة الدولية . ويقول رضوان : «ليست لدينا حكومة ، ولذلك فانني المسؤول عن ذلك . انها سلطة ضخمة» . وأصبح نشطا في مجال زيادة الاموال الخاصة بدعم رفاه السجناء الذين أدينوا بالارهاب ؛ ونظم اضراب جمعية المدرسين ضد الادارة المدنية بل انه ساعد على تأسيس فرقة مسرحية عملت - وفق ما يقوله الاسرائيليون - على تمثيل مسرحيات اعلامية تحرض على استخدام العنف .

وفيما بعد ، في عام ١٩٨٧ ، وجهت اتهامات الى معلّمه الخاص ، اكرم هنية ، بانه حلقة الوصل الرئيسة مع م. ت. ف. في تونس ، وتم ابعاده من المناطق المحتلة إثر ذلك . كما تم الحكم بالسجن علي ابن الداخل المؤيد لمنظمة فتح : فيصل الحسيني. وقد خلق ذلك الأمر فجوة في قيادة م. ت. ف. في الضفة الغربية وغزة . ويقول الاسرائيليون ان رضوانا - الذي نظر اليه في ذلك الوقت على انه في أعلى التسلسل الهرمي للسلطة - تقدم لملء الفراغ . وقد تضمنت واجباته نقل الاموال من تونس وأوروبا الى المناطق المحتلة ، وتشجيع الشبيبة على التظاهر والاحتجاج ضد الاحتلال بمختلف الوسائل المتاحة لهم .

في يوم الثلاثاء الواقع في ٧/ ١٢/ ١٩٨٧ عشية الانتفاضة ، القي القبض على رضوان أبي عياش في منزله في رام الله . وقد أبقي قيد التوقيف الاداري خلال الشهور الستة التالية ، وطالب وزير الاسكان الاسرائيلي أرئيل شارون بابعاده من المناطق المحتلة . ونقلت صحيفة الجيروزاليم بوست عن مصادر عسكرية اسرائيلية قولها ان ذلك الفلسطيني البالغ من العمر سبعة وثلاثين عاما كان «نشطا فتحاويا على مستوى عال في الضفة الغربية والقدس» وانه كانت لديه اتصالات مكثفة مع نشطاء م. ت. ف. في المنطقة وفي الخارج . وقال المصدر للصحيفة ان نشاطاته اشتملت على «تلقي التعليمات والأموال من أجل تعزيز هدف المنظمة المتمثل في خلخلة النظام العام» .

أودع رضــوان في ســجن جنيـد ـ السجن المركزي للضفة الغربية ـ في نابلس ، ويقـول : «انه فندق خمسة نجوم بالمقارنة مع سجن انصار ٣ في منطقة النقب» . ومع كـون الســجن يقع على مـسافة ميل أو ميلين من مخيم اللاجئين الذي قضى طفولته فيه ، فان الشهور الستة التالية تحولت الى عودة روحية الى الوطن بالنسبة الى هذا النشط الفلسطيني الشـاب . ويضـيف رضـوان عن حـيـاة السجن : «كان مجتمعنا منظما جدا ، واذا قارنته مع الخارج ، ستجد انك في مدرسة حقيقية للفكر انها مـدرسة الثورة ، ومدرسة الروح ، ومدرسة الأمل ... لقد قرأنا الكثير ودرسنا الكثير ، فـالناس الذين أرادوا تعلّم اللغـة الانكليـزية أو العبرية أو الفيزياء ، وجدوا أحـد السـجناء ليدرّسـهم . وكـانت لدينا جلسـات حـوار سياسي في الليل . كانت الاتصـالات ممتـازة . فـاذا أردت الاعـلان عن شيء مـا ، عليك ان تضـعه في علبة سـجـائر ـ يا الهي ، فقد كانت السجائر شيئا رهيبا ـ ومن ثم تمررها من زنزانة لأخرى ، ثم من جناح لآخر ، ثم تنقل بواسطة العمال من فناء لآخر . وخلا خمس دقائق فقط ، كان باستطاعة السجن كله أن يعرف ما تريد . لقد كتبت اغنية طويلة عن الحـراس الذين يراقبوننا وعن حياتنا تحت الشمس . وخلال بضعة أيام ، كان كل شخص في السجن يعرف الكلمات ، وكانوا يغنونها طوال الوقت» .

ويتـحـدث رضـوان عن المعـاملة التي تلقاها من سلطات السجن ، فيقول : «في وقت مـا ، أخذوني الى القاضي العسكري ، واتهموني بانني نشط على مستوى عال في م. ت. ف. كان لديهم دليل موجود فيما يسمونه بالملف السري ـ قصاصات من ورق ، كـتابات ، تسجيلات لاجتماعاتي مع الناس ، البيانات العامة التي أصدرتها عن أشـيـاء مـثل الحـرب العـراقـيـة الايرانيـة ـ لكنهم لم يسمحوا لي ولا لمحاميّ بالاطلاع عليـه . وقلت للقاضي : [اسمع ، بحق الله أخبرني ما تهمتي ؟ ان تخبرني عن التـهـمـة فانني سأقبل بالعقوبة ، وعندما أخرج سأكون حمائميا جداً . ولكن دعني اعـرف التـهـمـة فقط] ولكنه قال [لا أستطيع إخبارك ... انها هذا سر] ولم يدينوني . وبعـد سـتة شهور حضروا إلـيّ ذات ليلة ، وجال في خاطري انه سيتم إبعـادي . أخـرجـوني من الزنزانة ، وكـان كل فرد يهتف . لم أعرف الى أين كنت ذاهبا أو ما الذي سيحدث ، ثم قالوا لي أنني أصبحت حراً]» .

مع حلول شهر أيار ١٩٨٨ ـ حينما اطلق سراح رضوان ـ كانت الانتفاضة قد استجمعت قوة دافعة ، وكانت توقع خسائر فادحة في أرواح الفلسطينيين . وفي الوقت ذاته ، كانت شبكات التلفزة ، والصحف ، والمجلات الاجنبية قد اكتشفت القصة ، وبدأت تتدفق مع مراسليها على الضفة العربية وقطاع غزة ، وبخاصة من الولايات المتحدة واوروبا . اما اجهزة الرقابة العسكرية الاسرائيلية الصارمة فقد وقفت محبطة ؛ اذ مع اختراع الاطباق اللاقطة ، وكاميرات الفيديو المحمولة ، فان ثورة «معاصرة حقيقية» حدثت في الوقت نفسه الذي اندلعت فيه الانتفاضة تقريبا. فالقصة اليومية لرشق الحجارة ، والعدد المتزايد للقتلى والجرحى في اعقاب ذلك ، أصبح يبث الآن على الهواء مباشرة وبشكل فعلي في مختلف أنحاء العالم ، في حين ان الحكومة الاسرائيلية كانت تقف عاجزة عن الحيلولة دون ذلك .

وباستئنافه لمنصبه في النادي الصحافي ، سعى رضوان الى تحويل النادي إلى أداة للانتفاضة . فقد حصل على بطاقات صحفية من الاتحاد الدولي للصحافيين في براغ للعضوية الكاملة ، والتي تضاعفت الى ما يزيد على اكثر من ثلاثمائة عضوية ، وبدأ يطلب بان يصبح المراسلون الاجانب معتمدين من قبل اتحاد الصحافيين العرب قبل ان يتمكنوا من بدء العمل في المناطق . وقد كان ذلك اهانة مباشرة للاسرائيليين الذين يحكمون الضفة الغربية وغزة . ورفع وزير الشرطة الاسرائيلي حاييم بار ليف دعوى ضد الاتحاد ، ويقول رضوان : «كان يعتقد اننا كنا نؤسس وزارة اعلام لنا مثل الاسرائيليين ، مثل بيت آغرون ... لقد هددوا باحالتي الى المحكمة ، ولكنني تحديتهم ، وقلت لهم ان لديّ ترخيصا من وزير الداخلية ، وان أحداً لا يستطيع إجباري بما يجب ان أفعله أو لا أفعله» . وفي نهاية المطاف أسقط بار ليف الدعوى .

متشجعا بتحفظه الناجح ضد الاسرائيليين ، حوّل رضوان النادي الى ما يعترف بانه «الجهاز السياسي الحقيقي» . ووجه الدعوة الى مجموعة من الاجانب أصحاب المقامات الرفيعة لالقاء محاضرات في النادي ، عاملا على رفع صورته العامة وأهميته كرئيس . كان احد الدبلوماسيين الذين حضروا الى النادي وزير خارجية هولندا هانس فان دين بروك . وقد فاوض رضوانٌ على قضية تبادل برامج مع دول في اوروبا الشرقية ، ومؤتمرات صحفية منتظمة مبرمجة لوسائل الاعلام

الاجنبية ، بل انه أقنع الحكومة الايطالية برعاية برنامج مدته ثلاثة شهور لتدريب اثني عشر فلسطينيا في مجال الانتاج التلفزيوني ، كما اقنع التلفزيون النرويجي باستضافة ثلاثة مصورين للاقامة عندهم . كذلك ، تمكن من اقناع حزب الخضر الالماني والاتحاد الدولي للصحافيين بالتبرع بمختبرات تصوير باهظة الكلفة ، بلغت قيمة أحدها ثمانية آلاف دولار . ويقول رضوان مفتخرا : «كنت أحاكي نادي الصحافة الوطني في واشنطن» .

لكن النشاط الاكثر أهمية على جدول الأعمال الجديد للنادي كان ذلك النشاط الذي قاده رضوان بنفسه : التأكد من ان طواقم التلفزة الأجنبية موجودون في الموقع الصحيح في المدن والقرى النائية قبل ان تقع حوادث رشق الجنود الاسرائيليين بالحجارة . ان مثل هذا الأمر يتطلب تنسيقا دقيقا وحذراً مع القيادة الوطنية الموحدة التي تدير الانتفاضة وتوجهها ، وآلية منتظمة لتنبيه طواقم الكاميرات والتأكد من انهم في الموقع الصحيح عند الوقت الملائم . وكان ذلك كله يتطلب القيام به من وراء ظهر الاسرائيليين ، وفيما عدا ذلك ، فان رضوانا سوف يقبع مرة أخرى خلف القضبان ، اذ يقول : «لقد وجدت ان الحركة الصهيونية فعلت الكثير من خلال وسائط الاعلام ، وشعرت ـ ضمن حدود قدراتي ـ ان باستطاعتي عمل شيء ما . ففي أعماق شعوري ، أردت محاكاتهم ... لانني أومن بالكلمة ، وأومن بالصورة ، وأومن بالصورة الحية ، وأومن بالقولبة» .

وفي أعلى سلم أولوياته ، كانت هناك قضية فضح الخروقات الاسرائيلية لحقوق الانسان ، والتي كانت تحدث بعيدا عن عدسات الكاميرات . كان رضوان مدركا ان ما يقوم به يشبه لجنة عمل سياسي اكثر من كونه ناديا صحافيا . ولكنه يقول : «ان الوصول الى مسافة من الجنود الاسرائيليين المسلحين جيدا بملابس مكافحة الشغب ، وبخوذهم وبمقدماتها البلاستيكية التي تسحب لتغطية وجوههم ، وباطلاق النار على الشباب الفلسطينيين راشقي الحجارة ، كان ذلك ما تريده تلك الشبكات . وحينما لا تتمكن طواقم التصوير الأجنبية من الوصول الى أحدث مواقع رشق الحجارة فعندذاك تكون مسؤولية النادي ان يقوم بتسجيل الحادثة على شريط فيديو ، ومن ثم تزويد وسائل الاعلام الاجنبية بها» . ويقول رضوان : «كان ذلك هو المفتاح ، ومن أجل القيام بذلك كنت بحاجة الى صحافيين شجعانا ،

فـان لم تتـمكن الصـحـافة الاجنبية من الوصول الى القرية ، لماذا لا تصل القرية نفسها الى التلفزيون من خلال مصورين فلسطينيين ؟» .

ويعترف رضوان ان اتحاد الصحافيين العرب أصبح قوياً جداً ، وتطور الى نوع من الحـزب السـيـاسي الموالي لفتح ، من خلاله وبتوجيهاته . ويوضح ذلك قائلا : «لم يُنظر اليـه من خلال عدد الاعضاء مثلما يُنظر الى اتحاد العمال ، ولكن كجهاز سـيـاسي . لقد كان مجموعة المظلة الاكثر أهمية للعمل السياسي في المناطق المحتلة ، ولذلك قلت يجب ان يكون رئيس هذا الاتحـاد سـيـاسياً» . وفي شهر آب من عام ١٩٨٧ ـ وبمـوجب النظام الداخلي ـ وُجهت الدعوة لانتخاب رئيس جديد للاتحاد، وقـررت الهيئة الادارية ان اجـواء الانتـفـاضة تجعل من الخطورة الشديدة بمكان اجـتماع الهيئة العـامـة كلهـا ، فطلبت من رضـوان البـقـاء سنتين أخريين رئيسا للاتحاد ، فوافق على ذلك بسرور .

وعلى نحـو مماثل ـ عند انتهاء مدة رئاسته الثانية ـ في عام ١٩٨٩ «لم نستطع جمع الصـحـافيين كلهم» فطلب الى رضوان مرة أخرى البقاء كرئيس للاتحاد لمدة سنة أخـرى . ومع هذا ، وفي ذلك الوقت ، بدأ بعض الناس بالتـذمـر من انه اخذ يصـبـح قويا جدا . كانوا يُكرِهونه على سماع وتذكر ان من المخالف للنظام الداخلي بالنسـبـة الى أي شـخـص ان يبقى رئيسا للاتحاد لمدة تزيد على فترة واحدة وكحد أقـصى لفترتين مـتـتـاليتين . وكانوا يقولون : «حسنا ، بسبب الانتفاضة منحناك خمس سنوات» ولكن حـان الوقت الآن لتترجل . وبالطبع ، فان ذلك كان آخر شيء يفكر فـيه رضوان ، اذ يقول : «اخبرتهم ان هناك نوعين من الرجال : نوع الرجال الذين يبنون المؤسـسـات ونوع الرجال الذين تبنيهم المؤسسات ، وانني من النوع الاول . عـلاوة على ذلك ، فليس لأحـد الحق في ان يقـول لي ان المؤسـسـة هي التي جعلتني نشطا» .

ويقـول رضوان انه مع جنوح الانتفاضة نحو الهدوء ، فانه خطط لدعوة الهيئة العـمومية للانعقاد من أجل إجراء انتخابات في خريف عام ١٩٩٠ ـ ويقسم انه لم تكن لديه أي نيـه لخـوض الانتـخابات ـ لكن شيئا آخر تَدَخَّلَ : الحرب في الخليج العـربي . فـفي ذلك اليوم من ايام شـهـر آب حـينما غـزا العراق الكويت ، ابتهج الفلسطينيـون في الضـفـة الغـربية لما قام به صدام حسين . في البداية ، تسامحت

اسرائيل تجـاه مشايعتهم له ، ولكن حينما بدأ الفلسطينيون بالوقوف فوق سطوح منازلهم مـبـتـهـجين بالزعيم العراقي ، بدأت السلطات الاسرائيلية باتخاذ اجراءات صارمة .

وفي رأس قـائمـة مثيري المشاكل المزعومين ـ كان هناك ـ رضوان ابي عياش ، الذي اعتقل في شهر تشرين الثاني ١٩٩٠ ، واودع مـدة خمسة شهور قيد التوقيف الاداري ، في زنـزانـة واحـدة مـع الـصـحـافي الـفلسطيني زياد ابي زياد . وقـال الاسرائيليـون : «انه يهدد الأمن والسـلامـة العامين للدولة» ولكن ، وبشكل سري ، حـذرته الشين بيت من انه اذا لم يتوقف عن تشجيع حملة كتابة الرسائل الدولية باسـمـه ، فـانهم سـوف يلقـون بالمسؤولية عليه . ويقول ان الاسرائيليين حذروه قـائلين : «نحن على استعداد للجوء الى القضاء حيث سنقدم لك الدليل بانك رئيس قـيـادة الانتـفـاضـة ، وانك تقـدم الامـوال الى النشطاء الذين هم جزء من القيادة الوطنية الموحدة» . لم يكن التهديد فارغا ، والعقوبة الصارمة كانت مؤكدة .

تلقى رضـوان صـدمة قاسية حينما كان في السجن . فغمغمات السخط المتعلقة بمـعـارضـتـه المسـتـمرة لتحديد موعد لاجراء انتخابات اتحاد الصحافيين العرب تحـولت الى مطالبـة علنيـة باسـتقالته . وعلى الرغم من ان حفنة صغيرة فقط من قـيـادة الاتحـاد كانت متورطة في تلك القضية ، الا انه كان من الواضح ان الحملة تلك نُظمت على يد عناصر اكـثـر قـوة في فـتح ، وكانوا يعملون سرا لخلعه . ويقول رضـوان : ان ثلاثة أو أربعـة اشخاص «يمثلون شخصا ما له سلطة فعلية» نظموا اجتماعا ضم نحو عشرين صحافيا ، وقرروا تحديد موعد لاجراء الانتخابات خلال وجـود رضـوان في سـجن جنيـد . ويقـول : «ارسلوا لي رسـالة بواسطة المحامي يطلبـون مني ابداء رأيي» . وجـاء في رسـالتهم ان القرار الأخير سيكون عائداً له . ويعترف رضـوان : «لقـد آلمني ذلك ... وكنت غـاضـبـا» . وأوعـز الى محاميه بان يجيبـهم بان يمضوا قدما وان يجروا الانتخابات وقتما يشاؤون ، مشيرا بسخرية واضـحـة الى ان «ثمـة شـخـصـا في السجن وان كل ما تستطيعون التفكير فيه هو اعادة ترتيب الكراسي !» . وقد جعلهم ذلك يشعرون بالخجل ، الامر الذي أدى بهم في نهاية المطاف الى التراجع .

وفي ١٢/٥/١٩٩١ اطلق سراح رضـوان . وقـد أحجم رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق شامير متعمدا عن اطلاق سراحه الا بعد ان يكمل وزير الخارجية الامريكي جيمس أ. بيكر ـ خلال زيارته الثالثة الى القدس ـ محادثاته مع زعماء فلسطينيين ويغـادر المنطقـة . ومع هذا «فـقد كان حدثا كبيرا حينما خرجت من السجن» كما يستـذكـر رضـوان لأن المؤسسات الصحفية أرادت معرفة رد فعله على محادثات بيكر مع الوفـد الذي كـان يترأسـه الحسيني . ويستذكر رضوان «قلت انني أؤيد فيصلا» حتى ولو انه كان يملك كل حافز للتصرف بطريقة أخرى .

وفي الواقع ، فـان رضوانا عقد مؤتمرا صحافيا مشتركا مع فيصل الحسيني في منزله في رام الله . وقـد أدرك انه اذا ظهـر ضـد المحـادثات «فـان أناسـاً كـثيرين سيؤيدونني . كنت سأحصل على شعبية اكثر لدى الشارع . لكن ذلك لم يكن أمراً معـقـولا ... وقلت [دعهم يمضون قدما ويجتمعون ، لان ذلك هو السبيل الوحيد لحل المشكلة]» بل انه ذهب خطوة أبعـد من ذلك : «قلت يجب ان نبـحث في قضية الفترة الانتـقـاليـة ، أي فترة انتـقـاليـة من شأنها ان توصلنا الى دولة فلسطينية مسـتـقلة» . وأرسلت وكـالة الانبـاء الفـرنسية اشارة الى مندوبيها ، وخلال فترة قصيرة كان هاتفه يرن .

ومن بين المكالمات التي وردته ، كانت هناك عدة مكالمات من قيادة م. ت. ف. في تونس ، تريد مـعـرفة السبب الذي يقف وراء مثل هذا البيان التوفيقي . ويستذكر رضـوان : «كـان الأمـر وكأنني أحـدثت زلزالا» . ويوضـح : «لكنني أومن بموقف ديفـيـد بن غوريون ... بوصة اثر أخرى ، ومهاجرا بعد آخر ، وشيئا فشيئا يمكن ان يتم الأمـر ... من الاهمية بمكان ان تكون على الطاولة للبحث في المحتويات التي وضعت على الطاولة . ليس من المهم التحدث عن شعارات كبيرة ونحن خارج اطار الطاولة ، المهم هو ان نكون مـشتركين في شيء مـا وان نتـحدث عن التفاصيل . ان الاسرائيليين يسـمـونه الحكم الذاتي ، ونحن نسـمـيـه فترة انتقالية . لست مهتما بالتعابير ، ولكنني أهتم بالظروف التي ستنفذ هذه الاشياء خلالها» .

وحـال اطلاق سراحـه من السـجن ، بدأت رحى الشائعات تدور مرة ثانية لتنزّ قـصـصـا عن اسلوب حـيـاة رضوان التبذيري ، متهمة اياه بادارة الاتحاد وكأنه اقطاعـيـة خـاصة به . يقول رضوان : «كانوا يقولون [رضوان فردي ، فهو يفعل

كل مـا يريده ، شهرته سببها الاتحاد فقط ، انه يسيّسنا ، وهو لا يعطينا أي وقت لمهنتنا] كل هذه الاعـذار والمبررات» . ويعـتقد رضوان ان هؤلاء الذين قادوا الحملة ضـده قـد ظنوا انه أصبح ضـعيفا جدا ، وبالتالي فانه يعرض للخطر هيمنتهم في فـتح : «قـالوا لأنفسـهم [دعـونا نستقصي الأمر . ان اتحاد الصحافيين واحد من أدواته القـوية] فـباستطاعتي الظهور امام كل شخص تحت هذه المظلة ، والتحدث بالطريقـة التي أرغب فـيـها [لا نستطيع ان نعطيه سلطة قوية جدا لانه سيكشف طريقـة عـملنا . وعلاوة على ذلك : لماذا يتوجب علينا ذلك ؟] . انهم يعرفون ان لي جـذورا قـوية . هذه هي قوتي . انني أتحدث عن الشارع ، عن الناس في الشارع . ولذلك قالوا [دعونا نجري انتخابات]» .

وتم ترشـيح ثلاثة لخـلافـة رضـوان : حـاتم عـبد القادر نائب رئيس تحرير صـحـيـفـة الفـجـر ، وراضي الجراعي من صحيفة الفجر ايضا ، ونعيم الطوباسي مـراسل سـابق في صـحيفة الشعب . ويسخر رضوان قائلا : «نعيم ليس صحافيا في الواقع ، فـقـد اعـتاد بيع الصحف في الشارع وصنع القهوة لاكرم هنية» . وكل واحـد من هؤلاء الثـلاثة له مـؤيدوه في الداخل والخـارج : فـيصل الحسيني يدعم حـاتم عـبد القـادر ، واكـرم هنيـة يدعم نعيم الطوباسي ، وجبريل رجوب ـ احد المبـعدين ـ وهو مشهور ، ومساعد عرفات ـ يدعم راضي الجراعي . وحتى ابراهيم قـراعين ـ رئيس رضـوان السـابق في مـركـز الخـدمـات الصـحفية الفلسطيني ـ وزوجـتـه ريـمـوندا الطويل كـان لهم دورهم . يقـول رضـوان : «رأيت خمسـة أشـخـاص يتقاتلون على لا شيء ... كل شخص كان يريد السيطرة على الاتحاد من خـلال دفع مـرشحه . وقلت [حسنا ، انها كعكة . صحتين ! خذوها ! تمتعوا بها ! انني مستقيل !]» .

وقـام مؤيدوه بالتوقيع على عريضة لاقناعة بتغيير رأيه ، وجمعوا تواقيع كافية لمطالبـتـه بخـوض الانتـخـابات ، ووعـدوا بان يعـاد انتخابه باغلبية كبيرة ، لكن رضـوانا أراد إمـا ان يتم اختـيـاره بالاجماع او انه لن يخوض الانتـخـابات على الاطلاق . ويوضح قـائلا : «لم اوافق على ذلك لانني أردت كل واحد من جمهوري ان يقـول نعم ... بامكاني دخول معركة ضد الفصائل الأخرى ولكن ليس في داخل

مجموعتي (فتح) لان ذلك يعني ان داخل قبيلتي بعض المعارضين . انني لا أتحدث عن وزارة المطبخ ... انني اتكلم عن الحمّام» .

وفي ١/٨/١٩٩١ اجريت انتخابات لاختيار رئيس جديد لاتحاد الصحافيين العرب ، وانتخب نعيم الطوباسي رئيسا من خلال التصويت التهليلي . وبعد الاعلان عن النتائج ، اعطيت لرضوان الفرصة للحديث ، فقرأ التقرير المالي ، ثم أخرج من جيبه ورقتين : الاولى ، وكانت العريضة التي وقعتها غالبية الاعضاء ، والتي يطلبون منه فيها البقاء في منصبه . والثانية رسالة من ياسر عرفات . كان رضوان قد اجرى اتصالا مع عرفات بعد مرور فترة قصيرة على اطلاق سراحه من السجن وحينما تلقى الاجابة أخفاها . والآن ، فانه قدم الرسالة المكتوبة بخط اليد : «وعرضت الرسالة على المجموعة ، على [عصابة المائة !] لقد جاء في رسالة عرفات [يجب ان تُنتخب مرة ثانية] . كان كل واحد منهم في حالة صمت» . فلماذا لم يكشف عن وجود الرسالة في وقت مبكر ؟ ويجيب رضوان قائلا : «أردت اثبات شيء ما ، وهو : لو انني كنت أريد الرئاسة لكان باستطاعتي الحصول عليها ولو أنني خضت الانتخابات لكنت سأكسب . لكنني شخص ديمقراطي . أردت ان أثبت ان باستطاعتنا بناء مؤسسة» .

ومع هذا ، فان لدى رضوان مفاجأة في جعبته . فعلى الرغم من تأييده الشفوي لعملية السلام ، الا انه لم يطلب ان يكون عضوا في الوفد الفلسطيني المفاوض الذي يرئسه حيدر عبد الشافي ، أو في لجنة التوجيه التي يرئسها فيصل الحسيني. ان التجاهل كان مثيرا للسخط لان رضوانا ، على العكس من الفلسطينيين الآخرين الذين هم من القدس ، كان من نابلس . ولذلك فانه كان مرغوبا فيه ـ بموجب القواعد الاساسية التي اتفقت عليها الولايات المتحدة مع اسرائيل ـ ليكون عضوا في الوفد الذي سيجلس على الطاولة امام الوفد الاسرائيلي . ويقول رضوان: ان الفلسطينيين الثلاثة الذين نسّبوا لعرفات «أسماء الناس الذين يرغبون في العمل معهم» هم اكرم هنية ، وفيصل الحسيني ، ونبيل شعث .

كذلك تم تجاهل رضوان ايضا حينما تم تشكيل الوفد الفلسطيني للمحادثات متعددة الاطراف مع اسرائيل . وهو يشعر انه كان سيكون مفيدا جدا للمحادثات

المتعلقة «بحق العودة» لفلسطينيي الشتات التي عقدت في أوتاوا في أواخر ربيع سنة ١٩٩٢ . ومع ذلك ، فانه لاجيء ويحظى بتأييد واسع بين الفقراء . ويقول : «حينما يتحدثون عن المخيمات ، فانني الشخص المناسب لذلك ... لقد عملت كثيرا في القطاع العام . وعملت في الشبيبة ، وانا الذي بنيت تلك المجموعات . أُبقي ابوابا مفتوحة لحل مشاكلهم ، ولدي اتصالات دقيقة جدا مع القيادة ، ولا أنحاز لأحد».

ربما بسبب علاقاته الوثيقة مع م. ت. ف. أو بسبب ان فلسطينيي «الداخل» أرادوا ان يبقوا انفسهم بعيدين الى حدّ ما عن القياديين الموجودين في تونس ، سمي رضوان لرئاسة دائرة ثالثة ، وهي مجموعة من الناس المعروفين بمساواتهم لمنظمة التحرير الفلسطينية . ويقول رضوان ان الاربعة عشر شخصا في هذه «اللجنة الاستشارية» أُعطوا هذا اللقب للعمل «كنوع من دبابة التفكير : فباستطاعتهم تقديم توصية ولكنهم لا يستطيعون اعطاء أوامر» . ان المجموعات الثلاث كلها ـ الوفد المفاوض ، لجنة التوجيه ، واللجنة الاستشارية ـ تقدم تقاريرها الى ياسر عرفات . ويقول رضوان : «هناك ايضا اجتماعات مشتركة منتظمة بين (الداخل) و (الخارج) من أجل اتخاذ القرارات . أمام ياسر عرفات ، الجميع متساوون» .

وهو يرفض مناقشة ما يمكن ان يكون حوافز محتملة لأي شخص من أجل احباطه عن العمل . ومع هذا ، فان ما هو مفهوم ضمنا هو ان استبعاده من الوفد المفاوض ، وتجريده من رئاسة نادي الصحافيين لهما جذورهما في الصراع الطبقي. يقول رضوان : «هناك طبقتان في مجتمعنا» . ان فيصلا الحسيني يمثل النخبة ، حلقة الوصل بين الماضي من خلال والده عبد القادر ـ بطل حرب ١٩٤٨ ـ وبين جذور الوطنية الفلسطينية من خلال عمه الحاج أمين . ويؤكد رضوان من ناحية أخرى انه لم يقطع الاتصال أبدا مع الفلسطينيين العاديين : «لدي روابط مع أهل المخيمات ، مع المقاتلين ، مع الفقراء ، مع اولئك الذين لديهم آمال كبيرة وتوقعات كبيرة . يمكنني الذهاب الى أي مكان ، ويمكنني التحدث مع أي شخص».

لقد تقرب بحياته كلها الى الشعب الفلسطيني . ويستذكر رضوان انه حينما كان في التاسعة عشرة من عمره ، كان طلبته في كلية تدريب المعلمين في رام الله مثل

أخوته : «اعتدت الحضور مبكراً في الصباح من أجل أن أعطي دروسا إضافية وللعب كرة القدم معهم . وقد زرتهم في المخيمات ، واعتدت النوم عندهم . كنا نخرج ونتحدث تحت الأشجار . واستمعت الى كل شاب أو شابة وحاولت أن أحلّ مشاكلهم ... لقد نُظر إليّ على أنني أب روحي : الايديولوجي يحاول تحقيق أهدافهم» . ومثل أي سياسي جيد ، فانه حصل على مشاريع الاونروا من أجلهم ، واقنع دول السوق المشتركة في اوروبا من أجل تقديم تحسينات بما في ذلك انظمة مجاري حديثة للمخيمات .

واليوم ، يعتقد رضوان ان هذه المجموعة نفسها هي مصدر غير متماسك ، وان منظمة فتح اذا لم تنصت لاحتياجاتهم ، فان م. ت. ف. ستخسر المعركة أمام الاصوليين الاسلاميين . ويقول انه يقضي الليالي بدون نوم وهو يسأل نفسه المرة تلو الأخرى لماذا حققت حماس مثل ذلك الفوز في انتخابات غرفة تجارة رام الله ، في المدينة المسيحية : «ان الناقوس قرع في رأسي» . ويسأل نفسه : «لماذا يتوجب على شخص ما ان يؤيدني لاني فقط م. ت. ف. ؟» . ان العديد من الناس يظنون ان م. ت. ف. منظمة فاسدة لاننا «لم نثبت ان لدينا القدرة على القيام بأي شيء على الارض» لتحسين ظروف حياتهم . ويقول رضوان : «الناسُ عبيدُ حاجاتهم ، فاذا استطعنا تلبية هذه الاحتياجات فمن المحتمل ان ينضموا الينا» .

ويقول : بعد الانتصار الذي حققته حماس ، أدرك انّ عليه «الاشتراك مع الجماعة التي تقيم مآدب كبيرة للفقراء ، والتي تعطي أحاديث طيبة في المساجد كل يوم جمعة ، الجماعة التي توصلني الى الله في قطار سريع!» . ولذلك ، في ١٩/٦/١٩٩٢ دعا رضوان الى عقد اجتماع عام في الكلية الابراهيمية ، الواقعة أمام منزل فيصل الحسيني على جبل الزيتون في القدس . وهناك ، أعلن عن اقامة منظمة جديدة هي جمعية التوحيد الفلسطينية . وبالطبع ، اعلن رضوان نفسه رئيسا . ووجه الدعوة الى الهيئات الدبلوماسية الاجنبية ، ووسائل الاعلام للحضور ، وعيّن شخصيات من ضمنها فيصل الحسيني وسري نسيبة في هيئة الأمانة . وقد حضر الى الاجتماع ما يزيد على ثمانمائة شخص ، حتى ان الشرطة الاسرائيلية عملت على محاصرة الكلية ، وأعادت باصين مليئين بالفلسطينيين القادمين من الخليل ونابلس .

ويوضح رضوان ان هدف هذه المجموعة الجديدة هو اقامة روابط بين اولئك الذين يشكلون الطيف السياسي من أجل مساعدة الفقراء . ويقول ان هذا كان هو الهدف الأصلي للشبيبة قبل ان يقوم الاسرائيليون بحظرها . ويوضح «ان ذلك كان شللا لنا ... اعتقدنا ان باستطاعتنا القيام بذلك بطريقة اكثر تحضرا واحترافا ؛ وانه [اذا اجتمعنا مع بعضنا ، فانه يمكنني ان لا أتفق مع السيد س في موقفه السياسي ، ولكنني اوافق على العمل معه لحل مشكلة اجتماعية]» .

وتمت تسمية ثلاثة وعشرين شخصا لادارة مختلف المجالات ، بما في ذلك : الصحة ، التعليم ، العمل الخيري ، الصحافة ، الهندسة ، وحتى الدين . وطلب الى الاطباء تخصيص يوم واحد في الاسبوع للعناية باولئك الذين هم في المخيمات ، وطلب الى المدرّسين التبرع باعطاء دروس ، والى المهندسين المساعدة في بناء الشوارع ، والى الصحافيين كتابة مقالات عن أهمية عملية السلام ، والى الاغنياء اقامة لجان خيرية لتقديم الاموال الى من هم اقل ثراء. ويقول رضوان : «قمت بتسمية شيوخ ، وتجار ، ورجال دين ، ومقاتلين ، ووطنيين ، ومستقلين ... معتمدا بشكل رئيس على اولئك الذين يمكن ان يكونوا مؤيدي حماس في الغد قبل ان يصبحوا من مؤيديها» .

إن الاعتراف والاقرار بوجود فروقات طبقية هو الذي جعل من هذا الأمر ممكنا «نحن مجتمع قبلي سواء أكانت هناك ثورة أم لا . لقد أدخلنا القبلية الى السياسة ولذلك قلت : [حسنا ، هناك مكان للمتدينين ، يمكنك ان تخدم الفقراء ، وهناك مكان للتجار في مجال العمل الاجتماعي : ان أقوم بتنظيف الشوارع ، وان يراني عشرة آلاف شخص ، فانني اقدم بذلك مثالاً لسلوك المواطن الحقيقي]» . ويقول ان السياسة ليست هي حافزه الوحيد : «انني لا أطلب منك ان تصبح نشطا سياسيا ، ولكنني اطلب منك القيام بعملك . ان الناس متحمسون لهذا الأمر لاننا لا نطلب منهم أي شيء خارج حدود قدراتهم» .

ومع ذلك ، فان رضوانا لا يحاول اخفاء حقيقة ان هذا التحالف الجديد الواسع يساعده على استعادة سلطته وقوته في الضفة الغربية ، اذ يقول : «لقد كتب شخص ما الى عرفات بان هذا التحالف حزب سياسي ، وانه يحصل على دعم من

العربية السعودية وانه معارض لعملية السلام» . ووجه آخرون اتهامات مفادها ان هذا هو رد رضوان على استبعاده من الوفد المفاوض لاسرائيل ، وهذا هو بديله للمجموعة الرسمية التي يقودها الحسيني . ويعلن رضوان : أن لا شيء من هذه الاتهامات صحيح ، ويقول : «لا أخفي ان هناك هدفا سياسيا وراء هذا ... انه تقوية وضع م. ت. ف. في المناطق المحتلة . انني أحاول الرد على حماس ، وتحديهم على الارض ، ومنع حماس من الوصول الى هناك قبلنا وقبل أن نوحّد الناس» .

ويعترف رضوان انه ما يزال يشعر بالمرارة نتيجة تجاهله : «ليس لي دور في الوفد . ليس لي أن أقرر شيئا في الوفد . هذا امر رائع ... ولكن لنا دورا آخر للقيام به على الصعيد الداخلي . فاذا تمكن الوفد من اقامة دولة غدا ، فكيف يمكننا بناء الدولة هذه إنْ لم تكن لدينا بنية تحتية اجتماعية ؟ سأقول لك الحقيقة : ان اولئك الذين يحصلون على شرعيتهم من القيادة بدون حصولهم على شرعيتهم من القاعدة سوف يفشلون . ولكن اولئك الذين يحصلون على شرعيتهم من القاعدة ومن القيادة سوف ينجحون» .

لكن ما لم يُقل ، بالطبع ، هو ان رضوانا اكتشف طريقة للمقاومة . فهو يتوقع ان تزداد العضوية بشكل مضطرد في المنظمة الجديدة : «عشرة آلاف مواطن ليست نكتة ! سيصبحون خمسين الفا ... اذا تصرفنا بهدوء ، وبحذر ، وبذكاء ، وباسلوب منهجي . ان افضل رد على حماس هو اتباع تعاليمها» . ويوضح أوري نير من صحيفة هآرتس : «انه اسلوب لضرب حماس في ملعب حماس بالادوات نفسها التي تستخدمها» .

ويضع رضوان بنفسه فلسفته موضع التطبيق العملي . فبعد عودته من مؤتمر مدريد ، حيث رافق الوفد الفلسطيني ولكن بدون ان يشارك في المفاوضات ، ارتحل الى القرى النائية في الضفة الغربية باحثا عن التأييد والدعم لمسيرة السلام : «ألقيت سبعين محاضرة في اكثر الامكنة صعوبة ، في اماكن لا يستطيع أي شخص الذهاب اليها» . وفي كل مكان يتوقف فيه كان يعظ بالحاجة الى البدء في القيام بتقدم عملي على ارض الواقع ، حتى ولو كان ذلك يعني ان الامر سيستغرق

سنوات قبل ان يقيم الفلسطينيون دولتهم . ويتساءل : «ما الفائدة من المطالبة بدولة مستقلة والمناداة بشعارات راديكالية تتعلق بتحرير فلسطين انْ لم نكن قادرين على العيش بحرية في أريحا ؟ ... انْ كنا قادرين على العيش في أريحا ، فيمكننا على الاقل افتتاح مكاتب الدولة المستقلة ، وبعد ذلك يمكننا التفاوض على نابلس ، ورام الله ، والقدس ، وعلى قضايا أخرى» .

وقد قال لحشد من الناس ان البدء «بفترة انتقالية ، او بحكم ذاتي كامل طبقا لما وافق عليه المجتمع الدولي ، هو خطوة هامة نحو بناء الواقع الجديد» . وقال لجمهور مستمعيه : انه للمرة الاولى ستتاح لهم فرصة اتخاذ قرار يؤثر في حياتهم بشكل مباشر ، فإنْ يؤيدوا مسيرة السلام ، فان الجيش المحتل سينسحب من المدن والقرى الفلسطينية ، وستكون البلديات قادرة على اصدار صكوك ملكيات للاراضي العربية ، وسيتوقف اليهود عن بناء مستوطنات . ويبشر رضوان «بأن كلينا : الاسرائيليون والفلسطينيون يجب علينا ان نجرب بعضنا عمليا لا نظريا . اننا بحاجة الى وقت . دعونا نفعل ذلك على ارض الواقع ... اعتقد انه من الطبيعي ان تكون هناك فترة انتقالية . كيف يمكننا التحول من حالة السيولة الى حالة الغازية دون المرور عبر شيء من النار؟» .

وهو أيضا متفائل فيما يتعلق بالمستقبل ، اذ يقول : «ان كنّا نتحدث عن المستقبل القريب ، فانني أعتقد انه ستكون لنا دولة فلسطينية شبه مستقلة خلال سنتين أو ثلاث سنوات» . ويأمل ان يكون للحكم الذاتي مجلس تشريعي يعمل بمثابة البرلمان . ومع حلول عام ١٩٩٥ سيبدأ هناك تعاون يومي بين الاردن ، واسرائيل ، والفلسطينيين في «كيانهم» الجديد . ويتنبأ رضوان «بانه سيكون ايضا هناك نوع من التطبيع مع البلدان العربية» .

ورضوان لا يشعر بالقلق والخوف فيما يتعلق بخطر الاصولية الاسلامية ، فقوة حماس في المساجد كما يقول رضوان : «هناك ٣٦٢ مسجداً في الضفة الغربية وغالبيتها بأيدي حماس» لكنه يؤكد ان «معظم قوة حماس تأتي نتيجة الافتقار الداخلي للوحدة داخل فتح» . ويقول رضوان ان الاصوليين ليست لديهم جذور عميقة في النضال ضد الحكم الاسرائيلي : «فحماس ليس لها تاريخ . لقد بدأت

خلال الانتفاضة ، وفتح بدأت في سنوات الستينات» . كذلك ، فان الشعب الفلسطيني يشعر بالشك والارتياب اتجاه أي حركة تموّل من الخارج : «ان الفلسطينيين يقبلون بأي اتجاه اذا كان اتجاها فلسطينيا خالصا . فان كان مستوردا من مكان ما آخر ، فانه لن يُقبل ، وهذا هو السبب الذي يفسر سبب عدم استمرار [تعريب] القضية الفلسطينية الى الأبد . ان حركة حماس تحاول [تعريب] و [أسلمة] القضية الفلسطينية ، وذلك يعني انه سيكون من الصعوبة بمكان بالنسبة الى حماس ان تعيش لفترة طويلة» .

ويسلّم رضوان بانه من أجل ان تتنافس فتح بفاعلية ، فان على المجموعة المسيطرة في م. ت. ف. ان تخلّص نفسها من الصورة الفاسدة : «نريد الاصلاح . دعني اكون واضحا جدا : ان نسلك سلوكا حسنا . ولكن أن لا [نعرّب] قضيتنا . ان تكون لنا روابط مع الاردن أو سوريا أو لبنان أمر يختلف عن ان نكون محكومين من قبل الاردن أو سوريا أو لبنان . ولدينا قول مأثور [الرئيس يدفع الفاتورة] فمن هو رئيس حماس ؟» . ويجيب عن السؤال : «ان حركة حماس محكومة من قبل سلطات غير فلسطينية ، يعتقد البعض انها العربية السعودية ، في حين يعتقد آخرون انها بعض الدوائر في الاردن . ويعتقد فريق ثالث ان ايران تقف خلفها» . لكن سلطة حماس وقوتها سوف تضعف اذا حصل الفلسطينيون على سيطرة حقيقية على حياتهم . يقول رضوان : «اعطني شيئا من النجاح في المفاوضات ، نجاحا عمليا حقيقيا ، وسيتبعني الشعب . ان تتحدث عن إحلال السلام في الشرق الاوسط ، في حين ما تزال خروقات حقوق الانسان في المناطق المحتلة آخذة بالازدياد ، فان من الطبيعي ان تكون هناك فجوة بين النظرية والتطبيق . وهذه الفجوة ستُملأ بالراديكالية . فما الذي أوجد الراديكالية ؟ ... لقد اكتشف الناس اننا نتحدث عن السلام دون ان نُحلّ السلام ، نتحدث عن الغد لكن الغد لا يأتي أبدا ، نتحدث عن فترة انتقالية من شأنها ان تخفف معاناتهم ، ولكن ليس هناك شيء من هذا القبيل . فكيف يمكن لي ان أؤيد شخصا ما يتحدث عن شيء ما بشكل تجريدي ؟» .

ويقول ان الطريقة الوحيدة لالحاق الهزيمة بالاصوليين هي من خلال تحسين ظروف حياة ١,٧ مليون فلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة : «الناس

يعـرفـون الله من خــلال مخلوقــاته على الارض . فلو لم يكن قـد خلق شــيئا على الارض ، فان أحداً لن يؤمن به ! وهذا هو السبب الذي يجعلني اقول انه في اللحظة التي يؤمن فـيها الفلسطينيون ان الوضع يتغير على الارض ، فانهم سوف يؤيدون عملية السلام» .

ان ردم الهوة بين الأمل والواقع هو اكبر تحـد تواجـهـه فتح والفصائل الأخرى التي تؤيد المحــادثات ، كما يقـول رضوان الذي يستذكر اجتماعا انعقد في غرفة في أحـد الفنادق في عمان لدى عـودة الوفـد في طريقـه الى الضـفــة الغربية قادما من مـؤتمر مـدريد . هناك ، في التــاسع من شهر تشرين الثاني عام ١٩٩١ ، اجتمعت وفـود الفلسطينيين الثــلاثة التي يقـودها حـيدر عبد الشافي وفيصل الحسيني من أجل وضع استراتيـجـيتــهم لليـوم التالي : «كنا نحاول اتخاذ قرار بشأن ما كنّــا سنقـوله للناس حـينما نعود الى الوطن ... لقد كان الخطاب الذي ألقاه عبد الشـافي ممتازاً ، وكان المؤتمر رائعا ، ولكن ما الذي كنا سنقوله لهم عن المستقبل ؟» .

ثم حـدث شيء مــا كــان له أثره العـميق في نفس رضـوان . فبعد عبورهم جسر الــنبي قـادمين من الاردن يوم ١٠/ ١١ ، كــانت الوفـود الفلسطينيـة الثلاثة في حــافلتين مكيــفتين تنتظر الانتهاء من اجراءات التفتيش عند نقطة تفتيش اسرائيلية اقـيـمت عند مـدخل مدينة أريحا ، وهي أول مدينة فلسطينية تقع في المناطق التي تحـتلهــا اسرائيل . كــان آلاف الفلسطينيين مصطفين على جوانب الشوارع ، واقفين خلف الحواجز الخشبية التي أقيمت على عجل بهدف ضبط ذلك الحشد من الناس. كــان بعض الناس يحملون أغـصـان الزيتون ، في حين حمل آخرون طاقات الورود وأمـسك عـجـوز فلسطيني بحمامـة بيـضـاء فوق رأسه . وعندما بدأت الحافلتان التـحـرك ببطء عبر نقطة التفتيش ، اندفعت الجماهير عبر الحواجز المقامة ، واطلقت سـيــارات التــاكسي أصـوات أبواقها المنبهة (الزوامير) وعلقت اغصـان الزيتون على القـضـبــان المعـدنية الموجودة على زجاج سيارات الجيب العسكرية الاسرائيلية ، في حين أخـذ جندي اسرائيلي شــاب ينظر بدهشــة الى ما يحدث ، وأخذ الناس يهتفون باسماء أعـضــاء الوفـد ، ولوّحـوا لهم بأيديهم وهم في حـالة من الاهتياج . يقول رضــوان : «استُقبلنا وكأننا كنا ابطالا عائدين الى وطنهم من الانتصار» . في الوقت نفســه ، وثب صـبي يبلغ التــاسعة من عمره الى نافذة الباص حيث كان رضوان

جالسا . واذ تخوف رضوان من ان يسقط الصبي من نافذة الباص الذي كان يسير ببطء ، عمد رضوان الى رفعه من خلال فتحة النافذة ، وادخله الى الباص ، وأجلسه في حضنه . ثم قبّل رضوان الصبي ، الا ان الصبي ابتعد عن رضوان قائلا : «ابو عياش ، هل صحيح ان فلسطين حرة الآن ؟ وهل صحيح ان فلسطين عادت لنا ؟» . كانت الكلمات قد خانت رضوانا . وأخيرا ، أجاب رضوان الصبي : «نعم ، ستكون فلسطين حرة ! ولكن علينا ان ننتظر حتى تصبح كبيرا بما فيه الكفاية لتستمتع بذلك !» . وطلب رضوان الى سائق الباص ان يتوقف ، وبلطف وعناية أنزل الصبي من النافذة . واذ عاد الى الاسترخاء في مقعده ، أخذ يفكر في السؤال الذي طرحه الصبي ، غير واع لما يحدث حوله من جلبة . ويقول رضوان : لقد كان ذلك السؤال بمثابة صدمة كهربائية ، ودعوة غليظة للاستيقاظ من أحلام مدريد : «انني افكر في ذلك السؤال كل يوم تقريبا ... وأسأل نفسي : [ما الذي نفعله؟ هل سنحرر فلسطين فعلا من خلال المحادثات]؟» . ويعترف رضوان ان الصبي البالغ تسع سنوات من العمر «قد هزّ مفاهيمي ، وبدات أعيد تقييم كل شيء» .

ويقول رضوان ان الصبي هو انموذج لموقف الجيل القادم : «حيثما تمشي في الشارع اليوم ، يسالك الناس [هل تعتقد ان هذا الأمر جدي ؟] انه مزيج من الريبة والأمل ، من الرغبة والتردد . باستطاعتي الوثوب فوق هذه الحالة النفسية ان كان هناك شيء ما في يدي» . انه ليس الحل الأفضل ، ولكنه الاجابة الوحيدة على الصبي الذي وثب الى الباص : «ان تكن لدينا فترة انتقالية ، فانه يمكنني ان اقول للناس [انظروا ، لدينا مرافقنا الصحية ، ومؤسساتنا التعليمية ، والاسرائيليون لا يتدخلون بنا ، انهم ينسحبون من المناطق المأهولة ، من غزة ونابلس واريحا . تلك هي الخطوة الاولى» . ويضيف رضوان ، ويبدو كأنه يحاول اقناع نفسه بالاضافة الى اقناع أبناء شعبه : «ابدأوا ببناء ايديولوجيتكم من خلال الاعمال . ولكن اذا كنتم تتحدثون عن أحلام وردية ، والناس ما يزالون يرون ان السجون هي السجون نفسها ، وان اطلاق الرصاص في الهواء ما يزال كما هو ، وان حظر التجول ما يزال كما هو ، واننا نظهر على شاشات التلفزيون بربطات العنق وببيانات لطيفة ، فان لا أحد سوف يصدقنا . لقد ذهبنا الى مدريد ونحن نحمل جراحات عمرها سبعون عاماً» .

لقد تعلّم الفلسطينيون دروسا كثيرة منذ ان أُوجد الشرق الاوسط الحديث عند نهاية الحرب العالمية الاولى . فقد تحَطمت أحلام مستحيلة التحقيق بانهم ذات يوم سيدمرون اسرائيل ، ويعودون الى بيوتهم في فلسطين . ويقول رضوان : الاحلام ستستمر لكن حان الاوان من أجل جرعة كبيرة من الواقعية . ان كان ثمة شيء سيتغير الآن ، فانه لا يجب على أحد ان يعرض اكثر مما يمكنه/يمكنها ان يقدم . ورضوان أبو عياش على قناعة بان الحياة في الضفة الغربية وفي قطاع غزة ستتحسن شيئا فشيئا . لكن التحدي الذي يواجهه كزعيم فلسطيني مستقبلا واضح تماما . انه يختلف عن المهمة التي واجهها ياسر عرفات خلال السنوات الاربعين الاخيرة . ان رئيس م. ت. ف. وفصائل حرب العصابات التي قادها قد وضعوا الشعب الفلسطيني على خريطة الوعي الدولي ، وان على الجيل التالي ان يقيم الدولة ، وقبل كل شيء كما يقول رضوان : «يجب ان نكون جديرين بالثقة» والبقية الباقية تعتمد على الاسرائيليين «فهم الوحيدون الذين سيقررون فيما اذا كانت آمال تحقيق السلام ستصبح حقيقة» .

الفلسطينيون الجدد
الجيل الناشئ من القادة

كتاب (الفلسطينيون الجدد) نلقي نظرة أقرب على جيل القادة هذا، وهو جيل لديه الكثير، الامر الذي يجعله فريدا فعلاً. انه جيل وصل الى مرحلة النضج السياسي تحت الاحتلال الاسرائيلي. وعلى المرء ان يفكر فقط في النفي الاجباري لمئات الآلاف من الفلسطينيين من الكويت بعد حرب الخليج: لقد كانوا المهندسين المعماريين، وعمال البناء الذين حولوا صحراء بدائية الى واحات يانعة لمجتمع معاصر.

ان سيرة حياة اثني عشر فلسطينيا تهدف الى أخذ المراقب خطوة أقرب نحو تحسس واقع الحياة في المناطق المحتلة، ونحو المشاركة في بعض خيبات الامل، بالاضافة الى الانتصارات البسيطة، ونحو فهم الاقتناع الراسخ الذي يأتي حينما يكون النضال شخصياً جداً. ان هؤلاء الفلسطينيين الاثني عشر قضوا فترة يفاعتهم كلها تحت الحكم العسكري الاسرائيلي، وبالتالي فانهم يختلفون عن أهلهم الذين يتذكرون الحياة قبل اقامة دولة اسرائيل عام ١٩٤٨، ويختلفون عن ابنائهم الذين لم يعرفوا أي واقع آخر غير الاحتلال الاسرائيلي. فبعضهم (مثل فيصل الحسيني، زهيرة كمال، سري نسيبة، رياض المالكي، وحنان عشراوي) من منطقة مثلث القدس - رام الله - بيت لحم، وبعضهم (مثل سامي الكيلاني، ممدوح عكر، سامح كنعان، وغسان الخطيب) من نابلس وشمال الضفة الغربية، في حين ان (عبد العزيز الرنتيسي) من قطاع غزة.

المملكة الاردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم الشباب ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٦٣٦١٨٨
فاكس ٦٥٧٤٤٥ ◆ [illegible] العام ١٩٩١م
الغلاف: زهير أبو شايب